تاريخ الحروب الصليبية

1096 - 1291 م

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الاسكندرية
وعميد كلية الأداب بجامعة بيروت العربية



دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية
وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية سابقاً

تاريخ الحروب الصليبية

١٠٩٥-١٢٩١م

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير ـ الازاريطة ـ ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس ـ ت ٥٩٧٣١٤٦



تاريخ الحروب الصليبية

١٠٩٥-١٢٩١م



تاريخ الحروب الصليبية

١٠٩٥-١٢٩١م

دكتور

محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الإسكندرية

وعميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية سابقاً

٢٠٠٠

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦



بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أرواح الشهداء والمجاهدين

الذين واجهوا الحروب الصليبية.

إلى روح الناصر صلاح الدين الأيوبي.

أهدي هذا الكتاب

دكتور محمد سعيد عمران



محتويات الكتاب

الخرائط

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ترجع أهمية تاريخ الحروب الصليبية بالنسبة لنا بعامة ولدارس التاريخ بخاصة إلى أنها تمثل تجربة من تجارب تاريخ العروبة والإسلام جميعاً سواء في المشرق أو في المغرب، وهي تجربة متعددة الجوانب، خطيرة، مليئة بالدروس والعظات مما يتطلب منا أن نتفحصها ونقلب صفحاتها من وقت لآخر لنستفيد من نتائج أخطاء الماضي ولنواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها، ولنتفهم أخطار المستقبل ونعمل على تجنبها. وبذلك نحفظ للعرب حقوقهم، ونعيد للعروبة كيانها، ونضمن للأجيال التالية حياة حرة كريمة في أرض وطننا الغالي العزيز.

والحقيقة أن وطننا العربي تعرض إبان الحروب الصليبية للعديد من المؤامرات، مؤامرات من الغرب الأوروبي لسلب العرب حريتهم وأراضيهم وشاركه في ذلك الامبراطورية البيزنطية في مراحل متعددة، ومؤامرات من الصليبيين بالشام ضد وحدة الصف العربي، وأخيراً مؤامرات من بعض الحكام المسلمين أنفسهم ضد إخوانهم في الوطن والدين. ولكننا نتساءل هل نجحت كل هذه المؤامرات أو جانب منها وإلى أي حد كان النجاح أو الفشل. أقول إن نتيجة أي عمل تقاس بما وصل إليه من نجاح أو فشل. فالحروب الصليبية انتهت بعد زمن طويل بالفشل رغم الجهود الجبارة التي حشدها الدخلاء وغربت عليها الشمس بطرد الصليبيين تماماً من الشام وتطهير أرضنا الطيبة من أطماع الطامعين وعودة البلاد إلى أهلها الأصليين. وأياً كانت الأسباب التي

أدت إلى هذا الفشل، فيجب علينا أن نذكر أهمها بأمانة المؤرخ ونقول إن في مقدمة هذه الأسباب كان وعي الشعب العربي. وإن الدارس لتاريخ الحركة الصليبية يستوقف نظره أحياناً نجاح الصليبيين في تفرقة الصف العربي، ولكن ذلك لم يصمد أمام إيمان العرب بوحدة الهدف وإيمانهم بقضيتهم وتحرير أراضيهم.

والواقع إن أهم ما يسترعي الإنتباه عند دراسة أحداث الحركة الصليبية، هو ذلك الترابط القوي بين أجزاء الوطن العربي، وتلك الإستجابة السريعة التي أحس بها كل عضو من اعضاء ذلك الجسد الكبير نحو بقية الأعضاء. فعندما تحرك الصليبيون من أوروبا لغزو الشام حتى خرجت الجيوش من العراق لملاقاة الغزاة المعتدين، ولا يكاد الصليبيون يتحركون صوب مصر حتى تسرع الجيوش الشامية للدفاع عنها، ولا يكاد صلاح الدين الأيوبي يتولى حكم مصر حتى يسخر كل مواردها وإمكانياتها لطرد الصليبيين من معاقلهم في الشام، ولا يكاد رينو دي شاتيون (أرناط) حاكم اقطاع الكرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الأماكن المقدسة بالحجاز حتى تشيد السفن في مصر لدفع الخطر عن الحرمين. يضاف إلى ذلك أنه عندما وصلت الأخبار إلى القاهرة بأن لويس التاسع ملك فرنسا نزل في عام ١٢٧٠ م، على رأس حملة صليبية على تونس حتى أعدت الإجراءات السريعة لدفع عادية البغاة والاحتفاظ للمغرب العربي بعروبته وحريته. وهكذا ظل التجاوب سريعاً وكاملاً بين جميع أجزاء الوطن العربي في المشرق والمغرب، والكل شعب واحد يحس بإحساس واحد في السراء والضراء، بحيث لا يئن عضو إلا استجابت له بقية الأعضاء في سرعة وإيمان. هذا هو السر في انتصار العرب في المعركة الصليبية، ونجاحهم في طرد الدخلاء من أراضيهم وفشل الصليبيين آخر الأمر وحملهم عصاهم على كاهلهم ورحليهم يجرون وراءهم أذيال الهزيمة والعار.

دكتور محمود سعيد عمران

تعريف الحركة الصليبية:

تعددت الآراء حول تعريف الحركة الصليبية، ومرجع ذلك إلى الزاوية التي نظر منها المؤرخون إليها، فرأت مجموعة من المؤرخين إن الحروب الصليبية تمثل حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدي الذي ظهر بجلاء في الصراع الذي دار بين الفرس واليونانيين، ثم بين الفرس والامبراطورية الرومانية والبيزنطية. ويمكن تفسير أسباب هذا الصراع وربطه بالعامل الحضاري باعتباره صراعاً بين حضارتين مختلفتين وليس إلى عوامل دينية، حيث أن هذا الصراع دار في وقت كان الشرق والغرب يعتنقا الديانة الوثنية. ويرى أنصار هذا الرأي أن النزاع بين الشرق والغرب ظل كالبركان يهدأ حيناً ويثور حيناً آخر حتى اشتدت ثورته في نهاية القرن الحادي الميلادي، ووجد منفساً له في الحروب الصليبية وزاد من حدة الصراع الخلاف الديني بين الإسلام والمسيحية.

ورأى فريق آخر من المؤرخين وعلى رأسهم المؤرخ كنج King أن الحركة الصليبية ليست في حقيقة أمرها سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي صاحبت إنهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب عام ٤٧٦ م. ذلك أن سقوط الامبراطورية أعقبته موجات من الهجرات تفاوتت في مداها واتجاهاتها وأثرها. فقد كان يخال للناس في غرب أوروبا إن الامبراطورية هي الدعامة الكبرى التي لا يمكن للعالم أن يحيا، بدونها، ومن هنا كان مبلغ الفزع الذي إنتاب غرب أوروبا بعد سقوط الامبراطورية، ونادى البعض أن ذلك يعني نهاية العالم. يضاف إلى ذلك أن تدفق الهجرات داخل الامبراطورية ترتب عليه قيام مجتمع جديد سادت فيه المسيحية ودعمه الجرمان بدماء جديدة وحيوية دافقة ظهر أثرها في معظم الهجرات التي اتجهت إلى إنجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا وشمال إفريقيا. وعلى هذه الأسس ينادي بعض المؤرخين بأن الحركة الصليبية ليست في حد ذاتها سوى الحلقة الأخيرة في سلسلة الهجرات التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية

والحركة الصليبية في نظر فريق ثالث من المؤرخين ليست إلا انتفاضة كبرى نتجت عن عملية الإحياء الديني التي قامت في أوروبا في القرن العاشر الميلادي وبلغت ذروتها في القرن الحادي عشر. ذلك أن الحركة الكلونية في حقيقة أمرها حركة إحياء ديني بكل ما في العبارة من معنى، ترتب عليها عودة البابوية إلى سطوتها القديمة وإثارة نوع من الحماسية الدينية في الغرب بوجه عام، الأمر الذي ترتب عليه ظاهرة الحج الجماعي للأراضي المقدسة. وليست الحرب الصليبية إلا استمراراً لظاهرة الحج الجماعي إلى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الاسلوب، وهو أن الحج أصبح حربياً بعد أن كان سلمياً. ويدلل رواد هذه النظرية بأن مجموعة من الحجاج خرجت في عام ١٠٦٤م تحت زعامة أحد الأساقفة قد بلغوا سبعة آلاف، حمل بعضهم الأسلحة للدفاع عن أرواحهم من مخاطر الطريق. أما التصور في الاسلوب فيرجع إلى الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوروبي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد إستيلاء السلاجقة على بيت المقدس عام ١٠٧١م، ثم إستيلائهم على مدينة إنطاكية سنة ١٠٨٥م، وطرد البيزنطيين منها، الأمر الذي جعل الغرب الأوروبي يؤمن بضرورة إستخدام القوة لتأمين عملية الحج من أوروبا إلى الأراضي المقدسة فكانت الحروب الصليبية.

ونادى جانب من المؤرخين بأن الحروب الصليبية هي الوسيلة التي تحايل بها الغرب الأوروبي للخروج من أنماط العصور الوسطى والانطلاق إلى حياة أوسع وأرحب، ذلك أن الاتصال الذي تم بين الشرق والغرب أظهر لأهل أوروبا أن الحياة أوسع مما يعتقدون، وبالمقارنة بين ما يحياه أهل الشرق وأهل غرب أوروبا شعر الأوروبيون بضيق الحياة وشدة وطأة الكنيسة ورجالها، وشعر الناس برغبة في التخلص مما فرض عليهم من قيود والتطلع إلى حياة أفضل. وكان من المتعذر في ظل الأوضاع التي أحاطت بأهل غرب أوروبا في ذلك الوقت تحقيق مثل هذه الأماني إلا بالمشاركة في حركة ضخمة مثل الحركة الصليبية تدعو لها البابوية وتبشر بها الكنيسة. وفي الوقت نفسه تمكنهم من

الخروج إلى أرض واسعة بغية الوصول إلى حياة أفضل. وبمعنى آخر كانت الحروب الصليبية خير فرصة أتيحت للغربيين للجمع بين الخلاص في الدنيا والثواب في الآخرة.

بعد هذا العرض السريع لأهم الآراء التي دارت حول تعريف أو مفهوم أو ماهية الحركة الصليبية يمكن القول بأنها حركة صليبية استعمارية ولدت في غرب أوروبا واتخذت شكل هجوم مسلح على بلاد المسلمين وبخاصة في الشرق الأدنى الإسلامي. وجذور هذه الحركة نابع من الأوضاع الدينية والإجتماعية والفكرية والإقتصادية والسياسية التي سرت في غرب أوروبا في القرن الحادي عشر الميلادي واتخذت من الدين ستاراً لتحقيق أهدافها



أسباب الحروب الصليبية

الكلمة الانجليزية للحرب الصليبية هي Crusade وهي كلمة مشتقة من اللفظ الاسباني Cruzada أي عليه علامة الصليب . وأسباب الحروب الصليبية كثيرة ومتداخلة ومعقدة، والحقيقة أن الحروب الصليبية تعتبر مرحلة هامة في تاريخ أوروبا العصور الوسطى والشرق الأدنى الإسلامي، ففي الحروب الصليبية تجلى الصدام المسلح وظهر بوضوح بين العالم الإسلامي في الشرق والعالم المسيحي في الغرب. وفي هذه الحروب نلاحظ أيضاً الحماس الديني الكبير في الإسلام والمسيحية، وظهر كل ما في الاقطاع من فروسية وقوة وفتنة وبهجة وشاعرية. لقد ظلت هذه الحروب حوالي مائتي عام تقريباً وبالتحديد الفترة الممتدة من ١٠٩٥ - ١٢٩١ م ومدة أكثر من ذلك في أماكن أخرى، منها على سبيل المثال الحرب التي دارت بين المسلمين وغرب أوروبا في الأندلس والحملات الصليبية المتأخرة بعد انهيار الكيان الصليبي في بلاد الشام عام ١٢٩١ م.

وتنقسم أسباب الحروب الصليبية إلى أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، وأدخل الغرب الأوروبي - وعلى رأسه البابوية - العامل الديني ودمجه بكل هذه الأسباب مجتمعة.

ومن الأسباب السياسية أن الحكم الإسلامي للبلاد العربية كان مقسماً إلى خلافات ودويلات. فقد كانت الخلافة العباسية السنية في بغداد وقد انتابها

الضعف بعد الحركات الانفصالية التي سادتها، ثم سيطرة بني بويه، ثم السلاجقة.
وفي مصر كانت الخلافة الفاطمية الشيعية التي انتابها الضعف أيضاً وكان تحت سيطرتها فلسطين زمن قدوم الحملة الصليبية الأولى. أما شمال الشام فقد كان دويلات صغيرة غير موحدة. ورغم هذا الانقسام داخل العالم الإسلامي فقد كان الفاطميون قد حكموا فلسطين حكماً كريماً سمحاً استمتعت فيه كافة الأديان والطوائف بحرية واسعة في ممارسة الشعائر الدينية إذ استثنيا بعض الفترات القليلة. ومن ذلك أن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ٩٩٦ـ ١٠٢٠ م. دمر في عام ١٠١٠ م كنيسة الضريح المقدس، ولكن المسلمين أعادوا بناءها مرة أخرى في عام ١٠٢٧ م في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر ١٠٢٠ - ١٠٣٥ م. وقد وصف الرحالة ناصر خسروا المتوفي عام ١٠٦١ م هذه الكنيسة بقوله، أنها بناء واسع الجنبات تتسع لثمانية آلاف شخص، بذل في بنائها أعظم ما يستطاع من الخدمة والمهارة، وزين كل مكان في داخلها بالنسيج الحريري البيزنطي المطرز بخيوط من الذهب، ورسم فيها السيد المسيح عليه السلام راكباً حمار. ويضيف ناصر خسرو بأنه كان في القدس كنائس أخرى عديدة، وكان في وسع الحجاج المسيحيين أن يدخلوا الأماكن المقدسة بكامل حريتهم.

وبعد ما سيطر الأتراك السلاجقة على فلسطين ومنها بيت المقدس عام ١٠٧٠ م أخذ الحجاج المسيحيون يتحدثون عما يلقون من متاعب بعد عودتهم إلى أوطانهم وشاع في أوروبا في هذه المرحلة أن أحد رجال الدين الغربيين كانت له شهرته في الحروب الصليبية هو بطرس الناسك Peter the Hermit حج إلى بيت المقدس وتقابل مع سمعان Symon بطريق بيت المقدس عام ١٠٨٨ م وقد حمل الأول رسالة من الأخير إلى البابا أوربان Urban II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) تحمل ما يعانيه المسيحيون من اضطهاد ويستنجد به لإنقاذهم.

ومن الأسباب السياسية أيضاً ما لحق بالامبراطورية البيزنطية من ضعف

شديد. والحقيقة أن الامبراطورية وعاصمتها القسطنطينية التي تعتبر البوابة الشرقية لأوروبا ظلت تواجه الامبراطورية الفارسية ثم القوات الإسلامية لفترة طويلة وتصد أيضاً جحافل الجرمان. وفي هذه المرحلة السابقة للحروب الصليبية بدأ الضعف يدب في أوصالها خاصة بعد انفصال الكنيسة الغربية عن الشرقية عام ١٠٥٤ م. وبدأت عناصر البجناكيه Patznaks والكومان Comans والبلغار في مهاجمتها. وكان أشد العناصر خطورة الأتراك السلاجقة الذين هزموا قوات الامبراطورية بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٧ - ١٠٧١ م) في عام ١٠٧١ م في معركة مانزكرت الشهيرة التي كاد يقضى فيها على الجيش البيزنطي، وتابع السلاجقة انتصارهم بالاستيلاء على إنطاكية البيزنطية عام ١٠٨٥ م ثم توغلوا في آسيا الصغرى حتى وصلوا إلى نيقية واستولوا عليها واتخذوها عاصمة لهم، وبذلك أصبح هؤلاء السلاجقة على مشارف بحر مرمرة وأخذو يتطلعون إلى العاصمة البيزنطية القسطنطينية. ولما كانت الامبراطورية في مواجهة السلاجقة فقد وافق الامبراطور الكسيوس الأول Alexius I (١٠٨١ - ١١١٨ م) على عقد صلح مهين، وقد دفع كل هذا الامبراطور إلى الكتابة إلى البابا أوربان الثاني وأرسل إليه برسالة وصلت إليه أثناء انعقاد مجلس بياكنزا Piacenza عام ١٠٩٥ م يستنجد وهو الامبراطور الأرثوذكسي بأوروبا الكاثولكية لتساعده على صد هجمات السلاجقة. ومما جاء في الرسالة وأنه من الحكمة محاربة الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى بدلا من انتظارهم حتى يتقدموا إلى أوروبا عبر البلقان إلى عواصم أوروبا. وقد أثبتت البحوث التاريخية الحديثة عدم صحة هذه الرسالة.

وعن الأسباب الإجتماعية للحروب الصليبية نقول أن طبقة الفلاحين في أوروبا كانت تكون نسبة كبيرة من المجتمع الأوروبي الإقطاعي. وكانت هذه الطبقة تعيش حياة قاسية وتفتقر للأمن والاستقرار. يضاف إلى ذلك أن الأراضي الزراعية قد خربت وأصابها البوار من جراء هجمات العناصر الشمالية، كما خربت الجسور وغطت المياه جانباً من هذه الأراضي. كما أن النبلاء كانوا

يرفضون تحويل أراضي غاباتهم إلى أراضي زراعية ذلك لرغبتهم في الاحتفاظ بهذه الغابات خاصة بهم للصيد واللهو . وبذلك لم تعد موارد الأراضي تكفي لسد حاجات السكان في الوقت الذي زاد فيه عدد الأهالي . فإذا أضفنا إلى هذا كله أن القرى كانت خالية من الأسوار وبذلك أصبحت عرضة للنهب والسطو من بعض الخارجين عن القانون ، أو أثناء الحروب الأهلية المحلية التي سادت الحكم الاقطاعي .

كما وجدت عوامل خاصة شجعت طبقة النبلاء على الاشتراك في الحروب الصليبية . ذلك أن الاقطاعات في غربي أوروبا لم تعد تكفي أفراد العائلات النبيلة المتزايدة خاصة بعد انتشار تطبيق النظام الذي عرف باسم Primogeniture الذي ينص على منح أكبر أولاد السيد الإقطاعي أقطاعه وامتيازاته بعد وفاة الوالد . وبذلك يصبح على باقي الأبناء السعي في اتجاه آخر للبحث عن اقطاعات خاصة لهم . هذا وقد تضافرت التنبوءات الدينية مع الدوافع السابقة في جعل الهجرة أو الاشتراك في الحركة الصليبية أمراً مرغوباً فيه ، فقد انتشرت في هذا العصر التنبوءات بقرب ظهور السيد المسيح مرة أخرى ، وكان على كل شخص مسيحي أن يسرع بالتوبة قبل ضياع الفرصة ، وقد قالت الكنيسة بإمكان تحقيق ذلك بالاشتراك في الحج والحرب الصليبية المقدسة .

وفيما يتعلق بالأسباب الاقتصادية فهي أن المدن الايطالية ـ وهي بيزا وجنوه وأمالفي والبندقية ـ كانت راغبة في توسيع رقعة تجارتها ، ولعل ما دفعها إلى ذلك هو سيطرة النورمان على صقلية وجنوب ايطاليا بعد أن كانت تحت حكم المسلمين (١٠٦٠ ـ ١٠٩١ م) ، وبعد أن نجحت القوات المسيحية في شمال الأندلس في انتزاع جانباً من المسلمين منذ عام ١٠٨٥ م وما بعدها ، كل هذا جعل للقوى المسيحية سيطرة على تجارة البحر المتوسط بصورة كبيرة . وقد أدى ذلك إلى ثراء المدن الايطالية وأصبحت قوية لأن في هذه المدن كانت تتجمع تجارة شمال أوروبا القادمة من البلاد الواقعة وراء نهر الألب . ومن هنا حاولت هذه المدن التوسع في تجارتها على حساب الوجود الإسلامي في الجزء

الشرقي من البحر المتوسط أي في سواحل بلاد الشام ومصر.

وإذا كان ما سبق هو موجز للأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية التي سبقت الحروب الصليبية فإن فكرة محاربة المسلمين واستيلاء أوروبا على بلادهم هي فكرة قديمة دارت في عقول بعض الباباوات منذ قرن قبل الحروب ذاتها ، فقد دعا البابا سلفستر الثاني Sylvester II (٩٩٩-١٠٠٣م) العالم الغربي لإنقاذ بيت المقدس، ونزلت حملة فاشلة عام ١٠٠١ م، ولعل ذلك إرتبط بهدم الخليفة الحاكم لكنيسة القيامة، كما أن البابا جريجوري السابع Gregory VII (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) قال «إن تعريض حياتي للخطر في تخليص الأماكن المقدسة أفضل عندي من حكم العالم بأسره» ولعل ما دفعه إلى ذلك الصراع الذي قام بينه وبين الامبراطور هنري الرابع Henry IV (١٠٥٦ - ١١٠٥ م)، وأنه أراد بذلك أن يكسب القوى المسيحية إلى جانبه.

ولكن البابا أوربان الثاني دخل مرحلة التنفيذ ودعا إلى مجلس ديني انعقد في بياكنزا في مارس عام ١٠٩٥ م فجر فيه فكرة الحركة الصليبية، ثم ظل يتجول في أوروبا بعد المؤتمر لاستطلاع رأي الزعماء ويحث سبل المعونة للمشروع الكبير وإعلان الحرب على المسلمين. ولعل ما دفعه إلى هذه الجولة هو العمل على حسن تنفيذ فكرته وضمان نجاحها وإلا هبطت كرامة أوروبا إلى الدرك الأسفل.

وبعد عدة أشهر انعقد المجلس الشهير والتاريخي في فرنسا بمدينة كليرمونت Clermont في نوفمبر من العام نفسه (١٠٩٥ م)، ورغم شدة البرودة في هذا الوقت إلا أن آلاف الناس من أنحاء أوروبا هرعوا إلى المدينة انتظاراً لنتائج المؤتمر، وقد أقام القادمون خيامهم في العراء وقد امتلأت قلوبهم بالحماسة. وفي وسط هذا الجمع الكبير اعتلى البابا منصة وخطب فيهم أقوى الخطب شهرة في تاريخ العصور الوسطى، ومما جاء في هذا الخطبة.

يا شعب الفرنجة يا شعب الله المحبوب المختار. . . لقد جاءت من

بلاد فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباء محزنة تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيحيين، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم. وهم يهدمون المذابح في الكنائس، بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال بيزنطة، وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين. على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم - يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخر بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ الا فليكن لكم من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم - أمجاد شارلمان وعظمته، وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم - فليثر همتكم ضريح المسيح المقدس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة لوثت ودنست. لا تدعوا شيئاً بكم من إملاككم أو من شؤون أسركم.

وأضاف البابا قائلاً: ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنوها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقمم الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الأهلية. طهروا قلوبكم إذن من الحقد، واقضوا على ما بينكم من خصام، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم. إن القدس أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج. إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن فهبوا لإنقاذها، وقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات.

وبهذه الكلمات نجح البابا في إلهاب حماس المحتشدين فعلت أصواتهم بعبارة تلك إرادة الله Dieu Li Volt. وردد اربان هذا النداء ودعاهم

إلى أن يجعلوه نداءهم في الحرب، وأمر الذاهبين إلى الحرب الصليبية أن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم، ويقول المؤرخ وليم أف مالمسبوري William of Malmesbury.

«وتقدم بعض النبلاء من فورهم، وخروا راكعين بين يدي البابا، ووهبوا أنفسهم وأموالهم لله» وحذا حذوهم آلاف من العامة، وخرج الرهبان والنساك من صوامعهم ليكونوا جنود السيد المسيح بالمعنى الحرفي لهذا اللفظ لا بمعناه المجازي.

وانتقل البابا المتحمس إلى مدن أخرى فزار مدينة تور Tour، وبوردو، وتولوز، ومنبلييه، ونميز Nimes وغيرهما، وظل تسعة أشهر يخطب داعياً إلى الحرب الصليبية. ولما بلغ روما بعد أن غاب عنها سنتين، استقبلته بالترحاب أقدم مدن العالم المسيحي، وأخذ على عاتقه أن يحل جميع الصليبيين من جميع القيود التي تعوقهم عن الانضمام إلى المقاتلين. ولم يلق في عمله هذا مقاومة جدية، فحرر رقيق الأرض، وحرر التابع الإقطاعي طوال مدة الحرب مما عليه من الولاء لسيده، ومنح جميع الصليبيين ميزة المحاكمة أمام المحاكم الكنسية لا أمام المحاكم الاقطاعية، وضمن لهم مدة غيابهم حماية الكنيسة لأملاكهم. وأمر بوقف جميع الحروب القائمة بين المسيحيين، ووضع مبدأ للطاعة يعلو على قانون الولاء الاقطاعي، وهكذا توحدت أوروبا كما لم تتوحد في تاريخها كله، ووجد أوربان نفسه السيد المطاع - من الوجهة النظرية على الأقل - لملوك أوروبا على بكرة أبيهم. وسرت روح الحماسة في أوروبا كمالم تسر فيها من قبل أثناء هذا الاستعداد المحموم للحرب المقدسة.



الفصل الأول

الحملة الصليبية الاولى
١٠٩٥ - ١٠٩٩

وبعد خطبة البابا أوربان وقيام رجال الدين بالدعوة للحملة تجمعت أعداد لا حصر لها تحت لواء الحرب تدفعها مغريات كثيرة، منها أن كل من يقتل في الحرب قد وعد بأن تغفر له جميع ذنوبه، كما أذن البابا لإرقاء الأرض أن يغادروا الأراضي التي كانوا مرتبطين بها، وأعفي السكان من الضرائب وأجلت ديون المدينين على أن يؤدوا فائدة نظير هذا التأجيل. وتوسع البابا في سلطاته توسعاً كبيراً فأطلق سراح المسجونين وخفف أحكام الإعدام عن المحكوم عليهم بها إذا خدموا طوال حياتهم في فلسطين، وانضم آلافاً من المشردين إلى الحرب المقدسة، من الأتقياء المخلصين ليخلصوا الأرض التي ولد فيها السيد المسيح، منهم رجال سئموا الفقر الذي كانوا يمانونه، والذي ظنوا أن لا خلاص لهم منه، ومنهم المغامرون التواقون إلى الاندفاع في مغامرات جريئة في بلاد الشام، ومنهم الشباب الذين يرجون أن تكون لهم اقطاعات في تلك البلاد، ومنهم التجار الذين يبحثون عن أسواق لبضائعهم، والفرسان الذين غادر أرضهم أرقاؤها فأصبحوا لا عمل لهم، ومنهم ذوو النفوس الضعيفة الذين خافوا أن يتهمهم الناس بالجبن وضعف الإيمان.

ونشطت الدعاوي المألوفة في الحروب فأخذت تشيع وتؤكد الاضطهاد الذي يلقاه المسيحيون في فلسطين، والمعاملات الوحشية التي يلقونها على أيدي المسلمين، وكلها أبعد ما تكون عن العقيدة الاسلامية، فكان المسلمون يوصفون بأنهم يعبدون تمثالاً للنبي محمد، وأخذ الجهال يقولون:

إن النبي قد أصابته نوبة صرع التهمته في أثنائها الخنازير البرية. ورويت قصص خرافية عن ثروة الشرق، وعن الغانيات العربيات وهن ينتظرن الرجال البواسل.

الحملة الشعبية:

وهذه الدوافع المختلفة لا يمكن أن تجتمع من أجلها جموع متجانسة يستطاع إخضاعها لنظام عسكري واحد. وقد بلغ من أمر هذه الجموع أن النساء والأطفال أصرّوا في كثير من الحالات على الانضمام إلى صفوف الحرب المقدسة ليقوم النساء بخدمة أزواجهن .والأبناء بخدمة آبائهن، ولعلهم كانوا على حق في هذا الاصرار لأن العاهرات سرعان ما تطوعن لخدمة المحاربين. وكان أوربان قد حدد لبدء الرحيل شهر أغسطس من عام ١٠٩٦ م، ولكن الفلاحين القلقين الذين كانوا أوائل المتطوعين لم يستطيعوا الانتظار إلى هذا الموعد، فسار جحفل منهم عدته نحو إثني عشر ألفاً ،لم يكن من بينهم إلا ثمانية من الفرسان، وبدأوا رحلتهم من فرنسا في شهر مارس بقيادة بطرس الناسك Peter the Hermit ولتر المفلس Walter the Penniless وقام جحفل آخر - ربما كان عدته ٥٠٠٠ من المانيا بقيادة ألقس جتشوك Gattschalck، وزحف ثالثاً من أرض الرين بقيادة الكونت إمكو الليزنجي Count Emicoh of Le·s ingen. وكانت هذه الجموع غير النظامية هي التي قامت بأكثر الاعتداءات على يهود المانيا وبوهيميا، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد، وانحطت حتى تحولت إلى وقت ما وحوشاً كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح.

وكان المجندون قد حملوا معهم بعض الأموال، لكنهم لم يجيئوا إلا بالقيل الذي لا يستطيع إطعامهم، وكان قادتهم تعوزهم التجربة فلم يعدوا العدة لتمويلهم، وقدر كثيرون من الزاحفين المسافة بأقل من قدرها الصحيح، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم في لهفة - أليست هذه القدس ولما فرغت أموالهم، وعضهم الجوع، اضطروا إلى نهب ما في طريقهم من الحقول والمنازل،

وسرعان ما أضافوا الفجورإلى السلب والنهب. وقاومهم أهل البلاد مقاومة عنيفة، وأغلقت بعض المدن أبوابها في وجوههم، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها فورا، ولما بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية، بعد أن نفذت أموالهم، وهلك منهم من هلك بفعل الجوع أو المرض أو المعارك التي خاضوها في الطريق، رحب بهم الامبراطور الكسيوس، ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام، فانطلقوا في أرباض المدينة، ونهبوا الكنائس، والمنازل، والقصور.

وأراد الامبراطور الكسيوس أن ينقذ عاصمته القسطنطينية من هذه الجموع الفتاكة التى أهلكت الحرث والنسل، فأمدها بالسفن التي عبرت بها البسفور، وأرسل إليها المؤن، وأمرها بالانتظار حتى تصل إليها قوات أخرى أحسن منها سلاحاً وعتاداً. ولكن الصليبيين لم يستمعوا إلى هذه النصائح، سواء كان ذلك لجوعهم أو لقلقهم ونفاذ صبرهم، فزحفوا على نيقية. وخرجت عليهم قوة منظمة من الأتراك السلاجقة، كلها من مهرة الرماة، وأبادت هذه الطليعة من فرق الحرب الصليبية الأولى فلم تكد تبقي على أحد منها. وكان ولتر المفلس من بين القتلى، وأما بطرس الناسك فكان قد ضاق من تصرفات هذه الجموع التي لا تخضع لقيادة، وعاد قبل المعركة إلى القسطنطينية.

الحملة النظامية

وبينما كانت هذه الحوادث تجري في مجراها كان الزعماء والاقطاعيون الذين حملوا الصليب قد جمع كل منهم رجاله في إقليمه. ولم يكن من بين هؤلاء الزعماء ملوك، فقد كان فيليب الأول ملك فرنسا، ووليم الثاني ملك انجلترا، وهنري الرابع ملك المانيا، كان هؤلاء جميعاً مطرودين من رحمة الكنيسة حين كان أوربان الثاني يدعو إلى الحرب الصليبية، ولكن كثيرين من الأشراف انضموا إلى صفوف المقاتلين، وكانوا كلهم تقريباً من الفرنسيين أو الفرنجة. وبهذا كانت الحملة الصليبية الأولى في الأغلب الأعم مغامرة

فرنسية، ومن أجل هذا ظل الشرق الأدنى الإسلامي إلى هذا اليوم إذا ذكر غربي أوروبا سماه بلاد الفرنجة (الإفرنج)، وكان الدوق جودفري Godfrey حاكم مدينة بويون Bouillon (وهي مقاطعة صغيرة في بلجيكا) يجمع بين صفات الجندي والراهب ـ كان شجاعاً محنكاً في الحرب، ورعاً إلى حد التعصب في الدين، وكان الكونت بوهمند Bohemond من سادة ترنتو Taranto ابن روبرت جسكارد قد ورث عن أبيه كل شجاعته وبراعته، وكان يحلم باقتطاع ملكاً له ولجنوده النورمان من الأملاك البيزنطية السابقة في الشرق الأدنى الإسلامي. وكان معه ابن أخيه تانكرد الهوتفيلي Tancred de Hauteville الذي شاءت الأقدار أن يكون بطل رواية القدس المنجاة Yersalem Delivered لتاسو Tasso وكان بهي الطلعة، شجاعاً لا يهاب الموت، شهماً، كريماً، يحب المجد والمال، يعجب به الناس كافة ويرونه المثل الأعلى للفارس المسيحي، وكان ريموند Raymond كونت تولوز قد حارب المسلمين من قبل في إسبانيا فلما تقدمت به السن وهب نفسه وثروته العظيمة إلى حرب أكبر وأوسع، ولكن غطرسته أفسدت عليه نبله، ودنس بخلقه تقواه.

وسارت هذه الجموع إلى القسطنطينية من طرق مختلفة، وعرض بوهمند على جودفري أن يستوليا على المدينة، فرفض جودفري هذا العرض لأنه لم يأت، على حد قوله، إلا لقتال المسلمين، ولكن هذه الفكرة لم تمت. وكان فرسان الغرب الأشداء أنصاف الهمج يحتقرون سادة الشرق البيزنطي المثقفين المخادعين، ويرون أنهم مارقون على الدين، مخنثون، مترفون. وكانوا ينظرون بعين الدهشة والحسد إلى الكنوز المخزونة في كنائس العاصمة البيزنطية، وقصورها وأسواقها، ويرون أن هذا الثراء العظيم يجب أن يكون من نصيب الفرسان الصليبيين. ولعل الامبراطور الكسيوس قد ترامت إليه هذه الأفكار التي كانت تملأ صدورهم فتزعجه.

نعم أنه استنجد بالغرب على الأتراك السلاجقة على ما قيل، ولكنه لم يطلب أن تجتمع قوى أوروبا المتحدة على أبواب عاصمته، ولم يكن واثقاً

قط من أن أولئك المقاتلين يطمعون في القدس بقدر ما يطمعون في القسطنطينية، أو من أنهم سيعيدون إلى ملكه أي إقليم ينتزعونه من الأتراك السلاجقة، وكان من قبل من أملاك الدولة البيزنطية. ولهذا عرض على الصليبيين المؤن والأموال، ووسائل النقل، والمعونة الحربية، وعرض على زعمائهم رشا سخية، وطلب منهم نظير هذا أن يقسم النبلاء يمين الولاء له بوصفه سيدهم الاقطاعي، وأن تكون كل الأراضي التي يستولون عليها إقطاعيات لهم منه. فأقسم معظمهم اليمين المطلوبة.

وعبرت القوات الصليبية وعددها نحو ثلاثين ألفاً بحر مرمرة في عام ١٠٧٩ م، وكانت لا تزال موزعة القيادة. وكان من حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا أشد انقساماً على أنفسهم من المسيحيين، فقد انهكت الحروب قوة المسلمين في إسبانيا، ومزقت المنازعات الدينية وحدتهم في شمالي إفريقيا وكان الخلفاء الفاطميون في الشرق يمتلكون بلاد الشام الجنوبية، بينما كان أعداؤهم السلاجقة يمتلكون الجزء الشمالي والقسم الأكبر من آسيا الصغرى. وتمردت أرمينية على فاتحيها السلاجقة وتحالفت مع الصليبيين.

وزحفت القوات الصليبية وحاصرت نيقية. واستسلمت الحامية التركية السلجوقية في ١٩ يونيه سنة ١٠٩٧ م بعد أن وعدها الامبراطور الكسيوس بالمحافظة على حياتها، ورفع إمبراطور بيزنطة العلم الامبراطوري على حصنها. وحمى المدينة من النهب، وأرضى الزعماء الاقطاعيين بالهدايا السخية، ولكن الجنود الصليبيين اتهموا الكسيوس بأنه ضالع مع الاتراك السلاجقة. واستراح الصليبيون في المدينة اسبوعاً زحفوا بعده إلى الشرق، والتقوا عند ضوريليوم بجيش سلجوقي تحت قيادة قلج أرسلان، وانتصروا عليه انتصاراً أسفكوا فيه الكثير من الدماء في أول يوليه سنة ١٠٩٧ م، واخترقوا آسيا الصغرى دون أن يلقوا فيها عدواً غير قلة الماء والطعام، والحر الشديد الذي لم تتحمله القوات القادمة من أوربا. وماتت الرجال والنساء، والخيل

والكلاب، من العطش في أثناء هذا الزحف الشاق الذي اجتازوا فيه مئات الأميال، فلما عبروا جبال طوروس انفصل بعض النبلاء بقواتهم عن الجيش الرئيسي ليفتحوا لأنفسهم فتوحاً خاصة بهم - فسار ريموند، وبوهمند، وجودفري إلى أرمينية، وسار تانكرد وبلدوين Baldwin إلى الرها حيث أسس بلدوين بالحيلة والغدر أولى الإمارات اللاتينية في الشرق في ١٠٩٨ م.

وأخذت قوات الصليبيين الكبرى تشكو من هذا التأخير وتتوجس منه الشر المستطير، فعاد النبلاء وواصلت القوة بأجمعها الزحف على إنطاكية وكانت «مدينة ذات بهجة وجمال عظيم تمتاز عن سائر المدن». وقاومت المدينة الحصار ثمانية أشهر، مات في خلالها كثير من الصليبيين بسبب تعرضهم لأمطار الشتاء والبرد القارص والجوع، وقد وجد بعضهم غذاءً جديداً بامتصاص «أعواد حلوة سموها زكرا Zucra»، وهي كلمة مشتقة من لفظ السكر العربي، ففيها ذاق الفرنجة طعم السكر للمرة الأولى وعرفوا أنه يصنع من عصير أحد النباتات.

وجاءت الأنباء في شهر مايو عام ١٠٩٨ م أن جيشاً إسلامياً كبيراً يقوده كربوغا أمير الموصل يقترب من إنطاكية، لكن هذه المدينة سقطت في أيدي الصليبيين في ٣ يونيه سنة ١٠٩٨ م، قبل أن يصل إليها هذا الجيش ببضعة أيام. وخشي كثير من الصليبيين عجزهم عن مقاومة جيش كربوغا، فركبوا السفن في نهر العاصي، وفرّوا هاربين. وزحف الامبراطور الكسيوس بقوة من جنود الامبراطورية، ولكن جماعة من الفارين خدعوه، فأدخلوا في روعه أن الصليبيين هُزموا، فعاد أدراجه ليدافع عن آسيا الصغرى، ولم يغفر له الصليبيون هذه الفعلة. وأراد قسيس من مرسيليا يدعى بطرس بارثلميو Peter Bartholomew أن يبعث الشجاعة من جديد في قلوب الصليبيين، فادعى أنه عثر على الحربة التي ضُربت في جنب المسيح، ولما سار المسيحيون للقتال رفعت هذه الحربة أمامهم كأنها علم مقدس، وخرج ثلاثة فرسان من بين التلال في ثياب بيضاء حين ناداهم الرسول البابوي إدهمار Ademar وسماهم الشهداء القديسين موريس Maurice، وجورج George، وثيودور Theodor، وبعث ذلك

في قلوب الصليبيين روحاً جديدة، وتولى بوهمند القيادة الموحدة فانتصروا انتصاراً حاسماً. ثم أُتهم بارثلميو بأنه ارتكب خدعة دينية، وعرض أن يرضى بحكم الله فيجتاز ناراً مشتعلة ليثبت باجتيازها صدق دعواه، وأجيب إلى طلبه فاخترق ناراً مشتعلة في حزم من الحطب، وخرج سالماً في الظاهر، ولكنه توفي في اليوم الثاني من أثر الحروق أو من الصدمة التي لم يتحملها، وأزيلت الحربة من بين أعلام الجيش الصليبي.

وأصبح بوهمند من ذلك الحين أمير إنطاكية اعترافاً بفضله، وكان يمتلك هذا الإقليم في ظاهر الأمر بوصفه أميراً إقطاعياً خاضعاً لألكسيوس، لكنه في الواقع كان يحكمه بوصفه حاكماً مستقلاً، وقال زعماء الصليبيين أن عجز الامبراطور الكسيوس عن أن يخف لمعونتهم قد أحلهم من يمين الولاء التي أقسموها له. وقضى أولئك الزعماء ستة أشهر أعادوا فيها تنظيم قواتهم وجددوا نشاطها، ثم زحفوا بجيوشهم على بيت المقدس.

زحف الصليبيين إلى القدس

وتقدم الصليبيون جنوباً حتى وصلوا إلى طرابلس، وعندما اقتربوا منها بادر أميرها التماس الأمان من الصليبيين، فأطلق حوالي ثلاثمائة من أسرى الصليبيين كانوا بالمدينة، كما قدم تعويضاً قدره خمسة عشر ألف دينار، وبعض الجياد، بالإضافة إلى إمداد الجيش بدواب الحمل. وقد وافق الصليبيون على ذلك وغادروا طرابلس في منتصف مايو ١٠٩٩ م وساروا جنوباً حتى وصلوا إلى جبيل في التاسع عشر من مايو إلى الحدود الفاطمية عند نهر الكلب.

ولم يكن للدولة الفاطمية قوات في ممتلكاتها الشمالية عدا حاميات المدن الساحلية، لذلك سار الصليبيون حتى وصلوا إلى بيروت. وخاف أهلها فقدموا للقوات الصليبية الهدايا وسمحوا لهم بالمرور عبر أراضيهم بشرط عدم إنزال الضرر بالمحاصيل والأشجار، وقد وافق الصليبيون على ذلك وتقدم

الأدلاء من أهل بيروت مع القوات الصليبية حتى أوصلتها إلى صيدا.

ولم تستسلم صيدا، وبذلت حاميتها جهوداً كبيرة لدفع الصليبيين، غير أن الصليبيين لجأوا إلى نهب الحدائق المحيطة بالمدينة ثم تقدموا جنوباً حتى وصلوا إلى مدينة صور،ولكنهم لم يهاجموها كما بقيت الحامية الإسلامية خلف أسوار المدينة. وأخيراً رحل الصليبيون من أمام المدينة في الثالث والعشرين من مايو وواصلوا سيرهم جنوباً حتى وصلوا إلى ضواحي عكا حيث قام حاكمها المسلم بتقديم الهدايا لصليبيين طلباً للأمان، فسارت القوات الصليبية جنوباً حتى قيسارية، ومنها حتى أرسوف.

واثناء تواجد الصليبيين عند أرسوف خاف أهل يافا على أنفسهم فهجروا المدينة، وفي منتصف شهر يونيه وصلت إلى ميناء المدينة بعض السفن الجنيوية فاستولت على المدينة بسهولة. وترتب على سقوط المدينة ربط الصليبيين بالساحل الجنوبي، كما أحضرت هذه السفن بعض آلات الحصار والمؤن الأمر الذي كان له أبلغ الأثر في تدعيم مركز الصليبيين أثناء حصار بيت المقدس.

ومن أرسوف توجه الصليبيون إلى الداخل حتى وصلوا مدينة الرملة في الثالث من يونيه. وفزع سكان المدينة لاقتراب القوات الصليبية خاصة أن المدينة كانت بعيدة عن الساحل ولا يمكن للاسطول الفاطمي مساعدتها، كما أن حامية المدينة كانت قليلة العدد، نغادر السكان المدينة بعد أن خربوها واتجهوا إلى مدينة اللد وفعلوا بها مثلما فعلوا بالرملة. ودخلت القوات الصليبية مدينتي الرملة واللد بسهولة وبدأوا في تعميرها وإقامة حامية صليبية بهما. ونادى بعض القادة الصليبيين بالتوجه إلى مصر، ورأى البعض الآخر مواصلة السير إلى بيت المقدس، وتغلب الرأي الأخير. وفي السادس من يونيه سارت القوات الصليبية من الرملة فوصلت أمام القدس في السابع من يوليو وعسكر الصليبيون أمام المدينة. وكان الفاطميون قد أخرجوا الأتراك السلاجقة من مدينة القدس،

وكان عليهم الدفاع عن المدينة، ولكن قواتهم لم تكن كافية، لذلك عرض الخليفة الفاطمي على الصليبيين أن يعقد معهم صلحاً واشترط على نفسه تأمين سلامة الحجاج المسيحيين إلى المدينة والذين يأتون للعبادة.

ولكن بوهمند وجودفري طلبا التسليم بغير قيد أو شرط، وقاومت حامية الفاطميين المكونة من الف رجل الحصار مدة أربعين يوماً، فلما حل اليوم الخامس عشر من شهر يوليه قاد جودفري وتانكرد رجالهما وتسلقوا أسوار المدينة، وتم للصليبيين الفوز بغرضهم بعد أن لاقوا في سبيله الأخطار الكثيرة. وفي هذا يقول المؤرخ القس ريموند الأجيلي أحد شهود العيان لهذه الحملة

وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا أنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم الأخر يعذبون عدة أيام، ثم أحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل والدماء.

وفي رواية أخرى تفاصيل أدق من هذه وأوفى، فقد جاء بها أن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعصى، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة، أما اليهود الذين بقوا أحياء فقد سيقوا إلى كنيس لهم، وأشعلت فيهم النار وهم أحياء. واحتشد المنتصرون في كنيسة الضريح المقدس، وكانوا يعتقدون أن مغارة فيها احتوت في يوم ما السيد المسيح. وفيها أخذ كل منهم يعانق الآخر ابتهاجاً بالنصر، وبالاستيلاء على المدينة، ويحمدون الله على ما نالوا من النصر.

موقعة عسقلان (أغسطس ١٠٩٩ م)

وفي الشهر الثاني لسقوط بيت المقدس ترددت الأنباء أن جيشاً مصرياً بقيادة الوزير الأفضل تقدم إلى جنوب الشام في طريقه إلى عسقلان في الوقت

الذي كان فيه الأسطول المصري يتولى حماية المدن الشامية الساحلية. وبدأت القوات الصليبية تستعد لجولة جديدة مع الجيش الفاطمي، وأرسل جودفري رجاله لتتبع أخبار القوات الفاطمية، وقد نجحت بعض القوات الصليبية في القبض على بعض الكشافة المصريين الذين كانوا يستطلعون أخبار الصليبيين وعلموا منهم أخبار القوات المصرية وأهدافها.

قاد جودفري القوات الصليبية من بيت المقدس بعد أن ترك بها حامية قليلة العدد، وأرسل إلى القادة الآخرين للتجمع لمواجهة القوات الفاطمية وكان تجمع الصليبيين عند مدينة يبنة، بينما كانت القوات الفاطمية تتجمع في المجدل. وقد نجحت القوات الصليبية في مفاجأة القوات الفاطمية والانتصار عليها، واستطاع الوزير الأفضل الفرار من أرض المعركة ولجأ إلى عسقلان ومنها أبحر إلى مصر. وبعد هزيمة القوات الفاطمية على هذه الصورة إطمأن الصليبيون إلى ضعف المقاومة الفاطمية وتأكد لهم السيطرة الكاملة على مدينة بيت المقدس.

سقوط حيفا ١١٠٠ م

ورغم هذا كله فقد قام المسلمون في المدن الساحلية من أرسوف وعسقلان بالإغارة على المعسكرات الصليبية القريبة خاصة على مدينة الرملة التي لم تقو حاميتها الصغيرة على الصمود. لذلك طلب جودفري مساعدة البيازية في دفع هذا الخطر وبدأ بتحصين مدينة يافا، كما استعان ببعض قوات انطاكية الأمر الذي جعل سكان أمراء أرسوف وعسقلان وقيسارية وعكا يطلبون الصلح مع الصليبيين مقابل بعض الأمور.

وفي شهر يونيه ١١٠٠ م وصل إلى يافا أسطول من البنادقة يتكون من حوالي مائتي سفينة، وقد عرض قادة هذا الأسطول خدماتهم على الصليبيين وبدأوا في حصار مدينة عكا من ناحية البحر بينما تولى جودفري حصار المدينة من ناحية البر، ولكن موت جودفري حول الحملة إلى حيفا التي سقطت في أيدي الصليبيين في أغسطس ١١٠٠ م.

سقوط أرسوف وقيسارية ١١٠١ م

بعد هذا النجاح الذي أحرزه الصليبيون خافت بعض المدن الساحلية على نفسها وأرسلت مدن أرسوف وقيسارية وغيرهما مثل عكا وصور السفراء إلى بيت المقدس حاملة الهدايا إلى الملك بلدوين الأول في شهر مارس ١١٠١ م. وفي الشهر الثاني وصل إلى حيفا اسطول جنيوي، كان من بين ركابه المندوب البابوي الكاردينال موريس Maurice اسقف مدينة بورتو Porto البرتغالية. فأسرع الملك بلدوين لاستقبال المندوب البابوي وعقد تحالف مع الاسطول الجنيوي المنافس للاسطول البيزي، وتم الاتفاق بين قادة الاسطول الجنوي والملك بلدوين على عمل الاسطول تحت إمرة الملك بلدوين حوالي ثلاثة أشهر ويكون نصيبهم ثلث الغنائم، وأن يكون لهم شارع في سوق كل مدينة يتم فتحها.

وكانت مدينة أرسوف الهدف الأول لهذا الاتفاق، وتولى الاسطول مهاجمة المدينة من ناحية البحر وبلدوين وجيشه من ناحية البر، ولم تستطع المدينة الصمود طويلاً فعرضت التسليم مقابل الأمان وخروج الأهالي بأمتعتهم ووافق الملك بلدوين وتسلم المدينة وخصص لها حامية للدفاع عنها وأعطى الجنيوية ما وعدهم به، ورحل أهل المدينة في حراسة قوات بلدوين إلى مدينة عسقلان في إبريل ١١٠١ م.

وكانت وجهة المتحالفين بعد أرسوف مدينة قيسارية حيث بدأ الحصار في أوائل مايو، واعتمد أهل المدينة على أسوارها ورفضت حاميتها التسليم وظلت تقاوم خمسة عشر يوماً حتى سقطت، واستباح الصليبيون المدينة ونهبوها فلجأ سكانها إلى المسجد الجامع في المدينة، ولكن الصليبيين لاحقوهم وجرت مذبحة داخل المسجد حتى صار صحن المسجد بحيرة من الدماء. ولعل ذلك مرجعه إلى أن الملك بلدوين أراد أن يظهر للمسلمين أنه يحفظ عهد من يسالمه ولا يرحم من يحاربه. وأقام بلدوين حامية صليبية بالمدينة للدفاع عنها ونفذ اتفاقه مع الجنيوية.

معركة الرملة الأولى ١١٠١ م

وصلت أنباء سقوط أرسوف وقيسارية إلى الدولة الفاطمية في مصر فأعد الوزير الأنفضل جيشاً كبيراً بقيادة مملوكه سعد الدولة الطواشي، وقد سارت هذه الحملة براً حتى وصلت إلى عسقلان في منتصف مايو، ويبدو أن بلدوين اعتقد أن وجهة الحملة ستكون بيت المقدس، لذلك حصن مدينة الرملة وأقام معسكره في مدينة يافا لمراقبة تحركات الجيش المصري الذي كانت تصله النجدات تباعاً من مصر.

وفي الرابع من سبتمبر تحرك الجيش الفاطمي في طريقه إلى الرملة، وعلم بلدوين بذلك فقرر مهاجمة القوات المصرية رغم قلة قواته بعد أن قسمها إلى خمسة أقسام. وبعد أن أعدها عسكرياً ودينياً ونفسياً، هاجم الجيش المصري عند شروق الشمس وفاجأ القوات المصرية. وبعد قتال قصير هُزم الجيش الفاطمي وتراجع إلى مدينة عسقلان وظلت القوات الصليبية تطارده حتى أسوار المدينة. ولقد كانت خسائر الفاطميين كثيرة ولم يكن بوسع القوات الفاطمية أن تعاود محاربة الصليبيين في ذلك الوقت.

معركة الرملة الثانية ١١٠٢ م

أعدت الدولة الفاطمية جيشاً وأرسلته إلى فلسطين، وفي مايو ١١٠٢ كان شرف المعالي بن الوزير الفاطمي الأفضل ينظم هذا الجيش في عسقلان استعداداً للقتال، وتحرك الجيش الفاطمي إلى الرملة. وخرج بلدوين وقواته دون حذر حتى فاجأهم الجيش الفاطمي الذي اعتقد أن القوات التي أمامه ليست إلا مقدمة للجيش الصليبي. وعندما عرفت القوات المصرية حقيقة الموقف هاجموا الصليبيين بكل قوة فانهارت قوات بلدوين فسقط العديد ولم يفلت من المعركة إلا القليل الذين وصلوا إلى يافا، ودخل البعض إلى مدينة الرملة وكان على رأسهم بلدوين..

وتوجهت القوات الفاطمية إلى الرملة التي لم تكن محصنة بدرجة كافية

حتى لم يكن بها سوى برج واحد يستطيع الصمود. وعلم بلدوين بتقدم القوات الفاطمية إلى المدينة وأنهم سيهاجمون المدينة عند طلوع النهار فغادرها ومعه بعض النبلاء.

وعندما وصلت القوات الفاطمية إلى أسوار الرملة ألقت بأكوام من الخشب حول البرج الذي لجأ إليه فرسان الصليبيين تمهيداً لحرقه. وكان على هؤلاء الفرسان القتال أم انتظار الموت حرقاً فقاتلوا ببسالة ولكن القتل أو الأسر كان نصيب الحامية الصليبية.

وبلغت هذه الأخبار مدينة يافا مقر القيادة العسكرية الصليبية في هذه المرحلة واعتقدوا أن الملك بلدوين قد مات فاستعدوا للهرب بحراً ولكن الملك وصل إلى المدينة بعد قليل وبدأ في إعادة تنظيم قواته. وفي هذه المرحلة وصل أسطول صليبي إلى يافا فأمد الملك بما يحتاج من مساعدات. وتشجع الملك بلدوين وخرج من يافا لمقاتلة الفاطميين. ودارت معركة بالقرب من يافا لم تقدم لنا المصادر تفاصيلها، ولكنها إنتهت بفرار الجيش الفاطمي إلى عسقلان وإستيلاء الصليبيين على ما بمعسكر المسلمين من عتاد ومؤن.

سقوط عكا ١١٠٣ م

لا زالت بعض المدن الساحلية مثل صور وعكا وعسقلان في حوزة الفاطميين، وكثيراً ما خرجت السفن الإسلامية من هذه الموانيء لمهاجمة السفن التجارية الصليبية. وأراد الملك بلدوين أن يضع حداً لهذه الأعمال فقام بحصار مدينة عكا. ولكن البحرية المصرية خرجت من صور وصيدا في طريقها إلى عكا فاضطر الملك بلدوين إلى رفع الحصار.

وفي شهر مايو وصل إلى حيفا اسطول جنيوي فتحالف معه بلدوين على مهاجمة عكا، وبدأ حصار المدينة في السادس من مايو ودافعت المدينة عن نفسها ببسالة حتى عجزت عن المقاومة فعرضت إستسلام المدينة بعد عشرين يوماً. وطبقاً لشروط الاستسلام كان على سكان المدينة الراغبين في مغادرتها أن

يحملوا أمتعتهم، ومن يرغبون منهم البقاء بالمدينة يصبحون من رعايا الملك الصليبي مع الاحتفاظ بمسجدهم. وبسقوط عكا أصبحت الميناء الرئيسي للصليبيين على الساحل الشامي.

معركة الرملة الثالثة ١١٠٥ م

وكانت معركة الرملة الثالثة هي المحاولة الأخيرة لاسترداد فلسطين من الصليبيين في هذه المرحلة، فقد قامت القوات الفاطمية بالاحتشاد في عسقلان بقيادة سناء الملك بن الأفضل. ورأت القيادة الفاطمية طلب المساعدة من دمشق التي استجاب حاكمها طغتكين لذلك فأرسل ألف وثلاثمائة فارس من الرماة.

وكان اللقاء في الرملة حيث دارت معركة في السابع والعشرين من أغسطس ١١٠٥ م، وبعد معركة شرسة قاتل فيها المسلمون بضراوة تمكن الصليبيون من السيطرة على الموقف وهزيمة القوات الإسلامية بعد أن خسرت القوات الصليبية الكثير من رجالها.

بلدوين وطغتكين

وبعد أن استولى بلدوين على بعض المدن الساحلية وضمن ارتباطه بالغرب الأوروبي عن طريق هذه الثغور بدأ يتطلع إلى جهة الشرق ليرسم لمملكته حدوداً برية مناسبة من الوجهة العسكرية والتجارية. وعهد بلدوين إلى تانكرد Tancred ومن بعده هيو أف سانت أومر Hugh of Saint Omer لإدارة هذا الجانب الشرقي من المملكة الذي عرف باسم إمارة الجليل. واهتم الصليبيون بتحصين هذه الإمارة وشيدوا على الطريق الذي يربط مدن صور وبانياس ودمشق قلعة تبنين Tibnin of Toron في عام ١١٠٥ م ثم شيدوا في العام نفسه قلعة أخرى على المرتفعات الواقعة جنوب بحيرة طبرية وعرفت هذه القلعة عند المسلمين باسم علعال.

وأدرك طغتكين حاكم دمشق بأن وجود هذه القلعة يهدد أمن بلاده،

لذلك استولى عليها بعد عدة أشهر دون صعوبة . أما بالنسبة لقلعة تبنين، فقد قامت القوات الإسلامية من صور بمهاجمتها عدة مرات، كما رد الصليبيون بغارات مماثلة من هذا الحصن على الممتلكات الإسلامية. وتم عقد صلح لمدة قصيرة بين طغتكين وبلدوين يبدوا أنه وقع في عام ١١٠٧ م.

وبعد انتهاء الصلح جدد طغتكين غاراته على إقليم الجليل في ربيع عام ١١٠٨ م وتمكن من أسر جرفاس Gervase أمير الجليل ومعظم رجاله، وأعلن طغتكين إمكان إطلاق سراحهم مقابل تنازل الصليبيين عن طبرية، وعكا، وحيفا ولكن بلدوين رفض هذا الطلب فأمر طغتكين بقتل جرفاس.

ونظراً لتداخل المصالح الرئيسة بين طغتكين وبلدوين اتفقا الطرفان على عقد هدنة يتم بموجبها اقتسام خراج مناطق السواد وجبل عوف بواقع الثلث لكل منهما والثلث الأخير يبقى للسلطات المحلية وأن تستمر الهدنة عشرة سنوات. ويرى الباحثون في تاريخ الحركة الصليبية أن أسباب هذه الهدنة ترجع إلى أسباب تجارية، لأن الغارات المستمرة بين طغتكين وبلدوين أنزلت أفدح الخسائر بالتجارة البرية وأن مثل هذه الهدنة تساعد على استئناف التجارة في هذه المنطقة. ومن المهم جداً أن يعلم القارىء أن هذه الهدنة كانت محلية ولا تتعدى أكثر ما نصت عليه، بمعنى أن طغتكين كان له الحق في مهاجمة المناطق الصليبية الأخرى التي لم ترد في نصوص الهدنة. ويجب ملاحظة ذلك أيضاً في كافة المدن التي وقعت بين المسلمين والصليبيين، كما كان للصليبيين أيضاً الحق ذاته.

تأسيس إمارة طرابلس

كانت طرابلس هي الإمارة الرابعة التي تم تكوينها على أيدي قادة الحملة الصليبية الأولى. وقد ارتبط قيام هذه الإمارة باسم ريموند الصنجيلي أمير تولوز وقائد قوات البروفانسيين المساهمين في الحملة الصليبية. وواقع الأمر كان هناك صراع رهيب قد نشب بين ريموند وبوهمند حول إنطاكية انتهى بانتصار

الأخير في امتلاك المدينة وضاع أمل ريموند. كما فشل ريموند مرة أخرى في تكوين إمارة له في البارة ومعرة النعمان بسبب منافسة بوهمند أيضاً ، وكان خوف الأمراء من ريموند سبباً آخر في ضياع فرصته في الحصول على بيت المقدس، ثم فشله في الاستيلاء على عسقلان وأرسوف بسبب منافسة جودفري. لذلك كله رحل ريموند إلى شمال الشام تاركاً الجنوب لكي يكون على مقربة من حلفائه البيزنطيين حيث تمكن من احتلال مدينة اللاذقية وسلمها بدوره إلى الامبراطور البيزنطي الكسيوس ليؤكد بذلك إخلاصه للامبراطور،ويكون في ذلك تقرباً منه ليقف إلى جانبه ضد بوهمند الخصم المشترك بينهما.

وكان في قدوم الحملة اللومباردية عام ١١٠١ م فرصة افترصها ريموند لكي يكون له إمارة في طرابلس، وذلك عندما استغل الفلول الباقية من هذه الحملة، فقد قدمت هذه الحملة على ثلاث دفعات من إيطاليا وقد تم القضاء عليها في آسيا الصغرى عدا قلة قليلة استغلها ريموند في الاستيلاء على انطرسوس ـ التي كانت تابعة لبني عمار ـ عام ١١٠٢ م، وتشجع ريموند بهذا النصر وهاجم بجيشه الصغير مدينة طرابلس وحقق انتصاراً على قوات فخر الملك بن عمار المتحالف مع جناح الدولة صاحب حمص ودقاق ملك دمشق.

ورغم هذا لم يشأ أن يحاصر طرابلس لحصانتها من جهة ولضعف قواته من ناحية أخرى، فاكتفى في هذه المرحلة واقتنع بالجزية التي فرضها على المدينة وعاد إلى أنطرسوس التي اتخذ منها قاعدة لتوسيع إمارته. وقد ساعدته الظروف لعاملين أساسيين، أولهما ضعف القوى الإسلامية، وثانيهما استحكام العداء بين الحكام المسلمين. ومن هنا حاول ريموند الاستيلاء على حمص ولكنه فشل واكتفى بالجزية التي أقرها على أهلها وانصرف إلى جبيل وهي القلعة الصغيرة الواقعة على الساحل بين طرابلس وبيروت وساعده في ذلك اسطول جنبوى في عام ١١٠٣ م وبالقوات البرية بقيادة ريموند وبالبحرية الجنيوية تمكن ريموند من الاستيلاء على جبيل في العام التالي، وباستيلاء ريموند على أنطرسوس في الشمال وجبيل في الجنوب يكون قد شكل الحدود الأولى لإمارته.

وكانت الخطوة التالية هي العمل على إسقاط مدينة طرابلس حتى تكتمل الإمارة، وتنفيذاً لهذه الخطة أقام في مواجهة مدينة طرابلس قلعة سماها المسلمون قلعة «صنجيل» وذلك بغرض إحكام الحصار حول المدينة. ورغم كل هذه الاستعدادات فقد كان اقتحام المدينة صعباً عسيراً بسبب وضعها الحصين، إذ هي قائمة على لسان بحري جعل من السهل على أهلها الحصول على المؤن من الجانب البحري، وبذلك أصبحت المدينة مفتوحة من جهة البحر ويصعب حصارها إلا بأسطول قوي غير متوفر لدى ريموند، لذلك استمر حصار المدينة حوالي ست سنوات مات خلالها ريموند متأثراً بجراحه في عام ١١٠٥. ولم تنجح القوى الإسلامية في توحيد صفوفها طوال مدة الحصار فأدى ذلك إلى سقوط حصن عرقه الواقع شمالي طرابلس، وقد ساعد ذلك الصليبيين في تقوية مركزهم تحت قيادة وليم جوردان ابن خالة ريموند الذي ظل محاصراً المدينة.

وحدث أثناء الحصار أن أتى إلى الشام برتراند أكبر أبناء ريموند والذي خلفه في إمارة تولوز، وكان في ذلك سبباً في صراع نشب بينه وبين وليم جوردان، فقد كان برتراند يرى أنه أحق في وراثة ممتلكات أبيه. ولما كانت القوات التي قدمت مع برتراند غير كافية لتحقيق أغراضه فقد تحالف مع أهل جنوه لمساعدته في استرداد الممتلكات والعمل على فتح طرابلس مقابل بعض الامتيازات التجارية فانضم إليه ما يقرب من ثمانين سفينة. كما حصل على مساندة الامبراطورية البيزنطية أيضاً، ولم يكتف بذلك فحاول أن يحصل على تأييد تانكرد ـ خليفة بوهمند في انطاكية ـ ولكنه لم يوفق، وما أن وصل برتراند إلى انطرسوس حتى نشب الصراع بينه وبين وليم جوردان الذي استنجد بتانكرد مما دفع برتراند إلى الاستنجاد ببلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس. وكان في ذلك فرصة للملك بلدوين ليؤكد سيادة مملكة بيت المقدس وعلى بقية الإمارات الصليبية في الشرق، وكان أن دعا بلدوين إلى اجتماع في قلعة صنجيل حضره كل من أمير إنطاكية وأمير الرها وبرتراند ووليم جوردان، وفي هذا

الاجتماع تم تسوية الخلاف بين برتراند ووليم جوردان، وتم تقسيم الممتلكات بينهما فاختص جوردان بقلعة صنجيل وجبيل وطرابلس بعد فتحها، وأصبح للآخر عرقة وانطرسوس.

اشتد الحصار على مدينة طرابلس التي لم يكن بوسعها أن تقاوم القوات الصليبية مجتمعة، من البحر والبر، فاستسلمت المدينة في عام ١١٠٩ بشرط تأمين حياة أهلها وممتلكاتهم، وعندما دخلها الصليبيون احترموا شروط أهلها ولم يتعرضوا لأملاكهم. وهكذا سقطت المدينة لتضاف إلى الممتلكات المجاورة لتكون الإمارة الرابعة في الإمارات الصليبية بعد الرها وإنطاكية وبيت المقدس، وحكمها جوردان ولكن عهده لم يطل إذ قتل في ظروف غامضة، فانفتح المجال أمام برتراند ليوحد الإمارة تحت إمرته.

سقوط بيروت ١١١٠ م

وفي فبراير عام ١١١٠ م بدأ الملك بلدوين في فرض الحصار على مدينة بيروت بمساعدة قوات من إمارة طرابلس أرسلها إليه برتراند، كما انضم إلى القوات الصليبية جوسلين Josceline أمير الرها، بالإضافة إلى بعض قطع البحرية الصليبية الخاصة بالبيازنة والجنوية. وفي بداية الحصار شرع الصليبيون في إقامة برج خشبي ونصبوه على سور المدينة، ولكن ضربات المجانيق الإسلامية أفسدت أعمالهم وكسر البرج، فقام الصليبيون بعمل برجين آخرين تمهيداً لمهاجمة المدينة.

وفي هذه المرحلة وصلت بعض قطع الأسطول المصري في تسعة عشر سفينة حربية واشتبكت مع السفن الصليبية وانتصرت عليها ونجح المسلمون في الدخول بالمؤن والسلاح إلى مدينة بيروت فقويت المدينة وقويت نفوس من فيها من الرعية. وأرسل بلدوين يطلب النجدة من إنطاكية فأرسلت إليه حوالي أربعين سفينة مشحونة بالمقاتلة. وأعاد القادة الصليبيون تنظيم أنفسهم وزحفوا على المدينة من البحر والبر واشتد القتال حتى أيقن أهل المدينة الهلاك بعد ما

قتل مقدم الأسطول المصري. وفي يوم الثالث عشر من مايو ١١١٠ م هاجم الصليبيون المدينة فملكوها بالسيف قهراً وهرب والي المدينة مع جماعة من أصحابه. ويروى ابن القلانس أن الوالي وقع في أيدي الصليبيين فقتلوه ومن معه وغنموا ما كان معه من المال والمتاع، وفي المصادر الصليبية أن الوالي هرب إلى قبرص حيث سلم نفسه لحاكم الجزيرة.

والمهم أنه بعد سقوط المدينة دخلها الصليبيون واستباحوها وسبي من كان فيها أو أسر. وبعد ما انتهى بلدوين من أمر بيروت تحركت القوات الصليبية لمهاجمة صيدا وكان الهجوم الأخير التي سقطت بعده المدينة.

سقوط صيدا ١١١٠ م

تطلع بلدوين للسيطرة على مزيد من المدن الساحلية، وكانت مدن عسقلان وصور وصيدا وبيروت لا زالت في أيدي المسلمين، وكانت مدينة عسقلان وصور من المدن المحصنة جداً ومنيعة على المهاجمين ويتطلب إسقاطها استعدادات معينة لم تكن متوفرة للصليبيين حتى هذه المرحلة، لذلك تطلع بلدوين إلى إسقاط مدينة صيدا. والواقع أن سقوط صيدا مر بثلاث مراحل.

وكانت المرحلة الأولى في عام ١١٠٦ م، عندما قدم أسطول صليبي إلى الساحل الشامي معظم رجاله من إنجلترا وسكان إسكاندنافيا، وخطط بلدوين للتحالف مع هذا الأسطول لمهاجمة صيدا. وعلم حاكم صيدا بهذه التحركات فبادر بإرسال مبلغ كبير من المال إلى الملك الصليبي، وبذلك تراجع الملك عن مهاجمة المدينة. ويعلل الباحثون ذلك إلى حاجة الملك بلدوين إلى المال.

وبعد عامين (١١٠٨ م) عاود بلدوين مهاجمة المدينة مرة أخرى بمساعدة أسطول إيطالي تولى مهاجمتها من ناحية البحر بينما تولى بلدوين الجانب البري. ولم يكن أمام حاكم مدينة صيدا سوى طلب المساعدة من دمشق للدفاع

عن المدينة وتعهد بدفع ثلاثين ألف دينار. وتصادف أو ربما بالاتفاق قدوم أسطول من مصر اشتبك مع الأسطول الإيطالي وأنزل به هزيمة كبيرة قبل وصول القوات الدمشقية إلى صيدا. وترتب على ذلك انسحاب قوات بلدوين من أمام المدينة ورفع الحصار عنها. كما منع حاكم مدينة صيدا القوات الدمشقية من دخول المدينة، وتأزم الموقف بين دمشق وصيدا ولكنه انفرج عندما دفع حاكم صيدا عشرة آلاف جنيه لحاكم دمشق.

وكانت المرحلة الثالثة ١١١٠ م. ويرجع ذلك إلى المساعدة التي قدمها بلدوين إلى برتراند كونت تولوز للإستيلاء على طرابلس، فساعد برتراند بدوره بلدوين، وأيضاً إلى مساعدة الأسطول النرويجي الذي وصل في هذه المرحلة بقيادة الملك سيجورد الأول Sigurd I، وإلى مساعدة أسطول بندقي بقيادة الدوج أوردلافو Ordelafo. ولم يتمكن حاكم صيدا مواجهة كل هذه القوات فلجأ إلى إعداد مؤامرة لاغتيال بلدوين ولكنها انكشفت واستسلمت صيدا على شروط عكا في أوائل ديسمبر ١١١٠ م، وسلمت المدينة إلى يوستاس جارنيه Eustace Garnier وأصبحت بارونية صليبية.

حملة مودود على الرها ١١١٠ م

أن الأحداث التي وقعت بين أتابكة الشام والجزيرة قبل وأثناء الوجود الصليبي كثيرة ومعقدة، ولكن نكتفي بالقول أن مدينة الموصل كان يتولى أمرها الأتابك جكرمش، وعندما توفي السلطان ملكشاه عقد صلح بين ولديه بركيارق ومحمد في عام ١١٠٤ م، وبمقتضى هذا الصلح أصبحت الموصل من نصيب محمد، ولكن جكرمش رفض تسليم المدينة وعرض تسليمها للأمير بركيارق.

وفي محاولة من السلطان محمد بن ملكشاه لاستعادة الموصل وديار بكر والجزيرة منحها لأحد رجاله ويدعى جاولي في عام ١١٠٦ م، وعهد إليه بإعلان الجهاد ضد الصليبيين. ومن هذا المدخل نجح جاولي في القضاء على جكرمش والاستيلاء على الموصل عام ١١٠٧ م.

وبعد ما نجح جاولي في السيطرة على الموقف أعلن استقلاله بمدينة الموصل، الأمر الذي دفع السلطان محمد إلى تعيين أحد رجاله يدعى شرف الدين مودود جاولي على الموصل وعهد إليه بطرد جاولي . وفي عام ١١٠٨ م نجح مودود في طرد جاولي من الموصل، ففر الأخير إلى الجزيرة وتحالف مع الصليبيين.

والواضح أنه على ضوء هذه الأحداث كتب السلطان إلى الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية وميافارقين وإلى شرف الدين مودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسير في العساكر إلى جهاد الإفرنج وحماية بلاد الموصل ،فجمعا واحتشدا ونهضا ونزلا بجزيرة بني نمير إلى أن تكامل وصول ولاة الأطراف إليها وخلق كثير من المتطوعة، كما وصل إليهما أيضاً الأمير نجم الدين إيلغازي في خلق كثير من التركمان واجتمع المسلمون في عدد لا يقوم بلقائه جميع الإفرنج .

ويروي ابن القلانس أن آراء المجتمعين اتفقت على افتتاح الجهادبقصد مدينة الرها ومضايقتها إلى أن يسهل الله إفتتاحها بحكم حصانتها ومنعتها واستمر الحصار شهرين ونصف (مايو- يوليو ١١١٠ م). ولقد أحاطت القوات الإسلامية بالمدينة من جميع جهاتها كالنطاق ومنعوا الداخل والخارج بالمسير إليها. ولما كانت القوات الصليبية التي بالمدينة قليلة العدد فقد أشرف من بها على الهلاك. ويتضح من العبارة الأخيرة أن المدينة اخذت على غره وأن المسلمين فاجأوها بالحصار.

وأمام هذه الأحداث سارع أمير الرها بلدوين أف برنج Baldwin of Bourg بالاستنجاد بالملك بلدوين أثناء حصاره لمدينة بيروت ومعه أمير طرابلس. وفضل بلدوين إسقاط بيروت على إنجاد الرها، وبعد أن تم له ما أراد اتجه بما له من قوات ويصحبته أمير طرابلس لنجدة المدينة.

ولما عرف القادة المسلمون بقدوم القوات الصليبية، اتفقت آراؤهم على

فك الحصار عن المدينة حتى يتمكنوا من لقاء الصليبيين في الفضاء - حسب قول ابن القلانسي - من شرقي الفرات، فرحلوا عن الرها ونزلت القوات الإسلامية أرض حران على سبيل الخديعة والمكر. كما تم الاتفاق على لقاء الإفرنج عندما يقتربوا من المسلمين وبعد أن تصل عساكر دمشق إلى العسكر الإسلامي.

ولقد فطن الإفرنج لكل هذه الترتيبات فخافوا واستشعروا الهلاك لذلك لم يلاحق الصليبيون القوات الإسلامية، وعاد الملك بلدوين إلى الرها وبدأ في تقوية حامية المدينة ووسائل الدفاع عنها.

الحملة الثانية على الرها ١١١١ م

ارتفعت الأصوات الإسلامية تطالب بالجهاد، لأن سيطرة الصليبيين على بعض الأراضي في بلاد الشام خاصة الساحلية منها قطع أوصال العالم الإسلامي، وعرقل حركة التجارة بين الشام وبقية العالم الإسلامي. ومن مظاهر الغضب الذي عم العالم الإسلامي أن أهل الشام أرسلوا إلى السلطان السلجوقي في بغداد الرسل والكتب تطالبه بالعمل لوضع حد لتصرفات الصليبيين في بلاد الشام، وكان من بين الرسل رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء. ويقول ابن القلانسي أن هذا الجمع اتجه إلى جامع السلطان في بغداد فاستغاثوا وكان يوم جمعة فأنزلوا خطيب المسجد عن المنبر وكسروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، وفي الجمعة التالية فعلوا بمسجد الخليفة ما فعلوه من قبل.

وفي الوقت نفسه أو قبله بقليل كان قد وصل إلى بغداد رسل من قبل الامبراطور البيزنطي الكسيوس حاملين الهدايا والتحف. وكان مضمون رسالة الامبراطور دفع المسلمين على قصد الإفرنج والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل استفحال شرهم.

ومع وجود هذه السفارة البيزنطية واضطراب الأمن داخل بغداد انزعج الخليفة العباسي المستظهر لكل هذا الحماس وأرسل إلى صهره السلطان السلجوقي محمد الذي بادر بإنشاء حلف إسلامي لمواجهة الصليبيين وجعل القيادة الشرقية لابنه مسعود، وتكون هذا الحلف من الأمير مودود صاحب الموصل، وسكمان أمير ميافارقين والأمير أحمديل صاحب مراغه وأبو الهيجاء صاحب أربل وغيرهم.

وسارت القوات الإسلامية بقيادة مودود في يوليو ١١١١ م في طريقها إلى تل باشر من أعمال الرها. وفي الوقت نفسه كان تانكرد أمير إنطاكية يحاصر حلب فأرسل أميرها رضوان إلى مودود يطلب المساعدة. وأثناء حصار تل باشر اقترح أحمديل رفع الحصار عن المدينة والتوجه إلى حلب لمساعدتها. ويرى بعض المؤرخين أن ذلك يرجع لى علاقة مريبة بين أحمديل وجوسلين أمير الرها، فقد ذكر ابن القلانس أن جوسلين صاحب تل باشر أرسل إلى الأمير أحمديل يلاطفه بمال وهدية ويبذل له الكون معه والميل إليه، وسأله الرحيل من الحصن وينزل إليه فأجابه إلى ذلك على كراهية من باقي الأمراء.

لم يكن رضوان صاحب حلب خالص النية عندما أرسل إلى مودود يطلب مساعدته، فعندما اتجهت القوات الإسلامية بعد رفع الحصار عن تل باشر إلى حلب أغلق رضوان أبواب المدينة ولم يتعاون مع القوات الإسلامية المتحالفة، وقبض على بعض الأهالي المنادين بالجهاد، ورتب الجند لحماية أسوار المدينة ومنع أهل المدينة من الصعود إلى أسوار المدينة وأطلق اللصوص في أخذ من يظفرون به من أطراف القوات الإسلامية المتحالفة. وعلى هذه الصورة خاب أمل مودود فتحرك إلى مدينة شيزر حيث لحق به طغتكين أتابك دمشق بأمل القيام بعمل عسكري لاستعادة طرابلس.

ويرجع تحرك القوات الإسلامية المتحالفة إلى شيزر بسبب حصار الصليبيين لها تحت قيادة تانكرد. وعندما علمت القيادة الصليبية بتحرك القوات الإسلامية إلى شيزر إنسحبت إلى مدينة أفاميه وأرسلت إلى الملك بلدوين تطلب

النجدة. واستجاب الملك لدعوة تانكرد وأرسل إلى كافة الإمارات الصليبية لنجدة تانكرد فاجتمع حوالي ستة عشر ألف من الصليبيين من سائر الجهات حسب ما جاء في المصادر الصليبية. ويروي ابن القلانسي «أن ابن منقذ صاحب شيزر وخواصه بالغوا في خدمة الأتابك مودود الذي صعد إلى حصن المدينة وباشر الخدمة بنفسه وأحسن التدبير ووضع فرسانه في الأماكن المناسبة ليمنع الصليبيين من الوصول إلى المدينة حتى طبقوا عليهم ومنعوا عنهم الماء ولم يتمكن أحد من الصليبيين من الاقتراب من نهر العاصي إلا وقتل».

لم تسر الأمور على نحو طيب في صفوف القوات الإسلامية، فانسحبت بعض القوات الإسلامية عائدة إلى بلادها، ولم يكن بوسع مودود القيام بعمل عسكري ضخم ضد القوات الصليبية لتناقص قواته يوماً بعد يوم، ومع اقتراب فصل الشتاء عاد مودود إلى قواعده في الموصل ثم ما لبث أن لقي مصرعه على يد أحد الباطنية في العام الثاني (١١١٣ م).

حملة برسق ١١١٥ م

أدرك السلطان محمد السلجوقي أنه لكي ينتصر على الصليبيين لا بد من فرض سلطانه على كافة الحكام المسلمين في بلاد الشام، وقد أيده الخليفة العباسي في ذلك. وبعد ما اطمأن السلطان إلى ولاء أتابكية الموصل إليه أرسل ابنه مسعود ليحكمها وتولى قيادة جيشه القائد برسق.

إنزعج الأمراء المسلمين والصليبيين من تحرك هذه القوات باستثناء ابن منقذ أمير شيزر وابن قراجا أمير حمص. وتحالفت القوى الإسلامية الأخرى مع بعضها بزعامة طغتكين لمواجهة الموقف كما تحالفت هذه القوى مع روجر Roger أمير إنطاكية.

سار برسق بقواته في طريقه إلى حلب بأمل أن يجعلها مركزاً لقيادته الإسلامية، ولكنه علم أن حلب لا تقف بجانبه، فتحول إلى حمص واستولى عليها ونهبها الأمر الذي أغضب أهالي المدينة. وأمام تحركات برسق استنجد

طغتكين وروجر بالملك بلدوين الذي حضر بقواته، كماراسل الملك بدوره بونز كونت طرابلس للانضمام بقواته إليه فحضر أيضاً.

اتخذ برسق من شيزر مقراً لقيادته، ولما علم بكثرة القوات المجتمعة لقتاله تظاهر بالانسحاب فاطمأنت القوات الإسلامية والصليبية المجتمعة لقتاله وانصرفت إلى قواعدها، ولكن برسق عاد فجأة واتجه إلى كفر طاب وفاجأها واستولى عليها بعد قتال قصير.

لم يكن روجر أمير إنطاكية قد صرف قواته بعد وكان قريباً من هذه الأحداث، وبالقرب من مدينة سرمين استغل روجر الفرصة وفاجأ القوات الإسلامية فساد الخلل ا لعسكر الإسلامي ونجح روجر في ضرب القوات الإسلامية رغم قتال برسق طلباً للشهادة، ولكن رجاله أقنعوه بعدم جدوى القتال فانسحب بمن معه إلى الشرق حيث إقليم الجزيرة. وبهذه الأحداث انتهت آخر محاولات السلطان السلجوقي محمد لاستعادة بلاد الشام. ثم ما لبث أن توفي السلطان في عام ١١١٨ م كماتوفي الخليفة العباسي المستظهر والملك بلدوين في العام نفسه، وحكم مملكة بيت المقدس بلدوين الثاني.

الإمارة الصليبية في عهد بلدوين الثاني ١١١٨ - ١١٣١ م

إن الأحداث الداخلية للإمارات الصليبية في هذه المرحلة كثيرة ومتداخلة كما أن العلاقات السياسية والتجارية وغير ذلك بين المسلمين والصليبيين معقدة للغاية وكثيرة الوقائع، لذلك نكتفي في هذه الصفحات بإلقاء الضوء على بعض الأحداث البارزة التي تعطي للطالب أو القارىء فكرة واضحة عن هذه الحقبة الزمنية التي اعتبرت أكثر الأحقاب خطورة في تاريخ العالم الإسلامي في الشرق الأدنى.

معركة ساحة الدم ١١١٩ م

ومن هذه الأحداث معركة ساحة الدم أو معركة البلاط أو معركة دانيث

البقل أو سرمداً. وترجع أسباب هذه المعركة إلى طمع روجر حاكم إنطاكية في مدينة حلب خاصة بعد سقوط بزاعة في أيدي الصليبيين عام ١١١٩م. ونظراً لانشغال السلاجقة في بغداد وآسيا الصغرى بأمور أخرى غير بلاد الشام إستنجد أهل حلب بالأمير إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين الذي كان يعتبر أقوى أمراء المسلمين وأشدهم صلابة. وكان ايلغازي راغباً في القضاء على الصليبيين ويرى أن ذلك لا يتم إلا بالاستيلاء على حلب، لذلك رحب بدعوة أهل حلب وأعد العدة لنجدتهم.

وتجاوب طغتكين حاكم دمشق وابن منقذ أمير شيزر مع الأمير ايلغازي، وفي نهاية شهر مايو ١١١٩ م سار ايلغازي على رأس قواته التي بلغت كما يقال أربعين ألفاً وعبر الفرات مع مطلع الشهر الثاني في طريقه إلى قنسرين التي تقع جنوب حلب في انتظار بقية القوات الإسلامية. وعلم روجر أمير إنطاكية بهذه التحركات فأرسل يطلب النجدة من الملك بلدوين الثاني الذي أرسل بدوره إلى بونز أمير طرابلس يطلب منه الاستعداد للقتال.

لم ينتظر روجر كثيراً بعد ما انتابه القلق من تحركات المسلمين وبادر بالاستعداد لقتال القوات الإسلامية فقاد كل جيش إنطاكية في العشرين من يونيه وكان في سبعمائة فارس وأربعة آلاف من المشاة وكان جيشه يقل كثيراً عن جيش المسلمين، وسارت القوات الصليبية حتى وصلت إلى تل عفرين إنتظاراً لقدوم الملك بلدوين.

وأحس ايلغازي بتحركات جيش إنطاكية فأرسل رجاله الذين تخفوا في زي التجار واطلعوا على أحوال جيش إنطاكية وأخبروا إيلغازي الذي كان يرى الانتظار حتى تصل إليه بقية القوات الإسلامية، ولكن قادته شجعوه على مهاجمة القوات الانطاكية، فأعد إيلغازي خطته للهجوم وبادر بمهاجمة قلعة الأثارب. وحاول روجر إنقاذ الموقف ولكنه فشل وتمكنت القوات الإسلامية من محاصرة الجيش الصليبي.

أحس روجر بالخطر المحيط بالقوات الصليبية فأعد عدته للقتال وأرسل

بعض رجاله لاستطلاع الموقف ولكن هذه الجموع وقعت في كمين أعده المسلمون، ورجع من سلم منها من الموت ليطلع روجر على الموقف فاتخذ قراره باختراق حصار المسلمين. وفي ا لثامن عشر من يونيه ١١١٩ م وقعت معركة البلاط نسبة إلى المنطقة التي قتل فيها الآلاف من الصليبيين قدرهم ابن العديم بحوالي خمسة عشر ألفاً، ولعل هذا هو السبب بتسميتها عند الصليبيين باسم ساحة الدم. كما لقي روجر أمير إنطاكية مصرعه في هذه المعركة بضربة سيف، ولم يسلم من الصليبيين في هذه المعركة إلا القليل، وهرب الباقون. وقد لجأ بعض النبلاء منهم رينو مازوار Reynald Mazoir كند سطبل إنطاكية إلى برج في مدينة سرمدا، فلاحقهم إيلغازي إلى هناك وأجبرهم على الاستسلام.

وصلت الأنباء المروعة للمعركة إلى إنطاكية، وكان لمصرع روجر أمير الإمارة أسوأ الأثر في نفوس أهل المدينة، واعتقدوا أن إيلغازي في طريقه إليهم، فاستعدوا للقتال رغم قلة ما كان بها من قوات وأغلقوا أسوار المدينة وعهدوا بحراستها إلى البعض وأرسلوا إلى بلدوين يخبرونه بالأحداث ويطلبون منه الإسراع لنجدة المدينة.

لم يواصل إيلغازي زحفه إلى إنطاكية بل سار إلى ارتاح الواقعة إلى الشرق من إنطاكية فاستسلمت له ، ولكنه أبقاها في يد قائد أرميني يدعى يوسف وأبقى أحد رجاله بالمدينة ممثلاً له، ثم عاد من ارتاح إلى حلب. وفي الوقت نفسه وصل بلدوين إلى إنطاكية ورتب أمرها، ولما كان بوهمند الثاني الأمير الشرعي لإنطاكية صبياً لم يتجاوز العاشرة من عمره وكان يقيم في إيطاليا، فقد تقرر وضع الإمارة تحت وصاية الملك بلدوين(١١١٩ ـ ١١٢٥ م).وأخيراً سار بلدوين في موكب حافي القدمين إلى كاتدرائية المدينة يقود جيشاً من الفرسان والمشاة استعداداً لقتال المسلمين.

معركة هاب ١١١٩ م

وبعد سقوط ارتاح استعد إيلغازي لمهاجمة الأراضي الصليبية وانضم إليه

طغتكين حاكم دمشق، وكانت وجهة القوات الإسلامية الحصون الصليبية التي تقع شرق نهر العاصي، وبدأت بمهاجمة حصن الأثارب الذي استسلمت حاميته مقابل الأمان، ثم إلى حصن زردنا. ولما أحس قائد الحامية باقتراب القوات الإسلامية هرب منها فاستسلمت قوات الحامية أيضاً مقابل الأمان ولكن المسلمون قتلوهم عندما دخلوا الحصن.

وسار بلدوين يلاحق القوات الإسلامية وعسكر في أوائل أغسطس عند تل دانيث، وهو الموقع الذي شهد انتصار روجر عام ١١١٥ م. وحاول إيلغازي مهاجمة القوات الصليبية وهي نائمة عند قرية هاب، ولكن بلدوين استعد لمثل هذه الأعمال. ووقعت المعركة بين الطرفين، ولم يكن النصر حاسماً لأي طرف من الأطرف. ثم دارت بعض العمليات العسكرية بين الطرفين وانتهى الأمر باستعادة الصليبيين لكافة المواقع التي استولى عليها المسلمون عدا الأثارب وزردنا والبيرة. وفي النهاية عاد بلدوين إلى القدس بعد أن عهد إلي بطريق المدينة برنارد بإدارة إمارة إنطاكية باسم الملك.

سقوط صور ١١٢٤ م

كانت خسارة الصليبيين في معركة ساحة الدم كبيرة، وفكر بالدوين في التماس العون من القوى الأوروبية، فكتب إلى جمهورية البندقية باعتبارها قوة بحرية يطلب المساعدة. ولعل مرجع اختبار البندقية إلى أن مدينة صور وعسقلان كانا لا يزالا في حوزة الدولة الفاطمية وأن الأسطول المصري لا زال يسيطر على سواحل جنوب الشام. وقدم الملك الصليبي كما هو معروف الامتيازات التجارية للبنادقة إذا قاموا بالمساعدة.

ويتضح من النصوص الصليبية أن البابا كالكتس الثاني Calixtus II (١١١٩ ـ ١١٢٤م) كان على علم برغبة الملك بلدوين وأنه تدخل لدفع البنادقة لمساعدة الملك. ورغم هذا فإن أسطول البنادقة لم يستعد للإبحار إلا بعد ثلاث سنوات، كما أن الصراع الذي وقع بين الامبراطورية البيزنطية والبندقية من أجل الامتيازات التجارة في جزيرة كورفو Corfu أجل قدوم الأسطول إلى

بلاد الشام ـ لبعض الوقت، ولكن وقوع بلدوين في أسر بلك بن بهرام صاحب خرتبرت في الخامس والعشرين من إبريل عام ١١٢٣ م جعل أسطول البنادقة يسرع إلى ساحل الشام.

وصل الأسطول البندقي إلى عكا بعد حوالي شهر، وكان هذا الأسطول يتكون من أكثر من مائة سفينة تحمل أعداداً كبيرة من الفرسان والمشاة بالإضافة إلى أدوات الحصار. وتحركت بعض قطع الأسطول الفاطمي أمام عسقلان لاستطلاع الموقف، فدفع الأسطول البندقي ببعض السفن الصغيرة للظهور أمام الأسطول الفاطمي لإغرائه على متابعتها ونجحت حيلة البنادقة في سحب البحرية المصرية حتى طوقتها فأغرقت أو أسرت كافة قطع الأسطول المصري، كما لحقت الخسارة أيضاً ببعض السفن التجارية التي كانت بالمنطقة.

كان وصول الأسطول البندقي إلى عكا وهزيمته للأسطول المصري مشجعا على استكمال عمليات أخرى بحرية، وجرى التفاوض بين البنادقة وبين قوات الملك بلدوين الأسير على الهجوم على مدينة صور أو عسقلان وانتهى الرأي بمهاجمة مدينة صور نظراً لأهميتها التجارية وموقعها المتميز. ومع مطلع عام ١١٢٤ م تم الاتفاق بين جورمونـد أف بيكيني Gormond of Piquigny بطريق القدس (١١١٨ ـ ١١٢٨ م) ووليم أف بورس William of Bures أمير الجليل عن الجانب الصليبي وبين ممثلين عن البنادقة، وقد جدد هذا الاتفاق الامتيازات التجارية والاقطاعية والمالية الخاصة بالبنادقة.

بدأت الأعمال العسكرية ضد صور في منتصف شهر فبراير ١١٢٤ م وذلك بقيام الأسطول البندقي بحصار المدينة من جانب البحر والقوات الصليبية من ناحية البر فسيطروا على مياه الشرب للمدينة ولكن أمطار الشتاء عوضت هذا النقص لفترة طويلة. وشددت البحرية البندقية حصارها على المدينة لمنع وصول أية إمدادات إليها، ولما كانت مدينة صور تابعة للدولة الفاطمية، فكان على الخليفة الآمر بأحكام الله تولي أمر الدفاع عنها ولكنه عجز بعد تدمير البحرية الفاطمية في العام السابق، لذلك عهد إلى حاكم دمشق

طغتكين بأمر الدفاع عن المدينة، وأسرعت دمشق لنجدة المدينة وأرسلت الجند والمؤن لمواجهة الحصار.

ظل حصار المدينة حتى أوائل يوليو ١١٢٤ م، وطوال هذه المرحلة والقوات الصليبية تقذف المدينة بالحجارة، واستبسل أهل صور في الدفاع عن المدينة باستخدام المجانيق والنار الاغريقية. وتدخل الجيش المصري بأن هاجم أرباض مدينة القدس لسحب الجيش الصليبي من صور، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وكرروا المحاولة ولكنها فشلت هي الأخرى. ويروي ابن القلانس أن الصليبيين ضايقوا المدينة بالقتال والحصار إلى أن خفت الأقوات فيها وعدمت الميره. ويضيف أن المكاتبات نفذت إلى مصر باستدعاء المعونة لها وتمادت الأيام بذلك إلى أن ضعفت النفوس وأشرف أهلها على الهلاك ووقع الناس في اليأس من المعونة. وزاد من يأس أهل المدينة أن قوات إمارة طرابلس انضمت إلى القوات الصليبية لمساندتها.

وعند هذه المرحلة راسل طغتكين الإفرنج بالملاطفة والمداهنة والإرهاب والإرغاب إلى أن تقرر الحال على تسليم المدينة إلى الصليبيين بحيث يؤمن كل من بها ويخرج من أراد الخروج من العسكر والرعية حاملين متاعهم، ويقيم بالمدينة من أراد الإقامة. وفي السابع من يوليو وقف طغتكين في عسكره بإزاء الإفرنج وفتح باب المدينة وأذن للناس بالخروج فحمل كل منهم ما خف عليه وطاق حمله وترك ما ثقل عليه وهم يخرجون بين الصفين ولم يتعرض أحد من الإفرنج لأحد منهم حتى خرج كافة العسكر والرعية ولم يبق بالمدينة إلا الضعيف الذي لم يستطع الخروج فوصل بعضهم إلى دمشق وتفرق الباقي في البلاد.

وتولى أمر المدينة الجيش الصليبي ورفع علم الملك بلدوين على المدخل الرئيسي للمدينة، كما رُفع علما كونت طرابلس ودوج البندقية على الأبراج. وبسقوط مدينة صور لم يتبق على الساحل الشامي سوى مدينة عسقلان تابعة للدولة الفاطمية.

تنظيم مملكة بيت المقدس الصليبية

اختير جودفري أف بويون الذي اعترف له آخر الأمر بالصلاح والتقوى المنقطعي النظير حاكماً على بيت المقدس على أن يلقب بهذا اللقب المتواضع وهو «حامي الضريح المقدس». ولم يعترف الحاكم الجديد أنه خاضع للامبراطور الكسيوس لأن الحكم البيزنطي لهذه المدينة كان قد انقضى منذ ٤٦٥ عاماً، ولهذا أصبحت مملكة بيت المقدس اللاتينية من يوم إنشائها دولة مستقلة كاملة السيادة. وحرم فيها المذهب الأرثوذكسي الشرقي. وفر البطريق اليوناني إلى قبرص، وقبلت أبرشيات المملكة الجديدة الشعائر اللاتينية، والمطران الايطالي والحكم البابوي.

وبعد فإن ثمن السيادة هو القدرة على الدفاع عنها. وهذا هو الثمن الذي كان على الصليبيين أن يؤدوه، فقد وصل إلى عسقلان بعد أسبوعين من هذا الانتصار جيش مصري يهدف إلى استعادة المدينة المقدسة في أديان كثيرة. وهزم جودفري هذا الجيش القادم، ولكنه مات بعد سنة واحدة من تلك المعركة (١١٠٠ م)، وخلفه أخوه بلدوين (١١٠٠ - ١١١٨ م)، وهو أقل منه كفاءة واتخذ لنفسه لقباً أسمى من لقبه وهو لقب ملك، وشلمت المملكة الجديدة في عهد الملك فولك Fulk كونت أنجو (١١٣١ - ١١٤٣ م) الجزء الأكبر من فلسطين وسوريا، ولكن المسلمين ظلوا مالكين حلب، ودمشق، وحمص، وقسمت المملكة أربع إمارات إقطاعية هي مملكة بيت المقدس، وإمارات انطاكية، والرها، وطرابلس، ثم جزئت كل إمارة إلى اقطاعيات تكاد كل منها أن تكون مستقلة عن الأخرى، وكان سادتها الصليبيون يشنون الحروب بعضهم على بعض، ويسكون العملة، ويحاكون الملوك المستقلين في هذه وغيرها من الشؤون.

وكان الأشراف هم الذين يختارون الملك، وتقيده سلطة كنيسة دينية لا سلطان عليها لغير البابا نفسه. وكان مما أضعف سلطان الملك غير هذا أنه أسلم عدة ثغور: يافا، وصور، وعكا، وبيروت، وعسقلان - إلى البندقية،

وبيزا، وجنوه، نظير ما تقدمه للمملكة الصليبيةمن معونة حربية وما تحمله لها بطريق البحر من مؤن. أما تنظيم المملكة وقوانينها فكانت تضعهـا المحاكم العليا في بيت المقدس ـ وكان هذا إحدى النتائج المنطقية للحكم الاقطاعي من الوجهة القانونية. وادعى الأشراف ملكية الأرض جميعها، وأنزلوا ملاكها السابقين ـ سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ـ منزلة أرقاء الأرض، وفرضوا عليهم واجبات إقطاعية أشد قسوة مما كان منها وقتئذ في أوروبا، حتى أخذ سكان البلاد المسيحيون ينظرون بعين الحسرة إلى حكم المسلمين ويعدونه من العصور الذهبية التي مرت بالبلاد. وكان في المملكة الناشئة كثير من أسباب الضعف،ولكنها كانت تتلقى معونة كبيرة من نظام الرهبان الحربيين. ذلك أن تجار أمالفي Amalfi كانوا قد حصلوا من المسلمين منذ عام ١٠٤٨ م على إذن ببناء مستشفى في بيت المقدس لإيواء الفقراء والمرضى من الحجاج. ثم نظم ريموند أف لبوي Raymond of lepuy رجال هـذه الجماعة تنظيماً جديداً فجعلهم هيئة دينية تكرّس حياتها للعفة، والفقر، والطاعة ، وحماية الصليبيين في فلسطين بالدفاع عنهم دفاعاً عسكرياً، ومن ثم أصبح الفرسان فرسان القديس يوحنا أو الاسبتارية Hospitallers من أقوى الهيئات في العالم في بلاد الشام والعالم الأوروبي.

وحدث حوالي ذلك الوقت نفسه (١١١٩ م) أن نذر هيو أف باينز Hugh of Payans وثمانية آخرون من فرسان الصليبيين أنفسهم للرهبنة، وخدمة القوات الصليبية، وقد حصلوا من بلدوين الثاني على مبنى لهم بالقرب من الموضع الذي كان فيه هيكل النبي سليمان، وقد اطلق عليهم اسم فرسان المعبد Templers ووضع لهم القديس برنارد Bernard نظاماً صارماً، لم يطبقوه زمناً طويلاً، وكان من المعروف أنهم أكثر الناس علماً بفن الحرب، وكانوا لا يغتسلوا إلا نادراً ويقصوا شعر رؤوسهم، وكتب برنارد إلى فرسان المعبد يقول: «أن على المسيحي الذي يقتل غير المسيحي في الحرب المقدسة، أن يثق بما سينال من ثواب، وعليه أن يكون أشد وثوقاً من هذا

الثواب إذا قتل هو نفسه، وأن المسيحي ليبتهج بموت الكافر لأن المسيح يبتهج بهذا الموت»، ومن الواجب على الناس أن يقتلوا وهم مرتاحوا الضمير إذا كانوا يريدون النصر في الحروب. وكان الواحد من فرسان المستشفى يلبس مئزراً أبيض وعلى «سترته» صليباً أحمر. وكانت كلتا الطائفتين تكره الأخرى كرهاً كثيراً، وانتقل فرسان المستشفى (الاسبتارية) من تمريض الحجاج إلى الهجوم على حصون المسلمين. ومع أن فرسان المعبد لم يكونوا يزيدون على ثلثمائة، وأن فرسان المستشفى كانوا حوالى ١١٨٠، فقد كان لهم جميعاً شأن ظاهر في معارك الحروب الصليبية وذاعت شهرتهم الحربية. وقامت الطائفتان بحملة واسعة لجمع المال، فتوالت عليهم الإعانات من الكنيسة والدولة، ومن الأغنياء والفقراء على السواء، فلم يحل القرن الثالث عشر حتى كانت كلتاهما تمتلك في أوروبا ضياعاً واسعة تشمل أديرة، وقرى، وبلداناً، وأدهشت كلتاهما المسيحيين والمسلمين، بما أنشأت من الحصون الواسعة في بلاد الشام، حيث كانوا يستمتعون بالترف مجتمعين، وسط متاعب الحروب وقسوتها، مع أنهم قد نذروا أنفسهم فرادى للفقر. وفي عام ١١٩٠ م أنشأ ألمان فلسطين طائفة الفرسان التيوتون بمعونة عدد قليل من الإلمان في بلادهم الأصلية، وأقاموا لهم مستشفى قرب عكا.

وعاد معظم الصليبيين إلى أوروبا بعد الإستيلاء على بيت المقدس، فقل بذلك عدد الرجال الذين تعتمد عليهم الدولة المزعزعة الأركان نقصاً يعرضها للخطر الشديد. ووفد على البلاد كثيرون من الحجاج ولكن قلما بقي فيها عدد منهم للقتال. وكان البيزنطيون في الشمال يترقبون أي فرصة تتاح لهم لإستعادة إنطاكية والرها وغيرها من المدن التي كانوا يدعون أنها مدن بيزنطية، وأخذ الحكام المسلمون ينشطون ويقيمون صفوفهم بتأثير النداءات الإسلامية والغارات الصليبية. وكان المسلمون الذين هربوا من فلسطين يقصون عليهم الحوادث المفصلة المحزنة التي أعقبت سقوط المدينة في أيدي المسيحيين. واقتحمت هذه الجموع مسجد بغداد الجامع وأهابت بالجيوش

الإسلامية أن تحرر بيت المقدس وقبة الصخرة المقدسة من أيدي الصليبيين. وكان الخليفة العباسي عاجزاً لا يستطيع تلبية النداء، وتمخض عن هذه الوقائع أن ظهر على مسرح الأحداث عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين ليتوليا عبء الدفاع عن الممتلكات الإسلامية في الشام.

عماد الدين زنكي والصليبيون

يرجع عهد عماد الدين زنكي بالمنطقة عندما تولى حكم الموصل والجزيرة في عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧ م، وقد كان زنكي يؤمن بضرورة توحيد القوى الإسلامية في الشام حتى يتمكن من مواجهة القوى الصليبية، فبعد أن نظم أموره في الموصل استولى على نصيبين من الأراتقة، ثم اتجه إلى حران التي كانت دائماً تحت رحمة الصليبيين وشبه محاصرة بهم، بسبب تعرضها للهجمات المتكررة من الرها وسروج والبيرة، ثم استولى في العام التالي على حلب التي كانت عرضة للهجمات الصليبية من وقت لآخر، كما دان له أمراء بني منقذ في شيزر بالولاء، ومع نهاية عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م، كان عماد الدين يعمل على امتلاك حمص. وبذلك تمكن من إخضاع شمال الشام لسلطانه، في الوقت الذي كان تاج الملوك بوري يحكم دمشق وفي صراع مع عماد الدين، والمهم أن عدم وفاق حاكم دمشق مع عماد الدين لم يكن عقبة في سبيل تحقيق أهدافه، ففي الوقت نفسه كان يعمل على توحيد الشام وكان في صراع دائم مع الصليبيين. وقد أحس القادة الصليبيون بقوة عماد الدين زنكي خاصة عندما قامت أليس Alice أرملة بوهمند الثاني أمير إنطاكية وابنة الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس في عام ١١٣٠ م/ ٥٢٤ هـ بمراسلة عماد الدين زنكي لمساعدتها في الانفراد بحكم إنطاكية ومناصرتها على الأمراء الصليبيين في تحقيق أهدافها، وذلك مقابل الدخول في طاعته.

ورغم عدم وصول الرسالة إلى عماد الدين زنكي إلا أن مثل هذا الأمر يوضح لنا مدى ما كان لزنكي من نفوذ في المنطقة، وهو ما جعل بلدوين الثاني

يسرع إلى إنطاكية عندما سمع هذه الأخبار السيئة حسب تعبير المؤرخ وليم الصوري ويدخل المدينة ويضعها تحت وصايته، وقد ظل هذا الوضع حتى مات في سنة ١١٣١ م، وانتقلت الوصاية من بعده بعد صراع، إلى فولك الأنجوي ملك بيت المقدس أيضاً.

وإذا كانت الأميرة الإنطاكية أليس لم تنجح في الاتصال بعماد الدين لمساعدتها ووقوعها في صراع مع والدها والنبلاء الآخرين بدلاً من انفرادها بحكم إنطاكية، فنجدها تلجأ إلى طريقة أخرى وهي الاتصال بالامبراطور البيزنطي يوحنا تعرض عليه زواج ابنتها الأميرة كونستانس من ابنه مانويل، ولا شك أن مثل هذا العرض قد لقي قبولاً حسناً من قبل الامبراطور، لأن ذلك يعني دخول إنطاكية في تبعية بيزنطية وهي ما تسعى إليه جاهدة منذ الحملة الأولى، وهو الأمر الذي لا يقره بقية الزعماء الصليبيين، لذلك سارعوا بتزويج كونستانس من ريموند اف بواتيه. وقد غضب يوحنا من هذا الزواج الذي تم دون استشارته باعتبار إنطاكية تابعة له من الناحية الإسمية، وبذلك بات الصدام وشيكاً بين يوحنا وريموند. ونزل يوحنا إلى الشام بجيشه مهدداً إنطاكية عام ١١٣٧ م، ولكن ريموند عمل على استرضاء يوحنا وقدم له يمين الولاء وتم الاتفاق بينهما، وفي هذا الاتفاق تجلت أطماع الامبراطورية البيزنطية في أملاك المسلمين بالشام، وفي هذا الاتفاق أيضاً تم تحالف بيزنطي صليبي ضد المسلمين بغرض الاستيلاء على حلب وشيزر وكل المناطق المجاورة لها لتكون ملكاً للامبراطور البيزنطي الذي يقوم بدوره بتسليمها إلى ريموند اف بواتيه مقابل تسليم الأخير مدينة إنطاكية للامبراطور واتفقا على إنجاز هذا العمل في صيف العام التالي ١١٣٨ م، ويبدو أن هذا الاتفاق قد تسربت أخباره إلى أهالي حلب الذين شرعوا في تحصين المدينة وحفر خنادقها، كما أن الأمير سوار حاكم حلب من قبل عماد الدين قام بمهاجمة الجيش البيزنطي أثناء عودته من إنطاكية إلى أرمينية وظفر «بسرية وافرة العدد من عسكره، فقتل وأسر، ودخل بهم إلى حلب» ورغم ما كان يضمره يوحنا من سوء النية وما كان يبيته من هجوم

على حلب في العام التالي إلا أنه تظاهر بالود تجاه عماد الدين وأرسل إليه رسولاً فأكرمه عماد الدين ورده «ومعه هدية إلى ملك الروم فهود وبزاة وصقور» مع حاجبه حسن، وقد أخبر الامبراطور البيزنطي يوحنا رسول عماد الدين بأنه ذاهب لقتال الأرمن، وبهذه الطريقة أراد يوحنا خداع عماد الدين حتى يطمئن إليه.

ومن العوامل التي ساعدت على التقارب البيزنطي الصليبي في هذه المرحلة أن عماد الدين حاصر قلعة بعرين عام ٥٣١ هـ/ ١١٣٧ م وشدد الحصار على سكانها حتى أكلوا الدواب، «فدخلت القسوس والرهبان إلى بلاد الروم والإفرنج مستنصرين على المسلمين» وربما يكون ذلك من الأسباب التي جعلت يوحنا يتفق مع ريموند لمحاربة المسلمين لا من أجل امتلاك أراضيهم ولكن من أجل إرضاء عامة الصليبيين بعدما استنجدوا به وبعد إحساسه بأنه حامي الممتلكات الصليبية في الشام، لذلك اتفق ريموند بأن يسلمه ما يفتحه من بلاد المسلمين مقابل الحصول على إنطاكية.

ومع بداية عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨ م، قام الامبراطور بإرسال مبعوثيه إلى ريموند وجوسلين للاستعداد للقتال لتنفيذ اتفاق عام ١١٣٧ م وكان مما فعله الصليبيون حتى تسير عملياتهم في سرية تامة أن قاموا بالقبض على «التجار بإنطاكية والسفار من أهل حلب» حتى لا تتسرب أنباء القتال والحشود العسكرية عن طريق هؤلاء التجار إلى القادة المسلمين. وفي أول إبريل ١١٣٨ م/ ١٨ رجب ٥٣٢ هـ غادر يوحنا قليقية في الطريق إلى الشام حسب ما ذكره وليم الصوري ولكنه لم يشر إلى مكان تجمع القوات المتحالفة، والواضح أن السرية التي أحاطت بها القوات المتحالفة تحركاتها العسكرية قد نجحت فقد «ظهر ملك الروم بغتة من طريق مدينة البلاط واتخذ طريقه إلى مدينة بزاعة التي حاصرتها القوات المتحالفة سبعة أيام حتى سلمت المدينة بالأمان ولكنهم غدروا بأهلها» وأسروا ستة آلاف أو يزيد عن ذلك وعهد يوحنا بهؤلاء الأسرى إلى أحد القادة البيزنطيين ويدعى توماس Thomas كما سلّم الامبراطور المدينة

نفسها إلى جوسلين كونت الرها. وهنا نتساءل عن تسليم المدينة إلى جوسلين وليس إلى ريموند رغم وجوده في أرض المعركة، وفي الواقع لم يشر المؤرخ وليم الصوري، المعاصر لتلك الأحداث عن حصار هذه المدينة مما يزيد المشكلة تعقيداً، وربما نجد مخرجاً لذلك إذا كان المؤرخ البيزنطي كيناموس قد خلط بين ريموند وجوسلين، وعلى أية حال فبعد الانتهاء من هذه الأعمال العسكرية اتجه المتحالفان إلى مدينة حلب ونصب الامبراطور خيمته عند نهر قويق وبدأ القتال يوم الثلاثاء ١١ شعبان ٥٣٢ هـ/ ٢٤ إبريل ١١٣٨ م، ولما كانت المدينة قد استعدت للقتال، فقد رفع يوحنا الحصار عنها بعد يوم واحد عندما تبين له حصانة المدينة.

وفي اليوم التالي اتجهت القوات المتحالفة إلى الأثارب ومعهم أسرى بزاعة فانزعج أهالي مدينة الأثارب «وأحرقوا خزائنها»، فاستولى المتحالفون على المدينة بعد انسحاب الحامية الإسلامية وأقاموا عليها حامية بقيادة القائد البيزنطي توماس أيضاً واتخذت القوات الرئيسية المتحالفة طريقها بعد ذلك إلى معرّة النعمان، وعندما علم الأمير سيف الدين سوار حاكم حلب برحيلهم حمل على الأثارب ونجح في تخليص معظم الأسرى منتهزاً فرصة انتشار الحامية البيزنطية في المدينة. ولا شك أن أعمال حاكم حلب قد رفعت الروح المعنوية لقوات المسلمين وهو ما عبّر عنه ابن القلانسي بقوله «سر أهل حلب بهذه النوبة سروراً عظيماً». أما الامبراطور يوحنا فقد اتخذ طريقه إلى شيزر بعد ما استولى على كفر طاب واستراح في جسر الحديد بعدما هجرها أهلها، ويروي ابن الأثير أن سبب توجه الامبراطور إلى شيزر «أنها ليست لأتابك» زنكي فلا يهتم بحفظها فقد كانت للأمير أبي العساكر سلطان بن منقذ. والواقع أن يوحنا لم يعمل على مهاجمة أملاك زنكي فقط بل كان يعمل على تنفيذ اتفاق عام ١١٣٧ م الذي يشمل حلب وشيزر والأراضي المجاورة.

اتجه يوحنا والقوات المتحالفة إلى شيزر في ١٦ شعبان ٥٣٢ هـ/ ٢٦ إبريل ١١٣٨ م، وهي المدينة ذات الحصانة الطبيعية، فاستنجد ابن منقذ بعماد

الدين زنكي، وأتم يوحنا حصار المدينة وبدأ في ضربها بالمنجانيقات، وظل أهل المدينة الواثقين من حصانتها يدافعون عنها ببسالة واستمر القتال يسير بضراوة طوال عشرة أيام قام خلالها الامبراطور يوحنا بنشاط ملحوظ، فقد ظهر وسط القوات وعلى رأسه خوذة من الذهب يجمع بعض القوات ويشجع البعض الآخر، ويثير حمية فريق ثالث ويلهب حماس الرجال في إعداد آلات القتال، وقد أشار إلى ذلك بوضوح وليم الصوري المعروف بعدائه للامبراطور يوحنا. كما أن عماد الدين قام هو الآخر بدور كبير في مناوشة المتحالفين وأخذت عساكره تتخطف العساكر البيزنطية والصليبية التي تخرج لطلب المؤن أو للقيام بأعمال النهب. ولما يئس المتحالفون من الاستيلاء على المدينة رفعوا الحصار بعدما أحرقوا آلاتهم وتركوا البعض الآخر وقد نقله المسلمون بعد ذلك إلى حلب.

بعد هذا العرض الموجز لهذه العمليات العسكرية يهمنا أن نوضح أسباب فشل هذه الحملة، ومن هذه العوامل تراخي الأمراء الصليبيين في مساندة الامبراطور يوحنا وهو ما سبق أن أوضحناه. ومما هو جدير بالذكر أن هذه الحملة وإن كانت تشتمل على قوات بيزنطية صليبية إلا أن العبء الأكبر، وليس العبء كله على سبيل التحفظ، وقع على كاهل القوات البيزنطية.

وإذا كان التحالف بين الامبراطور وريموند هو ما جعلنا نطلق عليه التحالف البيزنطي الصليبي، ففي الواقع يمكن اعتبارها من الناحية الفعلية حملة بيزنطية.

وعامل آخر يضاف إلى ذلك وهو النجدات الإسلامية، فقد قام عماد الدين بطلب النجدة العاجلة من الخليفة العباسي ولكن الخليفة رفض في أول الأمر ثم وافق على كره منه، ومن هذه المعلومة التاريخية نستنتج أن قوات عماد الدين لم تكن كافية لمواجهة القوات الصليبية والبيزنطية، وحتى تأتي إليه النجدات التي لم يكن يعلم ما يدور بأمرها قام بعمل آخر يمكن أن نطلق عليه نوعاً من الحرب النفسية إن جازت هذه التسمية في هذه الفترة من الزمان، وذلك

أن عماد الدين راسل المتحالفين وهم في مواقعهم الحصينة عند مدينة شيزر يقول لهم «إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم وإن ظفرتم بي استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها. . . فأشار الفرنج بالنزول إليه وقتاله»، ولكن الامبراطور يوحنا خاف وأجاب «أتظنون أنه ليس من العسكر إلا ما ترون؟ وإنما يريد أنكم تلقونه فيجيء إليه من نجدات المسلمين ما لأحد عليه» وفي الوقت نفسه كان زنكي يراسل الامبراطور يوحنا يخوفه من الصليبيين ونفس الحال مع الصليبيين ويقول لهم أن الامبراطور «إن ملك بالشام حصناً واحداً ملك بلادكم جميعاً، فاستشعر كل من صاحبه» ولقد تحققت مخاوف يوحنا من النجدات الإسلامية عندما بلغه أن قرا أرسلان بن داود بن سكمان صاحب حصن كيفا قد عبر الفرات في جموع عظيمة لذلك أحرق المتحالفون «آلات الحصار، ورحلوا عن شيزر».

ومن العوامل التي أدت إلى رفع الحصار عن شيزر ما قام به ابن منقذ، عندما رأى إمارته تتعرض لمثل هذا الخطر، وراسل الامبراطور سراً وعرض عليه تعويضات مجزية عن نفقات الحرب ولكن هذا العرض الذي رفضه الامبراطور أكثر من مرة في أول الأمر، عاد وقبله بعدما تبين له عدم اهتمام الصليبيين وتقصيرهم في مساعدته لتحقيق مشروعاته.

وثمة عامل آخر يمكن إضافته إلى هذه العوامل وهو أن يوحنا خرج بجيشه من أجل العمل على ضم إنطاكية إلى أملاك بيزنطة لا من أجل فقدان بعض أملاك الامبراطورية، فقد انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم فرصة تواجد يوحنا بعيداً عن الامبراطورية وانشغاله بأمر الصليبيين وعماد الدين زنكي وقام بمهاجمة مدينة أدنة، ولا شك أن مثل هذه الأنباء قد أزعجت الامبراطور وحملته على فلك الحصار والشروع في العودة إلى أراضي الامبراطورية لحمايتها من السلاجقة.

ويضاف إلى ذلك الدورالمريب الذي لعبه جوسلين كونت الرها في هذه

المرحلة، فقد كان يخشى أن يصبح ريموند بعد ذلك قوة يخشى بأسها على ممتلكاته وحاول الإيقاع بين الامبراطور يوحنا وبين ريموند وقد أتت هذه السياسة أكلها عندما انسحب يوحنا من شيزر وعاد ليطالب بأنطاكية وقلعتها.

بهذه العوامل مجتمعة وهي عدم قيام الصليبيين بواجباتهم العسكرية وانصرافهم عن مساندة الامبراطور، وخوفه من القوات الإسلامية وما تصل إليها من نجدات، والدور الذي لعبه عماد الدين زنكي من إرهاب الامبراطور وإيقاع الخلاف بينه وبين حلفائه الصليبيين، والأموال التي بذلها ابن منقذ، ومهاجمة مسعود أملاك الامبراطورية، انسحب يوحنا من أمام شيزر، وتمكن المسلمون بعد ذلك من استرداد جميع الأراضي التي فتحها يوحنا. وعاد إلى إنطاكية لمحاولة ضمها إلى أملاك الامبراطورية. وبعد فشله عاد إلى أرمينية التي أمكن السيطرة عليه وإخضاعها لسلطانه. ولما كانت مسألة إنطاكية شغله الشاغل طوال حياته فقد عاد إليها مرة أخرى عام ١١٤٢ م، ولكنه فشل أيضاً هذه المرة فانسحب إلى قليقية ليستعد لمهاجمتها في ربيع العام التالي ولكنه مات هناك وخلفه ابنه مانويل الأول.

الفصل الثاني

الحملة الصليبية الثانية

أسباب الحملة

مات فولك أف انجوى Fulk of Anjou ملك مملكة بيت المقدس في العاشر من نوفمبر ١١٤٣ م/ آخر ربيع ثان ٥٣٨ هـ، وخلفه ابنه بلدوين Baldwin (١١٤٣ - ١١٦٢ م/ ٥٣٨ - ٥٥٨ هـ). ولما كان بلدوين في الثالثة عشرة من عمره فقد تولت أمه مليسند Melisend أمر الوصاية على المملكة. أما إمارة الرها فقد حكمها جوسلين الثاني Joscelin II (١١٣١ - ١١٥٠ م/ ٥٢٥ - ٥٤٥ هـ) وهو الذي ورث عن أبيه الثروة والجاه، ولكنه ما لبث أن أسلم نفسه لشهواته وأهمل أمر الدفاع عن الإمارة، وتراخى في دفع مرتبات الجنود وطابت له الإقامة في مدينة تل باشر. يضاف إلى ذلك عدم الوفاق بين الصليبيين الأوائل، هذا فضلاً عن الصراع الذي قام بين جوسلين وريموند أف بواتيه Raymond of Poitiers أمير إنطاكية ١١٣٦ - ١١٤٩ م/ ٥٣٠ - ٥٤٤ هـ، بصفة خاصة، وهما أميرا الرها وإنطاكية اللذين يتوليا أمر حماية الإمارات الصليبية من الشمال.

أخذ عماد الدين زنكي أتابك الموصل ٥٢١ - ٥٤٠ هـ/ ١١٢٧ - ١١٤٦ م يرقب هذا الموقف بعدما أراحه موت الامبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنينوس John Comnenus II (١١١٨ - ١١٤٣ م)، وهو الذي كان من أشد أعدائه بأساً وقوة، وانشغال الامبراطور مانويل الأول Manuel I (١١٤٣ - ١١٨٠ م) بأمر العرش البيزنطي وصراعه مع أمير إنطاكية الذي تمرد على السيادة البيزنطية. يضاف إلى ذلك موقف الامبراطور مانويل من الأمير الأرميني ثوروس

الثاني Thoros II (١١٤٤ - ١١٦٧ م) فلقد هرب ثوروس من القسطنطينية وشرع في إعادة إحياء الإمارة الأرمينية في الوقت الذي وقف منه مانويل موقفاً سلبياً ولم يقم بأي عمل لمقاومة ثوروس. ومن ناحية أخرى فإن قيام الإمارة الأرمينية المعادية للامبراطورية البيزنطية أصبح بمثابة خط دفاع أمامي عن الممتلكات الإسلامية في الشام.

لكل هذه العوامل مجتمعة خطط عماد الدين زنكي لضرب الإمارات الصليبية في الشام واتخذ مدينة الرها هدفاً له، ويرجع اختيار زنكي لهذه المدينة لعاملين مباشرين: أولهما أن زنكي كان في هذا الوقت في صراع مع الأراتقة واستولى على بعض حصونهم، لذلك لجأ الأراتقة إلى طلب النجدة من جوسلين وسلموه مقابل ذلك قلعة بابولا Babule التي تقع قرب جرجر Garger واستعد جوسلين فعلاً لمساعدتهم ضد زنكي، وثانيهما أن السلطان مسعود السلجوقي ٥٢٧ - ٥٤٧ هـ/ ١١٣٢ - ١١٥٢ م في بغداد كان في نزاع مع عماد الدين، فلمااستقر الأمر بينهما، طلب السلطان مسعود من عماد الدين زنكي أن يحضر إلى بغداد ليكون في خدمته، ولم يكن زنكي راغباً في ذلك فاعتذر للسلطان عن تلبية طلبه وعلل عذره بانشغاله بأمر الصليبيين المتاخمين لممتلكاته فقبل مسعود عذره «وشرط عليه فتح الرها».

وفي الواقع لم يكن عماد الدين زنكي في حاجة إلى شرط السلطان مسعود لفتح الرها فقد كان «لها طالباً وفي تملكها راغباً ولانتهاز الفرصة منها مترقباً لا يبرح ذكرها» وبدأ يخطط لمهاجمة المدينة، ولكي يوهم الصليبيين بأنه سوف لا يقصد بلادهم في القريب العاجل لكي يطمئنوا إلى جانبه، شغل نفسه بالحرب مع الأراتقة، ولم يدخل معهم في حرب بالمعنى المفهوم وهو القائد المحنك الذي لا يرهق قواته قبل الدخول في معركة كبرى، وإذا كان عماد الدين قصد بلاد الأراتقة «فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم ويطلبهاوسواها يروم». كما أن عماد الدين كان يعلم أن جوسلين أمير الرها يفضل الإقامة في تل باشر

حيث تروق له الحياة هناك وينصرف لشهواته، لذلك خصص له بعضاً من رجاله على رأسهم فضل الله بن جعفر نائبه على حران لمراقبة تحركاته. وانخدع جوسلين بحيلة عماد الدين وظن أنه «لا فراغ له إليه وأنه لا يمكنه الإقدام عليه «فغادر الرها إلى تل باشر كعادته، فجاءت «عيون أتابك إليه فأخبرته»، ويبدو أن زنكي أراد أن يؤمن ظهره في هذه الفترة ويريح نفسه من الأراتقة ويتفرغ للعمل الخطير المقدم عليه، فعقد الهدنة مع بني أرتق، ثم ما لبث أن نادى العسكر بالرحيل، فتبعته العساكر يتلو بعضها بعضاً «عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضاً» وألقي الحصار على المدينة، وكان زنكي لما شاهد الرها ورآها تجمع بين «الحصانة والحسن» راسل أهلها ليسلموا إليه المدينة سلماً، مقابل ما بذل لهم من الأمن والأمان ولكنهم رفضوا، فأمر زنكي بنصب المنجانيقات ونقب الأسوار، ويلاحظ أن زنكي كان يعمل للاستيلاء على المدينة في أقصر وقت ممكن قبل أن تصل النجدات إليها لذلك كانت قواته تعمل طوال النهار وتراقب بالليل ولم تعط لأهل المدينة فرصة للراحة، وحاول جوسلين وبعض قواته دخول المدينة ولكن شدة الحصار لم تمكنه من بلوغ هدفه، وظل زنكي محاصراً للمدينة ولم تنجح المحاولات المستميتة التي بذلها أهل المدينة من الأرمن والسريان والصليبيين في حفظ المدينة وانتهى الأمر بأن استولى عليها زنكي وعلى قلعتها عنوة بعد ثمانية وعشرين يوماً، وسقطت في الثامن والعشرين من جمادي الآخر ٥٤٩ هـ/ الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٤ م.

وكان جوسلين قد راسل ريموند أف بواتيه أمير إنطاكية يتضرع إليه لمساعدته في محنته وأن يتقدم بقواته لمساندته في إنقاذ الرها ولكن ريموند اعتذر عن تلبية طلبه، وربما يكون ذلك بسبب عدم الوفاق بين الأميرين أو خوف ريموند من تحول عماد الدين إليه بعد الرها. وكل ما قامت به الإمارات الصليبية لمساعدة جوسلين جاء من قبل مليسند الوصية على مملكة بيت المقدس، فعندما علمت بذلك طلبت من بعض القادة الصليبيين التقدم لإنقاذ الرها، ولكن هذه النجدة وصلت بعد فوات الأوان. وضاعت الرها واستعادها

المسلمون، ولقد «كان فتحاً عظيماً» واستحق كما يرى المؤرخ ابن الأثير أن يسمي فتحها «فتح الفتوح».

وأفاضت المصادر الغربية والصليبية واليهودية في الأعمال الوحشية التي أنزلها رجال زنكي بالمدينة، وتناسوا أن زنكي لما دخل الرها أمر بإعادة ما أخذ من السبايا والأموال وأنه أعاد المدينة إلى ما كانت عليه، وأنه أحسن إلى الرعية «وكتب إلى النصارى أماناً». حقيقة أن زنكي خرب الكنائس الثلاثة التي كان يستعلمها الصليبيون الكاثوليك واستخدم حجارتها في إصلاح سور المدينة، أما باقي الكنائس التي تتعلق ببقية الطوائف الأخرى، فقد قام بإصلاحها، كما أصلح المسجد الذي كان يتخذه أسقف المدينة مقراً له، كما أن زنكي أحاط جميع سكان المدينة بعطفه ورعايته وأنه صرح لأهالي المدينة الذين غادروها تحت تأثير الاضطهاد الديني الذي تعرضوا له من قبل الصليبيين الكاثوليك، صرح لهم بالعودة إلى المدينة. يضاف إلى ذلك العفو الذي غمر به زنكي رجال قلعة المدينة الذين ظلوا يقاوموا حتى النهاية وبذلك كسب زنكي محبة أهل المدينة واطمأنوا على مصائرهم. وليس أدل على ذلك مما رواه المؤرخ السرياني المجهول وهو من أهل المدينة أن نور الدين زنكي قام بزيارة المدينة بعد سنة من سقوطها للاستفسار عن حاجة أهل المدينة، فخرجت إليه كل طوائف أهل المدينة لاستقباله، كما أن نور الدين عندما علم بمرض مطران المدينة بادر بالاستفسار عن صحته.

ترتب على استرداد الرها عدة نتائج، منها أنها كانت أول ضربة عملية ضد أول إمارة أقامها الصليبيون في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، وإزالة الخطر الذي يهدد القوافل الإسلامية التي تمر عبرها إلى شتى البقاع، وشجع المسلمين في الانقضاض على بقية إمارة الرها. وليس ذلك فحسب فإن سقوط مدينة الرها قد غيّر موازين القوى في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ودفع المسلمين إلى محاولة استعادة أراضيهم بعدما لمسوا ضعف الكيان الصليبي «فقد صارت عقود الفرنج في ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع

وعقائلها تفترغ». ومن ذلك أن زنكي اتجه إلى سروج، في الشهر التالي لسقوط الرها، وهي من القلاع الصليبية الحصينة الواقعة في شرق نهر الفرات واستولى عليها، ثم تقدم إلى البيرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام ومن أمنع الحصون الصليبية التابعة لجوسلين وضيق عليها الحصار وأشرف على فتحها، ولكن خبر مقتل نصير الدين نائبه في الموصل اضطره لرفع الحصار والعودة إلى الموصل. وبعد رحيل زنكي خاف أهل البيرة - من الصليبيين - عودته مرة أخرى فسلموا المدينة إلى حسام الدين تمرتاش بن أيلغازي صاحب ماردين.

وهكذا ضاعت البيرة سلماً بعد أن ضاعت الرها حرباً وبقي من الإمارة سميساط ومرعش ودلوك وقورس وجرجر وعين تاب والواندان وبنهنسي وحصن منصور وقلعة الروم (هرو مجلا) وتل باشر الذي اتخذها جوسلين الثاني مقراً له. ورغم الخطر الذي بات يتهدد الصليبيين فلم يظهروا شيئاً من التعاون فيما بينهم، يضاف إلى ذلك أن جوسلين لم يغفر لأمير إنطاكية ريموند عدم تعاونه معه أثناء القتال على الرها، وفي نفس الوقت رفض ريموند الوفاق مع جوسلين، بعكس الحال مع مملكة بيت المقدس التي أظهرت تعاطفها والوقوف إلى جانب جوسلين.

وأدرك ريموند أف بواتيه أمير إنطاكية وهي الإمارة المتاخمة لأملاك عماد الدين مدى الخطر الذي بات يتهدده بعد سقوط الرها، وخاصة بعد ما لمس حالة الضعف التي أصابت الإمارات الصليبية، يضاف إلى ذلك إحساسه بتباعد الأمراء الصليبيين عنه بعد موقفه من جوسلين. وتلفت حوله ليجد سنداً له في إمارته، فلم يجد غير الامبراطورية البيزنطية التي تمرد عليها بالأمس ليتوجه إليها ذليلاً يطلب المساعدة. لذلك قرر ريموند أن يذهب للعاصمة البيزنطية متوسلاً يلتمس الحماية والمساعدة، فتوجه في عام ١١٤٥ م/ ٥٣٩ - ٥٤٠ هـ إلى الامبراطور البيزنطي مانويل، ولكن الامبراطور لم ينس مواقف ريموند من والده الامبراطور يوحنا في عام ١١٣٧ م، وعام ١١٣٨ م، وعام ١١٤٢ م، لذلك طلب من الأمير ريموند التوجه أولاً لزيارة قبر والده في دير بانتوكراتور

Pantokrator ـ الموجود في العاصمة، والذي بناه يوحنا بنفسه ـ للترحم عليه ويسأله العفو على انتهاكه للعهود التي قطعها معه، وقام ريموند بعمل ما أشار به مانويل وعاد إلى الامبراطور ليقدم له فروض الولاء والطاعة وليقسم له باعتباره أمير أنطاكية أن يكون تابعاً ومواليا للامبراطورية البيزنطية، وبعد هذه المواقف المهينة والمذلة للأمير ريموند تمخض هذا كله عن وعد من قبل الامبراطور بالحضور فيما بعد إلى الشام لتقديم المساعدة للصليبيين.

وفي الواقع لم يكن مانويل يستطيع مغادرة العاصمة وخلفه جيش الامبراطورية ويتوجه إلى الشام لمساعدة الصليبيين في هذه الفترة بالذات، فإنه كان قد تحالف مع آل دانشمند ضد سلاجقة قونية، ويستعد لمنازلة السلاجقة، كما كان مشغولا بأمر زواجه من برتا أف سالزباخ وما سيترتب على هذا الزواج من تحالف مع كونراد الثالث ملك المانيا ضد روجر الثاني ملك صقلية ١١٢٧ م/ ٥٢١ ـ ٥٤٩ هـ. لذلك لم يكن من المعقول أن يترك مانويل العاصمة ويذهب إلى الشام لمساعدة الصليبيين ضد زنكي تاركاً دولته فريسة للسلاجقة والنورمان، الذين يتربصون بالامبراطورية البيزنطية، في هذه الفترة بالذات والطامعون في العرش البيزنطي يحومون حوله.

والحقيقة أن الصليبيين كانوا يكرهون الامبراطورية البيزنطية وتدخلها في أمورهم ولم يلجأوا إليها إلا في أوقات المحن والأزمات، وحقيقة أخرى هي أن الصليبيين تذكروا أن الامبراطور يوحنا كان يعتبر الرها ـ مثل إنطاكية ـ من أراضي الامبراطورية، ولقد بدا هذا واضحاً من تصرفات يوحنا مع جوسلين أثناء حملة الامبراطور ضد شيزر وحلب في عام ١١٣٨ م، وذلك عندما أرسل يوحنا إلى جوسلين وريموند يأمرهما بإعداد القوات وآلات الحرب استعداداً لمهاجمة زنكي، ولم يكن بوسع جوسلين سوى تنفيذ ما طلبه الامبراطور، يضاف إلى ذلك أن الامبراطور يوحنا عندما استولى على مدينة بزاعة من المسلمين في هذا الوقت سلمها لكونت الرها جوسلين وليس إلى الأمير ريموند حسب ما اتفق عليه من قبل، وأخيراً ما قام به الامبراطور عندما تقدم إلى إنطاكية في سبتمبر

عام ١١٤٢ م وعسكر عند تل باشر وطلب من جوسلين تقديم بعض الرهائن وامتثل جوسلين وأرسل إليه ابنته إيزابيلا، وقد روى وليم الصوري تفسيراً لذلك فقال أن السبب الوحيد لأعمال الامبراطور هذه هو العمل على احتواء جوسلين بقدر ما يستطيع وأن يجعله أكثر إخلاصاً في تنفيذ أوامر الامبراطور.

عادت هذه الأحداث إلى أذهان الصليبيين، وهي الأحداث التي كرهوها بالأمس ونددوا بالامبراطور يوحنا من أجلها، لتكون وثيقة لديهم بعد سقوط الرها ـ أي في محنتهم ـ يطالبوا الامبراطور البيزنطي بموجبه الحضور إلى الشام على الفور ومحاربة زنكي، وأن عدم حضوره يعتبر جريمة في حق المسلمين بعامة وفي حق إمارة الرها بخاصة، وكان يجب عليه التدخل لإنقاذها قبل أن تسقط تماماً في أيدي الصليبيين، ولعلنا نشعر في قصيدة الشاعر الأرميني سانت نرسيس التي كتبها عن سقوط الرها زفرة أسى واضحة لما أصاب مدينة الرها ولتخلي الامبراطور البيزنطي مانويل عن مساعدتها وإنقاذها من أيدي المسلمين.

ورغم كل هذه الظروف فقد حاول جوسلين استعادة مدينة الرها، وانتهز فرصة مقتل عماد الدين زنكي وهو يحاصر قلعة جعبر، وراسل من بالمدينة من الأرمن الذين يميلون إليه لكون أمه أرمينية. ووعدهم يوماً بعينة يصل إليه وفي السادس عشر من جمادي الأولى ٥٤٠ هـ/ الخامس من نوفمبر ١١٤٥ م تجمع جوسلين ومعه تابعة بلدوين صاحب مرعش وكيسون وقواتهم في دلوك واتجهوا إلى المدينة وتمكنوا من دخولها. وحاصروا قلعة المدينة بمن فيها وبدأوا في قتالهم، ولما بلغ نور الدين ـ الذي خلف والده في حلب ـ هرع إلى المدينة ودخلها وقضى على هذه المحاولة وقتل بلدوين. وانتقم نور الدين من أهل المدينة لغدرهم به، وفي هذه المرة لم تفرّق القوات الإسلامية بين الصليبيين الغربيين والمسيحيين المحليين والأرمن والسريان، وإنما اعملوا السيف في الرجال وساقوا النساء والأطفال إلى حلب وبذلك خلت مدينة الرها من أهلها ولم يبق منها إلا القليل.

وإذا كان سقوط الرها لم يدفع الامبراطور البيزنطي مانويل إلى القيام بأي عمل عسكري ضد المسلمين في الشام، فمما لا شك فيه أن سقوط المدينة كان له رد فعل عنيف في الإمارات الصليبية، وليس ذلك فحسب بل لقد سقط سقوط الصاعقة على رأس العالم الغربي. لأن إمارة الرها كانت أول إمارة لاتينية يؤسسها الصليبيون الدخلاء في الأراضي المقدسة وأول إمارة يستردها المسلمون، فجاء سقوط هذه الدعامة إيذاناً بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجح الصليبيون الأوائل في إقامته بالشرق. ولم يغب عن بال الغرب الأوروبي الخطورة التي ترتبت على ضياع الرها، لذلك حاول زعماء الغرب الأوروبي الإسراع إلى ترميم ذلك البناء وسنده، وهبوا لنجدة الإمارات الصليبية بالشام حتى لا تقع غنيمة باردة في يد القوة الجديدة بقيادة نور الدين زنكي الذي أخذ على عاتقه مهمة توحيد المسلمين للقضاء على الصليبيين، وتنقية الشرق الأدنى الإسلامي من الصليبيين.

كان سقوط الرها السبب المباشر في قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية لمساعدة الصليبيين في الشام، والامبراطورية البيزنطية لها أطماع في الإمارات الصليبية خاصة في إنطاكية، لذلك كان على الامبراطور البيزنطي مانويل أن يرنو ويفكر في أمر هذه الحملة ليرى ما ستفعله وأثرها على النفوذ البيزنطي المراد دعمه في إنطاكية بالذات. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الباحث سوف لا يتناول أحداث الحملة بكافة تفاصيلها وإنما سيكتفي بالتركيز على الأحداث التي تتعلق بجوانب هذا البحث وموقف الامبراطور مانويل من الحملة.

وأقدم نص في المصادر المتاحة لنا يتعلق بالرغبة في قيام هذه الحملة هو خطاب البابا يوجين الثالث الذي وجهه إلى لويس السابع ملك فرنسا في أول ديسمبر ١١٤٥ م/ الثالث عشر م جمادي الآخرة ٥٤٠ هـ. فقد تناول البابا في رسالته هذه ذكر سقوط الرها وما له من أسوأ الأثر على الكيان الصليبي في الشام، وأبدى رغبته في إرسال حملة صليبية إلى الشرق، ولم يرد في النص ما يفيد أنه طلب من الملك لويس قيادة الحملة، وربما يرجع اختيار البابا للملك

الشاب الذي يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، أن لويس نذر القيام بحملة صليبية إلى الشرق كنوع من الندم والتوبة على ما اقترفت يداه في حق مدينة فتري Vitry وهي المدينة الخشبية التي أضرم فيها النار أثناء صراعه مع كونت شامباني وأحرقها بما فيها من الأحياء وعدتهم ثلاثة عشر ألف نسمة سنة ١١٤١ م/ ٥٣٥ - ٥٣٦ هـ.

الاعداد للحملة

وعندما تسلم لويس خطاب البابا أعلن في الخامس والعشرين من ديسمبر ١١٤٥ م/ الثامن من رجب ٥٤٠ هـ عزمه على حمل الصليب والتوجه إلى الأراضي المقدسة، ولكن هذه الرغبة قوبلت بالفتور في دوائر البلاط الفرنسي كما عارضها سوجر Suger رئيس دير سانت دنيس Denic، ولكن رغبة الملك ومساندة البابا أدت إلى اجتماع فيزلاي لإعلان الحملة والدعاية لها وهو ما تولاه بعض رجال الدين وعلى رأسهم برنارد Bernard رئيس رهبان دير كليرفو Clairvaux. وانتشر خبر قيام الحملة في الآفاق ونادى البعض في غمرة هذه الأحداث بثلاث حملات، أحدهما للعمل في الأندلس والثانية ضد الوثنيين في شمال نهر الألب، والثالثة إلى بيت المقدس، وما يهمنا أن برنارد نجح بعدما بذل جهداً كبيراً في إقناع كونراد الثالث ملك المانيا بالتوجه إلى الأراضي المقدسة.

بدأ الاستعداد لقيام الحملة وأرسل لويس من جانبه خطابين أحدهما إلى روجر ملك صقلية والآخر إلى الامبراطور مانويل يخبرهما بالحملة المزمع قيامها ليعرف من كل منهما مدى المساعدة التي يمكن تقديمها للحملة. وبالنسبة لروجر ملك صقلية فقد أجاب معلناً رغبته الشديدة ورغبة نبلائه للمساهمة في هذا المشروع، وأرسل سفراء من لدنه إلى الملك لويس لترتيب أمر نقل الصليبيين بالطريق البحري ودراسة الاحتياجات الأخرى التي يمكن المساهمة بها ووعد بأن يذهب بنفسه أو يرسل ابنه مع قوات الحملة، ولكي يقنع الملك لويس بوجه نظره فقد ندد بالامبراطورية البيزنطية وركز على خيانة الأباطرة البيزنطيين للحركة الصليبية التي ورثوها عن الأمبراطور الكسيوس.

وفي الحقيقة كان النورمان يملكون أسطولاً كبيراً يمكنه الإسهام بنجاح في نقل القوات الصليبية، ولكن روجر كان يهدف من وراء تقديم هذه المساعدة إلى تحقيق هدف آخر، فقد كان روجر يطالب بأنطاكية باعتباره وريثاً لبوهمند الأول. وبذلك أصبح قدومه إلى الشرق يثير مشلكة مع ريموند أف بواتيه صاحب إنطاكية، ولما كان ريموند هذا خال الملكة اليانور Eleanor زوجة لويس، فقد أصبح الأمر واضحاً في عدم قبول أية مساعدة من روجر حتى لا تكون ذريعة له للتدخل في إمارة إنطاكية، حتى لو كان انضمام روجر هو العامل الأول في إنجاح الحملة. يضاف إلى ذلك أن روجر كان في حالة عداء مع كونراد ومع مانويل وهما اللذان أصبحا حليفان في هذه الفترة. وعلى ذلك فإن قدوم روجر يثير المشاكل مع كونراد أثناء سير الحملة بحراً ومع مانويل إذا ما قدمت بعض القوات عن طريق البر عبر القسطنطينية، وحتى إذا نقلت الحملة كلها عبر البحر فإن المشكلة قائمة نظراً لإدعاء مانويل السيادة على إنطاكية. وبذلك أصبحت مشكلة إنطاكية تسير في ثلاثة اتجاهات، اتجاه روجر في وراثة إنطاكية واتجاه مانويل في فرض سيادته على إنطاكية، وثالثاً رغبة ريموند في دعم استقلاله التام بالإمارة بعيداً عن مانويل وروجر، ويبقى بعد ذلك موقف لويس الذي سيصبح حرجاً للغاية باعتباره طالباً المساعدة من روجر وصهراً للأمير ريموند.

وهنا نتساءل وكل هذه الأمور كانت معروفة لجميع القيادات في أوروبا والشرق في ذلك الوقت، لماذا أرسل لويس إلى روجر يطلب منه المساعدة؟ والواقع أن لويس ربما قصد الوقوف على رغبة روجر الحقيقية من وراء هذه المساعدة، أو ربما قصد لويس من وراء ذلك ممارسة نوعاً من الضغط على مانويل حتى يحصل منه على أكبر قدر من التسهيلات عند مرور الحملة عبر أراضي الامبراطورية وهو الطريق البري الوحيد البديل للطريق البحري. والباحث يميل إلى الأخذ بالرأي الثاني خاصة وأن لويس أرسل في نفس الوقت خطابه إلى الامبراطور مانويل أثناء حروبه مع السلاجقة في صيف عام ١١٤٦ م.

ويبدو أن مانويل كان يعلم بأمر الاتصال مع روجر ـ لأن مانويل كان بإمكانه التعلل بحروبه مع السلاجقة ويطالب بإرجاء الحملة أو عدم إمكانه تقديم المساعدة للحملة ـ لذلك أرسل مانويل رده على لويس متضمناً أسلوباً رقيقاً وخاطبه مخاطبة الأخوة وقدم له وعوداً مشجعه في الوقت الذي تحفظ مانويل في خطابه وأشار إلى أنه عقد المدنة مع السلاجقة وأنه لا يستطيع المساهمة بقواته التي يدخرها خشية أن يقوم السلاجقة بخرق الهدنة، كما أرسل الامبراطور مانويل إلى البابا يوجين خطاباً في أغسطس ١١٤٦ م/ صفر ـ ربيع أول ٥٣١ هـ يعلن فيه استعداده لاستقبال الصليبين وتشريفهم إياه كما سبق أن شرفوا جده الكسيوس من قبل.

ولعل في خطاب مانويل إلى البابا إشارة واضحة إلى الولاء الذي قدمه القادة الصليبيون إلى الامبراطور الكسيوس من قبل، وبالتالي فهو يطالب بنفس الولاء، خاصة وأنه لم يطلب مساعدة من الغرب الأوروبي. ولست أدرى لماذا لم تتنبه القيادات في أوروبا إلى مثل هذه الإشارة، أو ربما فطنت إليها ووجدت أن قيادة الحملة في هذه المرة وهي التي تضم لويس وكونراد تختلف عن قيادة الأمراء للحملة الأولى، فالقيادة الآن مساوية لمركز الامبراطور وأن ذلك يغيّر الموقف، أو لعلها وجدت أن ذلك أخف ضرراً من اشتراك روجر في الحملة، وترجيح آخر وهو أن البابا أخفى أمر هذه العبارة على لويس وكونراد وهو أمر خطير لأن ذلك يعني أن البابا يود أن تقوم الحملة ويسجل له ذلك الجهد، أما أن تنجح أو تفشل فهو أمر تقع مسؤوليته على كاهل القيادات وليس على كاهله.

خط سير الحملة

على أية حال اتخذت الحملة قرارها بالسير براً عبر القسطنطينية بعد أن نبذت مشروع روجر الذي غضب لهذا التصرف وقام في خريف عام ١١٤٧ م/ منتصف ٥٤٢ هـ ـ أي قبل وصول أية قوات صليبية إلى العاصمة البيزنطية ـ وهاجم الامبراطورية البيزنطية واستولى على جزيرة كورفو Corfu وبعض المدن الصناعية الأخرى ونقل عمالها إلى بالرمو Palermo في صقلية مما كان له أسوأ الأثر على الاقتصاد البيزنطي. وليس ذلك فحسب فالأهم أن

الامبراطور مانويل قد أنهى الحرب مع السلاجقة بعقد الهدنة حتى يتفرغ للحملة وربما كان يرى قيادتها أو استغلالها لتحقيق بعض أطماعه في الشرق، أما الآن وبعد مهاجمة روجر للامبراطورية فيبدو أن موقف مانويل قد تذبذب بعدما انشغل بأمر هذا الخطرالجديد، فهل كان عليه أن ينفض يده من الحملة حتى يتفرغ إلى الخطر النورماني أم لا يلقي بالاً إلى الخطر النورماني ويهتم بأمر الحملة؟ هذا ما ستوضحه لنا الأحداث التالية.

بيـنـزنـطه والحملة الألمـانـيـة

ونعود إلى الحملة التي تحدد لهـا الخامس عشـر من يونيـه ١١٤٧ م/ السادس عشر من المحرم ٥٤٢ هـ موعداً للرحيل، فقد تقدم كونراد على رأس قواته التي بلغت ما يقرب من سبعين ألفاً من الفرسان بالإضافة إلى المشاة، ويلاحظ أن قواته لم تسر مع القوات الفرنسية في وقت واحد للتغلب على مشاكل التموين لهذه الأعداد الضخمة. وعندما بدأت القوات الألمانية تصل إلى مشارف الحدود البيزنطية في أوروبا، انزعج مانويل الذي كان يترقب أخبار الحملة من هذه الأعداد الضخمة وشرع في تحصين العاصمة وبدأ في الاتصالات الدبلوماسية للتعرف على نوايا الحملة تجاه الامبراطورية وأرسل سفارة مكونة من ديمتريوس Demetrius ومايروس Maurus وطالبت السفارة الملك كونراد - رغم كونه حليفاً للامبراطور - أن يقسم بالعمل على مراعاة مصالح الامبراطورية فأقسم كونراد، وبذلك تأكد المبعوثان من حسن نية الملك الألماني ووعداه بالمساعدة أثناء عبوره أراضي الامبراطورية، وبدأت الأمور تسير سيراً طبيعياً.

ولكن المتاعب بدأت عندما قامت القوات الألمانية بنهب القرى بعدما عبروا مدينة صوفيا Sofia، وعندما اشتكى المواطنون البيزنطيون للملك أجاب بأنه ليس بوسعه أن يحكم هؤلاء الرعاع، يضاف إلى ذلك المذبحة التي قام بها الألمان في أهالي مدينة فيليبوليس Philippolis وإضرامهم النار في ضواحي المدينة التي أغلقت أسوارها، ولا يمكن وصف ذلك إلا بأنه عمل بربري ارتكبته القوات الألمانية الثملة في حق المواطنين البيزنطيين، وسيكون لهذه

المعاملة أسوأ الأثر في معاملة المواطنين الصليبيين في المراحل المقبلة. ولما علم مانويل بهذه الحوادث أرسل على الفور قائده برسق التركي ومعه بعض القوات لاصطحاب الصليبيين لمنع الصدام بين المواطنين والصليبيين، وقد نجح برسق في مهمته. والواضح أن مانويل رأى عدم قدوم القوات الألمانية إلى القسطنطينية بعدما قاموا بهذه الأحداث، لذلك أرسل إلى كونراد وهو في مدينة أدريانوبل Adrianople يعرض عليه أن يتخذ طريقه إلى آسيا الصغرى عبر مدينة سيستوس Sestos التي تقع على بوغاز الدردنيل، ولكن كونراد رفض ذلك واتخذ طريقه إلى القسطنطينية.

ولما وصل كونراد إلى العاصمة في العاشر من سبتمبر ١١٤٧ م/ الثاني عشر من ربيع ثاني ٥٤٢ هـ أكرم مانويل ضيافته - دون أن يتقابلا - وتوترت العلاقات مرة أخرى عندما قام رجاله بأعمال العنف ضد المواطنين البيزنطيين في الوقت الذي لم يأخذ فيه كونراد أي إجراء لوقف هذه الأعمال، وعندما طالبه مانويل بالتدخل للسيطرة على الموقف غضب وهدد بالعودة في العام التالي لمهاجمة القسطنطينية وتأزم الموقف بين العاهلين، ولم تنفرج الأزمة إلا بعدما تدخلت زوجة مانويل ونجحت في التوفيق بين زوجها وبين زوج اختها، وما لبث أن تخلص مانويل من كونراد وقواته عندما وصلت طلائع القوات الفرنسية الصليبية، ووقعت بعض المصادمات والشغب بين القوات الألمانية والفرنسية، الأمر الذي دفع كونراد إلى عبور البسفور بقواته منعاً لمزيد من الصدام، وبعد عبور القوات الألمانية اتجهت إلى خلقدونية، ويبدو أن العلاقات بين مانويل وكونراد قد تحسنت في هذه المرحلة بدليل ما قدمه الامبراطور مانويل من الهدايا إلى الملك الألماني، ويبدو أيضاً أن مانويل حاول تقوية الروابط مع الحملة في هذه المرحلة أيضاً، فعرض على كونراد استبقاء بعض القوات الألمانية في العاصمة مقابل ما يقدمه مانويل من قوات بيزنطية لصفوف الحملة ولكن كونراد رفض هذا العرض. ولعل مانويل قصد من وراء هذا العرض عدم عزل الامبراطورية البيزنطية عن مساعدة الحركة الصليبية سواء أكان جاداً في

عرضه أم لا، أو ربما أراد يضم بعض قواته لقوات الحملة أن ينسب للامبراطورية البيزنطية جزء من النجاح الذي توقعه للحملة نظراً لأعدادها الضخمة وتظل على الأقل إدعاءات السيادة البيزنطية على إنطاكية باقية. وإذا كان المؤرخ فازيليف يرى أن مانويل كان يعمل على قيادة الحملة، فالرد على ذلك أن مانويل لم يكن يجرؤ على ترك العاصمة البيزنطية، بعدما هاجم روجر أراضي الامبراطورية منذ قليل، يضاف إلى ذلك أن مانويل لو أراد ذلك لما طلب من كونراد الابتعاد عن العاصمة نهائياً والعبور إلى آسيا الصغرى بجيشه عن طريق الدردنيل. أما عن رفض كونراد لعرض الامبراطور مانويل فقد جانب كونراد الصواب في ذلك، لأن كونراد إذا كان قد ترك عدداً من القوات مساوياً للقوات البيزنطية لكي تنضم إلى صفوف الحملة، فلا شك أن ذلك كان في صالحه لأن القوات البيزنطية تعلم المسالك والطرق إلى الشام ومتمرسة على القتال ضد السلاجقة ومسلمي الشام بعكس القوات الألمانية، والحقيقة أن كونراد اعتقد في نجاح القوت الألمانية بمفردها ـ حتى بدون القوات الفرنسية ـ وهذا ما دفعه إلى الإسراع بالتوجه إلى الشام قبل أن يلحق به لويس وقواته. لذلك رفض العرض البيزنطي حتى ينسب له بمفرده دون أية قيادة أخرى ما تحققه الحملة من نجاح.

هزيمة القوات الألمانية

واستعد كونراد للتوجه إلى الشام وكان كل ما طلبه من مانويل إمداده ببعض المرشدين ليصحبوه في الطريق عبر الأناضول، فقدم إليه مانويل المرشدين، وفي نفس الوقت نصح الامبراطور الملك كونراد بأن يتخذ الطريق الساحلي الغربي لآسيا الصغرى ثم الساحل الجنوبي ليصل إلى أضاليا، وهي الطرق التي تقع تحت سيطرة الامبراطورية البيزنطية، كما أشار عليه أيضاً بإعادة كافة الصليبيين الزائدين على الحاجة إلى أوطانهم حتى لا يتسببوا في إرباك صفوف الحملة ولا يكونوا عبئاً عليها في إعاشتهم أو غير ذلك.

ولكن كونراد لم يأخذ بهذه النصائح الهامة التي قدمها له الامبراطور واصطحب كافة القوات واختار أقصر الطرق ليصل إلى الشام وهو الطريق الذي

يستغرق حوالي ثلاثة أسابيع والذي تقع عنده العاصمة السلجوقية قونية على بعد مسيرة اثنتا عشر يوماً من خلقدونية، ولم يكن يدري أنه باختياره لهذا الطريق قد خطط لفشل الحملة، واتجه كونراد حتى وصل إلى مدينة نيقية وهناك أعاد النظر في خط سير الحملة فقسم جيشه إلى قسمين، أحدهما وهو القسم الرئيسي وتولى كونراد قيادته بنفسه عبر الطريق الذي اختاره من قبل، أما القسم الآخر وهو غير المسلح فقد عهد به إلى أوتو أف فرايزنج واختار له الطريق الأوسط وهو الذي يمر بمنطقة فلادليفيا ولاودكيا الغربية ثم أضاليا. وبعدما زود كونراد جيشه بالمؤن التي تكفيه لمدة ثمانية أيام فقط، أصدر أوامره لقواته بالتقدم وكانت الرحلة شاقة ومرهقة، وما أن أشرف اليوم الثالث حتى كان الضيق قد لحق بهم من وعورة الطريق عبر الممرات والجبال. وفي هذه المرحلة يسجل المؤرخ البيزنطي نيكتاس أن هناك من يقول أن الامبراطور أمر بخلط ما يباع من الدقيق بالجير وأن المواطنين البيزنطيين تعاملوا مع الألمان بعملة أقل وزناً من الوزن المعتاد وأن الامبراطور أثار الأتراك السلاجقة ضد القوات الألمانية وأنه طلب من المرشدين تضليل الحملة والهرب ، ويضيف نفس المؤرخ أنه لا يدري عما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا. ويروي المؤرخ الفرنسي أودو أف ديل أن الصليبيين كانوا تواقين لليوم الذي يصلون فيه إلى قونية قبل أن يهلك الجيش الألماني، وفي اليوم الرابع لمغادرتهم نيقية اكتشفوا هروب الدليل عند مطلع الفجر، واكتشف ذلك حاملوا أعلام الملك الذين كانوا على علاقة سيئة بالدليل، وفجأة تبين للصليبيين أن السلاجقة منتشرون على قمم الجبال المحيطة بهم، وأن الألمان قد أصابهم اليأس لأن الدليل البيزنطي قد هرب قبل أن ينال ما يستحقه على جريمته. أما وليم الصوري فقد روى أن المرشدين اختاروا الطريق للحملة وهو الطريق الذي أصبحت الحملة فيه تحت رحمة السلاجقة، وقد انتاب الحملة مزيداً من الصعاب، لذلك استدعى الملك كونراد المرشدين ليسألهم عن الموعد الذي سيصلون فيه إلى قونية وأجاب المرشدون بأن ذلك على مسيرة ثلاثة أيام من مواقعهم ثم ما لبث أن هرب المرشدون في نفس الليلة،

وبدون المرشدين وجد كونراد جيشه في ضياع وأشار بعض القادة الصليبيين بالعودة والبعض الآخر بالتقدم في الوقت الذي عانى فيه الصليبيون من نقص الإمدادات فأكلوا الدواب،ثم ما لبث أن انقض عليهم السلاجقة من كل جانب، وأضاف أن ذلك كله مرجعه إلى خيانة البيزنطيين.

وحول ما رواه نيكاس رغم تحفظه أصبح الآن مرفوضاً وهو ما لم تشر إليه المصادر المعادية للامبراطور مانويل، وقد يحسم هذا الأمر كله الخطاب الذي أرسله كونراد إلى ويبالد ُسقف كورفري Corvery وفيه سجل كونراد أنه اختار هذا الطريق بنفسه ليصل إلى الشام بأسرع وقت وأنه قد حصل على المؤن الكافية قبل رحيل قواته من نيقية، كما أنه لم يعلق على المرشدين أهمية تذكر ولم يشر إلى خيانتهم كما أنه لم يربط بين هروب المرشدين وبين ظهور الأتراك السلاجقة، ويمكن القول أيضاً أن مؤن القوات الصليبية الألمانية قد نفذت عند فيلوميليوم Philomelium وهي المنطقة التي بدأ فيها السلاجقة في مهاجمة الصليبيين بعدما قطعوا الطريق عليهم، وعندما وجدوا أنفسهم يموتون جوعاً في بلاد يجهلونها اتهموا المرشدين بالخيانة، ولم ينتظر المرشدون خوفاً من التهديد فهربوا ثم وقعوا في أيدي السلاجقة وقد عرف منهم السلطان مسعود الحالة السيئة التي يمر بها الصليبيون لذلك سقط الجيش الألماني غنيمة باردة في يد السلاجقة.

وهكذا ارتبك الصليبيون واختلت القيادة وحاولوا الاحتماء في شعاب الجبال ولكن السلاجقة أحاطوا بهم وأمطروهم وابلاً من السهام يساعدهم في ذلك حركاتهم السريعة على ظهور الجياد، في الوقت الذي لم يتمكن فيه الصليبيون من امتطاء خيولهم لما أصابها من الضعف بسبب قلة الطعام، وعندما رأى السلاجقة أن الصليبيين لا يحملون أقواساً انقضوا على المؤخرة والمقدمة والوسط وسادت الفوضى جميع الصفوف الصليبية مما ساعد على إنزال خسائر فادحة في صفوف الألمان، حتى يمكن القول بأن هذه المعركة كانت مذبحة قتل فيها تسعة أعشار الجيش الألماني، وأصيب كونراد نفسه بجرحين أحدهما

في رأسه. ولا شك أن سقوط الملك القائد جريحاً وسط قواته وهي في هذه الحالة قد ساعد على مزيد من الفوضى والاضطراب في صفوف القوات الألمانية.

وحاول كونراد أن يعيد تنظيم فلول قواته وهو جريح ولكنه فشل في ذلك وكل ما كان بوسعه أن يفعله هو الانسحاب بأسرع وقت إلى نيقية، وكان انسحاباً اتسم بالفوضى فاستغله السلاجقة في إضافة المزيد من الخسائر إلى القوات الألمانية الهاربة، وبهذه الكارثة نستطيع القول أن الجيش الألماني الصليبي قد انتهى أمره وكانت رحلته عبر آسيا الصغرى وبالاً عليه، مما سيكون له أسوأ الأثر على نتائج الحملة بأكملها.

هذا ما كان من أمر القوات الرئيسية التي قادها كونراد، أما القسم الآخر الذي تولى قيادته أوتو أف فرايزنج فإنه اتخذ طريقه إلى لاودكيا الغربية، فقد تعرض هو الآخر لهجمات مماثلة من السلاجقة مما أدى إلى هلاك عدد كبير من القوات، يضاف إلى ذلك ما تعرضت له من المجاعة بسبب نقص الإمدادات، وقد وصلت البقية الباقية إلى أضاليا وهي في حالة من الإعياء الشديد.

ومن الملاحظ أن المؤرخين لم يتحدثوا عما فعله المرشدون مع هذه المجموعة أو ينسبوا الكارثة التي حلت بهم أيضاً إلى مانويل أو البيزنطيين على وجه العموم. وفي تصوري أن الإدلاء ظلوا مع هذه المجموعة حتى النهاية، لأنه لو تركوها مثلما حدث مع الجيش الرئيسي لأشار إلى ذلك المؤرخون بكل وضوح، ومع ذلك فقد تعرض هذا القسم أيضاً لهجوم السلاجقة، إذاً فالمسألة لا تتعلق بهروب المرشدين فالنتيجة كما رأينا كانت واحدة سواء هرب المرشدون أم لا، ذلك لأن السلاجقة يعلمون بالنتائج التي حلت بهم من قوات الحملة الأولى وتحالفهم مع البيزنطيين، ويعلمون أن القوات الصليبية ذاهبة لقتال إخوانهم في الشام، ورغم عدم وجود تحالف بين السلاجقة ومسلمي الشام، فالسلاجقة يدركون أن هذه القوات أتت إلى الشرق بسبب استرداد المسلمين للرها وأنها ستعمل على استعادتها وعلى دعم الوجود الصليبي في

الشام، والرها تقع خلف الممتلكات السلجوقية فإذا ترك السلاجقة هذه القوات الضخمة تتجه إلى الشام سليمة وكاملة لقضت على القوات الإسلامية هناك وتتمكن من طعنهم من الخلف بعد ذلك، وستكون الكارثة أعم إذا ما اتحدت هذه القوات مع القوات البيزنطية والشواهد على ذلك كثيرة، وبذلك يقعون بين شقي الرحى، وعلى ذلك يتضح أن السلاجقة حاولوا إنزال أقسى أنواع الضربات وإلحاق أكبر الخسائر بالقوات الصليبية مهما كانت الظروف دون حاجة إلى انتظار أوامر الامبراطور مانويل.

تقدم الفرنسيين في آسيا الصغرى

أما القوات الفرنسية وعلى رأسها لويس السابع فقد خرجت متأخرة حوالي الشهر من رحيل الملك كونراد. وكانت القوات الفرنسية مساوية تقريباً في أعدادها للجيش الألماني واصطحب لويس معه زوجته اليانور وريثة مقاطعة اكويتين Aquitaine. وكانت القوات الفرنسية أيضاً أكثر تنظيماً من الجيش الألماني. ورغم ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات مع المواطنين البيزنطيين في المقاطعات التي مروا بها، وكما ل مانويل مع كونراد فقد أرسل مانويل أيضاً إلى لويس السفيرين اللذين سبق أن أرسلهما إلى الملك كونراد وتقابلا مع لويس عند مدينة راتسبون Ratisbon ولكن الأمر اختلف مع لويس فقد طلب منه المبعوثان أن يؤكد لهما أنه سيتصرف كصديق للإمبراطور البيزنطي أثناء مروره عبر الأراضي البيزنطية، والأهم من ذلك أنهما طلبا من الملك لويس أن يتعهد لهما بأن يعيد إلى الامبراطور مانويل جميع الأراضي التي استولى عليها السلاجقة والتي كانت تابعة من قبل للبيزنطيين، وبعد جدل طويل بين الملك لويس وباروناته، أقسم بعضهم نيابة عن الملك على الشرط الأول، أما الشرط الثاني فأرجيء أمره حتى يتقابل الملك لويس مع مانويل، وهنا يمكن القول بأن مانويل حاول استغلال القوات الفرنسية لصالحه دون أن يبذل أي جهد من جانبه وأن يوسع حدود ممتلكاته في آسيا الصغرى ودون أن يعرض قواته لأخطار الحرب.

تأزم الموقف بين مانويل ولويس، واتخذ الأخير الطريق الذي اتخذه

كونراد من قبل. وكان لذلك أثران على الجيش الفرنسي، أولهما أن القوات الفرنسية استفادت بالمنشآت التي أقامها كونراد خاصة الكباري، وثانيهما أن مواطني المقاطعات البيزنطية عاملوا القوات الفرنسية بكل حذر بعدما تلقوا دروساً قاسية على أيدي قوات كونراد. وعندما وصل لويس إلى مدينة أديارنويل أرسل إليه مانويل يشير عليه بعبور الدردنيل عند مدينة سيستوس، ولكن لويس رفض طلب الامبراطور. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مسألة إعادة القوات الفرنسية للأراضي التي استولى عليها السلاجقة قد أرجأت حتى يتقابل الملك لويس مع الامبراطور مانويل، وأن غرض مانويل بعبور لويس وقواته للدردنيل يعني أن مانويل ولويس سوف لا يتقابلان. ولعل مانويل قد أقلع عن فكرة استغلال القوات الفرنسية. ولمزيد من الدقة في تحليل موقف مانويل من الملك لويس نترك هذه النقطة مؤقتاً وستفسرها لنا الأحداث التالية.

بعدما رفض لويس عبور الدردنيل واصل مسيرته في طريقة إلى القسطنطينية ليضع مانويل أمام الأمر الواقع مثلما فعل كونراد، ووصلت طلائع القوات الفرنسية إلى العاصمة البيزنطية ولحقت ببعض القوات الألمانية التي لم تكن عبرت البسفور حتى ذلك الوقت، ونتج عن ذلك بعض المناوشات بين القوتين. وقد وصل لويس نفسه في الرابع من اكتوبر ١١٤٧ م/ السابع من جمادي الأولى ٥٤٢ هـ، وهناك لاحظ طلائع قواته وقد انتابها الضيق أثر سماعها أخبار الهدنة التي سبق أن عقدها مانويل مع السلاجقة. وقد استغل ذلك بعض رجاله الساخطين على الامبراطورية البيزنطية وأشاروا على الملك بالتحالف مع روجر ضد مانويل ولكن لويس لم يستمع إليهم. ولعل في حسن استقبال مانويل للملك لويس في العاصمة واصطحابه لزيارة معالم القسطنطينية قد طمأن لويس إلى حد كبير. ولما كان مانويل لا يحبذ بقاء القوات الفرنسية حول العاصمة فقد طلب من لويس الإسراع في نقل القوات الفرنسية عبر البسفور إلى خلقدونية ولكن لويس عارض هذه الفكرة وتعلل بأنه في انتظار القوات الصليبية القادمة من إيطاليا ـ التي رست بهم السفن في مدينة دورازو.

وفي هذا الوقت سرت شائعة تفيد أن الصليبيين الألمان حققوا نصراً كبيراً على السلاجقة في آسيا الصغرى وأنهم قتلوا ما يقرب من أربعة عشر ألفاً من السلاجقة دون خسارة من جانبهم، ويتهم بعض المؤرخين الامبراطور مانويل بأنه مصدر هذه الشائعة التي نتج عنها إثارة حمية الفرنسيين ونادوا بالعبور إلى آسيا الصغرى لعلهم يفوزون بجانب من هذا النصر وطالبوا الملك لويس باللحاق بجيش كونراد، وقد أذعن لويس لهذا الرأي وظل هو بالعاصمة البيزنطية لبعض الوقت. والباحث يرجح أن يكون الامبراطور مانويل مصدراً لهذه الشائعة خاصة وأنه لم تكن لديه سوى رغبة واحدة وهي أن يتخلص بسرعة من القوات الفرنسية حتى لا يتحرج موقفه إذا تغلب الرأي الذي يطالب بالتحالف مع الملك روجر ضده، أو إذا أدت أي حادثة غير متوقعة إلى صدام بين الفرنسيين والبيزنطيين، هذا إلى جانب أن الامبراطور البيزنطي كان يتشكك في نوايا لويس الذي سبق له الاتصال بالملك روجر ودخل معه في مفاوضات بشأن نقل الحملة بالطريق البحري، بالإضافة إلى رفض لويس التعهد برد الأراضي التي يفتحها وكانت من قبل تابعة للامبراطورية البيزنطية.

ومهما يكن من أمر فقد تخلص مانويل من القوات الفرنسية التي اتجهت إلى خلقدونية وهناك حدث ما كان يخشاه مانويل فبدأت حوادث السطو على مناضد الصرافين وما يصاحبها من أعمال العنف فهرب المواطنون البيزنطيون للنجاة بأرواحهم، والحقيقة أن الملك لويس لم يرض عن هذه الأعمال فأمر بعقاب المسؤولين وإعادة كافة المسروقات إلى أصحابها، ويبدو أنه لم يتمكن إلا من إعادة جانب قليل منها لذلك تحملت خزانة الملك الجزء الأكبر من قيمة هذه المسروقات. ورغم بساطة هذه الحادثة بالمقارنة بما حدث من قبل إلا أن الامبراطور مانويل غضب غضباً شديداً رغم ما قام به لويس من رد اعتبار المواطنين البيزنطيين وأمر بإلغاء الأسواق التي تمد الفرنسيين بالمؤن. وكان رد الفعل الطبيعي أن يقوم الفرنسيون بنهب المنطقة. وعلى الفور أرسل لويس إلى مانويل يطلب منه إعادة إقامة الأسواق لتجنب هذه الأحداث، ولكن مانويل

اشترط لذلك بعض الشروط يهمنا منها، أن يحضر الملك لويس بنفسه إلى قصر الامبراطور وأن يقسم بارونات الملك يمين الولاء والطاعة للامبراطور مقابل أن يتعهد مانويل بإعادة إقامة الأسواق وإمداد الفرنسيين بالمرشدين اللازمين،يضاف إلى ذلك شرطاً في غاية الأهمية بالنسبة لموضوع البحث وهو أن يكون من حق القوات الفرنسية نهب البلاد البيزنطية التي ترفض أن تقدم لهم الإمدادات أو ما شابه ذلك من سبل الإعاشة بشرط عدم احتلال هذه المدن، هذا إلى جانب ما وعد به الامبراطور مانويل من الهدايا لكبار الشخصيات الفرنسية. وهنا تجدر الإشارة إلى أن مانويل لم يتعرض في هذه الشروط أو بعد ذلك إلى مسألة إعادة القوات الفرنسية للأراضي التي تستولي عليها من السلاجقة والتي كانت من قبل تابعة للامبراطورية مما يشير إلى أن مانويل قد أقلع عن هذه الفكرة، أو أن الرواية باطلة من أساسها لعدم وجود ما يساندها في المصادر الأخرى.

والباحث المدقق في هذه الشروط يستنتج منها أنها كانت في صالح الصليبيين أكثر مما هي في صالح الامبراطورية البيزنطية. ففي الواقع أن كلها مزايا للفرنسيين عدا أن يقسم الأمراء يمين الولاء للامبراطور وهو أمر أصبح شكلياً بعدما تعهد لويس ـ والأمراء التابعين له ـ أن يتصرف كصديق أثناء عبوره الأراضي البيزنطية. ورغم هذا ثار بعض المعارضين ولكن البعض الآخر وجد أنه لا يوجد في مطالب الامبراطور ما يدعو للثورة. وبينما تدور المناقشات حول مطالب مانويل وصلت بقية القوات الصليبية التي رست في دورازو إلى القسطنطينية فأكرم مانويل وفادتها وسهل لها عملية العبور للحاق بإخوانهم، وكان لذلك تأثير واضح على سير المناقشات التي مالت إلى جانب مطالب مانويل فاتجه لويس وباروناته إلى الامبراطور البيزنطي حيث اجتمعوا به،وأقسم النبلاء الفرنسيون للامبراطور يمين الولاء وتم الاتفاق على الشروط التي وضعها مانويل. ولعل في عرض الامبراطور البيزنطي الذي أباح للقوات الفرنسية نهب المدن التي لا تقدم الإمدادات للقوات الصليبية رد مسبق على أي اتهام يوجه للامبراطور يتعلق بقلة المؤن التي قدمها مانويل للصليبيين الفرنسيين.

ومع بدايات شهر نوفمبر ١١٤٧ م/ بدايات جمادي الآخرة ٥٤٢ هـ وبينما كانت القوات الفرنسية تستعد للرحيل علمت بالكارثة التي حلت بالقوات الألمانية، فقد وصل فردريك أف سوابيا Frederick of Suabia - ابن عم كونراد الذي كان يصاحبه في الحملة - يطلب مقابلة الملك لويس ليبلغه بالكارثة، وأسرع لويس إلى كونراد بناءً على طلبه لمواساته ومساعدته، وفي هذه المقابلة تم الاتفاق بين الملكين على أن يسلكا الطريق الساحلي - الذي سبق أن أشار به مانويل على كونراد قبل الكارثة - وتقدم لويس بقواته على أمل أن يلحق به كونراد بعد إعادة تنظيم قواته. وفي نفس الوقت أيضاً عادت بعض القوات الألمانية إلى القسطنطينية بعدما قاست من محن. ولحق كونراد وقواته بجيش لويس، ومن الملاحظ أن القوات الفرنسية لم تكن على وفاق مع القوات الألمانية الذين تعرضوا للسخرية من جانب قوات الملك لويس.

ويبدو أن الملك كونراد لم يعد يحتمل أكثر من ذلك وهو الملك المتطلع إلى اللقب الامبراطوري وسليل الامبراطورية الرومانية، فما أن وصلت القوات مدينة أفسوس حتى اعتلت صحته ولم يتمكن من مواصلة الرحلة، والواقع أن الامبراطور مانويل كان على اتصال دائم بالقوات الصليبية فعندما علم بمرض الملك كونراد أرسل إليه الهدايا واستدعاه للعاصمة وأولاه اهتماماً بالغاً وقام مانويل بنفسه بعلاج الملك كونراد. وانتظر لويس عودة الملك الألماني، ولما طالت غيبته عزم على مواصلة الرحلة. ومما هو جدير بالذكر أن الامبراطور مانويل أبلغ الملك لويس وهو في مدينة أفسوس بوجود بعض القوات السلجوقية على مقربة منه ونصحه بالتزام السير بمحاذاة الساحل وبعدم الاشتباك مع السلاجقة كلما أمكن ذلك، وأضاف مانويل إلى نصائحه أنه من الصعب كبح جماح المواطنين البيزنطيين إذا ما تعرضوا للأذى من قبل الصليبيين. ولعل في ذلك ما يوضح أن الامبراطور مانويل لم يكن متحالفاً مع السلاجقة ضد الصليبيين، يضاف إلى ذلك أن مانويل قد راعى المصالح الصليبية إلى حد كبير.

وإزاء هذه النصائح طلب لويس من قواته أن تظل متقاربة من بعضها

البعض وفي حالة من التيقظ. وتقدمت القوات حتى وصلت إلى غربي مدينة إنطاكية - بسديا في أول يناير ١١٤٨ م/ السابع من شعبان ٥٤٢ هـ، وهنا ظهر السلاجقة وقاموا بمناوشة القوات الصليبية ولكنهم ردوا على أعقابهم. وتقدم الصليبيون حتى وصلوا إلى مدينة لادوكيا الغربية الواقعة على أحد روافد نهر الياندر فوجدوها خالية من السكان الذين هجروها خشية أن ينهبها الصليبيون، لذلك تعذر عليهم الحصول على المؤن. وكان على الملك لويس مواصلة المسيرة إلى أضاليا رغم افتقاره إلى الأقوات في أشق مرحلة من الرحلة نظراً لوعورة الطريق وظروف الشتاء القاسية، يضاف إلى ذلك عامل هام وهو رؤية القوات الفرنسية لجثث القوات الألمانية التي كان يقودها أوتو أف فرايزنج متناثرة على الطريق وهو مشهد يوحي بما ينتظرهم من مصير، لذلك أصدر لويس عدة تعليمات لحفظ النظام. وكعادة الفرنسيين وضع لويس الجنود الأشداء في المقدمة والمؤخرة وتولى لويس بنفسه قيادة المؤخرة كما تولى عم الملك الكونت مايورين Maurienne والبارون جوفري أف رانكون Geoffery of Rancon قيادة المقدمة التي عهد لها بحماية مخارج أحد الممرات في منطقة جبلية ترتفع حوالي ثلاثة آلاف وثمانمائة قدم، ولكن عم الملك آثر الراحة في هذا اليوم فأهمل ما عهد به إليه وحذا حذوه القادة الآخرين فنزلوا إلى الوادي، وفي وسط هذه الظروف إنقض السلاجقة على القوات الصليبية وأمطروهم وابلاً من السهام فدبت الفوضى في صفوفهم وتهاوت الخيول المصابة بمن عليها إلى سفوح الجبال جارفة معها بعض الخيول الأخرى بفرسانها وما في طريقها من الأمتعة والمشاة. وتشجع السلاجقة وأنزلوا مزيداً من الخسائر في صفوف الصليبيين، ثم استداروا إلى المؤخرة، وقد أفاض المؤرخ أودو أف ديل في وصف هذه المعارك. والخلاصة أن الملك لويس تعرض للموت والأسر أكثر من مرة ولم ينقذ حياته إلا حلول الظلام وانسحاب السلاجقة بعدما كبدوا الصليبيين خسائر فادحة، وقد عقد لويس النية على محاكمة المسؤولين الذين تسببوا في هذه الكارثة ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث لأن عم الملك كان اول المسؤولين.

ولم ينم الفرنسيون في هذه الليلة، ومع حلول الصباح بدأ الملك لويس في إعادة تنظيم قواته لمواصلة الزحف إلى مدينة أضاليا، وساعده في قيادة القوات ايفرارد أف بـار Everard of Barre رئيس الفرسان الداوية الذي كان يرافق الحملة، ووضعت تعليمات صارمة للحفاظ على ترابط القوات في هذه الظروف السيئة، يضاف إلى ذلك عامل الجو، فقد كان تحرك القوات في وقت الشتاء والامطار تسقط بغزارة والثلوج تغطي قمم الجبال. وقد تغلب القادة على نقص المؤن بذبح الخيول التي عجزت عن السير، وترك الصليبيون بعض أمتعتهم وحرقوا بعضاً آخر، وواصلوا مسيرتهم، وأثناء زحفهم تعرضوا أيضاً لغارات يومية من السلاجقة ولكنها لم تكن بالغارات القوية وبلغوا أضاليا في العشرين من يناير ١١٤٨ م/ السابع من شعبان ٥٤٢ هـ .

وعندما وصل لويس وقواته إلى أضاليا وجدوا في انتظارهم لاندولف حاكم المدينة وهناك حصل الصليبيون في أول الأمر على المؤن اللازمة لهم بأسعار مرتفعة حتى اضطروا لبيع بعض الدواب للحصول على أثمانها، وعلى حد قول أودو أف ديل أن ذلك كان بسبب جدب المنطقة وتعرضها منذ وقت قريب لغارات السلاجقة، يضاف إلى ذلك الأعداد الضخمة للقوات الفرنسية ومن كان في انتظارها من القوات الألمانية التي قادها أوتو أف فرايزنج ،وأضاف نفس المؤرخ أن البيزنطيين لما شاهدوا سوء الحالة الاقتصادية للقوات الصليبية باعوا لهم ما يحتاجون دون الحصول على أرباح ، وفي نفس الوقت اشترى البيزنطيون ما باعه الصليبيون بأثمان مرتفعة. ولعل في عبارة المؤرخ أن المنطقة تعرضت منذ وقت قريب لغارات السلاجقة الرد الكافي على الذين زعموا أن الامبراطور مانويل تحالف مع السلاجقة ضد الصليبيين، فلو كان هناك مثل هذا التحالف لما تعرضت منطقة بيزنطية لغارات السلاجقة. يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين أبلغوا الصليبيين في بداية وصولهم إلى أضاليا وعندما فكروا في استكمال الرحلة عن طريق البر، أبلغوهم أن الطريق صعب وشاق وأنه يحتاج إلى مسيرة طولها أربعين يوماً تتخللها أراضي مجدبة ليس بها مؤن ويسيطر عليها السلاجقة، وهي

نصيحة أخرى تدل على حرص البيزنطيين على المصالح الصليبية. ولو كان البيزنطيون يعملون على تحطيم الحملة لتركوا الصليبيين يقعون وهم في طريقهم البري إلى الشام فريسة للقوات السلجوقية خاصة بعد ما بلغ بهم الإرهاق ذروته.

الحملة تتجه إلى الشام

لذلك قرر لويس إكمال الرحلة عبر الطريق البحري وساعده حاكم المدينة في تدبير بعض السفن لنقل القوات وقدم له سفينة لنقله وحاشيته دون مقابل، أما باقي القوات التي أبحرت على السفن التي أمكن تدبيرها، فكان ذلك نظير أربعة ماركات عن كل فرد، ولما كانت السفن غير كافية لنقل جميع القوات فقد أبحر البعض وظل البعض الآخر في أضاليا لتدبير أمر نقله إلى إنطاكية. أبحر الملك لويس بعد ما ظل في أضاليا ما يقرب من خمسة أسابيع تعرضت قواته خلالها لبعض الغارات السلجوقية فوصل ميناء السويدية في التاسع عشر من مارس ١١٤٨ م/ الخامس والعشرين من شوال ٥٤٢ هـ وقد ظلت القوات الباقية في أضاليا تحت رحمة القوات السلجوقية وتمكن حاكم المدينة من تدبير بعض السفن الأخرى التي أبحر عليها كبار الصليبيين وتركوا الباقين تحت رحمة السلاجقة الذين هاجموا المدينة بما فيها من البيزنطيين والصليبيين وأنزلوا خسائر فادحة بالقوتين، وساعدهم على ذلك انخفاض أسوار المدينة. وتنفي هذه الحادثة بشكل قاطع مزاعم المؤرخين الذي أشاروا إلى أن الامبراطور مانويل تحالف مع السلاجقة لضرب القوات الصليبية، وبمعنى آخر أن مانويل عمل على القضاء على الحملة لكي لا يزداد النفوذ الصليبي في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي وتظل المنطقة منطقة نفوذ للامبراطورية البيزنطية.

بقيت القوات الصليبية التي ظلت في أضاليا تموت جوعاً فضلاً عن غارات السلاجقة المتكررة وانتشار الأمراض نتيجة وجود الجثث المتعفنة حولهم ونفاذ مواردهم، لذلك فكر الصليبيون في السير براً بدلاً من هذا الانتظار المميت وساروا عبر طرسوس وهناك قطعهم السلاجقة إرباً ودخل بعضهم في

خدمة البيزنطيين أو في خدمة السلاجقة، ولم يصل منهم إلى إنطاكية إلا النصف تقريباً، وقد قدرهم بعض المؤرخين بحوالي ثمانية الآف. أما الملك كونراد فقد ظل في العاصمة البيزنطية وأشرف الامبراطور مانويل على رعايته الطبية طوال فترة الشتاء ومع حلول ربيع عام ١١٤٨ م استعد للرحيل ومن معه بعد ما قـدم مانويل الهدايا له ولحاشيته، وأبحر بعد ما أعد له الامبراطور البيزنـطي السفن اللازمة فوصل إلى عكا ومنها توجه إلى بيت المقدس حيث وصلها في الاسبوع الثاني من إبريل من نفس العام ـ السابع عشر ـ الثالث والعشرين من ذي القعدة ٥٤٢ هـ .

أما لويس السابع فقد هبط في ميناء السويدية بعد مـا يقرب من ثـلاثة سنوات وثلاثة أشهر من سقوط الرها، وبعد ما تمكن نور الدين من انتزاع عدة حصون أخرى شرقي نهر العاصي، وقد استقبله ريموند أف بـواتيه بـالافراح والاحتفالات الرائعة، فقد كان يأمل في تسخير الحملة لصالحه بحكم روابط الصلة العائلية مع الملك لويس ويرى أن تقوم الحملة بمهاجمة حلب والقضاء على نور الدين باعتباره خليفة القوة التي استولت على الرها والمهددة لأوضاع الصليبيين في إنطاكية، ولم يكن ريمـوند أف بـواتيه وحـده هو الـذي حاول استغلال الحملة لصالحه، بل رأى كل واحد من الأمراء الصليبيين في حملة لويس وكونراد فرصة يمكن استغلالها لصالحه. وكان جوسلين يعتقد أن سقوط الرها هو الدافع الأول لقيام الحملة، وعلى ذلك فإن المهمة الأساسية للحملة هي استرداد الرها، أما ريموند الثاني أمير طرابلس فقد أراد أن يستغل الرابطة التي تربطه بالملك الفرنسي عن طريق أمه الفرنسية في تسخير الحملة لاسترداد قلعة باوين التي استولى عليها المسلمون عام ١١٣٧ م.

وهكذا وجد لويس نفسه في وسط مجموعة من الأمراء المنشقين على أنفسهم تطحنهم الأهواء المتعارضة، وفي نفس الوقت كره الإقامة في إنطاكية لما أشيع عن العلاقة المشينة بين زوجته وبين خالها الأمير ريموند فأعلن أنه لا يمكنه القيام بأي عمل عسكري قبل التوجه إلى بيت المقدس، وساعده على

ذلك وصول فوشيه أسقف بيت المقدس - بعد وصول كونراد إلى بيت المقدس مباشرة - مبعوثاً من قبل النبلاء لدعوته إلى بيت المقدس قبل أن يستغله ريموند لصالحه، فتجه لويس حيث دعوه وتقابل مع كونراد، وعقد مجلساً ضم العاهلين وبلدوين ملك مملكة بيت المقدس وكبار الشخصيات الدينية والعلمانية، ولم يحضر ريموند أف بواتيه الذي غضب لرحيل الملك لويس، ولعل موقفه هذا يرجع إلى اعتماده على مساندة الامبراطور مانويل بعد ما قدم له الولاء والمساعدة التي وعد بها الامبراطور. كما لم يحضر أيضاً هذا المؤتمر ريموند الثاني كونت طرابلس بسبب غضبه من اتهامه بقتل الفونس Alphonse كونت تولوز، بينما ظل جوسلين في تل باشر وربما بسبب غضبه أيضاً من تصرفات لويس وكان الأولى به أن يكون أول المجتمعين، ومن الملاحظ أن الأمراء الذين تخلفوا عن حضور هذا المؤتمر أو مجلس الحرب هذا هم أمراء الإمارات الصليبية الثلاث التي كانت مهددة تهديداً مباشراً بخطر نور الدين.

الهجوم على دمشق

وفي هذا المؤتمر طرحت آراء عديدة حول مهمة الحملة، وفي النهاية اتفق المجتمعون على مهاجمة دمشق، والواقع أن هذا القرار اتسم بالحماقة إلى حد بعيد، فبالرغم من أن دمشق تعتبر وليمة دسمة، لما يترتب على سقوطها في أيدي الفرنج من قطع الصلة إلى حد بعيد بين المسلمين في مصر وإفريقية وبين إخوانهم في شمال الشام والعراق، غير أن مهاجمتها تعني فقد الدويلة الوحيدة في العالم الإسلامي التي انفردت بالحرص على بقاء الصداقة مع الفرنج، كما كانت تضارع أكثر الفرنج تطرفاً في اعتبار نور الدين أكبر عدو لها. فكانت مصالح الفرنج تقضي بالمحافظة على الصداقة مع دمشق، حتى يتم سحق نور الدين، فلم يدرك الصليبيون أن مهاجمة دمشق سوف تجعل حكامها يرون أن أسلم وسيلة هي أن يرتموا في أحضان نورالدين، ويبدو أن فكرة غزو دمشق قد نبعت في بلاط بيت المقدس حيث طمع باروناتها في الحصول على البلاد الخصبة التي تدين بالولاء والتبعية لدمشق، بينما لم يكن لحلب أهمية

تذكر، وبدأت الجيوش الصليبية في التجمع لمهاجمة دمشق في صيف عام ١١٤٨ م وكانت طبرية مركز تجمعهم ومنها اتجهوا إلى بانياس ثم إلى الغوطة. وكانت خطة الصليبيين تقضي بالسيطرة على بعض المواقع خارج سور دمشق، مثل المزة والربوة، التي بذل كونراد جهداً كبيراً في احتلالها، ولقد حاول جيش دمشق منع تقدمهم، غير أنه اضطر إلى الارتداد إلى ما وراء الأسوار، والاكتفاء بأسلوب الكر والفر من خلال الغوطه، مما حدا بالصليبيين إلى إرسال جيش بيت المقدس إلى البساتين لتطهيرها من المقاتلين الذين يستغلون الأشجار في الاختباء، ونجحوا في ذلك، حيث أضحت البساتين الواقعة إلى الجنوب من دمشق في أيدي الفرنج بعد الظهر من نفس اليوم، وقام الصليبيون بإقامة المتاريس مستغلين في ذلك الأشجار التي قاموا بقطعها من الغوطة.

ولما رأى المسلمون ما قام به الصليبيون من الاستيلاء على المزة ووصول كونراد إلى الربوة الواقعة على نهر بردى تحت أسوار المدينة مباشرة فزع الأهالي فزعاً شديداً واتجهوا إلى التحصن بأسوار المدينة، حيث قام أنر «... في التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم وتحصين ما يخشى من الجهات وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ وقطع مجاري المياه عن منازلهم وطم الآبار...» وذلك استعداداً للاستماتة في القتال الأخير. ويبدو أن الأمر قد تحسن في اليوم التالي بالنسبة للمسلمين، فلم تلبث أن تدفقت الإمدادات التي طلبها أنر إلى المدينة من أبوابها الشمالية، فتجمع لأنر قوة لا بأس بها استطاع عن طريقها أن يقوم بهجوم اشترك فيه «... من الأجناد والأتراك وأحداث البلد والمتطوعة والغزاة الجم الغفير واشتجر القتال بينهم...»، واستطاع المسلمون رد الغزاة عن الأسوار، بل وأعادوا الكرة على الصليبيين في اليومين التاليين. واستطاع رجال أنر التوغل في الحدائق والبساتين مرة أخرى، واستغلالها في شن الهجمات الخطرة على المعسكر الصليبي وخاصة من جهتها الغربية، التي سماها المؤرخون المسلمين «الميدان الأخضر» ويبدو أن هذا الهجوم من جانب المسلمين دفع الملوك إلى عقد اجتماع حضره كونراد ولويس وبلدوين وبدأوا

يفكرون في سحب قواتهم إلى الجهة الشرقية بعيداً عن الأشجار التي يحتمي بها فرسان المسلمين في شن الغارات على المعسكر الصليبي، وفي السابع والعشرين من يوليو تحرك الجيش الصليبي إلى السهل الواقع خارج السور الشرقي، والواقع أن هذا القرار كان بالغ الخطورة، حيث افتقر الموضع الجديد إلى الماء، كما أنه كان في مواجهة أقوى وأمتن قطاع في سور المدينة. كما أطلق يد القوات الإسلامية في منطقة البساتين تستغلها في الكر والفر وبداية الهجمات والاختفاء عن أعين الأعداء، مما دفع الصليبيين الغربيين إلى الاعتقاد بأن بارونات فلسطين الذين نصحوا الملوك بالاتجاه إلى الشرق إنما قاموا بذلك نظير رشوة تقاضوها من أنر حتى يسدوا هذه النصيحة، وبذلك ضاعت آخر فرصة للاستيلاء على دمشق بفضل تحرك الجيش إلى الموضع الجديد.

وفي تلك الأثناء أخذت قوات معين الدين أنر تتزايد تزايداً مستمراً «. . . حيث كانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم وزال روعهم وثبتوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تتبع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل. . .».

وبتجدد القتال أضحى الجيش الصليبي، لا المدينة المحاصرة، يتخذ وقتذاك خطة الدفاع، بينما تحوّل المسلمون إلى الهجوم. وخاصة بعد أن توافد من ناحية البقاع وغيرها أعداد كبيرة من الفرسان والرجالة «. . . فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة. . .» فاستأنف المسلمون الهجوم في صبيحة اليوم التالي، و«. . . أحاطوا بهم في مخيمهم وحول مجتمعهم، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها بالنشاب وقذفاً بالأحجار. . .» فسرعان ما أصبح المعسكر الصليبي لا المدينة تحت وطأة الحصار «. . . وايقن الصليبيون بالهلاك والبوار وحلول الدمار. . .».

خلافات الصليبيين

وفي ظل تلك الظروف البالغة السوء، وبينما قوة المسلمين في ازدياد مستمر، بفعل الاستجابة الفورية لنصرة أبناء الدين والصليبيين محاصرين من كل جانب، قام خلاف جديد بين الصليبيين زاد من سوء الأحوال وبشر بالنهاية الفاشلة للحملة الصليبية الثانية، فقد انقسم الصليبيون على أنفسهم، بعد ما تردد بين الجيش الصليبي، من التخاذل والهمسات عن الخيانة، فقد بدأ القادة الصليبيون في التشاحن صراحة حول مستقبل دمشق، إذا ما استولوا عليها، فمن جهة كان بارونات بيت المقدس يأملون بألا تكون دمشق سوى أقطاع للملكة، واتفقوا على أن يكون سيد هذا الاقطاع، هو جاي بريسبار، كونت بيروت، ويبدو أن الملكة ميلسند وقائدها قد أقرا ذلك الترشيح. ومن جهة أخرى كان ثيرى كونت فلاندر يطمع في أن يحصل على دمشق كاقطاع شبه مستقل على مثال إمارة طرابلس، وأيده في ذلك كلاً من كونراد ولويس، والملك بلدوين.

وهكذا دب الشقاق بين الأمراء الصليبيين بعضهم البعض على مصير دمشق قبل أن يتمكنوا من الفوز بها ذاتها، فكانوا في ذلك كمن باع فراء الدب قبل أن يتم صيده، فبينما كان البارونات المحليون يأملون في تحويل دمشق إلى مجرد إقطاع تابع لهم، رأى البارونات الوافدين من الغرب ضرورة إنشاء إمارة صليبية جديدة ومستقلة فيها.

وفي مجال ذلك الصراع، يبدو أن أمراء بيت المقدس اتصلوا سراً بأنر، حيث دارت الشائعات أن أنر قدم مبلغ ضخماً من النقود إلى بلاط القدس، عن طريق اليناند أمير الجليل في نظير تضليل الحملة والعمل على دفعها نحو الطرف الشرقي من دمشق، كما وعدهم إذا ما تراجعوا على الفور بإنهاء التحالف مع نور الدين، ولقد قوى من هذا الاتهام أن أمراء بيت المقدس كانوا هم الذين أشاروا على الصليبيين بالجلاء عن الغوطة الغربية حيث الماء متوفر والهجوم أيسر، وحثوهم على الانتقال إلى الجانب الشرقي من دمشق بعيداً عن

الماء وحيث الهجوم أصعب وأشد تعرضاً للخطورة، كما ساعد على ذلك أنه حينما توارد الخبر بين العسكر، قاموا بالبحث عن المال ووجدوه فعلاً عند اليناند أمير الجليل إلا أنهم اكتشفوا أنه مزيفاً.

ويبدو من تلك القصة أن أنر بدهائه المعهود قد حاول الإيقاع بين الصليبيين بعضهم وبعض، حتى يسرعوا بالابتعاد عن أسوار المدينة، قبل أن يحتاج إلى المساعدة الفعلية من نور الدين الذي كان يعلم أنر جيداً إذا ما دخل دمشق فإنه من الصعب إخراجه منها مرة أخرى.

إنسحاب الصليبيين وفشل الحملة

وبينما الصليبيون في صراع مرير، يتبادلون التهم والشجار فيما بينهم، وصلت استغاثة أنر إلى الزنكيين، سيف الدين غازي أتابك الموصل، ونور الدين محمود أتابك حلب وهما اللذان انتهزا الفرصة وزحفا مباشرة على دمشق، ولكنهما فضلا البقاء خارجها حتى يتم التفاوض مع أنر الذي ربما يدفعه دخول القوات الزنكية في دمشق إلى تسليمها للصليبيين، فيضيع على المسلمين نصرهم الذي كسبوه إلى هذا الحين.

وعلى ذلك فقد ظل نور الدين في حمص يتفاوض على شروط مساعدته لأنر، وأرسل غازي إلى معين الدين أنر يشترط عليه «أن يكون ثوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري إلى البلد واحتمينا به، وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه. . .».

ولما كان أنر يعرف جيداً نية الأخوين زنكي، ويدرك أنه إذا احتلت جنودهما قلعة دمشق مرة فلن يتركوها للأبد، لذلك تجاهل أنر الرد على آل زنكي إلى حين وماطلهم لينظر ما يكون من أمر الفرنج وذلك عملاً على كسب الوقت، في نفس الوقت الذي أرسل فيه معين الدين رسالة عاجلة إلى الصليبيين يهددهم فيها بأن «. . . ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه

وحينئذ تندمون. . . حيث لن يبقى لكم معه مقام بالشام» وفي ذلك الوقت كان جيش الفرنج في وضع حرج أمام دمشق، ولم يكن هناك أملاً في قدوم مزيد من الإمدادات، ثم هناك أيضاً ذلك العرض السخي الذي قدمه أنر لهم والذي عرض بمقتضاه التنازل لامراء بيت المقدس عن حصن بانياس مقابل الجلاء عن دمشق، وهو عرض مغري دون شك. خاصة وأن جيش نور الدين لم تمض أيام قليلة حتى يصير في ساحة المعركة، فإذا وصلت قوات نور الدين، فلن يحل الدمار فحسب بكل الجيش الصليبي، بل صار من المحقق كذلك أن تنتقل دمشق إلى حوزة نور الدين.

وعلى ذلك لم يلبث الصليبيون أن أخذوا يعملون حساباً لاقتراب القوات الإسلامية المتحدة من جهة الشمال. وأدركوا أخيراً أن حملتهم لم تتجه وجهتها الصحيحة، وأن حلب لا دمشق كانت أولى بجهودهم. فقد أصبحوا مهددين بين حين وآخر بانقضاض قوات البيت الزنكي عليهم، في الوقت الذي ساء وضعهم في مركزهم الجديد شرقي دمشق بسبب نقص الأقوات وعدم توافر الماء، وصعوبة الدفاع عن تلك المنطقة المفتوحة التي يحيط بها المسلمون من كل جانب.

كل تلك العوامل جعلت بارونات فلسطين يقتنعون، أنه من الحماقة المضي في مهاجمة دمشق، وفرضوا آراءهم على الملك كونراد والملك لويس بالانسحاب وإذا كان القادمون من الغرب قد راعهم ما يحدث، ولم يكن بوسعهم استيعاب تلك المناورات السياسية من جانب الصليبيين الشرقيين أو من جانب الحكام المسلمين، غير أنهم أدركوا أنه لن يستطيعوا القيام بأي عمل من الأعمال إلا بمساعدة القوات الصليبية المحلية، وإن كان لويس وكونراد قد جأرا بالشكوى لما اكتشفاه من الخيانة، والافتقار إلى الحماس، غير أنهما لم يكن أمامهما إلا الانسحاب ورفع الحصار عن دمشق.

وفي فجر يوم الأربعاء، الثامن والعشرين من يوليو سنة ١١٤٨ م، أي في اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق، قاموا بإزالة معسكرهم، وساروا

نحو الجليل، إلا أن القوات الإسلامية لم تدعهم يرتحلون في هدوء وسلام، إذ سرعان ما قام الفرسان المسلمون الخفاف طوال عدة أيام تالية بالضغط على جناحي الجيش الصليبي وأمطروه بوابل من السهام، وكان الوقت صيفاً والحرارة قاسية، وجثث الصليبيين وخيولهم متناثرة على امتداد الطريق، حتى أفسدت رائحتها المنطقة لشهور عديدة متتالية، وفي ظل كل هذه الأوضاع، عادت الحملة الحربية الكبيرة إلى فلسطين في أوائل أغسطس من نفس العام، بينما رجعت قوات المسلمين إلى بلادها.

ويمكن القول بأن كل ما حققته هذه الحملة، أنها فقدت عدداً كبيراً من رجالها، وقدراً عظيماً من عتادها، وتعرضت للهوان الشديد، والواقع أن ما حدث من إرغام جيش بمثل هذه الضخامة على التخلي عن تحقيق هدفه، ولم ينقض على القتال سوى أربعة أيام يعتبر ضربة قاصمة لكرامة الصليبيين. و«... بذا تبددت نهائياً أسطورة فرسان الغرب الذين لا يقهرون والتي نمت، وترعرعت أثناء مغامرة الحرب الصليبية الأولى، بينما انتعشت آمال العالم الإسلامي...».

نتائج الحملة الصليبية الثانية

١ ـ التحالف الألماني البيزنطي:

لم يلبث الملك كونراد طويلاً في فلسطين بعد العودة من دمشق، فسرعان ما أبحر مع رجاله من عكا في الثامن من سبتمبر سنة ١١٤٨م، على سفينة متوجهة إلى سالونيك ولم يكد يهبط إليها، حتى تلقى دعوة عاجلة من الامبراطور البيزنطي مانويل، لكي يقضي عيد الميلاد بالبلاط الامبراطوري، وفي هذه الزيارة إكتمل الوفاق والانسجام بين الملكين، ومع أن فردريك الشاب، ابن شقيق كونراد ما زال يكن الكراهية للبيزنطيين، حيث وجه إليهم اللوم على ما لحق بالألمان من خسائر في بلاد الأناضول، إلا أن عمه كونراد لم يفكر إلا في أهمية التحالف مع مانويل ضد روجر الثاني ملك صقلية، وعلى ذلك فقد تم الاحتفال بزواج أخيه هنري دوق أوستريا بثيودورا ابنة أخ مانويل، ويدل ذلك الزواج على مدى الوفاق بين البلاطين الألماني والبيزنطي أو قل أنه كان في نظر العاهلين خطوة سياسية موفقة للتقريب بين الدولتين وزيادة الارتباط بينهما، بينما رأى المواطنون البيزنطيون في ذلك الزواج أنهم قدموا أميرتهم الجميلة المحبوبة قرباناً لحيوان من الغرب.

وعلى أي حال غادر كونراد القسطنطينية عائداً إلى ألمانيا، في فبراير سنة ١١٤٩ م بعد ما عقد محالفة بينه وبين الامبراطور مانويل ضد روجر

الثاني ملك صقلية، تقضي تلك المعاهدة باقتسام الملكين أراضي روجر الثاني في شبه الجزيرة الايطالية.

ويبدو أن كونراد الذي عاد خالي الوفاض من مغامرته في قتال المسلمين، أراد أن يملأ جعبته بعمل سياسي، ضد روجر الثاني ملك صقلية عدوه اللدود وخاصة بعد التمزق السياسي الذي نتج عن أحداث الحملة مع الفرنسيين من جهة والبيزنطيين والإمارات الصليبية في الشام من جهة أخرى، فكان على كونراد أن يخفي المرارة تجاه البيزنطيين ويصانعهم حتى يتم الاتفاق معهم ضد روجر الثاني ملك صقلية.

أما الامبراطورية البيزنطية وعلى رأسها مانويل فكان من صالحها دون شك التحالف مع العاهل الألماني وهي المهددة باستمرار من جراء أطماع الملك الصقلي روجر الثاني والذي لم يدخر فرصة لإظهار عدائه تجاه البيزنطيين والإغار على ممتلكاتهم.

٢ ـ التقارب الفرنسي الصقلي ضد بيزنطة:

في الوقت الذي كان فيه كونراد ينعم بالصداقة وحسن الاستقبال في القسطنطينية، ظل الملك لويس مقيماً في إمارة بيت المقدس وذلك بالرغم من الإلحاح الشديد الذي أظهره سوجر رئيس الدير الفرنسي في مطالبة الملك بالعودة إلى فرنسا، ولم يكن لويس قد اتخذ قراره بعد بالعودة، ويبدو أنه أراد أن يقضي عيد القيامة في بيت المقدس، خاصة وأن عودته إلى فرنسا سوف تقترن بكثير من المشاكل وعلى رأسها طلاقه من زوجته اليانور، وما سوف يترتب على ذلك من نتائج سياسية سيئة، ولذا فقد قرر لويس تأجيل ذلك اليوم المشؤوم.

وفي نفس الوقت الذي كان كونراد يجدد فيه صداقته مع الامبراطور البيزنطي مانويل، ازداد نفور لويس من الامبراطوية البيزنطية، واعتبرها المسؤولة عن كل ما لحق بالصليبيين من كوارث، وبناء على ذلك فقد اتجه لويس إلى تغيير سياسته وسعى إلى التحالف مع روجر الثاني ملك صقلية،

خاصة وأن ما وقع بينه وبين ريموند أمير إنطاكية من شجار، أزال العقبة الأساسية التي تحول دون هذا التحالف. فلم تعد مسألة إنطاكية على درجة كبيرة من الأهمية كما كانت من قبل، خاصة وأن هذا التحالف الجديد سوف يساعد لويس على المضي في كراهية بيزنطة إلى أبعد مدى.

وفي أوائل صيف عام ١١٤٩ م، غادر لويس فلسطين على سفينة صقلية انضمت إلى الأسطول الصقلي الذي كان مشتركاً في الحرب مع بيزنطة، تلك الحرب التي كانت ما تزال مستمرة، وعندما وصلت سفينة لويس إلى شبه جزيرة البلبوبونيز، هاجمتها سفن الأسطول البيزنطي، حتى اضطر لويس إلى رفع العلم الفرنسي على السفينة حتى يستطيع المضي في طريقه، إلا أن سفينة أخرى كان يستقلها عدد كبير من أتباع لويس محملة بكثير من أمتعة الملك الشخصية استولى عليها البيزنطيون كغنيمة عسكرية، وتم توجيهها بمن فيها إلى القسطنطينية، ولم يوافق الامبراطور مانويل على إعادة الرجال والأمتعة إلى فرنسا إلا بعد مضي شهور عديدة.

وعند وصول الملك لويس إلى الأراضي الإيطالية حيث وصل إلى كالاريا Calaria في نهاية شهر يوليو سنة ١١٤٩ م، توجه منها إلى بوتنترا Potentaizy حيث استقبله فيها الملك روجر واقترح عليه توجيه حملة صليبية جديدة يكون هدفها الأساسي الانتقام من بيزنطة، فبادر لويس ومستشاروه بالموافقة على الفور، ثم واصلوا الرحيل إلى فرنسا، وصاروا يخبرون كل من يلقاهم في الطريق إليها بما ارتكبه البيزنطيون من خيانة وغدر، وضرورة إنزال العقوبة بهم، والظاهر أن لويس أراد بذلك، تهيئة الجو السياسي في أوروبا للحملة التي أزمع على إرسالها بالاشتراك مع روجر لتأديب البيزنطيين، غير أن البابا يوجين الذي اجتمع مع لويس في تيفولي Tivoli لم يوافق على إرسال تلك الحملة التي اتفق عليها الملكان على الرغم من موافقة كثير من رجال المجلس البابوي على المشروع.

على أن فشل الحملة ضد بيزنطة كان نتيجة مباشرة لموقف الملك

الألماني كونراد الذي رفض التعاون ضد بيزنطه نظراً لصداقته مع مانويل وعدائه الشديد لروجر الثاني، فلم ير أن يتفق ضد مانويل ويعرض الحلف بينهم إلى التصدع، لا لشيء سوى زيادة قوة خصمة روجر. وعلى ذلك فقد فشلت كل المحاولات التي قام بها الكاردينال ثيودوين وبطرس المبجل لإقناع كونراد للاشتراك في هذه الحملة الجديدة، كما ضاع سدى توسل القديس برنارد له وما وجهه إليه من تهديد، وترتب على موقف كونراد هذا إغفال مشروع الحملة، بل تأجيل ذلك المشروع إلى خمسين سنة أخرى.

٣ ـ موقف البيزنطيين من فشل الحملة:

أما فيما يتعلق بموقف الامبراطور مانويل، فيمكن القول بأن البيزنطيين اغتبطوا لفشل الحملة، ومرجع ذلك أن الامبراطورية البيزنطية كانت ترى أن دعم الوجود الصليبي في الشام سوف يكون على حساب ما تدعيه بيزنطة من نفوذ في المنطقة وخاصة في إنطاكية حيث رأى مانويل أنه كان لزاماً على الاستراتيجية البيزنطية إزاء المسلمين، أن تسيطر على إنطاكية، وحققت بيزنطة آخر الأمر هذه السيادة، حينما خضع ريموند أمير إنطاكية ذليلاً للامبراطور في القسطنطينية، على أن قدوم الحملة الصليبية الثانية، وعلى رأسها لويس السابع ملك فرنسا وزوج ابنة أخت ريموند، اغرت الأخير بالتخلص من التبعية البيزنطية، ولا بد أن انتهاء تلك الحملة بالفشل سوف يعيد ذلك المتمرد إلى حظيرة الامبراطورية مرة أخرى. بل لعل أهم من ذلك كله أن الامبراطور مانويل كان يرى أن مصر ـ التي كانت ضمن أملاك الامبراطورية فيما مضى ـ يجب أن تعود إلى السيادة البيزنطية مرة أخرى وقد حاول مانويل العمل على تحقيق ذلك عندما تحالف مع الصليبيين وهاجما دمياط سنة ١١٦٩ م،ولكن هذا التحالف قد فشل.

وعلى ذلك فقد نظر الامبراطور البيزنطي إلى الحملة الثانية على أنها جاءت لتبذل العون لامارة الرها التي يتوقف بقاؤها على تفرق كلمة

المسلمين، بينما تعرض الامبراطور البيزنطية وهي سياج العالم المسيحي للخطر - وتمنعها من إداء واجبها الذي ظلت زمناً طويلاً تؤديه كحارسة للطرف الشرقي من العالم المسيحي بالرغم من تعرضها للمتاعب من الغرب، على أن قدوم الحملة الصليبية الثانية أوضح في جلاء أن السياستين متعارضتين برغم اشتراكهما في هدف واحد، ولم تتبين أوروبا الغربية المسيحية أي السياستين كانت الأفضل، إلا بعد سقوط القسطنطينية،سنة ١٤٥٣ م، وبعد هدير الأتراك ورعدهم على أبواب أوروبا.

٤ - التضامن الإسلامي وازدياد نفوذ نور الدين بالشام:

أدت الحملة الصليبية الثانية إلى انشقاق الغرب الأوروبي على نفسه، وانشغال مانويل إلى حد ما بأمر الغرب الأوروبي بالإضافة إلى المتاعب التي كان عليه أن يواجهها في تلك الفترة من قبل الصرب والبلغار وبالتالي الانشغال عن سياسته الشرقية ضد المسلمين. وفي الوقت نفسه زادت فيه قوة المسلمين وأصبح اسمهم يلقي الرعب في صفوف الصليبيين، بعد ما قبع جوسلين في تل باشر وبعد ما خذل ريموند أمير أنطاكية من مانويل، وفشل أمراء بيت المقدس في تحقيق أهدافهم بالاستيلاء على دمشق. وبرز نور الدين ليعمل على توحيد الجبهة الإسلامية والقضاء على الصليبيين بعد ما تبين له عدم جدية الغرب الأوروبي في مساعدتهم وعدم قيام مانويل بواجباته نحوهم وخاصة عند سقوط الرها التي كانت السياسة البيزنطية في عهد والده تعتبرها جزءاً من أملاك الامبراطورية البيزنطية.

ولقد زاد من نفوذ نور الدين وسلطانه بالشام، نجاحه في الاستيلاء على حمص سنة ١١٤٩ م. ذلك أن سيف الدين غازي أتابك الموصل توفي في نوفمبر من السنة السابقة فقام نزاع قصير حول تركته بين أخويه نور الدين أتابك حلب وقطب الدين الذي آلت إليه الموصل. وقد كانت محور ذلك الصراع هي مدينة «سنجار»، وانتهى ذلك الأمر بأن أخذ قطب الدين سنجار مقابل تنازله لنور

الدين عن حمص. وهكذا خطا نور الدين خطوة جديدة نحو توحيد بلاد الشام ووضعها تحت سيطرته.

ولم يكد نور الدين يستولي على حمص حتى أخذ يوجه جهوده من جديد ضد إمارة إنطاكية فأغار في صيف سنة ١١٤٩ م، على الإقليم المحيط بقلعة حارم على الضفة الشرقية لنهر العاص، ويذكر ابن القلانس أن نور الدين طلب المساعدة من معين الدين أنر فأمده بقوة من فرسانه. وعندئذ ترك نور الدين حارم مكتفياً بتدمير ما حولها من ضياع وأخذ يحاصر قلعة إنب على الضفة الشرقية لنهر العاص، وعندما علم ريموند أف بواتيه صاحب إنطاكية بمحاصرة نور الدين لقلعة أنب خرج على رأس قوة من رجاله لصد نور الدين وقد ارتكب خطأً كبيراً، فلم ينتظر اجتماع كل فرسانه وإنما تسرع في الخروج لملاقاة نور الدين وليس معه سوى أربعمائة من الفرسان وألف من المشاة، في حين بلغت قوة نور الدين ستة الآف من الفرسان غير الأتباع من السواد.

وعند ذلك أحاط نور الدين بريموند ورجاله قرب أنب في التاسع والعشرين من يونيو سنة ١١٤٩ م، وأبادهم أولا عن آخر، وكان من جملة القتلى ريموند أمير إنطاكية ذاته ورينو صاحب كيسوم ومرعش، بالإضاف إلى علي بن وفا زعيم الباطنية.

ويصور لنا المؤرخون مدى فرح المسلمين بمقتل ريموند حيث ذكر ابن القلانسي أنه «. . . وجد اللعين البلنس مقدمهم صريعاً بين حماته وأبطاله فعرف وقطعت رأسه وحمل إلى نور الدين فوصل حامله بأحسن صلة وكان هذا اللعين من أبطال الإفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلقة مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتنافي في الشر وذلك في يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر سنة ٥٤٤ هـ. . .» ويضيف المؤرخ وليم الصوري أن نور الدين أرسل رأس ريموند وذراعه اليمنى إلى الخليفة العباسي في بغداد في صندوق من الفضة. وأقام المسلمون الأفراح في كل مكان ابتهاجاً بمقتل ريموند ورينو، ونظمت القصائد للتغني بذلك النصر العظيم. ولم يكتف نور

الدين بذلك وإنما أوغل في إمارة إنطاكية حتى وصل إلى السويدية وهي ميناء إنطاكية الرئيسي، كما قام بتهديد إنطاكية نفسها، فعرض عليه أهلها كل ما يمتلكون من أموال ومتاع في نظير ترك مدينتهم، ولكنه رفض ذلك وترك فرقة من جيشه أمام إنطاكية لتبقى على حصارها «. . . والإقامة عليها والمنع لمن يصل إليها. . .» وانصرف إلى حصن فاميه.

والظاهر أن نور الدين أدرك أن سقوط المدينة سوف يستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً وأن قوات الصليبيين في بيت المقدس وطرابلس سوف تسرع لنجدتها، ولذلك آثر أن يهاجمها بكل رجاله واستغل فرصة الاضطراب الذي ساد في إمارة إنطاكية عقب مقتل أميرها ريموند ليستولي على بقية معاقلها شرقي نهر العاص. فبدأ في حصار حارم في يوليو ١١٤٩ م، ولكن الصليبيين صالحوه على نصف أعمالها. فانصرف إلى فاميه واستطاع الاستيلاء عليها في أواخر الشهر نفسه. وبذلك يكون نور الدين قد نجح في الاستيلاء على جميع ممتلكات إمارة إنطاكية شرقي نهر العاص واكتفى بما حققه من مكاسب في تلك المرحلة، ثم استدعى قواته التي تركها أمام مدينة إنطاكية.

وعلى ذلك فقد غدت إنطاكية بعد مقتل أميرها تحت حكم أرملته كونستانس التي حكمت الإمارة باسم ولدها الطفل بوهميد الثالث، ولم يكن في استطاعة امرأة حديثة السن في الثانية والعشرين من عمرها ـ أن تنهض بأعباء الحكم والدفاع عن الإمارة فقام بطريق إنطاكية أيمري Aimery بدور كبير في ذلك، كما أن بلدوين الثالث ملك بيت المقدس توجه إلى إنطاكية عقب هذه الكارثة، فأدى حضوره إلى تهدئة روع الأهالي ورفع روحهم المعنوية.

وفي الوقت الذي فشلت فيه الحملة الصليبية الثانية، كان جوسلين الثاني لا يزال مقيماً في قاعدته تل باشر، يشرف على بقية البلاد التابعة لإمارته، وهي سميساط وقلعة الروم ودلوك والراوندان وقورس، ثم مرعش وعزاز من ناحية الشمال أي على حدود إمارة إنطاكية.

وبعد موت ريموند أف بواتيه لم يكن أمام جوسلين الثاني إلا محاولة الدفاع عن الأطراف الشمالية للإمارات الصليبية في الشام، ولكنه بما عرف عنه من حب الترف والدعة لم يستطع النهوض بمثل ذلك العبء، فبدلاً من أن يحاول استرداد ممتلكات الصليبيين وعلى رأسها مدينة الرها ذاتها، أخذ يوجه غاراته نحو نهب الأديرة المسيحية المتطرفة، كما فعل سنة ١١٤٨ م، عندما أغار على أحد الأديرة الواقعة عند أطراف نهر الفرات. وكان مفروضاً أن يسرع جوسلين لنجدة إمارة إنطاكية عقب مقتل أميرها سنة ١١٤٩ م ولكنه لم يفعل ذلك، بل حاول استغلال محنتها ليفوز بشيء من حطام الإمارة، فزحف إلى مرعش ودخلها، إلا أن اقتراب مسعود سلطان سلاجقة الروم منها، جعله يسارع بالانسحاب والعودة إلى تل باشر، وبذلك سنحت الفرصة للأتراك من سلاجقة وتركمان لاقتسام حطام الرها وإنطاكية حيث انتهز مسعود سلطان سلاجقة الروم (١١١٦ ـ ١١٥٥) فرصة النصر الذي حققه نور الدين على إنطاكية ليستولي على مرعش في سبتمبر سنة ١١٤٩ م، بل لقد حاصر مسعود تل باشر نفسها ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها بعد قليل.

كما تقدم قرا أرسلان الأرتقي صاحب خرتبرت وحصن كيفا للحصول على نصيبه من الغنيمة عن طريق مهاجمة الأجزاء الشمالية من إمارة الرها والاستيلاء على كركر شمالي سميساط وحصن منصور.

أما جوسلين الثاني نفسه فقد وقع أسيراً في قبضة التركمان في الرابع من مايو سنة ١١٥٠ م فسلموه لنور الدين الذي سجنه في حلب، حيث ظل بها تسع سنوات معتقلاً حتى مات سنة ١١٥٩ م. وقد أبدى المؤرخون المسلمون فرحهم بأسره، واعتبروا «... أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسي القلب وأصيبت النصرانية كافة بأسره...».

والواضح أن أسر جوسلين الثاني ترك ما تبقى من حطام إمارة الرها دون مدافع، فقام السلطان مسعود بغزو كيسوم في صيف ١١٥٠ م، واستولى بعد ذلك على بهنسي ورعبان، ثم اتجه بعد ذلك لحصار تل باشر نفسها، كما استطاع

خليفته نور الدين أن يستولي على قلعة عزاز التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة إنطاكية ذاتها.

ولقد حاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس إنقاذ حطام الإمارتين بعد أسر أمير الأولى ومقتل أمير الثانية، في نفس الوقت الذي تقدم فيه الامبراطور البيزنطي مانويل بعرض إلى بيترس Beatrice - زوجة جوسلين الثاني والوصية على إمارة الرها - لشراء كل ما تبقى من حطام تلك الإمارة، فاستشارت بيترس الملك بلدوين، الذي وافق على ذلك بعد أن أقنعه رسل الامبراطور بأن استيلاء البيزنطيين على تلك البلاد عن طريق الشراء أفضل من ضياعها نتيجة استيلاء المسلمين عليها بلا ثمن. وعلى ذلك تمت الصفقة فعلاً عام ١١٥٠ وانسحب الصليبيين من تلك المدن بعد تسليمها إلى البيزنطيين.

وإذا كان الامبراطور البيزنطي قد سعد بإتمام تلك الصفقة واستيلائه على تل باشر ودلوك وعينتاب والرونداان وظن أن ذلك سوف يعيد نفوذه على تلك الجهات، إلا أنه سرعان ما اكتشف أن الصفقة خاسرة. وأن ممتلكاته الجديدة ثقيلة العبء وتحتاج إلى جهد كبير للمحافظة عليها وذلك لبعدها عن مركز الامبراطورية من جهة ووقوعها وسط الممتلكات الإسلامية من جهة أخرى، كل ذلك والامبراطورية البيزنطية ذاتها تعاني من التهديد النورماني في صقلية، مما جعلها عاجزة عن بذل أي نوع من الجهود الجادة في المحافظة على ممتلكاتها الجديدة.

ولقد شجع هذا الوضع أمراء المسلمين على التحالف مع بعضهم البعض واقتسام هذه الممتلكات فيما بينهم، حيث لم يتم على شراء هذه الممتلكات عام واحد إلا وكانت غنيمة باردة في أيدي المسلمين، فاستولى مسعود على عينتاب ودلوك واستولى تمرتاش الأرتقي على سميساط والبيرة، بينما استولى نور الدين على الراوندان ثم تل باشر التي استسلمت له في يوليو سنة ١١٥١ م.

وبذلك تبخرت إمارة الرها الصليبية وذهبت مع الريح، مما يعتبر بداية

النهاية بالنسبة للبناء الصليبي في الشام. فكانت خاتمة ملائمة للحملة الصليبية الثانية، بعد ضربها في آسيا الصغرى وفشلها أمام دمشق، فما من حملة في العصور الوسطى تضارع تلك الحملة التي خرجت وانعقدت عليها آمال كبيرة، وإذا كان البابا هو الذي خطط لها، ودعا إليها القديس برنارد بما عرف عنه من فصاحة، وقادها أعظم ملكين في غرب أوروبا، إلا أنها بلغت نهايتها المشينة الذليلة بارتدادها خاسرة عن دمشق، وكل ما أدت إليه أنها جعلت العلاقات بين المسيحيين في الغرب والبيزنطيين من المرارة ما كاد أن يؤدي إلى الحرب بينهم، كما بذرت بذور الشك بين الصليبيين القادمين حديثاً من الغرب وبين زملائهم القدامى النازلين بالشام، كما أحدثت الخلافات بين الأمراء الصليبيين في الشام فعزلت كل منهم عن الآخر، والأهم من ذلك كله أنها حملت الأمراء المسلمين على أن يزدادوا تقارباً واتحاداً وثقة في أنفسهم، فارتفعت قواهم المعنوية بهذا الاتحاد، ولقد بدأ ذلك واضحاً في مهاجمة جيوش الألمان والفرنسيين خلال اجتيازها لآسيا الصغرى، ومما هو جدير بالذكر أن جميع أولئك المسلمين الذين قاموا بذلك العمل الرائع كانوا متطوعين حفزهم الحماس الديني والوطنية على الإقدام دون انتظار أن يطلب منهم ذلك أحداً.

وبذلك كان فشل الحملة الصليبية الثانية نقطة تحوّل في تاريخ الفرنج بالشرق الأدنى الإسلامي، وإذا كان سقوط الرها قد أتم المرحلة الأولى من الإفاقة الإسلامية فإن الفشل الذريع الذي تعرضت له الحملة الصليبية الثانية، هو الذي أكد الانهيار الفاجع للبناء الصليبي في الشام وبشر بقرب النهاية المحتومة ووضع نبراساً للقادة المسلمين اللاحقين يتبعونه في نضالهم، وسرعان ما أثبتت الأحداث بعد ذلك أن القادة اللاحقين من أمثال صلاح الدين الأيوبي وغيره من قادة المسلمين كانوا خير خلف لخير سلف.



الفصل الثالث

الوحدة بين مصر والشام

الصراع بين نور الدين وعموري

كلما زادت أحوال مصر سوءاً زاد طمع الصليبيين في الاستيلاء عليها والنيل منها ضماناً لسلامة ممتلكاتهم في الشام. ففي عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) كانت الصراعات الداخلية في مصر على أشدها. وكان الصليبيون على علم بذلك الصراع كعادتهم في تقصي أخبار مصر لاختيار الوقت الملائم لمهاجمتها. لذلك بادر بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢ م) بالتهديد بغزو مصر. ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير طلائع بن رزيك باسم الخليفة الفاطمي العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ/ ١١٦٠ - ١١٧٢ م) بجزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار، ومات بلدوين الثالث عام ١١٦٢ م، وتولى بعده أخوه عموري الأول Amalric I حكم مملكة بيت المقدس (١١٦٢ - ١١٧٣ م) دون أن تقوم القاهرة بدفع شيء من هذه الجزية.

ومع بداية حكم عموري الأول ازدادت أحوال مصر سوءاً بمقتل ابن رزيك وابنه وحلول شاور حاكم الصعيد في الوزارة، ثم عزل شاور وتولى ضرغام أمر الوزارة. وكان في هذه الصراعات فرصة طيبة لكي يتدخل عموري في شؤون مصر بحجة عدم دفع الجزية. فاتجه إلى مصر في أوائل سبتمبر ١١٦٣ م (أوائل شوال ٥٥٨ هـ) وحاصر الفرما ولكن ضرغام تصدى له وأجبره على الانسحاب إلى بلاده.

ومن الملاحظ أن كافة الغارات الصليبية السابقة على مصر لم تتعد أطراف البلاد أو موانيها. ولكن الفترة التالية من الغارات الصليبية على مصر

كانت بمثابة حملات صليبية استهدفت الاستيلاء عليها. وقد ساعد على قيام هذه الحملات الأحوال الداخلية في مصر التي كانت تعاني الكثير من التفكك والانحلال بسبب الصراع على الحكم. كما ساعد على قدوم الصليبيين إلى مصر أيضاً العداء القائم بين الخلافة الفاطمية في مصر والخلافة السنية القائمة في العراق وولاء حكام الشام السنيين إلى بغداد مما أدى إلى عدم اتحاد الممالك الإسلامية لتكون قوة واحدة تتمكن من إنزال ضربة قاصمة بالعدو الذي سلب أراضيهم وفرض نفسه على المنطقة.

وعلى أية حال، فقد شهدت الفترة الواقعة فيما بين عامي ٥٥٩ و ٥٦٤ هـ/ ١١٦٤ ـ ١١٦٩ م، صراعاً خطيراً على امتلاك مصر. وقد مهد لهذا الصراع وجود نور الدين زنكي الذي تمكن من فرض نفوذه على معظم بلاد الشام وبلاد الجزيرة والموصل، كما كان عموري شاباً طموحاً يسعى لتقوية مركزه في المملكة الصليبية بالاستيلاء على مصر. وقد أتيحت الفرصة لكل منهما للتدخل في الشؤون المصرية عندما انتصر ضرغام على خصمه شاور وقتل ولده طيّ. لذلك فر شاور إلى الشام ولجأ نور الدين لمساندته ضد ضرغام وإعادته إلى الوزارة. وعرض عليه أن يكون نائبه في مصر، ويتصرف طبقاً لما يراه. كما يقدم له جزية سنوية تعادل ثلث إيراد مصر علاوة على نفقات إقامة العساكر النورية بمصر. وقد وافق نور الدين بعد تردد على قبول هذا العرض المغري وأرسل مع شاور أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وخرجت هذه القوة من الشام في جمادي الآخر عام ٥٥٩ هـ (إبريل مايو ١١٦٤ م) ورافق نور الدين هذه القوات بعساكره حتى أطراف الشام لحمايتها من تعرض الصليبيين لها. وعندما علم ضرغام بما تم عليه الاتفاق بين شاور ونور الدين أحس أنه هالك لا محالة، فأرسل يطلب النجدة من الملك الصليبي عموري الذي وجد بدوره في ذلك فرصة لا تعوض لدخول مصر ـ وهو الأمل الذي يسعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن ـ فأعد على الفور حملة تولى قيادتها بنفسه واتجه إلى مصر.

وبهذا بدأ الصراع بين نور الدين وعموري على امتلاك مصر، وقد نجحت قوات نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه من الوصول إلى مصر قبل عموري وقواته وتمكنت من هزيمة ضرغام وقتله وتولى شاور أمر الوزارة بمصر، ولكن شاور لم يف بوعده، كما ظهرت منه إمارات الغدر لناصره أسد الدين شيركوه. لذلك أشار عليه صلاح الدين بالتقهقر إلى بلبيس. كما أن شاور استنجد بالصليبيين على شيركوه، وبذلك لم تضع الفرصة على عموري لدخول مصر وإن اختلف الحليف وهو ما لا يهم الصليبيين، فكل ما يعنيهم هو دخول مصر. فجد عموري وقواته في السير، ووصل إلى المكان المعروف بمدينة فاقوس الحالية في أغسطس عام ١١٦٤ م (رمضان ـ شوال ٥٥٩ هـ)، وانضمت إليه قوات شاور وحاصروا أسد الدين شيركوه، واتفقا على عودة كل منهما بقواته إلى بلاده. ومن الملاحظ أنه أثناء عودة أسد الدين شيركوه كمنت له القوات الصليبية في الطريق للقضاء عليه باعتباره العقبة التي حالت دون سيطرتهم على مصر، ولكنه استطاع الإفلات من هذا الكمين ودخل دمشق سالماً في الثامن عشر من ذي الحجة من نفس العام (٢٦ اكتوبر ١١٦٤ م).

ولم ينته السباق على امتلاك مصر عند هذا الحد لأن كلا من أسد الدين شيركوه وعموري كان يمني نفسه بامتلاكها، وكان كلاهما يعلم تمام العلم أن فوزه بمصر يعني انتصاره الحاسم على خصمه، وتجددت الحوادث مرة أخرى عندما اقتنع نور الدين بما زينه له أسد الدين شيركوه من ضرورة الاستيلاء على مصر حتى لا تقع فريسة سهلة في قبضة الصليبيين. وعند ذلك استعد أسد الدين شيركوه لدخول مصر. وكما حدث في المرة السابقة من استنجاد شاور بالصليبيين حدث هذه المرة أيضاً. وقرر شاور مع الصليبيين «أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه تمكيناً كلياً». وعلم نور الدين بذلك فدفع بقواته بقيادة أسد الدين شيركوه وصلاح الدين إلى مصر كما أسرعت القوات الصليبية إلى مصر أيضاً بقيادة عموري، وكل منهما يخشى أن يسيطر الطرف الآخر عليها فيهدد ممتلكات الطرف الثاني في الشام.

واستطاع أسد الدين شيركوه الوصول إلى مصر قبل القوات الصليبية، وتمركزت قواته بالجيزة انتظاراً لقدوم الصليبيين وظل بها طوال أربعة وخمسين يوماً، أما القوات الصليبية التي غادرت الشام في الثلاثين من يناير ١١٦٧م (٦ ربيع أول ٥٦٢ هـ)، فقد وصلت إلى بلبيس عن طريق العريش ومنها إلى القاهرة حيث عقد شاور مع عموري اتفاقاً يقضي بأن تدفع مصر لمملكة بيت المقدس مائتي ألف دينار معجلة ومثلها فيما بعد بشرط ألا يرحل عموري عن مصر إلا بعد جلاء قوات أسد الدين شيركوه عنها، وصادق الخليفة الفاطمي على هذه المعاهدة. ومن الطبيعي أن يرحب الصليبيون بهذه الاتفاقية التي تجعل منهم حماة مصر والخلافة الفاطمية بالإضافة إلى إبعاد أسد الدين شيركوه عنها باعتباره المنافس الوحيد لهم في السيطرة على مصر.

وبعد إبرام هذه المعاهدة استعدت قوات شاور وعموري لملاقاة أسد الدين شيركوه، ولكنه تمكن من إنزال الهزيمة بالقوات المتحالفة في الموقعة المعروفة باسم البابين. وبعد ذلك اتجه أسد الدين شيركوه وقواته إلى الفيوم ومنها إلى الاسكندرية التي فتحت لهم أبوابها عن طيب خاطر لكرهها لشاور. وانتهت هذه الجولة من الصراع على امتلاك مصر بأن أرسل أسد الدين شيركوه في طلب الصلح وأوفد من قبله أحد أسرى موقعه البابين وهو أرنولف Arnulf صاحب تل باشر سابقاً، واقترح «أن ينصرف كلهم عن مصر» وذلك بسبب الصعاب التي لاقاها أسد الدين شيركوه وصلاح الدين في هذه الجولة، كما وافق عموري بدوره نظراً لقيام نور الدين بمهاجمة أملاك الصليبيين بالشام كعادته، وعاد شيركوه إلى بلاده في الثامن عشر من ذي القعدة عام ٥٦٢ هـ (٥ سبتمبر ١١٦٧ م). ولكن عموري لم يعد إلى بلاده كما عاد أسد الدين شيركوه محترماً ما تم الاتفاق عليه، فقد تمكن من الاتفاق مع شاور على أن يكون للصليبيين حامية بالقاهرة وتكون أبوابها بيد فرسانهم لتحول دون دخول عساكر نور الدين إذا قدموا لمصر. وبالإضافة إلى ذلك تدفع مصر جزية سنوية قدرها مائة ألف

دينار. وبذلك تأكدت الحماية الصليبية على مصر، وترتب على هذا سباق نوري صليبي آخر عليها.

وفي الواقع أن فكرة العودة إلى مصر لم تغب عن بال أسد الدين شيركوه منذ رجوعه إلى بلاده، كما أنها كانت أملاً كبيراً يراود خيال عموري كما راودت خيال غيره من حكام بيت المقدس اللاتين من قبل، ورأى عموري الاستعانة بالدولة البيزنطية هذه المرة، وأرسل سفارة إليها على رأسها المؤرخ وليم الصوري للاتفاق على قيام حملة صليبية بيزنطية مشتركة للاستيلاء على مصر واقتسامها فيما بينهما، وقد تم الاتفاق على ذلك ولكن مجرى الحوادث حال دون تنفيذ تلك الاتفاقية، لأن الحامية الصليبية الموجودة بالقاهرة كتبت إلى عموري تستدعيه لامتلاك مصر «وأعلموه خلوها من موانع وهوّنوا أمرها عليه». ولكن عموري لم يقدم على ذلك خشية مقاومة الشعب المصري. ولعل مما يشرف مصر وتاريخها أن يعمل الصليبيون حساباً لشعبها في الوقت الذي كانوا يدركون فيه ضعف الحكام وانحلالهم. ولما كان الصليبيون يطمعون في امتلاك مصر فقد ألحوا على ملكهم بإعداد حملة لغزوها وهونوا عليه الأمر بأنه «كشف عورتها من قبل». واستعد عموري للزحف على مصر ناكثاً كل الوعود التي استقرت معه من قبل بسبب طمعه فيها. كما تناسى أيضاً السفارة التي أرسلها إلى القسطنطينية لكي ينفرد بنفسه بالغنيمة المنتظرة. وتظاهر الجيش الصليبي بأنه قاصداً حمص حتى لا يلفت أنظار قوات نور الدين إليه. ولكنه أتخذ طريقه إلى مصر فوصل إلى بلبيس في صفر سنة ٥٦٤ هـ (نوفمبر ١١٦٨ م) فاستولى عليها عنوة. وواصل الطريق إلى مصر بعد ما شجعه بعض أعيانها. واستاء شاور من قدوم الصليبيين بهذه الصورة، وتبين له سوء نواياهم في امتلاك البلاد، فأحرق مدينة الفسطاط في التاسع من صفر (١٢ نوفمبر) حتى لا يستولي عليها الصليبيون.

وفي تلك الأثناء خرجت الكتب من مصر إلى نور الدين وأسد الدين شيركوه طالبة النجدة ضد الصليبيين، وكان شاور على علم بها وربما كانت

باذنه. ولكي يكسب شاور الوقت انتظاراً لقدوم نجدات نور الدين أرسل إلى الملك عموري يعرض عليه الصلح والجلاء عن مصر حقناً للدماء مقابل أربعمائة ألف دينار ويقال ألفي ألف دينار يعجل منها مائة ألف دينار، ووافق عموري على ذلك وحمل إليه شاور مائة ألف دينار على دفعات وأخذ يماطله في الباقي انتظاراً لقدوم عساكر نور الدين. أما القوات النورية فقد استعدت لدخول مصر فور وصول الكتب إلى نور الدين وتولى قيادتها هذه المرة أسد الدين شيركوه أيضاً واصطحب معه صلاح الدين على كره منه، واتجه شيركوه إلى مصر وفاجأ عموري وقواته وهي نازلة في بركة الجيش مما اضطر عموري إلى الانسحاب إلى بلبيس. وعندما وجد عموري تحالف القوات المصرية مع القوات النورية أدرك أن بقاء القوات الصليبية بمصر أصبح مستحيلاً، فاضطر للانسحاب ومعه جنده إلى بلادهم وعادوا بخفي حنين. وهكذا برهنت الحوادث أن اتحاد مصر والشام كان أمراً ضرورياً لإبعاد الخطر الصليبي. وانتهت الحوادث في مصر بقتل شاور وتولي أسد الدين شيركوه أمر الوزارة الفاطمية، وفي نفس الوقت يدين بالولاء لسيده نور الدين.

وزاد انزعاج الصليبيين لحكم شيركوه لمصر وضياعها من أيديهم. وأيقنوا أن ممتلكاتهم بالشام أصبحت «على شفا جرف هاو»، لذلك بدأ عموري في حشد قواته لغزو مصر وأغرى الفرسان الاسبتارية للاشتراك معه، كما اتصل بالدولة البيزنطية ليجدد اتفاقية ١١٦٨ م. وفي الوقت نفسه استنجد بفرنسا وصقلية وأخبرهم أن الصليبيين «خائفون على بيت المقدس». وهذا يفسر لنا أهمية مصر بالنسبة للصليبيين. كما لجأ عموري إلى الاستعانة ببعض أعيان المصريين لمساعدته في تنفيذ فكرته. وبذلك تهيأ الجو للملك عموري داخلياً وخارجياً للقيام بغزوته الشاملة على مصر والقضاء على شيركوه قضاءً نهائياً.

وبعد انتهاء عموري من الاستعداد داخل مملكته وصلت السفن البيزنطية وتجمعت في عكا. ومن الملاحظ أن فرنسا وصقلية لم تستجيبا لنداء عموري، وربما يرجع ذلك إلى مشاكلها الداخلية في هذه الفترة. ورغم ذلك صمم

عموري على غزو مصر ليضمن بقاء مملكته في بيت المقدس، وقد تم الاتفاق على غزو دمياط بحراً بمعونة الأسطول البيزنطي وبراً بواسط عموري وقواته. وسار عموري بجيشه من عسقلان في أول ذي الحجة عام ٥٦٥ هـ (١٦ أغسطس ١١٦٩ م)، كما اتجهت السفن الصليبية بحراً إلى دمياط ودخلت فم النيل وظلت في موضع بين المدينة والبحر الأبيض، ولم تتمكن من التقدم أكثر من ذلك لوجود برج دمياط ذي السلاسل الحديدية وتم حصار دمياط براً وبحراً.

ومن الملاحظ أن أسد الدين شيركوه قد توفي قبل وصول هذه الحملة وتولى أمر الوزارة في مصر ابن أخيه صلاح الدين (جمادي الأخرة ٥٦٤ هـ/ مارس ١١٦٩)، الذي علم بأخبار هذه الحملة فاستعد لملاقاتها كما أرسل إلى نور الدين يخبره بذلك. وبفضل ما اتخذه صلاح الدين من تدابير علاوة على ما قام به نور الدين من الإغارة على ممتلكات الصليبيين في الشام، فضلاً عن عدم ثقة الصليبيين والبيزنطيين في بعضهم البعض، فشلت الحملة في الاستيلاء على دمياط. وهذا يؤكد مرة أخرى أهمية التحالف بين مصر والشام والتنسيق في العمليات العسكرية بين الجانبين.

وفاة نور الدين وعموري (٥٦٩ هـ/ ١١٧٤ م):

كان نور الدين قد شرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف بن أيوب، لأنه قد رأى منه فتوراً في غزو الصليبيين من ناحية مصر، وكان يعلم أن ما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به، لذلك أرسل نور الدين إلى الموصل والجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة. وكان عزمه أن يترك العساكر مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل، ويسير بعساكره إلى مصر. وبينما هو يستعد لذلك أتاه أمر الله وتوفي يوم الأربعاء حادي عشر من شوال ٥٦٩ هـ الخامس عشر من مايو ١١٧٤ م، بالخوانيق (الذبحة الصدرية).

وكان نور الدين زاهداً عابداً عالماً، فقد كان لا يأكل ولا يلبس ولا

يتصرف في الذي يخصه إلا من مُلك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له دخلها السنوي عشرين ديناراً، وقال لها ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.

وكان نور الدين يصلي بالليل كثيراً، وله فيه أوراد حسنة، وكان أيضاً عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر. وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل. وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها. ويروى أن شخصاً أحضره إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: لقد جئت إليك محاكماً، فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق لـه، فوهبه للخصم الذي أحضره وقال: أردت أن أترك لك ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وهبته ما يدعيه. وأقام نور الدين العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ولو كان يهودياً من الظالم، ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده.

وأما شجاعته، فكانت عظيمة، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين (جمع تركاش ومعناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها الأقواس والنشاب) ليقاتل بها، فقال له القطب النشاوي الفقيه: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف. فقال له نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟ من قبلي من حفظ البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو.

وأما ما فعله نور الدين لصالح المسلمين كان كثيراً، فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك

وغيرها، وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية، وبنى الجامع النوري بالموصل، وبنى البيمارستانات والخانات في الطرق، وبنى الخانكاوات للصوفية في جميع البلاد، ووقف على الجميع الوقوف الكثيرة، وكان يكرم العلماء وأهل الدين، ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده، وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه. ولهذا كله اكتسب نور الدين محمود احترام ومحبة رعاياه وأعدائه.

كما كان نور الدين إدارياً حازماً يقظاً. وسعى بصفة خاصة إلى الحد من قلق واضطراب أمرائه من الأتراك والأكراد، بأن أقرهم على إقطاعاتهم على أن يؤدوا عنها أجناداً. غير أن محاكم العدل التي أنشأها كبحت جماحهم وكسرت شوكتهم. ولقد أسهم هذا النظام الإقطاعي المعتدل إلى حد كبير في إعادة الرضاء إلى بلاد الشام.

ولما توفي نور الدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده، وكان عمره إحدى عشرة سنة، وقد حلف له الأمراء والمقدمون بدمشق، وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها، وضرب السكة باسمه، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم، وصار مدبر دولته، فقال له كمال الدين بن الشهرزوري ولمن معه من الأمراء: قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ونوابه أصحاب نور الدين، والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا، ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر، فلم يوافق هذا القول إغراضهم وخافوا أن يدخل صلاح الدين بلاد الشام ويخرجهم، فلم يمض وقت طويل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح إسماعيل يعزيه في والده ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه. وإذا كان ابن المقدم قد أصبح وصياً على الصالح إسماعيل بعد أن نال ثقة والدته فإن كمشتكين والي حلب قد أعلن نفسه وصياً أيضاً. كما تدخل أمير الموصل

سيف الدين ابن عم الصالح إسماعيل وأضاف إلى أملاكه نصيبين وكل بلاد الجزيرة حتى الرها.

وقد أعطى تداعي وحدة المسلمين الفرصة للصليبيين، فبادر الملك الصليبي عموري بقصد مدينة بانياس وحاصرها، فجمع ابن المقدم عساكره في دمشق وخرج منها فراسل الصليبيين ولاطفهم ثم أغلظ لهم القول وقال لهم: إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس، فنحن على ما كنا عليه، وإلا فنرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ونصالحه ونستنجده، ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده، ونقصد بلادكم من جميع الجهات، ولا تقومون لنا، وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين، والآن فقد زال الخوف، وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع فعلموا صدقه، فصالحوه على شيء من المال أخذوه، وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة.

وقد لقيت هذه الاقتراحات القبول من الملك عموري الذي كان يعاني في هذه المرحلة من المرض، وبعد ما تم توقيع الهدنة اتخذ عموري طريقه إلى بيت المقدس محمولاً في محفة، ولما وصل إلى بيت المقدس كان المرض قد اشتد به ثم ما لبث أن مات في الحادي عشر من يوليو ١١٧٤ م، وهو في الثامنة والثلاثين من عمره.

ومما لا شك فيه أن ما قاله ابن المقدم عن مصالحة سيف الدين صاحب الموصل ومراسلة صلاح الدين في مصر لضرب الصليبيين، وهو ما يشير إلى وحدة إسلامية في مصر والشام أمام القوى الصليبية كان له أكبر الأثر في قبول الملك عموري لمقترحات ابن المقدم، فإن نمو الوحدة الإسلامية زمن عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين ثم صلاح الدين في المراحل اللاحقة كان الرد الفعلي الحتمي للحروب الصليبية. وقد لعب القدر دوراً في هذه المرحلة. ففي بداية عام ١١٧٤ م بدأ نجم صلاح الدين في الاختفاء، إلا أن وفاة نور الدين ثم وفاة عموري قلبت الأوضاع رأساً على عقب، ومهدت الطريق لصلاح الدين ولانتصاراته المقبلة.

المؤامرة ضد صلاح الدين

كان صلاح الدين يراقب الأحداث من القاهرة، واعتبر أن وفاة عموري علامة من رضى الله، خاصة بعد ما اكتشف مؤامرة تهدف إلى غزو مصر، وكان لهذه المؤامرة أركان ثلاثة، الأول هو بعض المصريين الذين أضيروا من حكم صلاح الدين لمصر والثاني هو الملك عموري الذي كان يخطط لغزو مصر من الجانب الشرقي بالاتفاق مع المصريين المتآمرين، والثالث هو وليم الثاني ملك صقلية الذي خطط بدوره مع العناصر المتآمرة لغزو مصر من الغرب بالهجوم على مدينة الاسكندرية، ومع اكتشاف صلاح الدين للمؤامرة إنهار الركن الأول، كما إنهار الركن الثاني بوفاة الملك عموري. أما وليم الثاني ملك صقلية فلم يكن قد سمع عن فشل مؤامرة المصريين ولا عن وفاة عموري، فأرسل أسطولاً وصل إلى الاسكندرية في الخامس والعشرين من يوليو ١١٧٤ م. ويروي ابن شداد أن الأسطول كان مكوناً من ستمائة سفينة ما بين شيني وطرادة وبطسة، وغير ذلك، ويرى آخرون أنه كان مؤلفاً من مائتي وأربع وثمانين سفينة تحمل الصقليين بدوابهم ومؤنهم. ولما علم صلاح الدين بذلك أمد المدينة بالعساكر. وأدرك الأسطول صعوبة القتال بعد ما حرم من المساعدة التي وعد بها المتآمرون في مصر، وعدم قدوم الجيش الصليبي من الشرق لوفاة الملك عموري، واستمر القتال ثلاثة أيام دون فائدة ترجى من السيطرة على المدينة فاضطر رجال الأسطول إلى العودة إلى سفنهم والإبحار من المدينة بعد ما تركوا وراءهم المجانيق وآلات الحرب، وقد خرج أهل الإسكندرية ونهبوها وأحرقوها. وبفشل هذه المؤامرة أصبح لصلاح الدين مطلق الحرية في مصر وعزم على المسير إلى بلاد الشام.

صلاح الدين في دمشق

بادر صلاح الدين بالخروج من مصر فتجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف في الديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها. وأسرع في سيره عبر إقليم ما وراء الأردن دون أن يعترض الصليبيين طريقه، فوصل دمشق في السادس والعشرين من نوفمبر عام ١١٧٤ م فتلقاه أهل

دمشق بالترحاب. وكان أول دخوله إلى دار أبيه واجتمع الناس إليه. وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالاً طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدماشقة وصعد قلعة المدينة. ثم ولى صلاح الدين أخاه طغتكين والياً على المدينة ليحكمها باسم الملك الصالح. ثم واصل صلاح الدين سيره إلى حلب لأن الملك الصالح كان قد هرب من دمشق مع أمه إلى حلب وأضحى في رعاية كمشتكين أمير المدينة.

ولم يكن بوسع الصليبيين التدخل في هذه المرحلة، فبعد وفاة الملك عموري لم يكن من حقه الوصول إلى العرش سوى بلدوين الرابع (١١٧٤ - ١١٨٥ م) المعروف بالأبرص وكان لا يتجاوز الثالثة عشر من عمره، وقد وافق أمراء المملكة الصليبية على تعيينه ملكاً على البلاد وتوج بعد أربعة أيام من وفاة عموري وتولى مقاليد الحكومة مايلز أف بلانسي Miles of Plancy وكان سنشالا Seneschal وصديقاً للملك عموري. ثم تلاه ريموند الثالث كونت طرابلس Raymond III count of Tripoli (١١٥٢ - ١١٨٧ م). وكان على ريموند أن يتخذ موقفاً للحد من نمو قوة صلاح الدين التي تمهد إلى الاتحاد بين القاهرة ودمشق. وحانت الفرصة للصليبيين عندما خرج صلاح الدين من دمشق باسم الصالح بن نور الدين قاصداً حلب عبر مدينة حماه التي دخلها ولكن قلعتها امتنعت عليه فترك بها بعض قواته لمنازلة القلعة ومضى إلى حلب.

ولما عرف كمشتكين والي حلب بقدوم صلاح الدين أغلق أبواب المدينة، فشدد صلاح الدين الحصار عليها، فبادر كمشتكين بمراسلة الصليبيين والباطنية طالباً النجدة، وقد لبى النداء سنان مقدم الباطنية بعد ما بذلوا له أموالاً كثيرة لقتل صلاح الدين ولكن المؤامرة اكتشفت عندما تم القبض على جماعة من الباطنية عند خيمة صلاح الدين وتقرر قتلهم. أما ريموند فقد وصل إلى حمص وهاجمها في أول فبراير عام ١١٧٥ م فاضطر صلاح الدين إلى الانسحاب من حلب والعودة جنوباً إلى حمص التي غادرتها القوات الصليبية عندما علمت بقدوم صلاح الدين. وظل صلاح الدين يقاتل حمص حتى سقطت في إبريل من العام نفسه. وبذلك نجح ريموند في إنقاذ حلب، أما

صلاح الدين فقد نجح في بسط سلطانه على بلاد الشام حتى حماه.

وأثارت انتصارات صلاح الدين غضب آل زنكي خاصة سيف الدين أمير الموصل فأرسل أخاه عز الدين على رأس جيش كبير إلى حلب لمناصرة كمشتكين، ولم تنجح المساعي الودية للسلام، وعندما وقع الاشتباك بين الطرفين انتصر صلاح الدين وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الطرفين تقضي باستلام صلاح الدين لبعض البلاد الواقعة إلى الشمال من حماه.

وعند هذه المرحلة تخلى صلاح الدين عن تبعيته للملك الصالح إسماعيل واتخذ صلاح الدين لقب ملك مصر والشام وصك النقود باسمه. ويلاحظ أن صلاح الدين لم يتخذ لقب سلطان رغم أن المؤرخين المعاصرين له اعتادوا على ذكر اسم صلاح الدين مقروناً بكلمة السلطان.

وعلى أية حال فبعد هذه الأحداث أرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء رسولاً هو الخطيب شمس الدين ومعه رسالة تشتمل على تعداد ما للسلطان عليه من الآثار الجميلة والقيام بخدمة الدولة العباسية من جهاد ضد الصليبيين أيام نور الدين ثم فتح مصر واليمن وغير ذلك وإقامة الخطبة العباسية بها. وإنه لم تخل سنة من غزو الفرنج براً وبحراً. ثم طلب الرسول من الخليفة تقليداً جامعاً بمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكلما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره، ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده تقليداً يتضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً. وأثناء إقامة صلاح الدين في حلب وصلت رسل الخليفة ومعهم الخلع فلبسها صلاح الدين وألبس أخاه العادل وآخرين خلعاً جاءت لهم.

معركة تل الجزر:

وكان صلاح الدين قد عاد إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها، وإراحة العسكر ثم تأهب لغزو بلاد الصليبيين. ويبدو أن عودته إلى البلاد المصرية

كانت بسبب ما عرف عن إعداد حملة صليبية يتولى قيادتها فيليب كونت فلاندر عام ١١٧٧ م ولكن هذا المشروع فشل تماماً ولم يجازف الصليبيون بمحاولة غزو مصر. وعلى أية حال خرج صلاح الدين من مصر على رأس قواته متخذاً طريقه إلى عسقلان.

ولما علم الملك الصليبي بلدوين بذلك أسرع إلى المدينة، وقد تمكن صلاح الدين من أسر بعض القوات الصليبية وهي في طريقها إلى المدينة، وقد نجح صلاح الدين في محاصرة عسقلان ببعض قواته، ثم اتجه ببعض قواته الأخرى إلى القدس. ومن عسقلان طلب بلدوين النجدة من قوات الداوية في غزة واللحاق به في عسقلان، ثم خرج الملك بلدوين من عسقلان ومعه قواته وساروا بحذاء الساحل ثم انحرفوا إلى الداخل قليلاً في أواخر اكتوبر ١١٧٧ م أوائل جمادي الأولى ٥٧٣ هـ، وعندما كانت قوات صلاح الدين المصرية تجتاز منخفضاً عند تل الجزر Montgisard إلى الجنوب الشرقي من الرملة انقض الصليبيون عليها فلاذ عدد كبير منهم بالفرار، فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه فطلبوا جهة الديار المصرية وتبددوا، ولم يسيطر صلاح الدين على الموقف حتى عندما عبر صحراء سيناء إلا بصعوبة بالغة.

وإذا كان بلدوين قد انتصر في هذه المعركة إلى حد القول أنه أنقذ مملكة بيت المقدس، إلا أنه يمكن القول أنها كانت معركة دون نتائج تذكر، فلا زال الصليبيون يعانون من قلة المحاربين ولم يكن بوسعهم متابعة قوات صلاح الدين أو الهجوم على دمشق ولذلك اكتفى بلدوين بإقامة بعض التحصينات في مواجهة دمشق.

مهاجمة قلعة مخاضة يعقوب وعقد الهدنة:

ظل صلاح الدين لبعض الوقت في مصر حتى استراحت القوات واستعادت قوتها مرة أخرى، ثم علم بتخبط الشام فعزم على العودة إليه. وكانت عودته بعد عدة أشهر وقضى بقية عام ١١٧٨ م في دمشق. ولم تقع في هذه

المرحلة حوادث تذكر سوى شن بعض الهجمات ورد بعض الغارات.

وفي العام التالي ١١٧٩ م حاول الملك بلدوين الاستيلاء على قطعان الأغنام القادمة من سهول دمشق فأرسل صلاح الدين ابن أخيه فروخشاه الذي انقض على الجيش الصليبي فجأة فأوقع به خسائر كبيرة، ثم ألقى صلاح الدين الحصار على مخاضة يعقوب ولكن مناعتها الدفاعية جعلت صلاح الدين يرتد عنها إلى بانياس، وعند مدخل وادي نهر الأردن هاجم صلاح الدين بعض القوات الصليبية وأجبرها على الفرار فلجأ بعضها إلى قلعة شقيف أرنون. ووقع البعض الآخر أسيراً أو قتيلاً.

وكان ممن وقع في الأسر أودو أف سانت أماند Odo of Saint Amand مقدم الداوية، وبلدوين أف أبلين Baldwin of Ibelin، وهيو حاكم الجليل Hugh of Galilee. وقد افتدت كونتيسة طرابلس والدة هيو ابنها بخمسة وخمسين ألف دينار، وقد طلب صلاح الدين فدية قيمتها مائة وخمسين ألف دينار مقابل إطلاق سراح بلدوين، ولكن الاتفاق تم بإطلاق سراحه مقابل ألف أسير من المسلمين ووعد بالتماس المال المطلوب، كما شرع في إطلاق سراح أودو أف سانت أماند مقابل أحد كبار الأسرى المسلمين، ولكن أودو اعترض على ذلك لأنه لم يقبل أن يساويه أحد في القيمة فظل أسيراً حتى مات في العام التالي.

وعلم صلاح الدين بقدوم جماعة كبيرة من الفرسان الفرنسيين، فبادر بمهاجمة قلعة مخاضة يعقوب التي شيدها الملك بلدوين، ونجح في الدخول إليها والسيطرة عليها في نهاية أغسطس ١١٧٩ م ولقي المدافعون عنها مصرعهم وهدم صلاح الدين القلعة حتى سويت بالأرض، كما قامت القوات الإسلامية بشن غارة عنيفة على إقليم الجليل. وفي الوقت نفسه قام الأسطول المصري بشن غارة على السفن الصليبية الراسية في ميناء عكا، وعلى أثر هذه الأحداث أرسل بلدوين إلى صلاح الدين يطلب الهدنة، فوافق صلاح الدين لعدة أسباب على عقد هدنة لمدة عامين مع مملكة بيت المقدس. ثم عقدت هدنة مماثلة

مع ريموند كونت طرابلس. وحاول الملك بلدوين خلال هذه الفترة إقامة جبهة صليبية لمواجهة المسلمين. كما استغل صلاح الدين هذه الفترة أيضاً في توحيد الجبهة الإسلامية خاصة الجبهة الفراتية.

خرق الصليبين للهدنة:

لم تحافظ مملكة بيت المقدس على الهدنة، لأن رينو أف شاتيون Reynald of Chatillon المعروف في المصادر العربية باسم أرناط، سيد إقطاع إقليم ما وراء الأردن لم يلتزم بها، فقد كان من شروط الهدنة أن يكون للتجار المسلمين والصليبيين حرية الانتقال بين الجانبين، فطمع رينو أف شاتيون في القوافل التجارية العظيمة الثروة التي تسير مطمئنة قرب أراضيه. ففي صيف عام ١١٨١ م هاجم قافلة إسلامية قرب واحة تيماء واستولى على ما فيها. وكان صلاح الدين بمصر ولم تنجح مساعيه في استعادة القافلة، فاشتكى إلى بلدوين الذي لم يكن بوسعه عمل شيء، ورفض أرناط أن يعيد ما استولى عليه، فأصبح الصدام العسكري بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وشيكاً.

غادر صلاح الدين مصر في مايو ١١٨٢ م متجهاً إلى دمشق فلما بلغها علم أن فروخشاه هاجم إقليم الجليل وظفر بعشرين ألف رأس من الغنم ووقع في أسره ألف رجل، كما أنه استولى على قلعة حبيس جلدك. وبعد ما قضى صلاح الدين بعض الوقت في دمشق خرج على رأس قواته حيث دارت معركة مع الصليبيين عند قلعة كوكب الهوى التابعة للاسبتارية لم تنته بنصر حاسم لأي من الطرفين.

وأغار صلاح الدين مرة أخرى وكانت وجهته بيروت في الوقت الذي خطط فيه لقيام الأسطول المصري بمهاجمة المدينة في ذات الوقت، فجمع بلدوين جيشه واندفع نحو الجليل وطلب من السفن الصليبية الراسية في مينائي عكا وصور إنقاذ بيروت، ولما لم يتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على بيروت قبل قدوم القوات الصليبية، بالإضافة إلى النتائج التي ترتبت على وفاة الصالح

إسماعيل، لذلك عاد صلاح الدين إلى دمشق ثم ما لبث أن سيطر على الموقف وسيطر على الرها وسروج ونصيبين وسنجار وديار بكر وحلب وغير ذلك.

وهكذا أصبحت مملكة صلاح الدين تمتد من نهر دجلة شرقاً حتى مصر غرباً متخذاً من دمشق عاصمة له، وسعد العالم الإسلامي بقيادة صلاح الدين يساعده في ذلك ثروة الديار المصرية. وقد أيد الخليفة العباسي في بغداد صلاح الدين في موقفه وسعى سلاجقة الروم في آسيا الصغرى إلى كسب صداقته، ولم يعد للامبراطورية البيزنطية القوة التي كان يخشاها المسلمون في الشام. وأصبح على صلاح الدين أن يعد عدته لضرب الصليبيين الذين أصبح وجودهم وصمة غار في جبين الحكام المسلمين.

غارة صليبية في البحر الأحمر:

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يعالج فيه أمور الشمال توجه أرناط إلى إيلة الواقعة على رأس خليج العقبة، وقد حمل إليها السفن التي أعدها من قبل. وقد سقطت إيلة في أيدي قوات أرناط بعد أن ظلت في أيدي المسلمين منذ عام ١١٧٠ م وحاول أرناط أيضاً أن يستولي على حصن إيلة الواقع في جزيرة مقابلة. وفي الوقت نفسه اندفعت بقية السفن الصليبية في البحر الأحمر جنوباً فهاجموا عيذاب واستولوا على السلع التجارية الموجودة بالميناء. وتجاوزت السفن الصليبية ميناء عيذاب حتى بلغت الحوراء وينبع وأشعلت النار بالسفن الراسية بهما، ثم أوغلوا حتى منطقة غابر وأغرقوا على مقربة منها سفينة حجاج كانت في طريقها إلى جدة.

إرتاع العالم الإسلامي لانتهاك الصليبيين للأراضي المقدسة الإسلامية. ولما وصل الخبر إلى مصر كان الملك العادل أخو صلاح الدين نائباً له في مصر، فأمر حسام الدين لؤلؤ بإعداد السفن والرجال والاتجاه إلى إيلة، وقد ظفر الأسطول المصري بالمراكب الصليبية التي كانت عند إيلة فأحرقها وأسر من فيها. ثم سار إلى عيذاب وتصدى للسفن الصليبية وأطلق سراح من بها من تجار

المسلمين ورد لهم تجارتهم، وتتبعت القوات الإسلامية القوات الصليبية التي رست على الساحل وأسرتها ، وقد تم إرسال أسيرين منهم إلى منى ليذبحوا في موسم الحج عقوبة لهم على انتهاك حرمة الأراضي المقدسة. وعاد حسام الدين إلى القاهرة ومعه الأسرى وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يخبره بما حدث، فأمر صلاح الدين بضرب رقابهم وكانوا حوالي مائة وسبعون بحيث لا يبقى منهم أحد يعرف طريق البحر الأحمر. ونذر صلاح الدين مرتين أن يقتل أرناط إن ظفر به، وكانت المرة الأولى عندما قام بهذه الغارة ومحاولته الإغارة على مكة والمدينة، وكانت الثانية عندما أغار على القوافل الإسلامية.

هجوم صلاح الدين على مدينة بيسان:

وكانت أهم أعمال صلاح الدين بعد ذلك هي غزو بيسان، ففي سبتمبر ١١٨٣ م جمادي الأولى ٥٧٩ هـ أعد قواته بأعداد كبيرة وعبر نهر الأردن ودخل مدينة بيسان فأحرقها وخربها وفر سكانها إلى مدينة طبرية وتحصنوا بداخلها. ولما علم جاي لوزيجنان Guy of Lusignan ـ الذي تولى الوصاية على الملك بلدوين لمرضه ـ بقدوم القوات الإسلامية استدعى قواته على الفور للوقوف في وجه القوات الإسلامية ولكن المسلمين نصبوا الكمائن للقوات الصليبية على منحدرات جبل جلبوع فقتل الكثير منهم. وأعاد الصليبيون تجميع قواتهم مرة أخرى في صفورية ومنها اتجهوا إلى زرعين حيث هزمهم المسلمون، ثم اتجهوا إلى أغوار جالوت Pools of Goliath الواقعة إلى الشمال الشرقي من بيسان حيث أصبحوا في مواجهة صلاح الدين ولكنهم التزموا بالدفاع عن أنفسهم. وحاول صلاح الدين إغراء القوات الصليبية للخروج من مواقعها ولكنه فشل. وفي النهاية عاد صلاح الدين إلى ما وراء الأردن. وكان لسلوك جاي لوزيجنان في عدم مهاجمة القوات الإسلامية أسوأ الأثر في نفوس الصليبيين واتهموه بالجبن، وكان لذلك أثره في الصراع داخل مملكة بيت المقدس. وأخيراً عزل جاي لوزيجنان من الوصاية على الملك بلدوين، وتألف مجلس للوصاية من خمسة أفراد كان على رأسه بوهمند الثالث أمير إنطاكية

وريموند كونت طرابلس ووالتر سيد قيسارية.

حصار قلعة الكرك

ومن ضربات صلاح الدين ضد الصليبيين كان حصار قلعة الكرك التي يحكمها أرناط الذي كان من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين، وأعظمهم ضرراً عليهم، لذلك حاصر صلاح الدين القلعة أكثر من مرة. وفي نوفمبر ١١٨٣ م/ شعبان ٥٧٩ هـ وصلت الإمدادات من الديار المصرية إلى منطقة الكرك فخاف الأهالي ولجأوا إلى مدينة الكرك. وبعد ما أحكمت القوات الإسلامية الحصار على المدينة بدأ صلاح الدين في مهاجمتها، ولكنه علم بإقامة عرس في المدينة فأعطى أوامره بعدم ضرب الجانب الذي يقام فيه العرس. وعندما بلغ بلدوين أحداث حصار الكرك استدعى قواته وولى قيادتها للأمير ريموند كونت طرابلس وأخذت القوات الصليبية طريقها إلى الكرك جنوباً. ويبدو أن صلاح الدين اكتفى بما حققه من تخريب في مدينة الكرك، أو أنه لم يشأ أن يشتبك مع القوات الصليبية في هذه المرحلة ريثما يكون لديه الاستعداد الأفضل. وتكرر حصار الكرك مرة أخرى بعد ما ضم إلى قواته كتائب بعث بها الأمراء الأراتقة. ففي عام ١١٨٤ م اتجه إلى حصن الكرك ولكن الحصن صمد لمناعته، ولم ينجح في إغراء الصليبيين على الخروج من الحصن لمنازلته. وانسحب صلاح الدين مرة أخرى عندما علم باقتراب جيش مملكة بيت المقدس وعاد إلى دمشق ليستعد لجولة أخرى.

عقد الهدنة:

وفي العام التالي مات الملك بلدوين الرابع وتوج بعده الملك بلدوين الخامس وتولى أمر الوصاية على المملكة ريموند كونت طرابلس، ودعا ريموند البارونات لمناقشة سياسة المملكة المقبلة في الداخل والخارج، وقد أحس المجتمعون بضرورة قدوم حملة كبيرة من أوروبا لإنقاذ الممتلكات الصليبية، ولما كان هذا الرجاء غير متوافر اقترح ريموند التماس عقد هدنة مع صلاح

الدين تكون مدتها أربع سنوات ووافق المجتمعون على ذلك. ولما كان صلاح الدين في حاجة إلى إراحة قواته وإلى الوقت لتنظيم أموره في مصر والموصل وافق على عقد الهدنة.

ومات بلدوين الخامس في عكا في أواخر أغسطس ١١٨٦ م ولم يبلغ التاسعة من عمره، وظفرت سبيلا وزوجها جاي لوزيجنان بتاج المملكة بعد صراع قاربت فيه البلاد الصليبية على الدخول في حرب أهلية وتمزقت إلى أحزاب متصارعة. وحافظ جاي لوزيجنان على الهدنة المعقودة مع صلاح الدين التي وفرت الحماية للقوافل التجارية التي تتردد بين القاهرة وبلاد الشام وخاصة دمشق. ولكن أرناط سلك مسلكاً آخر بعيداً عن سياسة الملك.

فقد كان أرناط لا يزال صاحب الكرك وكثير الغدر والخبث، وقد لاحت له فرصة الغدر فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وأسر من فيها من الأجناد وحملهم إلى الكرك وأخذ خيلهم وعدتهم. ولما علم صلاح الدين بذلك أرسل إليه يلومه على فعلته ويطالبه بإطلاق سراح الأسرى ورد القافلة، ولكن أرناط رفض وأصر على عصيانه، فنذر صلاح الدين دمه وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يقتله. وفي الوقت نفسه أرسل من دمشق إلى جميع البلاد يطلب العساكر فجاءته فاستعد للقتال، بعد أن فشل الملك جاي لوزيجنان في إقناع أرناط برد القافلة والأسرى.

معركة عيون كريسون

كان نقض الهدنة في غير صالح الصليبيين، فقد كان الأمراء منقسمين على أنفسهم والبلاد غير مستعدة لمواجهة صلاح الدين، وبدأ كل أمير يخاف على إمارته من هجمات المسلمين، لذلك بادر بوهمند أمير إنطاكية إلى تجديد الهدنة مع صلاح الدين كما عقد ريموند أمير طرابلس هدنة أخرى مع صلاح الدين الذي وعده بالمساعدة وجعله ملكاً على البلاد، لذلك قبله صلاح الدين وآواه وشد عضده وأطلق من كان في الأسر من أتباعه.

وكان اللقاء الثاني بين بعض القوات الإسلامية والصليبية عند عيون كريسون في إبريل عام ١١٨٧ م/ صفر ٥٨٢ هـ، فبينما كانت خيول القوات الإسلامية تشرب من عيون كريسون الواقعة إلى الجنوب الشرقي من صفورية، كانت بعض القوات الصليبية ومنها فرسان الداوية والاسبتارية في الطريق لعبور التل الواقع وراء مدينة الناصرة، وعندما رأت القوات الصليبية القوات الإسلامية، رأى الداوية ضرورة الاشتباك مع المسلمين بينما رأى فرسان الاسبتارية غير ذلك، ولكن الأمر انتهى بقيام القوات الصليبية بما فيها الداوية والاسبتارية بمهاجمة المسلمين. ودارت الدائرة على القوات الصليبية حتى يمكن وصف المعركة بأنها كانت مذبحة حيث لقي كل فرسان الداوية مصرعهم عدا ثلاثة بينما أسر العديد. وكان من هول هذه الكارثة أن ريموند أمير طرابلس أعلن نقض الهدنة التي عقدها من قبل مع صلاح الدين.

سقوط طبرية:

وبينما كانت تدور هذه الأحداث كانت العساكر الإسلامية تتدفق على حوران استعداداً لقتال الصليبيين، واتجه صلاح الدين إلى نواحي الكرك ليطمئن إلى عدم قيام أرناط بالإغارة على القوافل التجارية القادمة من مكة. ولم يحدث ما يعكر صفو الطريق فعاد ليتفقد القوات التي وصلت من حلب والموصل وماردين حتى أصبح الجيش الإسلامي بأعداد ضخمة. وفي الوقت نفسه بدأ الملك الصليبي في جمع قواته، خاصة الداوية والاسبتارية وغيرهم في المعسكر المقام عند مدينة عكا حتى بلغ عدد فرسانه ألف ومائتا فارس بكامل أسلحتهم وحوالي عشرة آلاف من المشاة بخلاف الخيالة الخفيفة التسليح. ويقال أن الجيش الصليبي بلغ حوالي ثمانية عشر ألف رجل.

استعرض صلاح الدين قواته في يوم الجمعة ٢٤ من ربيع الثاني ٥٨٣ هـ/ ٢٦ يونيه ١١٨٧ م في أماكن تجمعها في تل عشترا تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، وبدأ في إعدادها للقتال، فتولى صلاح الدين قيادة القلب، ووضع تقي الدين عمر ابن أخيه على الميمنة، ومظفر الدين كوكبوري

أمير حوران على الميسرة. وتقدمت القوات الإسلامية على هذه الصورة إلى جنوب بحيرة طبرية. ولم يعبر صلاح الدين بقواته نهر الأردن إلا بعد خمسة أيام حتى جمع أخبار القوات الصليبية. وفي يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ربيع ثاني ٥٨٣ هـ/ أول يوليو ١١٨٧ م عبر صلاح الدين وقواته نهر الأردن من جنوب بحيرة طبرية عند سن النبره (الصنبرة). ولما بلغت القوات الإسلامية كفرسبت Kafr Sebt انقسمت إلى قسمين بقي القسم الأول في موقعه، بينما هاجم القسم الثاني مدينة طبرية التي تقع إلى الشمال من موقع القوات الإسلامية، وقد سقطت المدينة في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل واحتمت القلعة وحدها. وظلت الكونتيسة ايشيفا Eschiva صاحبة طبرية في القلعة تقاوم الهجوم، كما أرسلت إلى زوجها ريموند تخطره بما وقع من أحداث.

تقدم الصليبيين إلى صفورية:

وكان ريموند في عكا مع جيش الملك، فلما وصلت أنباء القتال على طبرية عقد الملك مجلساً للحرب، وكان ريموند يرى أن يلتزم الجيش الصليبي جانب الدفاع في هذه المرحلة نظراً لارتفاع درجة الحرارة وحتى تصل الإمدادات إلى إنطاكية، وكان الجميع على وشك الأخذ بهذا الاقتراح رغم أنه ليس في صالح زوجة ريموند. ولكن رينو أف شاتيون (أرناط) ومقدم الداوية جيراره Gerard اتهما ريموند بالجبن وأنه باع نفسه للمسلمين استناداً إلى الهدنة التي عقدها مع صلاح الدين من قبل، ولذلك طرح الملك اقتراح ريموند جانباً وأعطى أوامره للجيش الصليبي بالتحرك لإنقاذ طبرية. ويقول ابن شداد، ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحمية فرحلوا من وقتهم وساعتهم وقصدوا طبرية للدفاع عنها. فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الإفرنج، فسيروا إلى السلطان صلاح الدين من عرفه بذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها.

تقدم الجيش الصليبي من عكا إلى صفورية وعسكر بها يوم الخميس،

الثالث والعشرين من ربيع ثاني ٥٨٣ هـ/ ٢ يوليو ١١٨٧ م، وكان موقعاً ممتازاً يكثر به الماء والعشب. وفي اليوم نفسه وصلت الرسل من طبرية طالبة النجدة، فعقد الملك جاي لوزيجنان مجلساً للحرب ردد فيه ريموند اقتراحه بعدم التقدم إلى طبرية، وذكر أنه يفضل أن تضيع مدينة بدلاً من أن تضيع المملكة، واقتنع الحاضرون لبعض الوقت بوجهة نظره ولكن جيرارد ذهب إلى الملك في خيمته وأقنعه بالتقدم لإنقاذ طبرية فأعلن الملك أن الجيش سيتحرك في الصباح لنجدة المدينة.

تقدم المسلمين إلى حطين:

علم صلاح الدين بتحرك الجيش الصليبي وبالطريق الذي يسلكه من صفورية إلى طبرية. فتحرك صلاح الدين بقواته عبر التلال حتى بلغ حطين حيث يبدأ الطريق في الانحدار نحو بحيرة طبرية، وعند حطين وهي قرية صغيرة كانت المياه متوفرة والأعشاب غزيرة أرسل صلاح الدين إلى القوات المقاتلة في طبرية للحاق به عند حطين عدا من دعت إليهم الحاجة لحصار قلعة طبرية.

رحل الجيش الصليبي من صفورية في اليوم التالي، وكان يوماً شديد الحرارة وشق طريقه بصعوبة فوق التلال الجرداء. وكان يتولى قيادة مقدمة الجيش الصليبي ريموند أمير طرابلس، وتولى قيادة القلب الملك جاي لوزيجنان، وقاد المؤخرة رينو أف شاتيون وفرسان الداوية والاسبتارية، وعانى الصليبيون ودوابهم من شدة الحرارة وصعوبة الطريق. وفي الوقت نفسه هاجم الجيش الإسلامي القوات الصليبية وهي في هذه الحالة وأمطروها وابلا من السهام، ولم يبادر الصليبيون بالهجوم على القوات الإسلامية حتى وصلوا إلى أرض قرية تعرف باسم اللوبيا وكأنهم يساقون إلى الموت.

هزيمة حطين:

وفي هذا الموقع توقف الصليبيون، وكانت هناك هضبة تشرف على حطين، وأمامها تل صخري تعلوه قمتان هي قرون حطين بارتفاع نحو ثلاثين

متراً، وخلف هذا المكان تنحدر الأرض بشدة نحو بحيرة طبرية. واختلف القادة الصليبيون حول التوقف أو المسير، ولكن الملك الصليبي رأى التوقف بعدما حل الإرهاق برجاله. وبات المسلمون والصليبيون على استعداد للمعركة المقبلة. ولقد أمضى الصليبين ليلتهم وكانت عصيبة، وحاول بعضهم الحصول على الماء بعدما اكتشفوا أن البئر الموجود في منطقتهم قد أصابه الجفاف، ولكن محاولتهم باءت بالفشل، ولقي الكثير منهم مصرعه على أيدي القوات الإسلامية.

ولكي يزيد المسلمون من متاعب الصليبيين في هذه الليلة أشعلوا النار في الأعشاب التي تحيط بموقع الصليبيين، وأثناء ذلك حرك صلاح الدين قواته تحت جنح الظلام وطوق الجيش الصليبي، ومع بزوغ الفجر كان صلاح الدين يسيطر على الموقف تماماً.

ومع طلوع نهار يوم السبت الخامس والعشرين من جمادي الثانية ٥٨٣ هـ/ الرابع من يوليو ١١٨٧ م بادرت القوات الإسلامية بالهجوم على القوات الصليبية التي لم تكن تبحث عن شيء سوى الماء، وحاولت جماعة منهم النزول من التل للحصول على الماء من بحيرة طبرية ولكن المسلمين تبعوهم فسقطوا ما بين قتيل وأسير وجريح. وحاولت القوات الصليبية المتمركزة على التل رد القوات الإسلامية ولكن التعب والعطش ولهيب الحرائق قد نال منهم فبدأوا في الإنهيار. وطلب الملك الصليبي من ريموند أن يقود قواته ليفتح ثغرة في صفوف القوات الإسلامية، فتوجه برجاله إلى الجانب الذي يتولى قيادته تقي الدين عمر فأفسح له المجال للهرب ثم أعاد جمع قواته حتى لا يتمكن من العودة إلى القوات الصليبية فاتخذ طريقه إلى طرابلس.

كان يوماً عصيباً على الصليبيين من شدة القتال وكانت الرياح تجاه الصليبيين فحملت حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وشدة القتال. وأدركوا أنه لا سبيل إلا الحرب، فحملوا على المسلمين، ولكن الكثير منهم قتل فوهنوا لذلك وهناً عظيماً، وأحاط المسلمون

بهم من كل ناحية، فانسحب الصليبيون إلى تل بناحية حطين وأرادوا نصب خيامهم ولكن القتال اشتد عليهم من جميع النواحي، فلم يتمكنوا إلا من نصب خيمة الملك الحمراء بأعلى التل.

وكان صلاح الدين يراقب هذه الأحداث وإلى جواره ابنه الصغير الأفضل، وقد حكى الأفضل للمؤرخ ابن الأثير ما دار في هذا اليوم، وقال الأفضل كنت إلى جانب والدي في هذه الحرب، وهي أول حرب شاهدتها، وذكر «فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي». وقال الأفضل «فنظرت إلى والدي وقد علته كآبة وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان، فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا وصعدوا التل فلما رأى الأفضل الفرنج قد عادوا والمسلمون خلفهم صاح من فرح وقال هزمناهم فعاد الفرنج وحملوا حملة ثانية حتى ألحقوا المسلمين بصلاح الدين، ولكن المسلمون ردوهم إلى التل فصاح الأفضل وقال هزمناهم فالتفت صلاح الدين إلى ابنه الأفضل وقال «اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط الخيمة» وإذا بالخيمة قد سقطت فنزل صلاح الدين عن فرسه وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه».

ومن أسباب هزيمة الصليبيين أن العطش اشتد بهم، وكانوا يتمنون الخلاص مما هم فيه، ولما فشلوا نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض، فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك جاي لوزيجنان وأخوه عموري، ورينو أف شاتيون (أرناط)، وعدد كبير من النبلاء من أعظم الفرنج شأناً، وتم أيضاً أسر جماعة من الداوية والاسبتارية. وبعد المعركة كان من يرى القتلى لا يظن أن هناك أسرى، ومن يرى الأسرى لا يظن أن هناك قتلى، وكانت أكبر كارثة حلت بالصليبيين منذ قدومهم إلى الأراضي المقدسة، حتى اعتبرها بعض المؤرخين أنها بداية النهاية للحروب الصليبية

ولما فرغ صلاح الدين من المعركة نزل في خيمته، واستقبل في هذه

الخيمة الملك الصليبي جاي لوزيجنان وشقيقه عموري ورينو أف شاتيون وغيرهم من كبار الأسرى. وقد أجلس صلاح الدين الملك الصليبي إلى جواره، كما عامل صلاح الدين الأسرى معاملة طيبة، ولاحظ أن الملك قد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجاً وبعد ما شرب الملك أعطى ما تبقى إلى رينو أف شاتيون. فقال صلاح الدين للترجمان «قل للملك أنت الذي تسقيه وأنا ما سقيته لأنه من المعروف على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب ماء من أسره فهو آمن». ثم ذكّر صلاح الدين أرناط وقرعه بذنوبه، وعدد عليه غدراته وقام إليه بنفسه فضرب رقبته وقال: كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة، والثانية لما أخذ القوافل غدراً. وفي رواية أخرى أن صلاح الدين قال له «ها أنذا أستنصر لمحمد عليه الصلاة والسلام، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل». ثم سل صلاح الدين المنجاة وهو خنجر مقوس يشبه السيف القصير وضربه به فحل كتفه، وتمم عليه من حضر وأخذ ورمي على باب الخيمة. ولما شاهد الملك الصليبي جاي لوزيجنان ما حدث لأرناط إعتقد أن الدائرة ستدور عليه، ولكن صلاح الدين طيب خاطره وقال له: «لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده فجرى عليه ما جرى». وأما الآخرون من كبار الأسرى فقد احتفظ بهم، وبيع بقية الأسرى الفقراء بأسعار زهيدة.

سقوط مدن فلسطين:

لقد تم في معركة حطين تدمير أضخم جيش للمملكة الصليبية، واستولى المسلمون أيضاً على صليب الصلبوت، وأصبح صلاح الدين زعيماً وقائداً للعالم الإسلامي دون منازع. ولم يبق بعد ذلك إلا استكمال مسيرة استعادة الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون. وكانت بداية هذه الأعمال قلعة طبرية التي كانت تحاصرها بعض قوات صلاح الدين. ففي اليوم التالي لمعركة حطين وبعد ما عرفت نتائجها أيقنت القوات الصليبية التي كانت تدافع عن القلعة

وعلى رأسها الكونتيسة إيشيفا صاحبة طبرية أنه لا أمل في قدوم نجدات صليبية إليها، فسلمت المدينة، وقد عاملها صلاح الدين معاملة طيبة وسمح لها ولحاشيتها بالخروج فاتجهت إلى طرابلس.

وتوجه صلاح الدين إلى عكا، وكان يحكمها جوسلين أف كورتناي Joscelin of Courtenary، فلما علم بأخبار حطين وبقدوم الجيش الإسلامي إليه أرسل إلى صلاح الدين عندما وصل إلى أسوار المدينة في الثامن من يوليو يعرض عليه تسليم المدينة بالأمان فوافق صلاح الدين. ولكن أهل المدينة اعتقدوا لكثرة عددهم أن في هذه الشروط إذلالاً لهم فوقعت فتنة بالمدينة ولكن الأمن عاد إلى نصابه وتسلم صلاح الدين المدينة بعد يومين. وخاف تجار المدينة على أنفسهم وبضائعهم فقرروا مغادرة المدينة بأموالهم وما أمكنهم حمله. أما مخازن البضائع فقد استولى عليها المسلمون. وكان في المدينة أربعة آلاف من أسرى المسلمين فأطلق سراحهم.

وأثناء تواجد صلاح الدين في عكا أرسل قواته للسيطرة على المدن والقلاع المجاورة فاستولت على عدة بلاد وحصون منها قيسارية وحيفا وصفورية ومعليا، والشقيف والفوله وغير ذلك من البلاد. ثم وصلت القوات الإسلامية إلى نابلس فدخلتها وحاصرت قلعتها واستنزلت من بها من القوات الصليبية بالأمان وتسلم المسلمون القلعة. وأما أهل البلد وكانوا مسلمين فتركت لهم أموالهم وأملاكهم. وكان صلاح الدين قد أرسل إلى أخيه العادل بمصر يخبره بما فتح الله عليه على يديه، وطلب منه أن يسير إلى بلاد الفرنج من جهة الديار المصرية فيمن بقي عنده من العساكر لمحاصرة ما يليه منها، فسار إلى حصن مجدل يابا، فحاصرته القوات الإسلامية وفتحته وغنمت ما فيه.

وبعد ذلك كانت وجهة القوات الإسلامية إلى المدن الساحلية، وبادر المسلمون بالتوجه إلى مدينة صور وحاولوا افتتاحها، ولما كانت المدينة محصنة بأسوارها وبها حامية صليبية ضخمة فقد فشل صلاح الدين في هذه المرحلة في

اقتحامها، أو أنه فضل عدم إرهاق قواته مقابل مدينة واحدة، فترك صور واتجه شمالاً إلى صيدا واستولى في طريقه على صرفند بغير قتال. ولما علم حاكم صيدا رينالد Reynald باقتراب صلاح الدين غادرها وتركها فارغة من مانع ومدافع، فلما وصل صلاح الدين إليها تسلمها ساعة وصوله، كما سقطت جبيل بعد حصار شديد مما اضطر أهلها إلى إطلاق ما عندهم من أسرى المسلمين، ولما دخل صلاح الدين المدينة أحضر الأسرى وأكرمهم وسيرهم إلى أهليهم. وتوجه صلاح الدين إلى بيروت فوصلها في اليوم التالي من فتح صيدا، وكان أهلها عندما علموا بتحركات القوات الإسلامية اعتلوا أسوار المدينة للدفاع عنها، وقد أعدوا أنفسهم إعداداً قوياً يساعدهم في ذلك حصانة المدينة. فدار القتال عدة أيام ثم سقطت المدينة. ولم تلبث مدينة جبيل أن استسلمت بعد عدة أيام. ولم يبق للصليبيين بعد ذلك سوى إنطاكية وطرابلس وصور وعسقلان وغزة ومدينة القدس.

وبعد أيام ظهرت القوات الإسلامية بقيادة صلاح الدين أمام أسوار مدينة عسقلان، وكان صلاح الدين قد اصطحب معه من أسراه الملك الصليبي جاي لوزيجنان ومقدم الداوية جيرارد. وقد أبلغ صلاح الدين الملك بأنه لن يطلق سراحه إلا بعد استسلام عسقلان،وطلب منه أن يأمر حامية المدينة بعدم القتال، ولكن الحامية رفضت ووجهت السباب للملك واستعدت للدفاع عن المدينة، وبعد قتال دار عدة أيام سقطت مدينة عسقلان في أيدي القوات الإسلامية وتقرر السماح للصليبيين بمغادرة المدينة ومعهم أمتعتهم فقط. وتولى صلاح الدين حراستهم إلى الديار المصرية، ومن ثم توفير الرعاية لهم أثناء تواجدهم بالإسكندرية حتى رحلوا إلى أوروبا.

وبعد سقوط عسقلان بث صلاح الدين السرايا في أطراف البلاد المجاورة لها، فتم فتح الرملة والداروم وغزة، ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام، ويبنه وبيت لحم، وبيت جبريل، والنطرون وكل ما كان للداوية. والمعروف أن مدينة غزة كانت تحت سيطرة الداوية، فاضطرت حاميتها إلى إطاعة أوامر أسيره

جيرارد مقدم الداوية الذي اصطحبه صلاح الدين إلى المدينة، فاستلم صلاح الدين المدينة وأطلق سراح مقدم الداوية.

استعادة بيت المقدس:

وبعد ما انتهى صلاح الدين من أمر عسقلان وما يجاورها عزم على التوجه إلى بيت المقدس. وحتى يطمئن إلى عدم وصول نجدات بحرية لمدن الساحل أرسل إلى مصر يأمر بخروج الأسطول والمقاتلة بقيادة حسام الدين لؤلؤ المعروف بشجاعته. ونفذت البحرية المصرية ما طلب منها وقطعوا الطريق على الفرنج وأسروا بعض السفن الصليبية. ولما اطمأن صلاح الدين إلى ذلك سار من عسقلان إلى القدس. وقبل أن يغادر عسقلان وصل وفد من مدينة بيت المقدس بناء على طلب صلاح الدين للمفاوضة في الشروط التي يجب عليها تسليم المدينة، ولكن الوفد رفض أن يسلم المدينة، فأقسم صلاح الدين على دخول المدينة بحد السيف.

وخلال ذلك أرسل باليان الثاني أف ابلين Balian II of Ibelin الذي يطلق عليه ابن الأثير باليان بن بيرزان، أرسل إلى صلاح الدين يطلب الأمان لدخول المدينة المقدسة لاصطحاب زوجته وأطفاله من القدس إلى صور، وقد وافق صلاح الدين على طلبه بشرط ألا يدخل المدينة حاملاً سلاحاً وألا يبيت بالمدينة. ولما وصل باليان إلى القدس وجد هرقل Heraclius بطريق المدينة الكاثوليكي (١١٨٠ - ١١٩١ م) وبعض المسؤولين في جماعة الداوية يستعدون للدفاع عن المدينة، وقد أصر هؤلاء على بقاء باليان معهم باعتباره قائداً عسكرياً موثوق به وأن يتولى قيادة الدفاع عن المدينة. وأصابت الحيرة باليان فكتب إلى صلاح الدين يخبره أنه سوف يحنث باليمين التي أقسمها له، ولكن صلاح الدين المعروف بالمروءة ودماثة الخلق لم يكتف بالعفو عن باليان بل أرسل إليه رجالاً لحماية زوجته وأطفاله وأصطحابهم من القدس إلى صور ومعهم حاشيتهم وأمتعتهم. ويرجع ذلك إلى أن باليان كانت مرتبته عند الصليبيين تقارب مرتبة

الملك، وقد بكى صلاح الدين عندما شاهد هؤلاء الأطفال يغادرون المدينة في طريقهم إلى المنفى.

بذل باليان ما في وسعه من أجل الدفاع عن المدينة، وعوض نقص الفرسان بتنصيب كل من بلغ السادسة عشر من أسر النبلاء فارساً وتسلم الخزانة الملكية وأضاف إليه الأموال التي أرسلها ملك إنجلترا هنري الثاني (١١٥٤ - ١١٨٩ م) إلى طائفة الاسبتارية.

وكان في القدس الكثير ممن هربوا من المدن التي سقطت في يد صلاح الدين، وكانوا جميعاً يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس، وقد قاموا جميعهم بتحصين المدينة وصعدوا على سورها بحدهم وحديدهم ونصبوا المجانيق عليه، مصرين على حفظ المدينة مظهرين العزم على المناضلة قدر استطاعتهم.

وصلت القوات الإسلامية وعلى رأسها صلاح الدين إلى القدس في منتصف رجب ٥٨٣ هـ/ العشرين من سبتمبر ١١٨٧ م، ولما وصلت رأت على سور المدينة ما هالهم وسمعوا لإهله من الجلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع. وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة يتفقد المنطقة ليختار الموقع الذي يبدأ منه الهجوم. واختار صلاح الدين جهة الشمال باعتبارها أنسب المواقع نحو باب عمودا وكنيسة صهيون. فانتقلت القوات الإسلامية إلى هذا الموقع وهو على جبل الزيتون، ونصبت المجانيق، وأصبحت جاهزة للعمل في اليوم التالي.

ويلاحظ أن الموقع الذي اختاره صلاح الدين هو الموقع نفسه الذي دخل منه جودفري أمير اللورين Godfrey of Lorraine مدينة القدس في عام ١٠٩٩ م عندما استولى الصليبيون على المدينة في الحملة الصليبية الأولى.

وتقاتل الفريقان قتالاً مريراً، وكان خيالة الصليبيين يخرجون كل يوم الى ظاهر القدس يقاتلون ويبارزون، ووقع الكثير من القتلى في صفوف القوات

الإسلامية والصليبية. وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك - وهو من أكابر الأمراء - الذي كان يصطلي القتال بنفسه كل يوم، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقعهم وأدخلوهم إلى المدينة. ووصل المسلمون إلى خندق المدينة والتصقوا بالسور فنقبوه تحت غطاء من ضربات المجانيق والنبال.

وأراد الصليبيون القيام بهجوم كبير على القوات الإسلامية مهما كلفهم ذلك ولكن بطريق المدينة الصليبي لم يكن من أنصار هذا العمل، ووافق باليان على هذا الرأي حتى لا تزهق الأرواح وتسترق النساء والأطفال.

ولما أيقن الصليبيون أنهم مشرفون على الهلاك اجتمع قادتهم يتشاورون واتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم المدينة إلى صلاح الدين. وذهب جماعة من كبار الفرنج في طلب الأمان، ولكن صلاح الدين امتنع عن إجابة طلبهم في البداية وقال لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهل المدينة حين ملكتموها سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٩ م من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها. ولما عاد الرسل خائبين، أرسل باليان إلى صلاح الدين يطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى طلبه. ورغب باليان في الأمان ولكن صلاح الدين رفض مرة أخرى، واستعطفه باليان فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه.

ولما يئس باليان قال لصلاح الدين، «إعلم أيها السلطان إننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجيب غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً، ولا تسبون وتأسرون رجلاً واحداً. وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم نخرج إليكم كلنا

فنقاتلكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كراماء.

أدرك صلاح الدين أن المدينة أصبحت في يده، وكان مستعداً أن يكون سخياً كعادته، وأراد ألا تتعرض المدينة إلا لأقل الأضرار. ومع ذلك استشار أصحابه، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان. وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدري عاقبة الأمر فيه عن أي شيء تنجلي، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا. ووافق صلاح الدين واستقر الرأي على أن يفدي الرجل نفسه بعشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير، والطفل دينارين ويذكر البعض أنه دينار، والمرأة خمسة دنانير. فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً.

وذكر باليان أن بالقدس حوالي عشرين ألف من الفقراء لا يمكنهم دفع الفدية وعرض أن يدفع مبلغاً إجمالياً عن هؤلاء الفقراء، وقبل صلاح الدين مبلغ مائة ألف دينار، ولما كان باليان لا يملك هذا المبلغ، فتقرر إطلاق سبعة آلاف من الفقراء مقابل ثلاثين ألف دينار.

وسلمت المدينة المقدسة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ٥٨٣ هـ/ الثاني من أكتوبر ١١٨٧ م، وهو يوم الاحتفال بالإسراء والمعراج. ويشهد المؤرخون الغربيون بأن المسلمين اشتهروا بالاستقامة والإنسانية، على العكس مما فعله الصليبيون عندما دخلوا المدينة عام ١٠٩٩ م، عندما كانوا يخوضون في دماء المسلمين، ولم تتعرض عندما دخلها صلاح الدين أي دار للنهب، ولم يحل مكروه بأحد الأشخاص. فقد صارت الشرطة بناء على تعليمات صلاح الدين يطوفون بالشوارع لمنع أي اعتداء يقع على الفرنج.

رفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة، ورتب صلاح الدين على أبواب المدينة في كل باب أميناً من الأمراء فيأخذ من أهله ما استقر عليهم، وللأسف فإن هؤلاء الأمراء كانوا خونة ولم يؤدوا عملهم بأمانة، فقد اقتسم

الأمناء الأموال وتفرقت أيدي سبأ، ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن، وعم الناس، فقد كان بالمدينة ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى النساء والأطفال.

وإذا كان باليان قد دفع ثلاثين ألف دينار فإن طائفة الداوية والاسبتارية لم تقدم شيئاً من الأموال إلا بصعوبة، ولم يهتم بطريق المدينة هرقل ورجال الكنيسة إلا بأنفسهم. واندهش المسلمون عندما رأوا البطريق هرقل يدفع عشرة دنانير مقدار فديته، ويغادر المدينة ومعه حمل من الذهب، وخلفه العربات تحمل الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة. وبفضل منحة الملك هنري الثاني أطلق سراح سبعة آلاف من الفقراء. وخرج من باب المدينة صنفان الأول من تمكن من افتداء نفسه، والثاني هم الذين لا يملكون المال لافتداء أنفسهم لذلك سيقوا إلى الأسر. وحول سماحة صلاح الدين وكرمه أنه عند خروج هؤلاء الأسرى من المدينة أن العادل التفت إلى صلاح الدين وطلب منه إطلاق ألف أسير مكافأة له، فوافق صلاح الدين، واستغل البطريق هرقل هذه الفرصة فطلب من صلاح الدين بعض الأسرى ليعتقهم فوافق صلاح الدين ثم بذل صلاح الدين أيضاً للقائد باليان خمسمائة أسير. كما أعلن صلاح الدين أنه سوف يطلق سراح كل شيخ أو امرأة عجوز. وعندما أقبلت النساء على صلاح الدين وعد بإطلاق سراح أزواجهن، وبذل أيضاً المال للأرامل واليتامى من خزانته كل حسب حالته. والحقيقة التي لا شك فيها وبشهادة المؤرخين الغربيين أن رحمة وعطف صلاح الدين فاقت كل وصف وأنه كان على عكس الصليبيين الغزاة في الحملة الصليبية الأولى.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب وضعه الصليبيون، فلما دخل المسلمون المدينة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب، فلما فعلوا وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من داخل المدينة وخارجها، المسلم يعبر عن فرحته وغير المسلم يعبر عن فجيعته.

وقد أمر صلاح الدين بإعادة الأبنية إلى حالتها القديمة، لأن فريان الداوية

كانوا قد بنوا غربي المسجد الأقصى أبنية ليسكنوها، وأدخلوا جزء من المسجد الأقصى في أبنيتهم فأعيد الأمر إلى حالته الأولى وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ورشت بماء الورد، وصلى المسلمون في قبة الصخرة وأراد صلاح الدين أن يعمل للمسجد منبراً ويرتب له خطيباً، فقيل له: أن نور الدين محمود كان قد عمل بمدينة حلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر صلاح الدين بإحضاره، فحمل من حلب ونصب بالقدس، وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد عن عشرين سنة. وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده.

استكمال الفتوحات:

وعلى أية حال فباسترداد بيت المقدس يكون صلاح الدين قد حقق نصراً عسكرياً كبيراً وأدى أهم واجب نحو الإسلام والمسلمين. وكان هناك بعض الحصون الأخرى في الشمال والجنوب يتطلب الأمر السيطرة عليها. وكانت بعض هذه القلاع تقع في إقليم ما وراء الأردن وأهم هذه الحصون الكرك والشوبك. وكانت ستيفاني Stephanie أرملة مايلز أف بلانسي Miles of Plancy والتي تزوجت أرناط بعده، كانت صاحبة إقليم ما وراء الأردن، وكانت أيضاً ضمن الأسرى الذين تم افتداؤهم في بيت المقدس. أما ابنها همفري أف تورون Humphrey of Toron من زوجها الأسبق فكان لا يزال في الأسر، وقد طلبت ستيفاني من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها فأجابها بشرط تسليم حصن الكرك والشوبك فوافقت. وتم الإفراج عن همفري ولكن حاميتي الكرك والشوبك رفضتا التسليم فأعادت ابنها إلى صلاح الدين ليظل أسيراً، ولكن ما قامت به من عمل نبيل رد عليه صلاح الدين بأنبل منه وأطلق سراح همفري بعد عدة أشهر.

لذلك رتب صلاح الدين الجند لحصار الكرك وتولى قيادتهم العادل، ولازم المسلمون حصار قلعة الكرك مدة طويلة حتى فنيت أزواد الفرنج

وذخائرهم، واضطروا لأكل دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فراسلوا العادل، فواصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه، ويطلبون الأمان، فأجابهم إلى ذلك وتسلم القلعة وأمن من بها. ثم تسلم الشوبك وبعض الحصون الأخرى. وأمنت البلاد الإسلامية أخطار الصليبيين في هذه النواحي.

كما استولى صلاح الدين على قلعة صفد التي كانت تابعة لفرسان الاسبتارية، وعلى قلعة هونين ومدينة اللاذقية وقلعة صهيون وسرمين وحصن دريساك وغير ذلك. وتبقى من البلاد في أيدي الصليبيين القليل من المدن والقلاع الهامة مثل إنطاكية وميناء السويدية وطرابلس وحصن المرقب وحصن الأكراد وانطرسوس وفي الجنوب مدينة صور.

استبسال مدينة صور:

ويهمنا في هذه المرحلة مدينة صور التي قامت بدور كبير في هذه المرحلة نظراً لحصانتها التي قاومت القوات الإسلامية. وحول حصانة المدينة يقول الرحالة ابن جبير الذي زار المدينة في عام ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م أي قبل وقوع هذه الأحداث بثلاث سنوات، يقول ابن جبير «أن مدينة صور يضرب بها المثل في الحصانة، ويرجع ذلك إلى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر، والبحر يحيط بالمدينة إلا من جهة واحدة. والذي في البر يصل إلى البحر بعد عبوره ثلاثة أبواب أو أربعة حصينة، ومن ناحية البحر مدخل يقع بين برجين مشيدين إلى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها. والمدينة محاطة بسور من ثلاث جوانب وبالجانب الرابع جدار معقود بالجص. فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها. ويوجد بين البرجين سلسلة عظيمة تعترض السفن الداخلة والخارجة، ولا مجال للمراكب إلا عند إزالتها. ويتحكم في الساسة حراس وأمناء، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم، والميناء معد لاستقبال السفن الكبيرة على العكس من ميناء مدينة عكا الذي لا يتسع إلا للسفن الصغيرة».

وعلى أية حال فعندما سقطت المدن الصليبية الواحدة بعد الأخرى، لجأ الجميع من قادة وصليبيين ومواطنين إلى مدينة صور نظراً لحصانتها. وكثر الجمع بها. وقد نفضل صلاح الدين مهاجمة قلاع ومدن أخرى غير صور التي تركها لمرحلة لاحقة. ومن الملاحظ أنه رغم كثرة الفرنج بمدينة صور فلم تكن لهم قيادة تجمعهم ولا قائد يقاتل بهم. كما أن معظم من لجأ إليها كانوا من غير أهل الحرب. وقد عزم من بالمدينة خاصة رينالد حاكم صيدا الذي كان يتولى أمر صور على مراسلة صلاح الدين لطلب الأمان وتسليم المدينة إليه. ولكن الوضع كان قد اختلف تماماً عندما سار صلاح الدين لمحاولة الإستيلاء على المدينة.

وعند هذه المرحلة وصلت سفينة إلى داخل ميناء صور كان عليها كونراد ابن المركيز مونتفرات Conrand, Son of the Old Marquis of Montferrat في الرابع عشر من يوليو ١١٨٧ م أي بعد عشرة أيام من معركة حطين دون أن يدري بما حل من هزائم بالقوى الصليبية، ولقد رحب أهل صور بكونراد واعتبروه منقذاً للموقف، وتولى أمر الدفاع عن المدينة، وعلى الفور بادر برفض فكرة تسليم المدينة للمسلمين اعتماداً على حصانة المدينة وعلى المساعدات التي يمكن أن تأتي من الغرب. وجد كونراد في تحصين المدينة حتى صارت كالجزيرة في وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها.

ولما وصل صلاح الدين أمام المدينة وجدها على هذه الصورة من المناعة، وعلم بما جد من أحداث، أحضر الماركيز مونتفرات من دمشق واستعرضه أمام أسوار المدينة وهدد بإعدامه إذا لم تستسلم المدينة، ولكن كونراد لم يهتم بهذا التهديد ورفض تسليم المدينة، وتكرماً من صلاح الدين لم يعدم الماركيز. ثم ما لبث صلاح الدين أن رحل عن المدينة، وانصرف إلى فتوحات أخرى.

ولم يهاجم صلاح الدين مدينة صور مرة أخرى إلا بعد سقوط مدينة بيت

المقدس وقد استخدم صلاح الدين في الهجوم الثاني جيشاً كبيراً وكل ما لديه من أدوات الحصار، ورغم هذا لم يتمكن صلاح الدين من إسقاط صور نظراً لحصانتها، وما قام به كونراد داخل المدينة لزيادة مناعتها. لذلك رفع صلاح الدين الحصار عن المدينة للمرة الثانية.

وكان صلاح الدين قد وعد بإطلاق سراح الملك جاي لوزيجنان إذا استسلمت مدينة عسقلان بالأمان، ولما رفض قادة عسقلان هذا العرض استولى صلاح الدين على المدينة كما سبق أن أوضحنا. ولما استولى صلاح الدين على عسقلان كتبت الملكة سبيلا إلى صلاح الدين أكثر من مرة ترجوه إطلاق سراح زوجها الملك جاي لوزيجنان. وأخيراً وبعد حوالي عام أي في يوليو ١١٨٨ م وافق صلاح الدين على إطلاق سراح الملك بعد أن أقسم على مغادرة الشام عائداً إلى بلاده، وألا يحارب المسلمين مرة أخرى، وقد ذهب الملك إلى طرابلس ليلحق بزوجته. ويروى أن أحد رجال الدين حل الملك من يمينه التي أخذها تحت الضغط ولأنها بذلت لغير مسيحي، ويروى أيضاً أن الملك أوفى بوعده وتوجه من أنطرسوس إلى جزيرة أرواد، أي أنه أبحر ثم عاد ودخل إنطاكية ثم طرابلس ثم إلى صور عازماً على أن يتولى قيادة المملكة، ولكن كونراد لم يسمح له بدخول المدينة فعاد الملك إلى طرابلس. وبعد ذلك اتجه إلى صور مرة أخرى ولكنه لم يدخلها بل عسكر خارجها ثم اتخذ طريقه بعد ذلك إلى مدينة عكا لمهاجمتها.



الفصل الرابع

الحملة الصليبية الثالثة

الدعوة والإعداد للحملة :

بعد انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين وما تلاها من انتصارات حتى سقوط بيت المقدس وما بعدها من مدن وقلاع، أسرعت رسل الصليبيين من الممتلكات الصليبية إلى غرب أوروبا لتخبر بنبأ الكارثة التي حلت بهم على يد المسلمين. ولما علم البابا أوربان الثالث Urban III (١١٨٠ ـ ١١٨٧ م) بهذه الأخبار لم يتحمل الصدمة وكان مريضاً فمات في أكتوبر ١١٨٧ م. وتولى بعده البابا جريجوري الثامن Gregory VIII (١١٨٧ م) فأرسل إلى حكام الغرب الأوروبي يدعوهم إلى بذل كل الجهود لمساعدة الممالك الصليبية، والدعوة إلى فرض هدنة داخل أوروبا لمدة سبع سنوات ،والدعوة أيضاً إلى الصيام والوعد لجميع الصليبيين بغفران الذنوب.

ومن أقوى الوسائل التي استخدمها الصليبيون في طلب النجدة من أوروبا ما بعثوا به إلى الغرب هي لوحة كبيرة بها صورة مدينة بيت المقدس وكنيسة القيامة وفيها ما قالوا أنه قبر السيد المسيح، وصوروا عليه فرساً عليه فارس مسلم وقد وطيء هذا القبر، وغير ذلك مما أثار حماس المسيحيين. وكان رجال الدين يحملونها وينادون بالويل، فهاجت خلائق لا يحصى عددهم. ولكن البابا جريجوري لم يعش كثيراً، فقد توفي بعد شهرين تاركاً المشلكة للبابا كليمنت الثالث Clement III (١١٨٧ ـ ١١٩١ م)، وقد قام البابا الجديد بإرسال مبعوثيه

للدعوة للحملة في ربوع أوروبا، وقد بذلوا جهوداً كبيرة أدت إلى خروج الحملة المعروفة بالثالثة.

لقد حظيت هذه الحملة بقيادات لم تتوفر لأي حملة أخرى، فقد خرج الامبراطور فريدريك بارباروسا Frederick Barbarossa (١١٥٢ - ١١٩٠ م) من ألمانيا، والملك فيليب أوغسطس Philip Augustus (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) من فرنسا، والملك ريتشارد قلب الأسد Richard Coeur - de - Lion (١١٨٩ - ١١٩٩ م) من إنجلترا.

وكان فريدريك قد شارك في الحملة الصليبية الثانية، وكان في هذه المرحلة قد بلغ السبعين من عمره، وقد تعهد بقيادة قواته والتوجه إلى بلاد الشام في ربيع عام ١١٨٨ م، ثم ظل حوالي عام يسوي أموره الداخلية بمساعدة البابوية. وخلال هذا العام راسل فريدريك حكام الدول التي سيمر عبر أراضيها لأنه عقد العزم على القدوم براً إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى. فراسل ملك المجر والامبراطور البيزنطي. ويقال أيضاً أنه أرسل سفيراً إلى صلاح الدين برسالة يطلب فيها إعادة الممتلكات الصليبية ويتوعد صلاح الدين بالحرب إذا لم يفعل ذلك. وكان رد صلاح الدين أن بإمكانه إطلاق سراح الأسرى الصليبيين وإعادة الأديرة اللاتينية إلى أصحابها ولا بديل غير ذلك سوى الحرب.

خرج فريدريك على رأس جيش كبير قدره بعض المؤرخين بخمسين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وقدره آخرون بمائة ألف بصفة عامة، وفي الثالث والعشرين من يونيه عام ١١٨٩ م عبر الدانوب بعد ما لقي معاملة طيبة من ملك المجر. وتأزم الموقف عندما دخلت القوات الألمانية أراضي الامبراطورية البيزنطية التي كان يحكمها إسحق انجليوس Isaac Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥ م). وقد استفاد فريدريك من المتاعب التي كانت تواجه الامبراطورية في الداخل والخارج، وقد انتهى الأمر بعد عدة شهور بالسماح للجيش الألماني بالعبور إلى آسيا الصغرى عن طريق مضيق الدردنيل وتمويل

القوات الألمانية. ولما كان هدف فريدريك العبور بأي طريقة إلى بلاد الشام فقد وافق على الشروط، وعبرت القوات الألمانية على السفن البيزنطية إلى آسيا الصغرى. وعند هذه المرحلة ارتاح الامبراطور البيزنطي من خطر كان يهدده.

ودخل الجيش الألماني بلاد سلاجقة الروم، وكانت خطته اتخاذ الطريق المباشر إلى العاصمة قونية وهي منطقة جبلية وعرة، وقد عانى الألمان من ضربات السلاجقة التي تلاحق أطراف الجيش وأخذ الجوع والعطش يؤثر كثيراً على القوات الألمانية. وعجل السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني (١١٥٦ ـ ١١٨٨ م) بالإنسحاب من العاصمة، وخرج إلى القوات الألمانية الصليبية قطب الدين ملكشاه ابن السلطان وتصدى لهم ولكنه هزم وتراجع عن العاصمة. ولم يمكث فريدريك كثيراً بها فغادرها في طريقه إلى بلاد الشام. وكان فريدريك قد أرسل هدية إلى السلطان قلج أرسلان يقول له «ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا بيت المقدس»، وطلب منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاج الصليبيون إليه من أقوات وغير ذلك، فأذن السلطان في ذلك. ثم طلب فريدريك من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عن مهاجمة الصليبيين وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه كرهائن، ولما كان قطب الدين يخشى القوات الصليبية فقد سلم إلى الامبراطور أكثر من عشرين أمير كان يكرههم. وخلال هذه الأحداث كان قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم، ويعده أن يمنعهم من العبور، فلما عبروا بلاده أرسل إلى صلاح الدين يعتذر لعجزه عن مقاومتهم لأن أولاده حكموا وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته.

تقدم الجيش الألماني من قونية حتى وصل إلى مقربة من نهر سالف في إقليم أرمينية وهو النهر الذي غرق فيه الامبراطور، وتضاربت الروايات التاريخية حول الظروف التي مات فيها الامبراطور. وما يهمنا في هذه المرحلة أن موت الامبراطور كان ضربة قاصمة للعالم الغربي بعامة والحملة الصليبية الثالثة بخاصة، وأنها أراحت صلاح الدين إلى حد ما من الجانب الشمالي لبلاد الشام بعد ما استعد استعداداً كبيراً لمواجهة القوات الألمانية.

ولم تكن وفاة الامبراطور هي زوال خطر القوات الألمانية، فقد تولى ابنه فريدريك دوق سوابيا Frederick of Swabia قيادة الجيش، بعد ما عاد الكثير منه إلى أوروبا، واتخذ طريقه إلى إنطاكية حاملاً جثمان والده بعد أن حفظه في الخل بأمل دفنه في بيت المقدس. وقد عانت القوات الألمانية الكثير في الطريق ومات الكثير منهم، ولم يصل إنطاكية إلا جماعة قليلة في الحادي والعشرين من يونيه عام ١١٩٠ م. وفي إنطاكية استقبل أميرها بوهمند القوات الألمانية بالترحاب وقدم لقيادتها يمين الولاء، وكان جثمان الامبراطور قد تحلل فتم دفنه في كاتدرائية المدينة بعد ما تم نزع بعض العظام بأمل دفنها في بيت المقدس.

القتال عند عكا

وقبل وصول القوات الفرنسية والانجليزية توافدت بعض الإمدادات من الغرب الأوروبي على الساحل الشامي، وقد أزعجت هذه الإمدادات صلاح الدين فهاجم قوات الملك جاي لوزيجنان التي كانت تعسكر خارج عكا، ولكن محاولات القوات الإسلامية في المراحل الأولى باءت بالفشل. وردت القوات الصليبية بالهجوم على مدينة عكا وعلى قوات صلاح الدين ونجحت في مطاردة القوات الإسلامية، ولكن صلاح الدين تصدى لهم وأعادهم إلى أطراف عكا وأنزل بهم خسائر فادحة وأسر بعض قوادهم. ولكن هذا النصر لم يغير كثيراً من الموقف، فقد وصلت أعداد كبيرة من الصليبيين على ظهر السفن ونجحت في إحكام الحصار على مدينة عكا من البحر كما شددت القوات الصليبية خارج عكا الحصار على المدينة من البر.

انزعج صلاح الدين لهذه الأحداث وبدأ في جمع قواته من جميع البلاد وراسل الخليفة الموحدي يعقوب المنصور يستصرخه ويستنصر به على قتال الجيوش الصليبية الزاحفة على الشام، وقد تولى أمر هذه السفارة وزيره عبد الرحمن بن منقذ، ولكن هذه السفارة لم تحصل على ما كانت ترجوه من عون ومساعدة لأن القوات والأساطيل الموحدية كانت مشغولة في هذه المرحلة بجهاد آخر ضد المسيحيين في إسبانيا والبرتغال.

وانقضى شتاء عام ١١٨٩ ـ ١١٩٠ م دون اشتباك خطير بين القوات الإسلامية والصليبية عدا بعض المناوشات التي لا تغير الموقف. وخلال هذه المرحلة تكاتف الصليبيون وأصلحوا أمورهم. ومع بداية ربيع عام ١١٩٠ وصلت إمدادات صليبية من صور إلى مدينة عكا، وحاولت البحرية الإسلامية التصدي لها ولكنها فشلت في مهمتها. ونجح الصليبيون في إقامة أبراج خشبية لمهاجمة المدينة ولكنها احترقت. وفي الخامس والعشرين من يوليو ١١٩٠ م هاجمت القوات الصليبية القوات الإسلامية وكانت هجمة فاشلة تصدت لها القوات الإسلامية وقتلت منها الكثير.

وظل القتال طوال الصيف بين المسلمين والصليبيين وكل طرف ينتظر وصول الإمدادات التي تقويه على خصمه، ولم يحرز أي طرف نصراً يذكر على الطرف الأخر حتى نوفمبر ١١٩٠ م. والواقع أن الصليبيين كانوا قد سيطروا على مدخل ميناء المدينة ولم يبق للمسلمين إليه طريق، لذلك نقل صلاح الدين مقره من تل الخروبة وضرب خيمته على تل كيسان وسير الكتب باستدعاء العساكر. وكانت الإمدادات تأتي للمسلمين من البر وتأتي الصليبيين من البحر، وكل هذا والقوات الإسلامية التي بداخل عكا لا زالت تسيطر على المدينة. لذلك تعذر على صلاح الدين الوصول إلى عكا من ناحية البحر، ومن ناحية البر لأن الملك جاي لوزيجنان كان يعسكر خارج المدينة من جهة البر.

كما وصل الأسطول من مصر، فلما سمع الصليبيون بقربه منهم جهزوا أسطولاً لقتاله، وحتى يشغل صلاح الدين الصليبيين قاتلهم من جهة البر ليشغلوا بقتاله عن مواجهة الأسطول، وقد فطن الصليبيون إلى ذلك فكان القتال في البر والبحر، وخلال هذه الأحداث استولى الصليبيون على سفينة إسلامية بما فيها من السلاح والعتاد، كما استولى المسلمون على سفينة صليبية برجالها وسلاحها، وقد نجح الأسطول الإسلامي في الدخول إلى عكا سالماً بعد ما سقط من كلا الجانبين الكثير، وكان القتل في الجانب الصليبي أكثر منه عند المسلمين.

واستمرت متاعب الصليبيين في شتاء ١١٩٠ـ ١١٩١، وزاد الضيق على المعسكر الصليبي خارج عكا لعدم وصول المؤن الكافية للقوات الصليبية. ويقول ابن شداد حول هذا الضيق الذي حل بالصليبيين، وانضم إلى ذلك الغلاء الشديد، وانسد عليهم البحر الذي كان يجيئهم منه المير من كل جانب. فكان يموت من الصليبيين في كل يوم المائة والمائتان على ما قيل، ومن الذين ماتوا فريدريك دوق سوابيا وهو الذي أشار إليه ابن شداد باسم إبن ملك الألمان.

ومن الملاحظ أيضاً أنه مع قدوم الشتاء وشدة الرياح خاف الصليبيون على مراكبهم المرابطة خارج الميناء في المنطقة التي يسيطر عليها المسلمون، لذلك أرسلت السفن الصليبية إلى مدينة صور وغيرها، فانفتح الطريق إلى عكا في البحر للمسلمين، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملل والسآمة. فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إلى المدينة وإخراج من فيها، وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشواني، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إلى المدينة وأخرج عوضهم، فدخل إليها عشرون أميراً، وكان بها ستون أميراً، فكان الذين دخلوا قلة بالنسبة إلى الذين خرجوا. كما أن نواب صلاح الدين أهملوا تجنيد الرجال وإنفاذهم بعد ذلك. ويعلل ابن الأثير ذلك بقوله أنه كان على خزانة مال المسلمين قوم من النصارى، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى، فتفرق بهذا السبب خلق كثير. يضاف إلى ذلك تواني صلاح الدين ووثوقه بنوابه، وإهمال النواب. فانحسر الشتاء والأمر كذلك، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلى المدينة إلا من سابح يأتي بكتاب.

وكان أسقف بانياس قد أُرسل مبعوثاً من قبل بطريق إنطاكية ومعه خطاب إلى هنري الثاني ملك إنجلترا يخطره بالكوارث التي حلت بالإمارات الصليبية، وفي هذه المرحلة كان هنري مشغولاً بقتال فيليب أوغسطس، في الوقت الذي

تعهد ريتشارد بن هنري بحمل الصليب والتوجه إلى بلاد الشام. كما أن جوسياس Josias رئيس أساقفة صور كان قد أبحر في أواخر صيف ١١٨٧ م لطلب النجدة من الغرب الأوروبي. وقد نجح جوسياس هذا في يناير من العام التالي ١١٨٨ م في الاجتماع بالملك الانجليزي والفرنسي في مدينة جيزورز Gisors، وتم عقد الصلح بينهما وادخار الجهود لحملة صليبية إلى الشام، وأقسم عدد من كبار النبلاء في انجلترا وفرنسا بالتوجه مع الحملة. وتقرر في هذا الاجتماع أن يسير الجيش الانجليزي الذي اتخذ الصليب الأبيض شعاراً له مع الجيش الفرنسي الذي اختار الصليب الأحمر. واختار فيليب كونت فلاندرز اللون الأخضر. كما قرر ملك إنجلترا جمع ضريبة خاصة للحملة المقبلة تعادل عشرة في المائة من الضرائب عرفت باسم عشور صلاح الدين.

واندلعت الحرب بين إنجلترا وفرنسا من جديد فتأخر قدوم الحملة لبعض الوقت، وفي النهاية انتصرت فرنسا، ووافق هنرى ملك إنجلترا في الرابع من يوليو ١١٨٩ م على عقد صلح مهين ولكنه مات بعد يومين قبل التوقيع على شروط الصلح. واعتلى ريتشارد عرش إنجلترا فتحسن الموقف بين إنجلترا وفرنسا، وتم الاتفاق على الإبحار إلى الشرق في أقرب فرصة ممكنة، وتقرر الاجتماع في مدينة فيزيلاي Vezelay في أول إبريل عام ١١٩٠ م لمناقشة أمر اشتراك فرنسا وإنجلترا في الحملة المقبلة، فقد كان الملكان يخشيا من اعتداء الآخر على بلاده إذا أبحر أحدهما منفرداً إلى الشرق. ونظراً لوفاة ملكة إنجلترا فقد تأجل الاجتماع إلى الرابع من يوليو، وقد استعد الجميع للتوجه إلى بلاد الشام.

ومن الملاحظ أن القوات الإنجليزية لم تنتظر تعليمات الملك حتى تبحر إلى الشرق فقد أبحرت مجموعة في أغسطس ١١٨٩ م وبلغت البرتغال في الشهر التالي، وقد ساعدت هذه المجموعة ملك البرتغال سانشو الأول Sancho I (١١٨٥ - ١٢١١ م) في الاستيلاء على مدينة شلب ثم واصلت إبحارها عبر مضيق جبل طارق إلى مرسيليا لتكون في انتظار القوات الإنجليزية.

غادرت القوات الفرنسية والإنجليزية مدينة فيزلاي، وكانت القوات الفرنسية أقل عدداً من القوات الإنجليزية لأن بعض القوات الفرنسية قد سافرت إلى الشرق. واتخذت القوات الصليبية طريقها إلى مدينة ليون Lyons. ومن ليون اتجهت القوات الفرنسية إلى نيس Nice ثم إلى جنوه Genoa حيث كانت السفن الفرنسية في انتظارها. ثم أبحرت إلى مسينا Messina فوصلتها في الثالث من سبتمبر ١١٩٠ م.

وكان وليم الثاني ملك صقلية قد اقترح اجتماع القوات الصليبية في الجزيرة ولكنه مات في نوفمبر ١١٨٩ م، ولعل ذلك مرجعه إلى أن وليم كان متزوجاً من جوانا Joanna أخت ريتشارد، وقد تولى عرش صقلية بعد وليم الكونت تانكرد وهو ابن عم غير شرعي للملك الراحل. وقد عامل تانكرد جوانا معاملة اعتبرها ريتشارد غير لائقة فتعكر صفو ريتشارد واستغل مالديه من قوات واستولى على بعض الأراضي في صقلية ومنها مدينة مسينا، وتم نهبها عدا الأماكن القريبة من القصر الذي كان ينزل به الملك فيليب أوغسطس. ولكن تانكرد وجد أن من مصلحته تسوية أموره مع ريتشارد فدخل في مفاوضات مع الإنجليز وسويت المسألة مقابل المال الذي قدمه تانكرد للملك الإنجليزي.

والمهم أنه في مسينا تم الاتفاق بين الملك الإنجليزي والفرنسي على إعداد الترتيبات اللازمة لخطة الحملة المقبلة، وتجهزت القوات الفرنسية للإبحار ولكن عاصفة قوية عطلت أقلاعها، فقرر الملك الفرنسي قضاء الشتاء في مسينا، كما قضت القوات الإنجليزية أيضاً فصل الشتاء في المدينة.

أبحر فيليب أوغسطس في نهاية مارس ١١٩٠ م، ولم يصادف الأسطول الفرنسي أية عقبات تذكر حتى وصل إلى مدينة صور حيث استقبله كونراد مونتفرات استقبالاً حافلاً ثم صحبه إلى عكا فوصلا في العشرين من إبريل حيث بدأ الصليبيون في تشديد الحصار على المدينة، وتأجلت محاولة الاقتحام الأخيرة ومهاجمة الأسوار حتى يصل الأسطول الإنجليزي.

تأخر ريتشارد في صقلية أكثر من ستة شهور ولم يغادر مسينا إلا في

العاشر من أكتوبر ١١٩٠ م، وقد تعرضت السفن الإنجليزية لبعض المتاعب فلجأت إلى جزيرة كريت ومنها إلى رودس، ودفعت الرياح ثلاث سفن إنجليزية كان على إحداها الأميرة جوانا إلى قبرص وقد تحطمت منهم إثنتان وتمكنت الأميرة من الوصول إلى مدينة ليماسول Limassol. وكان إسحق دوكاس كومنينوس Isaac Ducas Comnenus قد استقل بالجزيرة وأعلن نفسه امبراطور منذ عام ١١٨٥ م، وقد استولى إسحق على ما أنقذ من السفن وألقي القبض على الإنجليز وعامل الأميرة جوانا وبرنجاريا Berengaria خطيبة الملك ريتشارد معاملة سيئة.

وبعد متاعب كثيرة اقترب الأسطول الإنجليزي من سواحل جزيرة قبرص في الثامن من مايو ١١٩١ م، ولما علم ريتشارد بما حل بسفنه على سواحل قبرص أقسم بالانتقام. وعندما بدأت القوات الانجليزية في النزول إلى الشاطىء شرعت في حصار مدينة ليماسول، لم يكن أمام إسحق سوى إعلان قبوله للتفاوض، ولكن الأمور تعقدت وانتهى الأمر بأن استولى ريتشارد على جزيرة قبرص بأكملها وثرواتها الضخمة التي كانت لدى الامبراطور إسحق، وقد ساعده على ذلك القوات الصليبية التي أتت من سواحل الشام لاستقباله وعلى رأسهم الملك جاي لوزيجنان.

أقلع الأسطول الإنجليزي من قبرص في الخامس من يونيه في اتجاه الساحل الشامي ثم هبط إلى بر مدينة صور في اليوم التالي، ولكن حامية المدينة رفضت السماح له بدخول المدينة بناء على تعليمات الملك الفرنسي فيليب وكونراد مونتفرات، فعاد وواصل السير حتى عكا فوصل المعسكر الصليبي في الثامن من يونيه.

سقوط عكا:

ولا شك أن وصول الأسطول الإنجليزي في خمس وعشرين سفينة قد شجع القوات الصليبية المحاصرة لمدينة عكا، كما أن الصليبيين الذين كانوا

يحاصرون عكا أحرزوا بعض النجاح بعد وصول القوات الفرنسية وعلى رأسها فيليب أوغسطس، وكان الأمر يتطلب فقط القائد النشط الذي يدير المعارك ضد المسلمين.

والواقع أن أحداث الحملة الثالثة كثيرة ومثيرة ولا يمكن حصرها في صفحات محدودة، وسيحاول المؤلف أن يوجز الأحداث قدر جهده بصورة تكفي لتصور المعالم الرئيسية لأحداث الحملة. والمهم هنا أنه مع وصول القوات الإنجليزية وصلت أيضاً إمدادات إلى صلاح الدين عند مدينة عكا، فقد ورد عسكر مدينة سنجار ونزل في ميسرة الجيش، وقدم أيضاً عسكر من مصر، ثم عسكر صاحب الموصل ونزل العسكر جميعاً في الخروبة في بداية الأمر ثم أنزل صلاح الدين هؤلاء في الميمنة. وقدمت أيضاً مجموعة أخرى من عساكر مصر، وقد وفدت هذه الإمدادات في وقت مناسب، فقد ضعفت عكا ضعفاً عظيماً بعد طول القتال، واشتد بالعساكر الإسلامية الخناق شدة عظيمة فقد هدمت مجانيق الصليبيين من السور مقدار قامة الرجل، ووصل الحال أن اللصوص كانوا يدخلون خيام المسلمين ويسرقونهم. وعلى أية حال فقد وصلت إمدادات أخرى من إربد. واستعراضاً للقوات الإسلامية الوافدة، فعندما تصل مجموعة تتقدم إلى عسكر الفرنج وينضم إليها غيرهم يقاتلون ثم ينزلون.

ويروي إبن شداد حول أحداث مدينة عكا في هذه المرحلة «أن عواماً مسلماً يقال له عيسى كان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب الصليبيين، وكان ذات ليلة قد شد على وسطه ثلاثة أكياس، فيها ألف دينار وكتب للعسكر، وعام في البحر فجرى عليه من أهلكه، وأبطأ خبره عنا. وكانت عادته أنه إذا دخل عكا طار طير عَرّفنا بوصوله، فأبطأ الطير، فاستشعر الناس هلاكه، وبعد عدة أيام وبينما الناس على طرف البحر في المدينة، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رؤى من أدى الأمانة في حال حياته وقد

أداها بعد وفاته إلا عيسى العوام». ومن هذه الرواية يتضح لنا أن قدوم الأسطولين الإنجليزي والفرنسي أدى إلى سيطرة الصليبيين على البحر وتعذر على السفن الإسلامية أن تصل إلى ميناء عكا، وترتب على ذلك قلة المؤن والذخائر داخل المدينة.

أما عن أحوال الجيش الصليبي المحاصر لمدينة عكا، فقد دب النزاع بين القادة الصليبيين، فقد مات البطريق هرقل، وجرت منازعات ومؤامرات حول اختيار البطريق الجديد، وهناك أيضاً النزاع على تاج مملكة بيت المقدس الإسمية بين كونراد الذي سانده فيليب أوغسطس، وبين جاي لوزيجنان الذي سانده ريتشارد قلب الأسد والبيازنة. وكان نتيجة هذا النزاع أن الأسطول الإنجليزي رفض الاشتراك مع البحرية الفرنسية في مهاجمة المدينة في نهاية يونيه ١١٩١ م، أو لعل ما منع ريتشارد من القتال المرض الذي ألم به، وأنه كان يرى الانتظار حتى يشترك بنفسه في القتال حتى يكون شريكاً في الانتصار. وعلى أية حال فقد فشلت البحرية الفرنسية في النيل من المدينة بسبب شدة المقاومة الإسلامية.

والمهم هنا أن مدينة عكا قد عانت الكثير وامتلأت المصادر الإسلامية بهذه المعاناة وشدتها، ويروي ابن شداد أن الصليبيين ضايقوا عكا كثيراً، وأنهم طموا خندق المدينة بجثث دوابهم وموتاهم، والجرحى بجراح موئسه. واضطر أهل عكا المسلمين أن يقسموا أنفسهم أقساماً، قسم ينزل إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب ليسهل نقلها وقسم آخر ينقل هذه القطع لإلقائها في البحر، وقسم يدافع عن الذين يقومون بذلك. وقسم آخر يعمل على المجانيق وحراسة الأسوار. لذلك كله أخذ التعب يحل بأهل المدينة وتواترت شكايتهم من ذلك وهذا ابتلاء لم يبتل بمثله أحد، ولا يصبر عليه جلد. وكان صلاح الدين في هذه المرحلة يداوم الزحف على الصليبيين المحاصرين للمدينة بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن مهاجمة المدينة.

وحاول صلاح الدين فتح ثغرة من جانب البحر للنفاذ إلى المدينة

باستخدام البحرية الإسلامية الموجودة عند ساحل بيروت. ففي السادس عشر من جمادي الأولى ٥٨٧ هـ/ آخر مايو ١١٩١ م وصلت بطسة عظيمة هائلة من بيروت، وكانت مشحونة بالآلات والأسلحة والميرة والرجال والأبطال المقاتلة، وكان عدد رجاله المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً، فاعترضتها البحرية الصليبية ولعلها الإنجليزية في عدة شوان قيل كان في أربعين قلعاً، فأحاطوا بالبطسة من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، فقاتلوها قتالاً عظيماً، وقد قتل من الصليبيين الكثير أثناء هذه المعركة، كما أحرقت البحرية الإسلامية شانية صليبية كبيرة وهلك من عليها. وعند هذه المرحلة تكاثرت السفن الصليبية على البطسة الإسلامية، فلما رأى مقدم البحرية الذي يتولى قيادة البطسة وكان يدعى يعقوب رهو من أهل حلب أنه لا فائدة من المقاومة قال: «والله لا نقتل إلا عن عز ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً» فضرب المسلمون البطسة بالمعاول حتى غرقت بما عليها من مؤن وذخائر ولم يظفر الصليبيون منها بشيء إلا القليل وقد حزن صلاح الدين والمسلمون لذلك كثيراً.

وظل الحرب سجالاً، فقدكان الصليبيون قد اصطنعوا دبابة عظيمة هائلة (الدبابة شبه برج يتحرك على عجلات يتكون من عدة طوابق تستقر بها الجنود لمهاجمة الأعداء) وكان لهذه الدبابة أربع طبقات، الطبقة الأولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت تعلو السور وتركب فيها المقاتلة. وقد خاف أهل مدينة عكا منها خوفاً عظيماً، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من الصليبيين. وقد دفع الصليبيون بهذه الدبابة حتى قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع، وتصدى المدافعون عن المدينة لهذه الدبابة وضربوها ليلاً ونهاراً بالنفط حتى احترقت فكبر المسلمون وهللوا، وقد وقع ذلك يوم غرق البطسة، فوقع من المسلمين موقعاً، وكان مسلياً لحزنهم وكآبتهم.

وجرت معارك كثيرة بين المسلمين والصليبيين مع استمرار ضرب الصليبيين لأسوار المدينة بالمنجنيقات حتى تخلخل السور، وضعفت بنيانه،

وأنهك التعب والسهر المدافعين عن المدينة لقلة عددهم حتى باتوا لا ينامون ليلاً أو نهاراً بعكس القوات الصليبية الكثيرة العدد التي تناوبت على قتال المدينة. ولم يكن ذلك بخاف عن الصليبيين، لذا شرعوا في الزحف من جانب على المدينة وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً، كلما تعب قسم استراحَ وقام غيره مقامه، وقد حصنوا الأسوار التي تحيط بمعسكرهم وأضافوا إليها خندقاً حرسوه بالرجال والمقاتلة ليلاً ونهاراً.

أدرك صلاح الدين خطورة الموقف فجمع الفارس والراجل، ووعدهم ورغبهم، وزحف على خنادق المعسكر الصليبي، ودارت معركة كبيرة في هذا اليوم، وكان صلاح الدين كالوالدة الثكلى يتحرك بنفسه من ناحية إلى أخرى ويحث الناس على الجهاد وينادي «يا للإسلام» وعيناه تذرفان بالدمع. وكان كلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء، وما جرى على ساكنيها من المصائب اشتد في الزحف والحث على القتال، وظل القتال حتى دخل الليل فعاد صلاح الدين إلى خيمته وقد حل به التعب وعليه علامات الحزن.

وفي فجر اليوم التالي ثامن جمادي الآخرة ٥٨٧ هـ/ الثالث من يوليو ١١٩١ م أمر صلاح الدين بالاستعداد للقتال، ثم وصلت رسالة من أهل مدينة عكا يقولون فيها «إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم وإن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا» وكان هذا أسوأ خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، لأن مدينة عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح مدن الساحل والقدس ودمشق حلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية، وبداخلها كبار من أمراء العساكر وشجعان الإسلام.

فزع صلاح الدين لهذه الأخبار ورأى مهاجمة الصليبيين فاجتمع الفارس والراجل ولكنه لم يوفق في كسر خطوط الصليبيين، فقد اصطفوا كالسور المحكم البناء بكل أسلحتهم، ودار قتال رهيب بين الفريقين سقط فيه الكثير من القتلى والجرحى من الطرفين حتى فصل الليل بين المتحاربين.

اشتد زحف الصليبيين براً وبحراً على مدينة عكا وتكاثروا عليها من كل جانب وتناوبوا عليها وقلق رجاله المدينة وفرسانها لكثرة القتل فيهم وقلة البدل الذي يدخل إليهم، فضعفت نفوس أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك. كما أن الصليبيين تمكنوا من خندق المدينة فردموه، ثم تمكنوا من سور المدينة فنقبوه بعد أن قتل من الصليبيين حوالي مائة وخمسين. ويروى أن أحد أمراء المسلمين خرج إلى الصليبيين يطلب تسليم المدينة مقابل الأمان ولكن طلبه رفض فعاد إلى المدينة ولما علم أهل المدينة بذلك خافوا فهرب بعضهم ليلاً عن طريق البحر. وحاول صلاح الدين القيام بهجوم شامل على القوات الصليبية ولكن العساكر الإسلامية لم تساعده على ذلك وتخاذلوا وقالوا: «نخاطر بالإسلام كله ولا مصلحة في ذلك». وفي هذه المرحلة أرسل ريتشارد الرسل إلى صلاح الدين وطلبوا منه السماح بشراء بعض الفاكهة والثلج وألمحوا بالحديث في معنى الصلح. وقد أكرم صلاح الدين الرسل وعادوا إلى معسكرهم، وبعد عدة أيام جاءت بعض الرسل الصليبية وتحدثوا مع الملك العادل حوالي ساعة ثم عادوا إلى معسكرهم.

وفي الحادي عشر من جمادي الآخرة ٥٨٧ هـ/ السادس من يوليو ١١٩١ م، استعدت القوات الصليبية بأكملها ولبست لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة ثم جرت بعض المفاوضات بين الصليبيين وبين بعض الأمراء الذين كانوا داخل عكا، ويبدو أن الصليبيين اشتطو فيما طلبوا ففشلت المفاوضات.

وفي اليوم التالي وصلت الكتب من داخل عكا مع أحد العوامين وقد ورد بها: «إنا قد تبايعنا على الموت، ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا، فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له فأما نحن فقد فات أمرنا. وتشجع صلاح الدين ببعض الإمدادات التي وردت إليه من شيزر وغيرها، ولكن الصليبيين استبسلوا في القتال رافضين الصلح أو إعطاء الأمان

للمدينة حتى يطلق سراح جميع الأسرى الصليبيين وعودة البلاد الساحلية إليهم، وقد عرض المسلمون عليهم تسليم المدينة بشروط فرفضوا، ثم عرضوا عليهم إطلاق أسير مقابل كل فرد بالمدينة فرفضوا، وعرضوا عليهم تسليم صليب الصلبوت، فرفضوا، واشتد عندهم واستفحل أمرهم.

لم تستطع مدينة عكا الصمود أكثر من ذلك دون وصول المساعدات، ولما كان الصليبيون قد أحكموا الحصار على المدينة براً وبحراً فقد عجز المسلمون عن حفظها والدفاع عنها ورأوا عين الهلاك، وأدركوا أنه متى أخذت عكا عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم واستولى الصليبيون على ما فيها من العدد والأسلحة والمراكب. لذلك صالح أهل المدينة الصليبيين مقابل تسليم عكا وجميع ما فيها من الآلات والعدد والمراكب وتقديم مائتي ألف دينار وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معروفين، بالإضافة إلى صليب الصلبوت، على أن يتم خروج من بالمدينة سالمين ومعهم أموالهم وزوجاتهم وأولادهم. وتولى كونراد الوساطة في الصلح وقد خصه عشرة آلاف دينار ولمرافقيه أربعة آلاف.

وفي السابع عشر من جمادي الآخرة ٥٨٧ هـ/ الثاني عشر من يوليو خرج أحد العوامين من عكا ليبلغ صلاح الدين بما تم الاتفاق عليه، فأنكر ذلك إنكاراً عظيماً وجمع أرباب المشورة وأبلغهم بما حدث، وخلال تبادل الرأي رأى المسلمون أعلام الصليبيين ترفرف على المدينة، فقد وضع علماً على القلعة وعلماً على مئذنة الجامع، وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال.

خرج المسلمون من عكا ودخلها الصليبيون وعلى رأسهم كونراد وقد رفع لواء كونراد ولواءي الملكين الإنجليزي ريتشارد والفرنسي فيليب. ونزل ريتشارد في القصر الملكي السابق عند السور الشمالي للمدينة، بينما نزل فيليب في دار الداوية السابقة، وعند تقسيم أحياء المدينة وقع شجار بين القادة الصليبيين. فقد طالب ليوبولد دوق النمسا Leopold Duke of Austria باعتباره قائداً للجيش الألماني أن تكون له نفس المكانة الملكية، ورفع لواءه إلى جانب لواء الملك الإنجليزي ريتشارد، ولكن العساكر الإنجليز نزعوا العلم وألقوا به في

خنلق المدينة. واعتبر ليوبولد ذلك إهانة سيترتب عليها أسر الملك ريتشارد عند عودته من بلاد الشام. وعلى أية حال فقد حصل التجار والنبلاء الصليبيين على ما كان لهم قبل سقوط المدينة في أيدي المسلمين.

أول ما قام به الصليبيون من أعمال داخل عكا هو إعداد الكنائس وتدشينها لاستقبال المصلين، وتم ذلك بإشراف القاصد الرسولي أديلارد أسقف فيرونا Adelard Bishop of Verona الذي وصل إلى عكا في نوفمبر ١١٨٩ م. ثم اجتمع النبلاء لوضع سوية نهائية لمشكلة عرش المملكة، وأخيراً تم الاتفاق على بقاء جاي لوزيجنان ملكاً طوال حياته، ثم ينتقل التاج من بعده إلى كونراد وزوجته إيزابيلا. كما يصبح في الوقت نفسه كونراد سيداً لمدينة صور وصيدا وبيروت، مع ملاحظة أن المدينتين الأخيرتين كانتا بيد المسلمين في هذه المرحلة. وأن يقتسم جاي وكونراد موارد المملكة. وبعد أن ضمن فيليب لكونراد تاج المملكة بعد جاي لوزيجنان بدأ يستعد للعودة إلى بلاده بسبب المرض بعد أن أدى واجبه من وجهة نظره، وفي نهاية يوليو ١١٩١ م/ السابع من رجب ٥٨٧ هـ غادر فيليب عكا في طريقه إلى صور بعد أن فشل ريتشارد في إبقائه مع الحملة، وقد وعد فيليب قبل رحيله بأنه سوف لا يهاجم الممتلكات الإنجليزية الواقعة في الأراضي الفرنسية، ومن صور أبحر فيليب وهو مريض عائداً إلى بلاده.

ترك فيليب الجزء الأكبر من جيشه في بلاد الشام، وتولى ريتشارد القيادة العامة للجيش الصليبي وبدأ في مباشرة المفاوضات مع صلاح الدين. وكان بعض رسل الصليبيين قد بعثوا إلى دمشق لتفقد حال أسراهم كما وصل معهم من مميزي أسراهم أربعة آخرون، وأعقب ذلك وصول بعض الرسل لتحديد أمر الأسرى الصليبيين والمسلمين الذين كانوا بعكا. وقد طلب الرسل أن يشاهدوا صليب الصلبوت فأحضر لهم فعظموه. وذكر الرسل لصلاح الدين أن الملك ريتشارد وافق على تنفيذ شروط عكا في تروم (أي نجوم) ثلاثة. ويعني ذلك ثلاثة أقساط مدة كل قسط شهر، على أن يطلق سراح الأسرى المسلمين بعد

القسط الأول، وعادت الرسل الصليبية محملة بالهدايا إلى صور. وفي اليوم التالي تواترت الرسل في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسرى والمال الخاص بالقسط الأول، وهو صليب الصلبوت ومائة ألف دينار وألف وستمائة أسير. وقد شاهد الرسل الصليبيين الأسرى ما عدا المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا قد فرغوا من تعيينهم، ولذلك لم يسلم الصليبيين أسرى المسلمين. وطالبوا بالقسط الثاني.

رفض صلاح الدين سداد القسط الثاني وقال إما أن ترسلوا إلينا الأسرى المسلمين وتتسلموا الأسرى الصليبيين الذين يعينهم الرسل، ونعطيكم رهائن على الباقي، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم من أسرى حتى تفرجوا عن الأسرى المسلمين، فرفض الصليبيون وطالبوا بالقسط الثاني وعلى المسلمين أن يقتنعوا بأمانة الصليبيين، فرفض صلاح الدين لعلمه أن الصليبيين إذا تسلموا الأموال وصليب الصلبوت والأسرى، سوف يغدرون.

وكان الملك ريتشارد قد عزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها، وكان يرى عدم ترك أسرى المسلمين بالمدينة، لذلك وجد الملك في موقف صلاح الدين عذراً للتخلص من أسرى المسلمين. وخرج ريتشارد بالقوات الصليبية من عكا في السابع والعشرين من رجب ٥٨٧ هـ/ العشرين من أغسطس ١١٩١ م في الفارس والراجل وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضة، ثم أحضروا أسرى المسلمين في الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوهم طعناً وضرباً بالسيوف، واندفعت القوات الإسلامية تجاه الصليبيين فقتل وجرح الكثير من الجانبين ولم يتوقف القتال حتى فصل الليل بين الفريقين.

موقعة أرسوف وسقوط عسقلان والداروم:

وبعد يومين استعد الصليبيون للرحيل إلى عسقلان بقياد ريتشارد وقد خلعوا خيامهم وحملوها على دوابهم وعقدوا العزم على السير على شاطىء

البحر تحت حماية السفن الصليبية. وتفرق الجيش الصليبي إلى ثلاث مجموعات وعلى كل مجموعة حماية نفسها من جانب البحر. وسيّر صلاح الدين قواته بالقرب منهم ودارت مناوشات بين الفريقين حتى وصلت العساكر الإسلامية إلى تل القيمون الواقع على منحدرات جبل الكرمل جنوبي حيفا. كما اقتربت القوات الصليبية من مدينة قيسارية وأصبح الصدام بين القوات الإسلامية والصليبية وشيك الوقوع.

وعند هذه لمرحلة طلب الملك ريتشارد الدخول في المفاوضات، وكان موجز حديث الصليبيين أن القتال قد طال وأنه قتل من الجانبين الرجال والأبطال، وأنهم أتوا لنصرة فرنج الساحل، وعلى المسلمين أن يصطلحوا معهم ويعود الصليبيون القادمون من الغرب إلى بلادهم، وقد نصح صلاح الدين أخيه الملك العادل بقوله: «إن قدرت أن تطاول الفرنج في الحديث، فلعلهم يقومون اليوم، حتى يلحقنا التركمان فإنهم قد قربوا منا». ولما بدأت المفاوضات طلب ريتشارد من العادل إعادة البلاد التي فتحها صلاح الدين حتى يرحلوا عن بلاد الشام. فتعثرت المفاوضات واستعد الصليبيون للتقدم صوب أرسوف.

وفي الرابع عشر من شعبان ٥٨٧ هـ/ السادس من سبتمبر ١١٩١ م علم صلاح الدين أن القوات الصليبية تحت قيادة ريتشارد قلب الأسد قد تحركت في طريقها إلى أرسوف، فأعد صلاح الدين قواته لتكون مستعدة لقتال الصليبيين. وكان ريتشارد قد أعد قواته إعداداً جيداً واتخذ مكانه في قلب الجيش. وقد تمكنت القوات الإسلامية في بداية الأمر من مضايقة الصليبيين مضايقة عظيمة. وعندما التحمت القوات الإسلامية مع القوات الصليبية اشتد المسلمون على الصليبيين، وكان صلاح الدين يطوف من الميمنة إلى الميسرة يحث الناس على الجهاد حتى اشتد الأمر كثيراً على الصليبيين، لدرجة أن المسلمين طمعوا في الصليبيين طمعاً كثيراً واقتربوا كثيراً منهم حتى وصلوا إلى بساتين أرسوف. وعند هذه المرحلة صدرت الأوامر للصليبيين بمهاجمة المسلمين، فاندفعوا على الميمنة والميسرة والقلب، ففرت القوات الإسلامية ثم عادت وقاتلت ثم

فروا ثم عادوا وقاتلوا وهكذا. وحاول صلاح الدين إعادة رجاله للقتال، ولكن القوات الصليبية توقفت عن القتال فتجمعت القوات الإسلامية حول صلاح الدين والقوات الصليبية على رؤوس التلال والروابي ثم تراجعت خوفاً من الكمائن، كما تراجع صلاح الدين إلى أحد التلال. وقد سقط الكثير من القتلى والجرحى في هذه المعركة، وإن كان على ما يبدو أن الخسائر التي وقعت بالقوات الإسلامية كانت أكثر مما وقعت بالقوات الصليبية. ورغم أن معركة أرسوف لم تكن حاسمة، إلا أنها تعتبر انتصاراً معنوياً للقوات الصليبية بعد الخسائر التي حلت بها بعد معركة حطين.

واستعد صلاح الدين بقواته مرة أخرى لقتال الصليبيين في اليوم التالي، وسار في اليوم الثالث حتى قارب أرسوف، ولكن الصليبيين لم يتحركوا في ذلك اليوم ولم يرحلوا لما نالهم من التعب والجراح، فعسكر صلاح الدين بالقرب منهم حتى آخر اليوم. وفي اليوم الثالث تحرك الصليبيون في اتجاه مدينة يافا، وكانت خطتهم تهدف إلى السير بحذاء الشاطىء حتى لا يحرموا من مساعدة الأسطول الصليبي، ولم يكن بوسعهم التوغل خوفاً من قيام المسلمين بقطع خطوط الاتصال مع الأسطول الصليبي. واقتربت القوات الإسلامية كثيراً من الصليبيين وألقوا عليهم النشاب ما كاد يسد الأفق، ولم تجازف القوات الصليبية بالالتحام مع المسلمين، وسارت صفوفاً حتى وصلوا نهر العوجا حيث يقع في أعلاه معسكر المسلمين.

وكان صلاح الدين يخشى على مدينة القدس فأعد جيشه ونزل بمدينة الرملة التي تقع على طريق بيت المقدس. وأثناء إقامة صلاح الدين بالرملة أسر المسلمون إثنين من الصليبيين وعرفوا منهما أن الصليبيين ربما يقيمون في مدينة يافا أياماً لتعميرها وشحنها بالرجال والعتاد. وعند هذه المرحلة طلب صلاح الدين أرباب المشورة وشاورهم في أمر تخريب عسقلان. واتفق الرأي على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر بالقرب من الصليبيين عند يافا لمعرفة أخبارهم وإبلاغها للقيادة الإسلامية، وأن يسير صلاح الدين لتخريب

مدينة عسقلان حتى لا يستولي عليها الصليبيون وهي عامرة، ومنها بوسعهم أن يهاجموا القدس ويستولوا عليها، وإذا ما سيطروا على الطريق من يافا إلى القدس يمكنهم أن يقطعوا أحد الطرق التي تصل بين مصر والشام، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد رأى صلاح الدين تجميع القوات الإسلامية للدفاع عن القدس بدلاً من توزيع قواته بين القدس وعسقلان.

دخل صلاح الدين عسقلان واستنفر الناس لتخريب المدينة، ووقع فيها الضجيج والبكاء، فقد كانت عسقلان بلدة ناضرة محكمة الأسوار، عظيمة البناء، وشرع أهل المدينة في بيع ما لا يمكن حمله بأرخص الأسعار، وكان صلاح الدين يستعجل تخريب المدينة خشية وصول الصليبيين إليها وهي عامرة. وفي تلك الليلة التي هدمت فيها المدينة وصل من قبل الملك العادل من أخبر صلاح الدين أن الصليبيين تحدثوا معه في الصلح، وكان المتحدث باسمهم ابن الهنفري كما يرد في المصادر العربية، وهو همفري سيد تبنين Humphrey Lord of Toron وكان يجيد اللغة العربية ويخصه ريتشارد بالتقدير.

والحقيقة أن طلب الملك ريتشارد للدخول في المفاوضات أمر يدعو للدهشة فكل ما أحرزته القوات الصليبية في هذه المرحلة هو إسقاط مدينة عكا، وأن القوات الصليبية لم تشتبك اشتباكاً كبيراً بعد سقوط عكا، فهل كان الملك ريتشارد يعتقد أنه بهذا النصر المحدود سوف يرغم المسلمين على التخلي عن مكاسبهم. والواقع أن أحوال الصليبيين الذين تعامل معهم ريتشارد كانت غير مستقرة ولا زال الصراع بين كونراد وجاي لوزيجنان يلعب دوره داخل القوات الصليبية. يضاف إلى ذلك المشاكل التي وقعت داخل جزيرة قبرص، وقد تغلب ريتشارد على هذه القضية بأن باع الجزيرة لفرسان الداوية. تبقى نقطة لعلها الأهم، وهي أن عودة فيليب أوغسطس ملك فرنسا إلى بلاده جعلت الملك الإنجليزي يقلق على الأراضي الإنجليزية الواقعة في أوروبا وفي فرنسا بصفة

خاصة وهي مشكلة لها جذورها التي ترجع إلى عام ١٠٦٦ م منذ فتح وليم الفاتح إنجلترا.

والواقع أن فكرة عقد الصلح بين المسلمين والصليبيين لم توقف القتال بين الطرفين فكانت الحرب قائمة، وحاول الجانب الصليبي الحصول على مكاسب حربية لعله يضغط بهذه المكاسب على سير المفاوضات. وفي الوقت نفسه كان الملك الإنجليزي ريتشارد يحاول الوصول إلى تسوية سلمية مع صلاح الدين، بينما حاول كونراد أيضاً الوصول إلى صلح مع المسلمين بعيداً عن مسار الملك الإنجليزي. ونظراً لتشابك الموضوعات مع بعضها سوف يعرض الباحث الأعمال العسكرية التي وقعت بين المسلمين والصليبيين، ثم يبدأ في عرض الخطوات التي جرت بين الطرفين لعقد الصلح.

والمهم في هذه المرحلة أن ريتشارد والقوات الصليبية كانوا في مدينة يافا وظلوا بها حتى بداية شتاء عام ١١٩١ م. أما صلاح الدين فقد رحل إلى الرملة في الثالث من شهر رمضان ٥٨٧ هـ/ الخامس والعشرين من سبتمبر ١١٩١ م ونزل بأكبر جانب من قواته بالمدينة ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً وأطعم الناس ثم أخذوا قسطاً من الراحة ثم ساروا إلى مدينة اللد، فرآها صلاح الدين ورأى بيعتها وعظم بنائها فأمر بخرابها وخراب قلعة الرملة أيضاً. ثم ترك أخاه العادل ليتابع أعمال التخريب وذهب خفية إلى بيت المقدس ليتفقدأحواله. وفي هذه المرحلة قبض بعض المسلمين على نفر من النصارى ومعهم كتب موجهة إلى صلاح الدين من والي مدينة القدس قريبة التاريخ، يذكر فيها حاجة القدس إلى الغلال والعدة والرجال وأرادوا حملها إلى العدو فضربت رقاب من كانت معهم الكتب. وبعد أن تفقد صلاح الدين أحوال بيت المقدس وأمر بإعداد الميرة والعتاد والرجال رحل ونزل في مكان قريب من مدينة اللد.

وكان نزول صلاح الدين على تل متصل بجبل النطرون حيث قلعة منيعة حصينة تعرف باسم قلعة النطرون، فدار حولها ثم أمر بتخريبها، كل هذا

ورسل الصليبيين تتردد بين الملك العادل الذي تسلم أمر المفاوضة مع الصليبيين، ومع القيادات الصليبية.

أما عن الجانب الصليبي فلم يحدث في شتاء عام ١١٩١ ـ ١١٩٢ م أحداث تذكر سوى أن الملك الإنجليزي ريتشارد قد خرج للصيد في نواحي يافا فوقع في كمين للمسلمين، وكاد يسقط أسيراً في أيديهم، ولكن أحد الفرسان ويدعي وليم أف برُو William of Preaux أعلن أنه الملك، فأسر هذا الفارس ومعه مجموعة أخرى من الفرسان. وقد أورد ابن شداد هذه الواقعة مع قدر من الاختلاف، ولكنه روى أن بعض الأسرى ذكروا أن الملك ريتشارد كان معهم، وأن مسلماً قصد طعنه، فحال بينه أحد الإفرنج، فقتل الإفرنجي وجرح الملك.

ويبدو أن ريتشارد أراد قصد بيت المقدس، فبعد ما وصلت إليه بعض القوات من مدينة عكا رحل من يافا فوصل مدينة الرملة فوجدها خربة، فعسكر عندها بعض الوقت يستعد لمواصلة السير إلى القدس، وفي معسكره بدأت الغارات الإسلامية تنهال على مراكزه الأمامية، وكاد ريتشارد يقع أسيراً للمرة الثانية في أيدي المسلمين. ثم رحل إلى بيت نوبة، وعرقلت الأمطار تحركات الجيش الصليبي وأهلكت الكثير من المؤن وبعض الدواب. كما استعدت القوات الإسلامية لمنازلة الصليبيين فحملوا عليهم وجرى قتال عظيم كانت الدائرة فيه على الصليبيين وأسر منهم جماعة سيّرها المسلمون إلى القدس. وتشجع المسلمون بأخبار وصول العساكر المصرية التي عسكرت على التلال خارج المدينة.

لا زال الصليبيون مصممون على التوجه إلى القدس، وكانوا قد نجحوا في الحصول على بعض الأموال والجمال وغير ذلك من أحد القوافل القادمة من مصر، لذلك قويت نفوسهم، كما أرسلوا إلى صور وطرابلس وعكا يطلبون النجدة ليواصلوا مسيرتهم إلى القدس. ولما أحس صلاح الدين بنيةالصليبيين، وضع الخطط العسكرية للدفاع عن المدينة، وأخذ في إفساد المياه ظاهر

القدس، بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب، كما أرسل إلى البلاد الإسلامية يطلب المؤن والجنود.

لم يواصل ريتشارد السير إلى القدس وذلك لاختلاف وجهات نظر القادة الصليبيين، فكان بعض القادة من الصليبيين المحليين الذين يعرفون طبوغرافية المنطقة لا يرون التقدم إلى القدس، وقد تمكنوا من إقناع الملك ريتشارد بذلك خوفاً من وقوع القوات الصليبية بين قوات المسلمين في الشام بقيادة صلاح الدين وبين القوات المصرية القادمة من مصر، كما أقنعوا الملك بأن القوات الصليبية المحلية قليلة العدد ولا يمكنها الاحتفاظ بالقدس حتى إذا استولى عليها ريتشارد، لأن القوات الصليبية القادمة مع الحملة الثالثة سوف تعود إلى أوروبا. وتردد ريتشارد في العودة، وانتهى الأمر بأن حكم الصليبيون ثلاثمائة من أعيانهم، وحكموا الثلاثمائة إثني عشر منهم، وحكم الإثنا عشر ثلاثة منهم. ورأى الثلاثة الرحيل، فرحلت القوات الصليبية في طريقها إلى عسقلان.

وفي عسقلان قضت القوات الصليبية حوالي أربعة أشهر، قاموا خلالها بتحصين المدينة حتى أصبحت قلعة منيعة، وخلال هذه المرحلة لم يهاجم صلاح الدين القوات الصليبية في عسقلان وانشغل في جمع القوات من الموصل والجزيرة. وخلال هذه المرحلة أيضاً أرسل ريتشارد من عسقلان إلى كونراد يطلب منه الحضور للمساهمة في أعمال تحصين عسقلان، ولكن كونراد رفض هذا الطلب. كما عاد الكثير من القوات الفرنسية إلى عكا بعد أن قلت مواردها. وفي هذه المرحلة أيضاً وقع صراع بين البيازنة والجنيويين وصل إلى حد الصدام المسلح، واضطر ريتشارد للذهاب إلى عكا لوضع حد لهذا الصراع، والتقى مع كونراد الذي أصر على موقفه بعدم الذهاب إلى عسقلان، ورغم أن ريتشارد حاول إعادة السلام بين القوى المتصارعة في عكا، إلا أن ما شاهده من صراع زاد من إصراره على ضرورة عقد الهدنة مع صلاح الدين.

وازداد الملك ريتشارد اقتناعاً عندما وصلت إليه الأخبار من إنجلترا تفيد أن يوحنا شقيق الملك يعمل على اغتصاب السلطة، وحاول ريتشارد أن يضع

حداً للصراع بين الصليبيين المحليين من أجل تعيين ملكاً على بيت المقدس. لذلك دعا ريتشارد القيادات الصليبية وأبلغها أنه سوف يغادر البلاد إن آجلاً أو عاجلاً، ولا بد من اتخاذ قرار في موضوع تاج مملكة بيت المقدس، وعرض عليهم أن يختاروا إما كونراد أو جاي لوزيجنان، وكانت إرادة الحاضرين أن يكون كونراد هو الملك، ولما علم كونراد بذلك وافق على أن يلحق بالقوات الصليبية في عسقلان، ولكن كونراد لقي مصرعه بعد ثمانية أيام في الثامن والعشرين من إبريل ١١٩٢ م/ الثالث عشر من ربيع ثان ٥٨٨ هـ على يد أحد جماعة الحشيشة. وانتهى الأمر بأن تولى هنري كونت شامباني Henry of Champagne، ويرد في المصادر العربية باسم الكند هري، الذي يمت بصلة القربى لكل من ريتشارد وفيليب أوغسطس.

وبعد ما تم اختيار هنري أدرك ريتشارد أن الموقف لم يعد في صالح جاي لوزيجنان، وجال بخاطر ريتشارد أن يبعث بالملك جاي لوزيجنان إلى جزيرة قبرص فقد كان الداوية غير راغبين في الاحتفاظ بالجزيرة، ولذلك أجاز ريتشارد قيام جاي لوزيجنان بشراء الجزيرة، فذهب إليها في مايو ١١٩٢ م وأنشأ أسرة حاكمة بها.

وبعد ما أتم ريتشارد هذه التسويات كان على هنري أن يلحق بالملك ريتشارد في عسقلان، ومن عسقلان قرر ريتشارد أن يهاجم الداروم، وقبل أن يصل الملك هنري زحف ريتشارد إلى الداروم في تاسع جمادي الأولى ٥٨٨ هـ/ الثالث والعشرين من مايو ١١٩٢ م بقواته من المشاة والفرسان، وتمكنت القوات الصليبية من حصار حصن الداروم لعدة أيام، وقد دافع رجال الحامية عنه بكل بسالة؛ ولما أدرك أهل الحصن عدم جدوى القتال قطعوا عراقيب الخيل والجمال والدواب، وأضرموا النار في الذخائر. واشتد القتال حتى سقط الحصن عنوة.

وبعد ما استولى الصليبيون على حصن الدوام، وضعوا به حامية صليبية ثم ساروا بعد خمسة أيام إلى حصن مجدل يابا، وفي الطريق دار قتال بين

الصليبيين والمسلمين، ويبدو أن الصليبيين واجهوا مقاومة إسلامية عنيفة، فاضطروا إلى العودة إلى عسقلان.

كان سقوط حصن الداروم وهو آخر حصن إسلامي على الساحل الشامي تجاه مصر من العوامل التي شجعت القوات الصليبية للزحف مرة أخرى على الطريق إلى بيت المقدس. ومن عسقلان سلك ريتشارد الطريق الذي سلكه من قبل حتى وصل إلى تل الصافية في الثالث والعشرين من جمادي الأولى ٥٨٨ هـ/ السابع من مايو ١١٩٢ م ومنها اتجهت القوات الصليبية إلى النطرون. ولما علم صلاح الدين بهذه التحركات أقام في القدس يجمع القوات الإسلامية في مواجهة القوات الصليبية. وعند هذه المرحلة راود الصليبيون فكرة التخلي عن مهاجمة بيت المقدس والاتجاه إلى مهاجمة مصر، ولكنهم انشغلوا عن هذه الفكرة بمهاجمة قافلة قادمة من مصر عند آبار الخويلفة بعد ما طاف حولها ريتشارد مرتدياً الزي العربي. وقد استولى الصليبيون على القافلة بما فيها من الخيل والجمال والأقمشة والأموال، ويروى أن الجمال كانت تناهز ثلاثة آلاف جمل. ودارت بعض المناوشات بين المسلمين والصليبيين عاد بعدها الجيش الصليبي إلى بيت نوبة.

لا زال ريتشارد يتردد في الاتجاه إلى القدس لقلة الماء وعدم إمكان المحافظة عليها بعد رحيل الصليبيين، فلم يعبأ بما وجهه إليه بعض الصليبيين من نقد، فاتجه بالقوات الصليبية إلى الساحل حيث جرت بعض الأحداث الخاصة بالصلح ولكنها لم تصل إلى نتائج محددة، واتخذ ريتشارد طريقه إلى عكا عن طريق يافا، وكان يأمل في الزحف على بيروت. ولعله كان يرى الإبحار من بيروت إلى أوروبا.

معركة يافا:

كان صلاح الدين على علم بالخلاف الذي وقع في صفوف القوات الصليبية، فعندما علم برحيل القوات الصليبية من يافا رحل على رأس قواته من القدس في الخامس عشر من رجب ٥٨٨ هـ/ السابع والعشرين من يوليو

١١٩٢ م، فوصل يافا في اليوم نفسه ورتب عليها الناس للقتال وأحضر المنجنيقات وركزها على أضعف موضع في سور المدينة وأطلق النقابين في السور، والتحم القتال واشتد الأمر ووهنت القوات الصليبية المدافعة عن المدينة وسقطت المدينة في أيدي القوات الإسلامية عدا القلعة التي لم تسيطر عليها القوات الإسلامية حتى هذه المرحلة.

ولما عرف ريتشارد بهذه الأحداث وهو في عكا أعرض عن التوجه إلى بيروت واتجه بأسطوله إلى يافا، وكان الأسطول يزيد عن خمسين سفينة منها خمسة عشر شانية منها شانية الملك، ولم يكن ريتشارد يعلم ما يحدث بالمدينة فتردد في الهبوط إلى البر. ولما رأى من بالقلعة الأسطول الإنجليزي قفز أحد رجال الدين من القلعة إلى أرض الميناء وكانت رملاً فلم يصاب بسوء فسبح في الماء حيث حُمل إلى الملك ريتشارد ليخبره بما حدث. فأعطى الملك أوامره باندفاع السفن نحو الساحل. وخلال ساعة من الزمن نزل جميع من بالسفن إلى الميناء ثم حملوا على المسلمين حملة نجحوا فيها وفر المسلمون تجاه صلاح الدين خارج المدينة.

وبعد هذه المرحلة جرت مفاوضات من أجل الصلح وتقرير الهدنة، ولكنها تعثرت، وقد علم صلاح الدين أن القوات الصليبية التي جاءت إلى يافا لنجدتها خرجت منها وسارت إلى قيسارية، وأن ريتشارد نزل خارج يافا بعدد قليل من القوات، فوجد صلاح الدين استغلال هذه الفرصة ومهاجمة خيمة الملك الإنجليزي. وسار صلاح الدين من أول الليل والأدلة من العرب تتقدمه حتى وصل في صباح الثالث عشر من رجب ٥٨٨ هـ/ الخامس من أغسطس ١١٩٢ م إلى خيام الصليبيين وكانت قليلة العدد قدرها البعض بعشرة خيام، وحمل المسلمون على القوات الصليبية حملة الرجل الواحد فثبت الصليبيون في أماكنهم.

ويرجع ثبات القوات الصليبية رغم قلتها في أماكنها إلى أن أحد الجنود الصليبيين كان يتجول خارج المعسكر الصليبي فأحس بقدوم القوات الإسلامية

فأبلغ الملك الذي أعطى الأوامر لجنوده بالاستعداد، ورغم قلة أعداد القوات الصليبية فقد أقام ريتشارد حاجزاً منخفضاً من أعمدة الخيام لإعاقة تقدم القوات الإسلامية، ورتب ريتشارد قواته خلف هذا الحاجز أزواجاً وقد حملوا تروسهم لحمايتهم. كما قامت القوات الصليبية بغرس رماحهم الطويلة أمامهم مصوبة تجاه صدور الخيول الإسلامية، ووضع ريتشارد بين كل إثنين من الصليبيين أحد النبالة، وعندما هاجمت القوات الإسلامية الصليبيين اعترضهم الحاجز ثم النبالة ثم الرماح. لذلك فشلوا في اختراق هذه الموانع.

ويروي ابن شداد أن صلاح الدين دار على القوات الإسلامية بنفسه يحثهم على القتال ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاه أحد سوى ولده الملك الظاهر، فمنعه صلاح الدين. ولما وجد أن وقوفه أمام القوات الصليبية التي وصفها ابن شداد بالشرذمة اليسيرة من غير عمل خسارة بحتة، أعرض عن القتال ورحل غاضباً، وأرسل في طلب العساكر فأتت إليه من الموصل ومصر.

كانت المعركة السابقة آخر لقاء تم بين قوات صلاح الدين وقوات ريتشارد قلب الأسد الذي سقط مريضاً بالحمى فلزم خيمته، وفي الوقت نفسه بادرت بعض القوات الصليبية بالاستعداد للرحيل خاصة الفرنسية، فلم يجد الملك الإنجليزي بديلاً عن الحرب سوى الجنوح إلى السلم وفتح باب المفاوضات من جديد.

المفاوضات وصلح الرمله:

والحقيقة أن فكرة المفاوضات بين صلاح الدين وريتشارد فكرة قديمة بدأت منذ قدوم الحملة الثالثة، وكما سبق أن أوضح الباحث أنه سوف يغطي كافة الأحداث العسكرية ثم يتناول في موضوع متكامل قضية المفاوضات من أجل الصلح بين المسلمين والصليبيين خلال أحداث الحملة الثالثة، حتى لا تضيع هذه القضية في ثنايا أحداث الحملة.

لقد اتخذت قضية عقد الصلح بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد مراحل متعددة، والحقيقة أن الذي بدأ بهذه الفكرة الملك ريتشارد الذي وصل

إلى سواحل بلاد الشام في الثالث عشر من جمادي الأول ٥٨٨ هـ/ التاسع من مايو ١١٩١ م أثناء تواجد المسلمين في عكا ومحاصرة الصليبيين لها من جهة البر. والواقع أن وصول ريتشارد ومعه الأسطول الإنجليزي قد جدد الأمل في نفوس الصليبيين المحاصرين للمدينة، فقد كان لقدومه روعة عظيمة، وأظهر الفرنج بقدومه سروراً وفرحاً شديداً حتى أن الصليبيين أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة في خيامهم فرحاً به، وفي الوقت نفسه كان لقدوم ريتشارد في قلوب المسلمين خشية ورهبة.

المرحلة الأولى

وعلى أيام حال فبعد عشرة يسام فقط من وصول الملك الإنجليزي ريتشارد كان القتال قد اشتد بين المسلمين والصليبيين واشتد الضرب من الجانبين، فصبر المسلمون داخل عكا صبر الكرام، ودخلوا في الحرب باقتحام، فلما رأى الصليبيون ذلك الصبر المعجز والإقدام المزعج، بادر ريتشارد بإرسال رسول إلى صلاح الدين، وقد سمح للرسول بالتوجه إلى الملك العادل أولاً، فاستصحبه إلى صلاح الدين، وكان موجز الرسالة التي أرسلها ريتشارد تتلخص في أن ملك الإنجليز يطلب الاجتماع بصلاح الدين، ولما علم صلاح الدين بذلك أجاب دون تردد وقال أن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة أي هدنة، وإذا أراد ريتشارد الاجتماع بصلاح الدين فلا بد من تقرير الهدنة قبل الاجتماع، ولا بد من ترجمان موثوق به بين الطرفين يفهم كل ما يقوله الطرف الآخر، وإذا تقررت الهدنة تم الاجتماع بالملك الإنجليزي.

عاد الرسول إلى ريتشارد وعاد مرة أخرى، وكان حديثه مع الملك العادل وانتهى الأمر بالاتفاق على اجتماع العادل مع الملك ريتشارد في مرج عكا والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان. وعاد الرسول ولكنه تأخر عدة أيام بسبب المرض، والراجح أن ريتشارد هو الذي كان مريضاً وليس الرسول. وفي رواية أخرى أن القادة الصليبيين أنكروا فكرة الصلح مع المسلمين وقالوا «هذه مخاطرة بدين النصرانية». وقد عاد الرسول مرة أخرى واعتذر عن التأخير بسبب

المرض. ومما قاله الرسول أن «الملوك إذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا، وأضاف عندي ما يصلح للسلطان وأنا أستخرج الإذن في إيصاله إليه» فوافق الملك العادل بشرط إرسال هدية في المقابل للملك الإنجليزي، فرضي الرسول وقال «الهدية شيء من الجوارح قد جلبت من وراء البحر، وقد ضعفت فيحسن أن تقدموا إلينا طير ودجاج حتى نطعمها فتقوى ونحملها إليكم». فداعبه الملك العادل وقال «الملك قد احتاج إلى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة، فانقطع الحديث عدة أيام، ثم عاد الرسول ومعه إنسان مغربي مسلم قد أسره الصليبيون من مدة طويلة هدية إلى السلطان فقبله وأطلقه، وأعاد الرسول مكرماً». وقد بلور المؤرخ ابن شداد الأسباب الحقيقية التي تكمن وراء تبادل الرسل، فقال وكان غرض الصليبيين بتكرار الرسائل تَعرّف قوة النفس وضعفها عند المسلمين، وكان غرض المسلمين بقبول الرسائل تَعرُف ما عند الصليبيين من ذلك».

المرحلة الثانية

وانقطع الاتصال حوالي شهرين، أو لعله كان قائماً ولم تسجله لنا المصادر، ففي التاسع من جمادي الآخرة عام ٥٨٧ هـ/ الرابع من يوليو ١١٩١م، أثناء القتال في عكا بين المسلمين والصليبيين عندما قررت حامية عكا الإسلامية التخلي عن القتال وأرسلت إلى ريتشارد في طلب الصلح وتسليم مدينة عكا مقابل الأمان، ورغم أن ريتشارد رفض عرض حامية المدينة، إلا أنه أرسل في اليوم نفسه ثلاث رسل إلى صلاح الدين يطلبون فاكهة وثلجاً، وقد ذكر الرسل أن مقدم الاسبتارية جارنيه Garnier (١١٩٠ ـ ١١٩٢ م) سيحضر في اليوم التالي للتحدث في معنى الصلح، وقد أكرم صلاح الدين الرسل وأدخلهم سوق العسكر وشاهدوه وعادوا في اليوم نفسه إلى عسكرهم. وقد أعقب ذلك استسلام مدينة عكا للصليبيين واستقبال صلاح الدين لسفراء الصليبيين حول تسليم عكا، وهو جانب يتعلق بمدينة عكا فقط، وقد سبق أن أوضحناه، ولا يمس جوهر قضية الصلح العامة التي نناقشها على هذه الصفحات.

المرحلة الثالثة

وكانت المرحلة الثالثة من المفاوضات في المرحلة السابقة لمعركة أرسوف، ففي الحادي عشر من شعبان ٥٨٧ هـ/ الثالث من سبتمبر ١١٩١ م، أتت بعض رسل الصليبيين تطلب التحدث إلى الملك العادل، فسمح لهم. وكان حاصل حديث الرسل «إنا قد طال القتال، وأنه قتل من الجانبين الرجال والأبطال، وإنا نحن جئنا في نصرة فرنج الساحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكل منا يرجع إلى مكانه». .علم صلاح الدين بمضمون أفكار الرسل فكتب إلى أخيه العادل يطلب منه إطالة الحديث مع الرسل حيث تصل النجدات الإسلامية.

وفي اليوم التالي اجتمع الملك العادل بالملك الإنجليزي ريتشارد، وتولى الترجمة همفري سيد تبنين، وسأل العادل ريتشارد عن شروطه حول عقد الصلح، فذكر له «القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا، وتنصرفون إلى بلادكم» ومعنى ذلك عودة الحال إلى ما قبل معركة حطين، ولم يقبل الملك العادل مثل هذه الشروط فأخشن للملك الإنجليزي الجواب، وجرت منافرة اقتضت رحيل الملك الإنجليزي ورفاقه. ثم كانت معركة أرسوف التي انتصرت فيها القوات الصليبية، وإن كان نصراً غير حاسم.

وبعد ثمانية أيام وأثناء إقامة القوات الصليبية بقيادة ريتشارد في مدينة يافا، وقيام صلاح الدين بتخريب مدينة عسقلان، وصل في التاسع عشر من شعبان ٥٨٧ هـ/ الحادي عشر من سبتمبر ١١٩١ م إلى صلاح الدين من أخبره من جانب الملك العادل أن الصليبيين تحدثوا معه في أمر الصلح وأن شروطهم إعادة جميع البلاد الساحلية، فطلب صلاح الدين من أخيه العادل فتح باب المفاوضات لما رآه في نفوس المسلمين من الضجر والسآمة من القتال والمصابرة. كما طلب منه أيضاً إطالة أمد المفاوضات حتى يتم تخريب عسقلان.

وفي خلال الأيام التالية وقع حادث له مغزاه في تاريخ الحملة الصليبية

الثالثة، ففي الثاني عشر من رمضان ٥٨٧ هـ/ الثالث من أكتوبر وصلت رسل من جانب كونراد الذي تصفه المصادر العربية باسم المركيس، وكان كونراد قد استشعر أن الصليبيين يريدون الاستيلاء على صور، فانحاز عن قوات الحملة الصليبية الثالثة، وأرسل إلى صلاح الدين يطلب الصلح مقابل إعطائه صيدا وبيروت، مقابل مجاهرة ريتشارد بالعداوة والسير بقواته إلى عكا ومحاصرتها والاستيلاء عليها. والمعروف أن كونراد كان خبيثاً ملعوناً، لذلك أراد صلاح الدين معرفة حسن نواياه، فطلب منه في بداية الأمر القيام بحصار عكا والاستيلاء عليها، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين في عكا وصور، ثم يقوم صلاح الدين بعد ذلك بتسليمه صيدا وبيروت. وفي عشية اليوم نفسه وصلت رسل الملك ريتشارد للحديث مرة أخرى في مسألة الصلح.

علم ريتشارد بالسفارة التي أرسلها كونراد إلى صلاح الدين، فعاد إلى عكا للعمل على فسخ فكرة المصالحة التي شرع فيها كونراد، والعمل أيضاً على ضم كونراد إلى صفوف القوات الصليبية، ومما لا شك فيه أن ما حدث جعل صلاح الدين يدرك مدى الشقاق بين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة. كما أدرك ريتشارد أن ما حدث من كونراد يعتبر طعنة موجهة إليه وإلى قوات الحملة الثالثة التي عانت وتكلفت الكثير للدفاع عن الصليبيين المحليين. وكان لذلك كله أكبر الأثر على سير المفاوضات وشروطها في المراحل المقبلة.

المرحلة الرابعة

وفي الرابع والعشرين من رمضان ٥٨٧ هـ/ الخامس عشر من أكتوبر ١١٩١ م وصل رسول من قبل الملك الإنجليزي ريتشارد ومعه حصان هدية إلى الملك العادل في مقابل هدية كان قد أرسلها إليه الملك العادل. وكان ذلك مقدمة لمفاوضات المرحلة الرابعة، وبعد يومين أرسل ريتشارد يطلب من الملك العادل إيفاد رسوله للتحدث في أمر الصلح، فأجابه العادل إلى طلبه، وذهب رسول العادل واجتمع بالملك ريتشارد. ومما قاله الملك في طلب الصلح «وأن

المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد، وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة لا مقدار له عندكم، وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم». ويلاحظ أن الصيغة التي تحدث بها الملك ريتشارد تختلف عما سبق، وفي عبارة «فيمن به السلطان علينا» ما يدل على رجاء الملك الإنجليزي لصلاح الدين لتسليمه صليب الصلبوت.

وعلى أية حال فعندما بلغ الملك العادل ما يطلبه ريتشارد، قام العادل بدوره بإبلاغه إلى صلاح الدين الذي قال في رد الجواب للملك الإنجليزي «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها، لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت. . وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها». ويلاحظ هنا القوة التي يتحدث بها صلاح الدين إلى ملك الإنجليز، ولعل ذلك مرجعه إلى ما رآه من الشقاق الواقع بين الصليبيين المحليين وبين قوات الحملة الثالثة.

واستكمالاً للمرحلة الرابعة عاد رسول الملك ريتشارد من يافا بمقترحات جديدة بعد ثلاثة أيام، وموجز هذا العرض أن يتزوج الملك العادل من جوانا Joanna ملكة صقلية السابقة أخت الملك ريتشارد، وأن يكون مستقر ملكهما القدس الشريف، وأن يقدم لها ريتشارد بلاد الساحل التي فتحها من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، وأن يعطي صلاح الدين أخاه العادل جميع بلاد الساحل ويجعله ملكاً عليها بالإضافة إلى ما في يده من البلاد

والأقطاع، وأن يسلم إليه صليب الصلبوت، وتكون القرايا للداوية والاسبتارية، والحصون لهما، وإطلاق سراح أسرى الجانبين ويرحل ملك إنجلترا إلى بلاده.

ولما أبلغ صلاح الدين بمقترحات الملك الإنجليزي، بادر بالموافقة معتقداً أن ريتشارد لا يوافق عليه، وأن هذا منه هزو ومكر، أي نوع من المزاح. ولما علمت جوانا باقتراح أخيها زواجها من الملك العادل غضبت وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك. لذلك عرض ريتشارد دخول العادل في الديانة المسيحية ولكن العادل رفض قبول ذلك، وترك باب المفاوضات مفتوحاً.

المرحلة الخامسة

وسارت المرحلة الخامسة من المفاوضات في خطين متوازيين، الخط الأول يتعلق بالمفاوضات مع رسل كونراد، والخط الثاني مرتبط بالمفاوضات مع الملك الإنجليزي ريتشارد، وبدأت هذه المرحلة في الخامس عشر من شوال ٥٨٧ هـ/ الخامس من نوفمبر ١١٩١ م عندما وصل رينالد جارنييه Reynald Garnier حاكم صيدا كرسول من جانب كونراد، ويفهم من النصوص التاريخية أن المحادثات مع كونراد لم تنقطع، وقد أحسن المسلمون استقبال المبعوث حتى يتم تدبير اللقاء مع صلاح الدين. وبعد أربعة أيام استقبل صلاح الدين رينالد جارنييه وأكرمه إكراماً عظيماً. وتصف المصادر الإسلامية كونراد بأنه كان أشد الصليبيين بأساً وأعظمهم في الحرب مراساً، وأثبتهم في التدبير أساساً. وكان عرض كونراد يتلخص في تنازل المسلمين له عن صيدا، ويتحالف مع المسلمين ضد قوات الحملة الصليبية الثالثة ويجاهرها بالعداوة. وقد استمع صلاح الدين إلى هذه المقترحات من المبعوث ووعده بأن يرد عليه الجواب فيما بعد.

وفي اليوم الذي استقبل فيه صلاح الدين مبعوث كونراد، وصل في المساء همفري سيد تبنين كرسول من الملك الإنجليزي ريتشارد فاستقبله صلاح الدين، وقدم المبعوث الصليبي مقترحاته وكانت أن ريتشارد يقول لصلاح الدين

«إني أحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك [العادل]، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا [الصليبيون] عقله [نصيب] بالقدس الشريف»، ويتصوري أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه ولا علي لوم من الإفرنجية» وأضاف المبعوث أن الأمل لم ينقطع في زواج الملك العادل من جوانا، وإذا تعذر ذلك فيمكن زواج العادل من اليانور أف بريتاني Eleanor of Britany ابنة أخت ريتشارد. ودار في هذا الاجتماع حديث عن الأسرى وكان منفصلاً عن حديث الصلح، وكان رد سفراء الملك ريتشارد إن كان الصلح فعلى الجميع، وإن لم يكن صلح فلا يكون من حديث الأساري شيء وقد أجاب صلاح الدين بوعد جميل وأخصهم بالعودة وفي نيته عدم الموافقة على عقد الصلح. لأن صلاح الدين كان لا يثق في الصليبيين، ويرى أن المصلحة أن يدوم القتال حتى إخراج الصليبيين من الساحل الشامي.

وأمام مقترحات كونراد ومقترحات ريتشارد جمع صلاح الدين الأمراء الأكابر وأرباب المشورة في الحادي والعشرين من شوال ٥٨٧ هـ/ الحادي عشر من نوفمبر ١١٩١م. وذكر صلاح الدين للحاضرين المقترحات التي قدمها الملك ريتشارد وكونراد. ورأى أرباب الرأي أنه إذا اتجهت نية المسلمين إلى عقد الصلح فليتم ذلك مع الملك ريتشارد، وانفض الحاضرون وبقي الحديث في الصلح والرسل تتواصل. والملاحظ أن الحرب ظلت قائمة طوال هذه المشاورات، ومن الملاحظ أيضاً أن سياسة كونراد التي تهدف إلى عقد الصلح مع المسلمين قد دفعت الملك ريتشارد إلى الإسراع في عقد الصلح مع المسلمين، فقد ملَّ كل طرف أن الطرف الآخر يفاوض صلاح الدين على الصلح وفي ذلك يقول ابن شداد، «هذا كله وسوق الحرب قائم... وصاحب صيدا [رينالد جارنييه] يركب مع الملك العادل في الأحيان... وهم [أيْ فريق الملك ريتشارد] كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف المركيس [كونراد] إلى المسلمين، وعند ذلك تنكسر شوكتهم».

ولذلك أرسل ريتشارد ستيفن أف تورنهام Stephen of Turnham مبعوثاً من قبله إلى القدس للاجتماع بصلاح الدين وبأخيه العادل، يعرض رغبة الملك ريتشارد في الاجتماع بالملك العادل باعتباره مفوضاً في أمر الصلح، فعقد السلطان صلاح الدين مشورة في مضي الملك العادل إلى ملك إنجلترا، واتفق الرأي على ذهاب العادل لمقابلة الملك الإنجليزي، وأن يمضي الملك العادل بحيث يجتمع بالعساكر الإسلامية التي في الغور وكوكب وتلك النواحي، وأن يذكر العادل للملك ريتشارد أن الحديث قد جرى بيننا مراراً، ولم يسفر عن مصلحة، فإن كانت هذه المرحلة من المفاوضات مثل المراحل السابقة، فلا حاجة إلى الحديث، وعلى الملك العادل ألا يبدأ المفاوضات إلا إذا كان هناك تقارب في وجهتي النظر، كما طلب صلاح الدين من أخيه العادل إطالة أمد المفاوضات إذا بدأت وأن يماطل الملك الإنجليزي حتى تصل العساكر الإسلامية من الأطراف إلى معسكر صلاح الدين. وفي الرابع من ربيع أول عام ٥٨٨ هـ/ العشرين من مارس ١١٩٢ م خرج العادل من القدس ومعه عرضاً للصلح محدداً يقضي بأنه يمكن للصليبيين أن يضموا إليهم مدينة بيروت إذا أصروا على طلبها بشرط أن تظل خراباً، ولا تعمر، وكذلك القابون، ويسلم لهم صليب الصلبوت، وأن يعين قسيساً من الفرنجة لكنيسة القيامة، ويفتح للصليبيين أبواب مدينة القدس للزيارة بشرط عدم حمل السلاح، وكان الدافع لهذه المقترحات الجديدة ما عاناه المسلمون من تعب في مواظبة الغزاة، وكثرة الديون والبعد عن الأوطان.

وزادت رغبة الملك ريتشارد في عقد الصلح والعودة إلى وطنه، عندما وصل إلى معسكره مبعوثاً قادماً من إنجلترا يخبره أن الأمير يوحنا شقيق الملك ريتشارد يتطلع إلى السلطة والسيطرة على إنجلترا ويطالبه باسم كبير وزراء إنجلترا بالعودة إلى البلاد. وقد أقلقت هذه الأخبار ريتشارد، يضاف إلى ذلك أنه في حوالي العشرين من مارس ١١٩٢ م/ الرابع من ربيع أول ٥٨٨ هـ قام هيو دوق برجانديا Hugh of Burgundy الذي كان يتولى قيادة ما تبقى من

القوات الفرنسية باستدعائها من معسكر ريتشارد لأن الملك لا يمد هذه القوات بالمواد الضرورية اللازمة للقتال. وفي الشهر التالي اغتيل كونراد كما سبق أن أوضحنا لتبدأ مرحلة أخرى من المفاوضات في ظروف تختلف عن الظروف السابقة، فقد اختفى كونراد عن مسرح السياسة الصليبية، والحالة في إنجلترا أصبحت حرجة وعلى الملك الإنجليزي إنهاء الحرب والعودة إلى بلاده.

المـرحلة السـادسـة

وكانت المرحلة السادسة والأخيرة من المفاوضات طويلة ومعقدة، فقد استمرت حوالي خمسة شهور، وموجز هذه الأحداث أن صلاح الدين عاد بعد معركة يافا إلى القدس ورتب أمورها وعزز استحكاماتها ثم عاد في اليوم نفسه وبات في النطرون حيث توافدت العساكر عليه، وأول من وصل إليه عسكر الموصل ثم العساكر المصرية. وفي الثالث عشر من شعبان ٥٨٨ هـ/ الرابع والعشرين من أكتوبر ١١٩٢ م تقدمت القوات الإسلامية ناشرة الأعلام والبيارق بقيادة صلاح الدين ونزلت مما يلي الرملة.

ولما رأى صلاح الدين أن العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال أن ملك الإنجليز قد مرض مرضاً شديداً، وأن القوات الفرنسية عازمة على الإبحار إلى أوروبا بعد أن قلت الأموال، وأرى أن نسير إلى يافا، وإن وجدنا فيها طمعاً بلغناه، وإلا عدنا تحت الليل إلى عسقلان وبالإمكان الاستيلاء عليها قبل وصول النجدات الصليبية إليها، وخلال هذه المرحلة كانت رسل الملك ريتشارد لا تنقطع في طلب الفاكهة والثلج. ويروي ابن شداد أن الله أوقع على الملك الإنجليزي في مرضه شهوة الكمثري والخوخ، وكان صلاح الدين يمده بذلك ويقصد من ذلك كشف الأخبار بتواتر الرسل. وقد علم صلاح الدين أن في يافا عسكر لا يزيد عدده عن ثلاثمائة فارس، وأن القوات الفرنسية عازمة على عبور البحر وأنهم رفضوا العناية بسور المدينة، وإنما اهتموا بعمارة سور القلعة. كما أن ريتشارد طلب الحاجب أبا بكر العادلي وكان له معه انبساط

عظيم، ولما علم صلاح الدين بأحوال يافا وبطلب الملك الإنجليزي، رحل إلى جهة الرملة.

وعند هذه المرحلة وصل الحاجب أبو بكر ومعه رسول من عند الملك ريتشارد يشكر صلاح الدين على إرسال الفاكهة والثلج. ويروي ابن شداد أن الحاجب أبا بكر ذكر أن الملك ريتشارد انفرد به وقال له «قل لإخي [يعني الملك العادل] يبصر كيف يتوصل إلى صلاح الدين في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا في هذه الشرذمة اليسيرة [يقصد بذلك الصليبيين المحليين] يأخذ البلاد منهم، فليس لي غرض إلا إقامة جاهي بين الفرنج. وإن لم يتنازل صلاح الدين عن عسقلان، فليدفع صلاح الدين للملك ريتشارد عوضاً عن عمارة سورها». ولما سمع صلاح الدين بذلك سيّر رسل الملك الإنجليزي إلى أخيه العادل، وأبلغ صلاح الدين أخيه العادل بأن يصالح الفرنج إذا تنازلوا عن عسقلان، لأن العساكر قد ضجرت من مواصلة القتال. ويفهم من ذلك أن الملك ريتشارد كان يلح في طلب الصلح حتى يعلو شأنه بين الصليبيين وملوك أوروبا والبابوية، وأن صلاح الدين كان راغباً في الصلح أيضاً بعد ما استمر القتال بينه وبين الصليبيين المحليين وقوات الحملة الثالثة حوالي خمسة عشر شهراً.

وفي السابع عشر من شعبان ٥٨٨ هـ/ الثامن والعشرين من أكتوبر ١١٩٢ م وصل من عند الملك ريتشارد الرسل تفيد أن ريتشارد تنازل عن شرط عسقلان وعن طلب العوض عنها، وبذلك أزيلت العقبة التي كانت تقف في سبيل الصلح. ويدل ذلك على إصرار الملك ريتشارد على عقد الصلح بعد ما طالت غيبته عن بلاده وأصبح يخشى المؤامرة على عرش إنجلترا.

وفي الثاني والعشرين من شعبان ٥٨٨ هـ/ الثاني من سبتمبر ١١٩٢ م كانت معاهدة الصلح المعروفة باسم صلح الرملة قد وضعت في صورتها النهائية وتقضي المعاهدة بأن تكون الهدنة لمدة ثلاث سنوات كما روى ابن شداد،

وثلاث سنوات وثمانية أشهر على حد قول ابن الأثير. أما البلاد التي نصت عليها لتكون مع الصليبيين فهي يافا وعملها، وقيسارية وعملها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها وأخرج منها الناصرة وصفورية، ومناصفة اللد والرملة بين المسلمين والصليبيين، وبذلك يكون الصليبيين قد احتفظوا بالبلاد الساحلية من صور حتى يافا. كما تم الاتفاق أيضاً على تخريب مدينة عسقلان، وأن يكون للصليبيين حرية الذهاب إلى بيت المقدس للحج، وللمسلمين أيضاً الحق في دخول البلاد التي امتلكها الصليبيون. كما وافقت إمارتي إنطاكية وطرابلس على شروط الصلح ورضي الداوية والاسبتارية وسائر مقدمي الإفرنج بمعاهدة الصلح.

ومن الواضح أن صلح الرملة قد أنهى أعمال الحملة الصليبية الثالثة رحل بعدها ريتشارد إلى بلاده ولكنه وقع في الأسر قرب مدينة فيينا وسلم إلى ليوبولد دوق النمسا ثم سلم إلى الامبراطور هنري السادس ولم يطلق سراحه إلا في شهر مارس ١١٩٤ م. ومما لا شك فيه أن صلح الرملة قد قوبل بالارتياح من الجانب الإسلامي والصليبي بعد أن مل الطرفان القتال الذي طال أمده دون الوصول إلى نتائج حاسمة.

الفصل الخامس
أحوال الشرق والغرب
حتى قدوم الحملة الخامسة

أحوال مصر والشام

إن نظرة مدققة إلى أحوال مصر والشرق الأدنى الإسلامي وقتذاك تبين أن الفترة منذ وفاة صلاح الدين حتى استيلاء العادل على مصر كانت فترة معقدة مليئة بالتواريخ والأسماء والوقائع والأحداث التي أشارت إليها المصادر العربية بالتفصيل. وقد تخللتها المناورات والصراعات والضغائن والأهواء. ونعرف أنه بعد وفاة صلاح الدين في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣ م) قسمت مملكته بين أولاده وأخوته فكان من نصيب ابنه الأكبر الأفضل دمشق والساحل وبيت المقدس وصرخد وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم، بالإضافة إلى بصرى التي كانت بيد ابنه الملك الظافر خضر وهو في خدمة أخيه الأفضل. أما الملك المجاهد أسد الدين شيركوه فتولى حمص والرحبة كما حكم الملك الأمجد بعلبك وكلاهما في خدمة الملك الأفضل أيضاً. وتولى حكم مصر الملك العزيز بن صلاح الدين حيث كان بها عند وفاة أبيه فاستولى عليها، وفيما يختص بابنه الملك الظاهر غازي فقد أخذ حلب وجميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وأعزاز وبروزيه ودربساك ومنبج وغير ذلك، وأقام محمود بن تقي الدين على حماه وهو في خدمة عمه الظاهر. وإذ كان ذلك ما آل لأولاد صلاح الدين من بعده، فقد اختص أخوه الملك العزيز سيف الإسلام باليمن، ولم يظفر العادل من هذه التركة إلا بالكرك والشوبك والرها وسميساط والرقة وقلعة جعبر وديار بكر وميافارقين. وتوزعت باقي البلاد والحصون على جماعة من أمراء الدولة الأيوبية.

ويهمنا في هذا الموضع من البحث، الملك العادل الذي تمكن من بسط نفوذه على معظم أملاك أخيه وتولى حكم المملكة الأيوبية. فقد كان العادل يرى أن الإقطاعات التي يحكمها لا تتناسب مع أهميته ونضاله باعتباره رفيق صلاح الدين في الكفاح ضد الصليبيين. كما أن العادل لم يكن بالذي يتوقف في مكانه تاركاً الحوادث تسير على هواها. ولاحت له الفرصة عندما بدأ الخلاف يدب، بين أولاد أخيه الأفضل والعزيز، إذ استهل الأفضل حكمه بإبعاد أكابر أمراء أبيه وأصحابه وأقبل على اللهو والشراب تاركاً الأمور لوزيره ضياء الدين بن الأثير - أخو المؤرخ عز الدين ابن الأثير - فأساء التصرف في أمور الرعية، كما زين للأفضل التنازل عن بيت المقدس لإخيه العزيز لأنها «تحتاج إلى أموال ورجال وكلفة عظيمة» فسر بذلك العزيز وشكر الأفضل. ولكن ولاة القدس خافوا من محاسبة العزيز لهم فاتفقوا مع الأفضل على بقاء القدس بأيديهم دون الحاجة إلى أموال منه، فوافق وكتب إلى أخيه بذلك «فتغير لذلك الملك العزيز وتكدر باطنه». وبدأت العلاقات تسوء بين الإخوين. وزين الأمراء الصلاحية للعزيز الاستيلاء على دمشق خاصة بعد ما سلم متولي مدينة جبيل المدينة للصليبيين نظير ما بذلوه له من المال، وتعذر على الأفضل استرداد المدينة مرة أخرى. وعندما تحقق للأفضل قصد أخيه كاتبه يسترضيه ويعرض عليه أن تكون الخطبة والسكة باسمه ولكن وزيره ضياء الدين حرضه عليه وشجعه على قتاله فخرج الأفضل لملاقاته واستنجد بآل البيت الأيوبي وبعمه العادل لثقته به، ولكن العزيز لم يمهله وفاجأه وهو نازل على الفوار وكاد ينتصر عليه، فأسرع الأفضل وعاد إلى دمشق فدخلها في الخامس من جمادي الآخرة سنة ٥٩٠ هـ (٢٨ مايو ١١٩٤ م). وتحين العادل هذه الفرصة بالتوسط في الصلح بين الإخوين وتقابل مع العزيز في صحراء المزة غربي دمشق وعقد الصلح بينهما على أن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ويأخذ العزيز مدينة بيت المقدس وما جاورها من أعمال فلسطين ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية وذلك علاوة على ما بأيديهما فعلاً. وكللت هذه التسوية بأن طيب

العادل نفس العزيز وزوجه إحدى بناته، وبذلك أثبت العادل أنه الرجل العاقل الذي يحافظ على مصالح البيت الأيوبي والمسلمين.

ولم ينته الصراع بهذه التسوية لأن بعض الأمراء وعلى رأسهم فخر الدين جهاركس، مقدم الفرقة الصلاحية، وهو الحاكم في الدولة، كانوا لا يزالون يوغرون صدر العزيز على أخيه الأفضل ويزينوا له الاستيلاء على دمشق، لذلك خرج العزيز في العام التالي ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) قاصداً الشام. ولم يكن أمام الأفضل إلا الاستنجاد بعمه العادل وأخيه الظاهر، وتم الاتفاق بين الثلاثة على أن يملك الأفضل مصر ويملك العادل دمشق، ولما علم العزيز بذلك الاتفاق عاد مسرعاً إلى مصر مما سهل على الأفضل والعادل الاستيلاء على بيت المقدس ثم اتخذا طريقهما إلى مصر ليتسلمها الأفضل. ورغم هذا فقد كان العادل يشك في نوايا الأفضل ويخشى استيلاؤه على مصر ولا يسلمه دمشق، لذلك بادر بمراسلة العزيز سراً وهما في طريقهما إلى مصر يتعهد له بعدم انتزاعها منه. وما أن وصل إلى مدينة بلبيس حتى بدأ العادل ينفذ ما وعد به العزيز فمنع الأفضل من القتال أو التقدم إلى مصر حرصاً على وحدة البيت الأيوبي وحقناً للدماء. وفي نفس الوقت أرسل إلى العزيز سراً مرة أخرى يطلب منه إرسال القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني للتوسط في الصلح، ونفذ العادل ما أراد وتم الصلح وبمقتضاه يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وأن يقيم العادل بمصر. وقد اختار العادل البقاء بمصر لكراهية الفرقة الأسدية للعزيز وانحيازهم إلى جانبه وبذلك يضمن مساعدتهم له في تنفيذ خطته وحكم الديار الأيوبية مستغلاً الخلافات بين أولاد صلاح الدين والهدنة المعقودة مع الصليبيين بمقتضى صلح الرملة الذي ينتهي في شهر محرم عام ٥٩٢ هـ (ديسمبر ١١٩٥ م).

وأثناء إقامة العادل بمصر أشار العزيز عليه بضرورة الاستيلاء على دمشق وتسليمها له، خاصة وأن الأفضل تمادى في إهمال شؤون الرعية، فضلاً عن استبداد ضياء الدين بالحكم الذي كان له أسوأ الأثر في نفوس أهل الشام حتى

ضجوا بالإثنين معاً. ولم يكن العادل بالذي يتراخى في تنفيذ ما أشار به العزيز فخرجا إلى دمشق واستوليا عليها في السادس والعشرين من شهر رجب ٥٩٢ هـ (٢٥ يونيه ١١٩٦ م)، وأخذ العزيز لنفسه لقب السلطنة واستناب عنه العادل في حكم دمشق، وأمر بنقل الأفضل إلى صرخد. ولكن الحوادث أسفرت بعد قليل عن استيلاء العادل على دمشق وعودة العزيز إلى مصر.

وكانت الإمارات الصليبية بالشام وقتها على علم بهذه المنازعات، كما أنها أعطت الفرصة الى هنري أف شامبانيا Henry of Champagne حاكم المملكة الصليبية في عكا (١١٩٢ ـ ١١٩٧ م) أن يعيد إلى مملكته قدراً من الأمن والطمأنينه. ثم أن هذا الصراع لم يكن أيضاً خافياً عن الغرب الأوروبي مما أغرى هنري السادس إمبراطور المانيا (١١٩٠ ـ ١١٩٧ م) وهو من أشد المتحمسين للحرب الصليبية إلى العمل على استعادة بيت المقدس وتحقيق أطماعه الواسعة بإخضاع الشرق اللاتيني والامبراطورية البيزنطية للامبراطورية العالمية المقدسة في الغرب، فأعد حملة صليبية لهذا الغرض بقيادة كونراد رئيس أساقفة مينز Mainz وأدولف Adolf كونت هولشتين Holestein وقد وصلت طلائع هذه الحملة إلى عكا في أغسطس ١١٩٧ م (شوال ٥٩٤ هـ) وبذلك تعكر صفو السلام النسبي الذي كان سائداً بين المسلمين والصليبيين. وكان وصول هذه الحملة في الوقت الذي كان يرى فيه هنري أف شامبانيا أتباع سياسة التفرقة بين آل البيت الأيوبي بدلاً من سياسة الحرب. وعلى أية حال تقدمت الحملة بدون إذن — هنري من عكا إلى الجليل للإغارة عليها. ولكن العادل تمكن من رد القوات المغيرة ثانية إلى عكا كما تمكن من الاستيلاء على يافا في شوال ٥٩٣ هـ (أغسطس ـ سبتمبر ١١٩٧ م) وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم.

وبينما هذه الحوادث تسير في مجراها مات هنري أف شامبانيا في عكا في العاشر من سبتمبر ١١٩٧ م فوقعت المملكة الصليبية في ذعر شديد بحيث تعذر عليها استعادة مدينة يافا التي كان المسلمون قد استولوا عليها. وأنقذ

الموقف بزواج إيزابيلا Isabella أرملة هنري من عموري الثاني ملك قبرص (١١٩٧ ـ ١٢٠٥ م) وبذلك تم توحيد المملكتين.

وفيما يتعلق بنشاط الحملة الألمانية بعد ذلك فقد كان محدوداً، إذ اقتصر على بعض الاشتباكات بين الطرفين وعلى هجوم المسلمين على مدينتي صور وصيدا وسقوط بيروت في يد الصليبيين، ثم توقف نشاطها بعد ذلك بسبب وفاة الامبراطور هنرى السادس وقرر زعماؤها العودة إلى أوروبا في نفس الوقت الذي تدفقت فيه العساكر الإسلامية من مصر على الشام فساد الذعر بين صفوف القوات الألمانية فأسرعت بالرحيل. وعقب مغادرة الصليبيين سواحل الشام شرع عموري في إجراء مفاوضات مع العادل انتهت بعقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين في الرابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩٤ هـ (أول يوليو ١١٩٨ م) وبمقتضاها تكون يافا للمسلمين وجبيل وبيروت للصليبيين واقتسام صيدا بين الطرفين.

وبعد توقيع الهدنة بخمسة أشهر مرت الدولة الأيوبية ببعض الحوادث المتلاحقة أدت إلى توحيد الدولة الأيوبية مرة أخرى تحت قيادة العادل، فقد توفي العزيز في العشرين من شهر محرم سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ نوفمبر ١١٩٨ م)، وكان ابنه الأكبر المنصور ناصر الدين لا يزال في العاشرة من عمره. وكان الأمر يتطلب وصياً على الملك الصغير فاتفقت الأسدية على تولية الأفضل كما اتفقت الصلاحية على تولية العادل. وأرسل أزكش للأفضل يخبره بما تم الاتفاق عليه، وفي نفس الوقت أرسل جهاركس للعادل يطلب منه الحضور إلى مصر. وعلم الأفضل بذلك قبل العادل كما التقى برسول الصلاحية قبل أن يصل للعادل. وكانت فرصة لا تعوض بالنسبة للأفضل فأسرع إلى مصر ووصل بلبيس في السابع من شهر ربيع الأول من نفس العام مما جعل فخر الدين جهاركس يخاف على نفسه وينتحل الأعذار ليغادر البلاد. وبالفعل اتجه إلى بيت المقدس وتقابل مع جماعة من أعوانه وأرسل للعادل الذي كان يحاصر ماردين وأبلغوه بما انتهت إليه الحوادث.

وفي الوقت الذي كان يدبر فيه فخر الدين جهاركس وأعوانه أمر استدعاء العادل لحكم مصر زين الأمراء الأسدية للأفضل - الذي مالوا إليه في هذا الوقت - الخروج إلى دمشق، فخرج إليها في الثالث من شهر رجب من نفس العام أيضاً، ولما علم العادل بذلك ترك ابنه الكامل على حصار ماردين وعاد مسرعاً إلى دمشق فدخلها في الحادي عشر من شعبان (٨ يونيه) وتمكن الأفضل من دخولها أيضاً بعد يومين، وأخذ كل منهما يعزز قواته عساه أن يحقق النصر على الطرف الآخر. وفي النهاية تمكن العادل من هزيمة الأفضل مما اضطره للخروج من دمشق، وانتهت هذه الجولة بعودة الأفضل إلى مصر. ولكنها لم تنه أطماع العادل في حكم أملاك أخيه، لذلك أخذ يستعد للاستيلاء على مصر ليكون وصياً على الملك القاصر ويصير الأمر كله بيده. وعلم الأفضل بذلك فبدأ يستعد هو الآخر لمحاربة عمه ودفعه عن مصر. ولكن العادل أتى مسرعاً إلى مصر وهزم الأفضل في السابع من ربيع الآخر عام ٥٩٦ هـ (أواخر يناير ١٢٠٠ م)، وعلى ذلك لم يجد الأفضل طريقاً أمامه غير الصلح بعد ما رأى تخاذل أعوانه، وانتهى الأمر بالاتفاق بين الطرفين على أن يكون للأفضل ميافارقين وحاني وجبل جور بالإضافة إلى صرخد. وغادر الأفضل مصر إلى الشام ولكن الأوحد نجم الدين بن الملك العادل لم يسلمه ميافارقين وسلم إليه ما عداها.

وهكذا أصبح العادل مسيطراً تقريباً على معظم الممالك الأيوبية، ولكنه لم يقتنع بهذا الوضع، لذلك أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم «أنه قبيح بي أن أكون أتابك صبي صغير، مع التقدم والشيخوخة» وكان العادل يقصد من وراء ذلك خلع الملك المنصور وتولي حكم مصر. وفعلاً تم الاتفاق على خلعه وتمت الخطبة للعادل في الحادي عشر من شوال ٥٩٦ هـ (٢٥ يوليو ١١٩٩ م). وأعقب ذلك قيام العادل بإخراج الملك المعزول ومعه والدته وأخوته إلى الشام، فأقام بحلب عند عمه الظاهر.

ومع بداية حكم العادل لمصر واجهته بعض المتاعب الاقتصادية بسبب قلة الفيضان وندرة الأقوات، وتزايد الأسعار وعظم الغلاء إذ بلغ ثمن أردب القمح خمسة دنانير. وقد أدى ذلك إلى هجرة عدد كبير من مصر إلى الشام وظل الحال على هذا طوال ثلاث سنوات، فكان الناس يموتون جوعاً في الشوارع، وبلغ من كفنهم العادل مائة وعشرين ألف نسمة.

وبينما كان العادل يواجه هذه المصاعب الاقتصادية في مصر اتفق الأفضل والظاهر على حصار دمشق ولكن العادل أسرع إليهما وظلت المناوشات والاشتباكات بين الأطراف المتصارعة حتى نهاية عام ٥٩٧ هـ (سبتمبر ١٢٠١ م) اتبع خلالها العادل سياسة الإيقاع بين الأخوين حتى سيطر على الموقف، وأسفرت الحوادث عن حكم الأفضل لسميساط وسروج ورأس العين وغيرها ورحل الإخوان من دمشق في أول المحرم سنة ٥٩٨ هـ (أول أكتوبر ١٢٠١ م) وبذلك أصبح العادل حاكماً لمصر ودمشق وبيت المقدس بالإضافة إلى أملاكه في الشرق.

وما أن استتب الأمر للملك العادل سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠١ - ١٢٠٢ م) حتى بدأ في إعادة تنظيم المملكة بعد التفكك الذي انتابها أثر وفاة صلاح الدين، فولى ابنه الأكبر الكامل محمد حكم مصر نيابة عنه. كما أناب عنه المعظم عيسى ثاني أبنائه في حكم دمشق، بينما تولى ابنه الثالث الأشرف موسى حران والرها وابنه الرابع الأوحد نجم الدين ميافارقين، واستقر بقلعة جعبر ابنه الحافظ نور الدين، في حين بقي الظاهر في حلب والأفضل في سميساط وأعمالها وهما تابعين له أما المنصور ابن العزيز - ملك مصر السابق - فقد أقطعه العادل حماة وأعمالها

وبصرف النظر عن هذه الصراعات التي قامت بين أفراد البيت الأيوبي والآثار التي ترتبت عليها، فقد تميز عهد العادل بسياسة الدفاع عن مملكته ضد

الصليبين، ولم يأخذ بسياسة الهجوم لأنه كان يرى أن الهجوم على ممتلكات الصليبيين في الشام ربما يؤدي إلى قيام حملة صليبية جديدة، قد تكون عواقبها غير مضمونة في الوقت الذي انشغل فيه بأموره الداخلية. لذلك نجده لا يمانع في عقد هدنة جديدة مع الصليبيين كلما انقضت مدة الهدنة السابقة. ومما هو جدير بالذكر أن العادل لم يكن أقل من غيره من أمراء البيت الأيوبي حرصاً على الجهاد ضد الصليبيين على الرغم من سياسة المهادنة التي انتهجها حيال الصليبيين في بداية حكمه والتي كان لها مبرراتها وقتها. ولذلك فإن الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين كانت لا تكاد تنقطع طوال الفترة السابقة للحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ٦١٥ ـ ٦١٨ هـ (١٢١٨ ـ ١٢٢١ م).

ومن هذه الاشتباكات ما حدث عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م) عندما أتى إلى الشام كثير من الصليبيين حيث نزلوا بعكا متشجعين بامتلاك إخوانهم الصليبيين لمدينة القسطنطينية في نفس العام. وكانوا عازمين على الاستيلاء على مدينة بيت المقدس وأخذها من المسلمين، فقاموا بأعمال النهب والسبي بنواحي الأردن. وكان العادل حينذاك بدمشق فخرج منها واتجه إلى جبل الطور الذي يقع في الجنوب الشرقي من عكا ليمنع الصليبيين من التقدم إلى الممتلكات الإسلامية. وأرسل في نفس الوقت يطلب النجدة من مصر ومن كافة البلاد الإسلامية، فوصلت إليه من كل ناحية في الوقت الذي أغار فيه الصليبيون على كفركنا، وأسروا من كان هناك، وسبوا ونهبوا. ولم يطق الأمراء الذين كانوا مع العادل صبراً إزاء تلك الأعمال فأخذوا يحثونه على الهجوم على الممتلكات الصليبية. ولكن العادل المسالم لم يوافق الأمراء على رأيهم. وظل الحال على هذا المنوال والعادل قبالتهم مرابط لهم، والرسل مترددة بينهم وبينه في الصلح، وأخيراً تم الصلح وتقررت الهدنة بين الطرفين. وفي هذه المرة أيضاً لم تشر المصادر العربية إلى مدة الهدنة، بينما ذكرت المصادر الأجنبية أن مدتها كانت ست سنوات. ويستشفى هذا الصلح أصبحت يافا للصليبيين وتنازل

العادل عن النصف الخاص بالمسلمين في اللد والرملة. ويضيف ابن الأثير أن العادل أعطى لهم الناصرة وغيرها.

وربما يكون الملك عموري هو الذي سعى إلى هذا الصلح بعد ما ذهب بعض الفرسان الصليبيين إلى القسطنطينية طمعاً في امتلاك أراضيها في الوقت الذي كان فيه العادل حريصاً على إنهاء القتال بسبب تفوق البحرية الصليبية التي أعاقت حركة التجارة بين مصر والممتلكات الإسلامية في الشام. وعلى أية حال فقد عاد العادل بعد توقيع الهدنة إلى مصر.

وكان ما توقعه العادل من تفوق البحرية الصليبية قد تجلى في الهجوم على مصر، ففي شهر شوال سنة ٦٠٠ هـ (يونيه ١٢٠٤ م) دخلت عشرون سفينة صليبية فرع رشيد وتوغلت حتى وصلت إلى مدينة فوة، فسلبها ونهبها الصليبيون وأقاموا بها «يسبون». ولم ينج من بطشهم إلا من استطاع الهرب، وأسرعت العساكر المصرية وعسكرت في الضفة المقابلة لهم على النيل، ولكنها لم تستطع الاشتباك مع الصليبيين «لعدم وجود الأسطول العادلي». وعاد الأسطول الصليبي بعد خمسة أيام من «حيث دخل غانماً سالماً». وربما ترجع أسباب هذه الغارة إلى أن الملك عموري حاول أن يحافظ على مكانته الصليبية بعد فشل الحملة الصليبية الرابعة وانحرافها إلى القسطنطينية وكان المفروض أن تقوم بالهجوم على مصر تحقيقاً للأطماع الصليبية في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي. ويحتمل أيضاً أن تكون للانتقام من المسلمين بسبب الاعتداء الذي قام به والي صيدا المسلم على سفن الصليبيين من قبل. وربما كانت غارة استكشافية تمهيداً لفتح الديار المصرية.

لم تنقطع المناوشات كذلك في أعالي الشام بين المسلمين والصليبيين. وكان يتزعم هذه الغارات فرسان الاسبتارية في كل من حصن الأكراد وحصن المرقب، ضد الملك المنصور صاحب حماة ليجبروه على تسليم حصن بعرين، ولكنهم هزموا مرتين في عام ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) مما اضطرهم إلى توقيع الهدنة. ثم غادوا مرة أخرى في العام التالي للانتقام وأغاروا على حماة

خاصة وأن هدنتهم مع الملك المنصور كانت قد انقضت، وفي هذه المرة انضم إلى الاسبتارية عدد كبير من الصليبيين وقاموا بأعمال النهب والقتل والسلب وعادوا إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبايا. وفي نفس الوقت أغار الصليبيون في طرابلس على جبلة واللاذقية وحمص وفعلوا بتلك البلاد مثلما فعلو بحماة. وإزاء هذه الغارات قامت قوات الملك الظاهر صاحب حمص بهجوم كبير على حصن المرقب وكادوا يستولون عليه بعد أن هدموا برجه ثم عادوا محملين بالغنائم.

كما شاركت مملكة أرمينية الصليبية في الهجوم على الممتلكات الإسلامية، وهو امتداد لنفس الدور الذي قامت به منذ بداية الحركة الصليبية في أخريات القرن الخامس الهجري (أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) عندما بادرت بمساعدة الصليبيين في الحملة الصليبية الأولى ضد المسلمين. وفي هذه المرة قام ملكها ليو الثاني Leon II (١١٨٧ - ١٢١٩ م) بالهجوم على حلب «فنهب وحرق وأسر وسبى»، وجمع الظاهر عساكره كما أرسل في طلب النجدة فتوافدت عليه القوات وتقدم لملاقاة ليو، وجعل على رأس جيشه ميمون القصري. وعسكر ليو في موقع حصين يتعذر الوصول إليه إلا عن طريق جبال وعرة. وأمر الظاهر قائدة ميمون بإرسال المؤن والسلاح إلى حصن دربساك القريب من معسكرهم ليتمكن من الصمود أمام قوات ليو، نفذ ميمون ما طلب منه وأرسل مع هذه المؤن والأسلحة أكثر عساكره، وبقي معه العدد القليل. وعلم ليو بهذه الخطة فلم يهاجم القوات الرئيسية بل هجم على ميمون وعلى من تبقى معه من العسكر واشتد القتال بين الفريقين وسقط عدد كبير من القتلى من كلا الجانبين وانتهت المعركة بهزيمة ميمون وعودة ليو وقواته محملين بالغنائم، وأثناء عودتهم التقى بالقوات التي كانت في طريقها إلى حصن دربساك فهزموها أيضاً وقفلوا عائدين إلى بلادهم.

ويروي ابن الجوزي أن الملك الظاهر خرج من حلب ونزل إلى مرج دابق واتجه إلى حارم وهزم الملك ليو وقام بتخريب قلعة دربساك. أما ابن

واصل فيؤكد هزيمة المسلمين ويروى أن الملك الظاهر حاول التحالف مع بوهمند الرابع Bohemond IV أمير إنطاكية وطرابلس (١١٨٧ - ١٢٣٣ م) على أن يمده بعشرة الآف رجل ويقصدون معاً ممتلكات ليو في أرمينية بهدف «استئصال شأفته». ولكن ليو علم بهذه الاتصالات فبادر بإرسال الأسرى الذين عنده إلى الظاهر وتم الصلح بينهما.

وتجددت الاشتباكات مرة أخرى في أوائل عام ٦٠٣ هـ (أواخر ١٢٠٦ م) عندما زحف الصليبيون تجاه حمص وأغاروا عليها، فأرسل الظاهر لنجدتها المبارز يوسف بن خطلخ. ووصل الخبر إلى العادل بمصر كما بلغه أمر مغادرة الصليبيين في حصن الأكراد وطرابلس وإغارتهم على حمص فأسرع إلى الشام. ويروي ابن الأثير أن خروج العادل من مصر قاصداً الشام كان بسبب استيلاء القبارصة على بعض قطع الأسطول المصري وأسر من فيها. وتقاعس جان دبلين Jean D'Ibelin سيد بيروت والوصي على مملكة بيت المقدس (١٢٠٥ - ١٢١٠ م) عن رد الأسرى بحجة عدم خضوع مملكة قبرص له. وعلى أية حال، فقد خرج العادل من مصر واتجه إلى عكا فصالحه أهلها وأطلقوا سراح من عندهم من أسرى المسلمين، وتوجه بعد ذلك إلى دمشق وأعد العدة للجهاد. ومنها ذهب إلى بحيرة قدس حيث صام رمضان ٦٠٣ هـ (إبريل ١٢٠٧ م)، ثم أغار على حصن الأكراد وفتح برج أعناز وأسر منه خمسمائة شخص بالإضافة إلى الأموال والسلاح. ثم هاجم بعض القلاع القريبة من طرابلس وأخذها صلحاً ثم خربها بعد أن حصل على ما فيها من الدواب والسلاح، وأغار بعد ذلك على طرابلس «فنهب وأحرق وسبى وغنم» وعاد بعد هذه العمليات الناجحة إلى بحيرة قدس مرة أخرى في أوائل ذي الحجة من نفس السنة (أواخر يونيه ١٢٠٧ م).

وقد أدت هذه الغارات إلى انزعاج بوهمند الرابع فأرسل إلى العادل «يلتمس الصلح، وسير مالاً وثلاثمائة أسير وعدة هدايا». ووافق العادل على عقد الصلح بعد أن ملت عساكره من طول القتال.

وكيفما كان الأمر، فبعد أن تقرر الصلح بين العادل وبوهمند عاد العادل إلى جبل الطور المطل على الناصرة، وطلب من ابنه المعظم إقامة قلعة على هذا الجبل لتكون بمثابة خط دفاع أمامي ضد الجبهة الصليبية. فشرع في بنائها وجلب إليها الصناع من كل البلاد وباشر عملية البناء في وجود أبيه. وساهمت العساكر في عملية البناء ونقل الحجارة، وكان يعمل بها خمسمائة من البنائين بخلاف الفعلة والنحاتين، وأنفق عليها الكثير من الأموال. وظل العمل في بناء القلعة إلى قبيل وفاة العادل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) وأصبحت قلعة منيعة مزودة بالرجال والسلاح.

وجدير بالذكر أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين كانت قد انتهت في شهر المحرم من سنة ٦٠٧ هـ (يوليو ١٢١٠ م) أثناء بناء قلعة الطور وقبل وصول جاي دي برين ـ الملك الأسمى الجديد لمملكة بيت المقدس ـ بشهرين. وأرسل العادل إلى عكا يطلب تجديد الهدنة. ولم تتفق جماعة الفرسان الاسبتارية والداوية على رأي في هذا الموضوع بسبب مشكلة الوراثة في إنطاكية، إذ رأت جماعة الداوية عدم تجديد الهدنة حتى لا يرتبط الملك المنتظر بسياسة معينة. وترتب على ذلك أن قامت المناوشات الحربية بين الطرفين، وفزع الصليبيون عندما رأوا العادل يقوم بعمارة حصن الطور واضطروا للموافقة على عقد الهدنة لمدة خمس سنوات وكان ذلك بعد وصول جان دي برين إلى عكا. وأرسل الملك الجديد في هذا الوقت رسالة إلى بابا روما أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ ـ ١٢١٦ م) يطلب منه العمل على إعداد حملة صليبية تكون مستعدة للوصول إلى فلسطين عند انقضاء أجل الهدنة.

وجدير بالذكر أن جزيرة قبرص التي كانت في قبضة اللاتين وقتذاك، قد ساهمت هي الأخرى في الإغارة على ممتلكات المسلمين. إذ حدث في أوائل عام ٦٠٨ هـ (يونيه ١٢١١ م) أن أغار ولتر أف مونتبليارد Walter of Montbeliard على دمياط. وولتر هذا هو الوصي السابق عل عرش قبرص وتذكره المراجع العربية باسم البال القبرصي، ونزل بألف ومائة من الفرسان

والجنود، ووصل حتى قرية بورة وهاجمها فجراً وسبى أهلها واستولى على ذخائرها. وعندما بلغ الخبر أهل دمياط توجهوا إليه ولكنه عاد مسرعاً إلى سفينة «وامتنع عن طالبه» ووصل بالأسرى والغنائم إلى عكا وكانت هذه الغارة شأنها شأن غيرها من الغارات السابقة قليلة الجدوى وغير فعالة ومما تجدر الإشارة إليه أنها تمت بموافقة جان دي برين

ورغم الهدنة المعقودة بين المسلمين والصليبيين فإن الصليبيين من قبرص وعكا وطرابلس وإنطاكية اجتمعوا بالإضافة إلى ما انضم إليهم من قوات أرمينية لقصد بلاد المسلمين بسبب قتل الإسماعيلية ريموند بن بوهمند الرابع صاحب إنطاكية وطرابلس فحاصروا حصن الخوابي عام ١٢١٤ م (٦١١ هـ) حصاراً شديداً، فخرج الظاهر للدفاع عن الحصن وفك الحصار وبدأ في إرسال النجدات إلى الحصن، كما أرسل إلى الصليبيين يعلمهم أنه لن يمكنهم من الإسماعيلية، فرحلوا إلى إنطاكية بعد ما أخذوا منهم حوالي ثلاثمائة أسير. وعقد الصلح بين الإسماعيلية والصليبيين بعد تدخل ووساطة الملك الظاهر

لعلنا نلمس مما سبق أن الفترة منذ وفاة صلاح الدين كانت فترة معقدة مضطربة فهي عبارة عن مناورات وصراع بين خلفاء مؤسس الأسرة الأيوبية من أبنائه وإخوته. واستمر الصراع والخلاف بين العادل وأفراد أسرته عدة سنوات عمل فيها جاهداً على إعادة تشييد مملكة أخيه الأمر الذي شغله بعض الشيء من مواجهة الصليبيين ولكن بعد أن استقر له الأمر بدأت فترة من المناورات والمصادمات بين المسلمين والصليبيين في مصر والشام امتدت بضع سنوات، ولم تكن بينهما هجمات حاسمة بالمعنى المفهوم في الوقت الذي كانت فيه سياسة العادل ترمي إلى الدفاع دون الهجوم تجنباً لأي حرب كبيرة قد تكون عواقبها في غير صالح المسلمين، وحتى تتهيأ له فترة من الأمن والهدوء والاستقرار تمكنه من تحصين دولته والعمل على حمايتها من مفاجآت الفرنجة وشر هجومهم عليها وقد صح ما توقعه فقد كان الغرب اللاتيني والصليبيون في

الشام يستعدون لحملة صليبية كبيرة كانت مصر وجهتها هذه المرة.

احوال الإمارات الصليبية

وإذا كانت أحوال مصر والشام قبيل حملة جان دي برين تمكنها من مواجهة الصليبيين بعد أن استتب الأمر للعادل، فإذا كانت أحوال الإمارات الصليبية بالشام؟. هل كانت ظروفها الداخلية والخارجية تساعدها على القيام أو المساهمة في حرب صليبية جديدة تضاف إلى زميلاتها من الحملات التي تعرضت لها بلاد الشام أو مصر منذ أخريات القرن الحادي عشر الميلادي (أواخر القرن الخامس الهجري) بهدف الاستيلاء على مزيد من الممتلكات الإسلامية أو الاستحواذ على مدينة بيت المقدس بعد أن استردها المسلمون؟.

كان يحكم مملكة بيت المقدس الإسمية في أخريات القرن الثاني عشر الميلادي هنري كونت شامبانيا. وبعد أن لقي مصرعه تزوجت أرملته إيزابيلا من عموري الثاني ملك قبرص، وبذلك تم توحيد عرش قبرص ومملكة بيت المقدس ولكن هذا التوحيد لم يشمل سوى العرش والسياسة الخارجية فقط. وفيما يتعلق بالناحيتين الإدارية والاقتصادية فقد أعلن عموري في بداية الأمر أن المملكتين ستكونان تحت إدارتين منفصلتين، وأن أموال قبرص لا تنفق من أجل الدفاع عن مملكة بيت المقدس. ومن الملاحظ أنه في نفس العام الذي تولى فيه عموري عرش مملكة بيت المقدس تجددت الهدنة بين المسلمين والصليبيين. واحترم عموري الهدنة، ولم يقم بأي عمل من شأنه استفزاز المسلمين حتى تصل الحملة المرتقبة التي دعا إليها البابا أنوسنت الثالث سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ ـ ٥٩٥ هـ) وهو نفس العام الذي اعتلى فيه الكرسي البابوي. لكل هذا لم يوافق عموري الفرسان الفلمنكيين الثلاثمائة الذين أتوا إلى عكا في عام ١٢٠٢ م (٥٩٨ ـ ٥٩٩ هـ)، والجموع الفرنسية القليلة التي لحقت بهم في مطلع العام التالي، لم يوافقهم على مهاجمة المسلمين لقلة عددهم وحتى يدخر قواته لعمل عسكري شامل كان يعد العدة له. فاتجه فريق منهم إلى إنطاكية حيث دخلوا في خدمة أميرها بوهمند، وكانت إنطاكية آنذاك في حالة

حرب مع ليو الثاني ملك أرمينية بسبب مشكلة الوراثة على عرش إنطاكية.

وبعد عقد الهدنة بين المسلمين والصليبيين مرة أخرى عام ٦٠٠ هـ (١٢٠٤ م)، لمدة ست سنوات لم يعش عموري طويلاً، إذ مات في أول إبريل عام ١٢٠٥ م (٩ شعبان ٥٠١ هـ) كما ماتت أرملته إيزابيلا وابنه الطفل عموري الثالث في نفس العام أيضاً، وأصبحت ماريا Maria الابنة الكبرى لإيزابيلا من كونراد أف مونتفرات Conrad of Montferrat وريثة للعرش، وتقرر تعيين جان دبلين سيد بيروت وصياً عليها. وعندما بلغت الملكة ماريا السابعة عشر من عمرها في عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ ـ ٦٠٥ م) أصبح الأمر يتطلب البحث لها عن زوج مناسب يتولى حكم مملكة بيت المقدس. فأرسل الوصي عليها إلى فيليب أوغسطس Philippe Auguste ملك فرنسا (١١٨٠ ـ ١١٢٣ م) سفارة مكونة من إيماردي لايرون Aymas de Layron سيد قيسارية وجوتيه الفلورنسي Gautier de Florence أسقف عكا لترشيح من يراه مناسباً زوجاً لها، ووقع اختيار الملك الفرنسي على جان دي برين.

وفي الواقع لم يحز اختيار جان دي برين القبول لدى البارونات الصليبيين، إذ كان مفلساً، لذلك زوده البابا أنوسنت الثالث والملك فيليب بمبلغ كبير من المال. ثم أنه كان في الستين من عمره. ورغم هذا فقد كان ذكياً وصليبياً متحمساً للفكرة الصليبية مع أنه قضى حياته في خمول نسبي كواحد من قواد فرنسا القدامى. ويقال أن المقصود بهذا هو إبعاده عن فرنسا بسبب ما أشيع عن علاقة غرامية بينه وبين إحدى الكونتيسات. وعلى أية حال، فقد وصل جان دي برين إلى عكا في الثالث عشر من سبتمبر عام ١٢١٠ م (٢٢ ربيع ثاني ٦٠٧ هـ) ومعه حوالي ثلاثمائة فارس صليبي. وفي اليوم التالي زَوَّجَهُ ألبرت Albert بطريق بيت المقدس من ماريا وتوج الملكان في كاتدرائية صور في الثالث من أكتوبر من نفس العام. ووعد جان دي برين بأن يعيد الأراضي المقدسة إلى حدودها السابقة. وكتب إلى البابا يطلب منه إعداد حملة صليبية

نصل إلى الأراضي المقدسة عند انتهاء وقت الهدنة التي كان قد عقدهـا مع الملك العادل.

ولم يكد جان دي برين يستقر في مملكته حتى تزعزع مركزه بوفاة زوجته ماريا عام ١٢١٢ (٦٠٨ـ ٦٠٩ هـ) بعد أن أنجبت منـه طفلة تدعى إيـزابيلا Isabella كما كان يطلق عليها اسم يولاند Yolande. وبذلك لم تعد له صفة شرعية في الحكم. ولكن الأمور استقامت لجان دي برين مرة أخرى عندما تم الاتفاق على أن يظل وصياً على الطفلة. وحتى يدعم مركزه في المملكة تزوج من ستيفاني Stephanie ابنة ليو الثاني ملك أرمينية، واستطاع أن يحكم مملكة بيت المقدس دون معارضة من أحد، ونلاحظ أنه لم يقم بعمل عسكري ضد المسلمين طوال مدة الهدنة انتظاراً لقدوم الحملة التي طلبها من البابا أنوسنت الثالث، وحتى يواجه مسلمي مصر والشام بقوة عسكرية كبيرة تحقق أطماعه.

أما بقية الإمارات الصليبية في لشام فلم تكن وقتها بأحسن حالاً، إذ كانت تعج بالانقسامات الد اخلية والخلافات الحادة حول الوصاية والوراثة. فإذا نظرنا إلى إمارة طرابلس نجد أنه كان يحكمها بوهمند الرابع في الفترة من ١١٨٧ إلى ١٢٣٣ م، كما حكم إنطاكية بالإضافة إلى طرابلس منذ عام ١٢٠١ م بعد وفاة والده بوهمند الثالث متحدياً بذلك حقوق ابن أخيه ريموند روبين Raymond Roupen في وراثة إمارة إنطاكية. وقد وقف إلى جانب ريموند خاله الملك ليو الثاني ملك أرمينية، وبذلك انشقت الجبهة الشمالية الصليبية إلى قسمين، وزاد من هذا الشقاق رفض ليو إعادة قلعة بغراس إلى الفرسان الداوية التي أخذها من المسلمن بعد الحملة الصليبية الثالثة في عام ١١٩١ م (٥٨٧ هـ). فانحازوا إلى جانب بوهمند في الوقت الذي انضم فيه الاسبتارية إلى ليو الأرميني.

وأدرك الفرنج الدخلاء أنه من الضروري تسوية هذه المشاكل الداخلية وتوحيد الجبهة الصليبية من أجل نجاح الحركة الصليبية نفسها. كما أحس البابا أنوسنت الثالث أن من واجبه التدخل لفض هذا النزاع، فأرسل مندوباً عنه للقيام بهذه المهمة يدعى سوفريد دي سانت براكسيد Sofred of Saint Praxed.

ثم أوفد مندوباً ثانياً إلى أرمينية وإنطاكية هو بطرس أف سانت ماريل Peter of Saint Marel وسعى كل منهما على حدة، ثم كلاهما مجتمعين للتوصل إلى حل لمشكلة الوراثة في إنطاكية وكذلك مشكلة قلعة بغراس. وقد أظهر ليو التجاوب مع المندوبين ولكنه رفض إعادة القلعة إلى الداوية، كما أن بوهمند أنكر حق البابوية في التدخل في مشكلة تعتبر إقطاعية بحتة، ولـذا فشل المندوبان في مهمتهما.

وبالإضافة إلى مشاكل بوهمند مع ليو وحلفائه فقد كان يعاني من الاضطرابات الداخلية. ذلك أن سلطانه لم يكن كاملاً على كل من إمارة إنطاكية وطرابلس وخاصة في الريف رغم تأييد حكومة إنطاكية له. ويتضح ذلك من حركة التمرد التي قام بها أحد أفصاله ويدعى رينوارت Renoart صاحب نفين أو أنفه، عندما تزوج بدون إذن منه وريثة حصن عكا في نهاية عام ١٢٠٤ م (٦٠١ هـ)، وقد تصاعد هذا التمرد عندما انحاز إلى جانب رينوارت كثير من السادة الصليبيين من بينهم رالف Ralph الطبري الذي كان أخوه أوتو Otto قد لحق ببلاط ليو الأرميني عدو بوهمند. وزاد من تعقيد المشكلة أن هذا التمرد قد لقي التأييد من الملك عموري ملك قبرص والملك الأسمي لمملكة بيت المقدس آنذاك. وبذلك تحرج مركز بوهمند في الداخل مع السادة الصليبيين وفي الخارج مع كل من البابا وليو وعموري والاسبتارية، ولم يقف معه سوى الداوية.

واستغل ليو هذه الحوادث وحاصر إنطاكية في الرابع من ديسمبر سنة ١٢٠٤ م (٢٧ ربيع أول ٦٠٠ هـ) في الوقت الذي كان فيه بوهمند يسعى للقضاء على تمرد رينوارت ومؤيديه. فاستنجد بوهمند بالملك الظاهر صاحب حلب. وخرج الظاهر من حلب متجهاً إلى حارم، وسرعان ما انسحب ليو عندما علم بقدوم الملك الظاهر وعاد مسرعاً إلى بلاده، كما عاد الظاهر أيضاً إلى حلب. ولكن ليو اعادة الكرة مرة أخرى على إنطاكية عندما «راسله أهلها، وضمنوا له تمليكها» فهاجمها فجأة في السابع عشر من ربيع الثاني من نفس

العام (٢٤ ديسمبر). وتحصن بوهمند في قلعة المدينة ونادى بشعار الملك الظاهر، فخرج بعساكره وقصد إنطاكية، فعاد ليو إلى بلاده دون أن يشتبك مع قوات بوهمند أو الظاهر لما وجده من تجمعات عسكرية كبيرة ضده، وكان من الطبيعي أن يبادر الظاهر إلى تلبية نداء بوهمند عساه أن يحقق من وراء ذلك نصراً إسلامياً على حساب الفريقين الصليبيين المتخاصمين.

وارتاح بوهمند من مساندة عموري للمتمردين عند مماته عام ١٢٠٥ م (٦٠١ هـ)، وامتناع جان دبلين الوصي على عرش المملكة عن مساندة الثوار. وانتهز بوهمند هذه الفرصة وأنزل الهزيمة بالمتمردين وفرض سيطرته الكاملة على إنطاكية وطرابلس، ولم يبق أمامه سوى ليو وحلفائه من الاسبتارية. وفي هذا الوقت كان بوهمند يبحث عن مساندة خارجية ضد ليو ولذلك سارع لاستقبال ماري Marie كونتيسة شامبانيا زوجة بلدوين Baldwin الامبراطور اللاتيني بالقسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٠٥ م) في عكا - وهي في طريقها إلى زوجها وقدم لها يمين الولاء تأكيداً لما أعلنه من قبل عن تبعية إنطاكية إلى امبراطور القسطنطينية. وقد زادت سياسة بوهمند هذه من غضب البابوية التي كانت غير راضية عن حكام القسطنطينية اللاتين الذين انحرفوا بالحملة الصليبية الرابعة.

وتشجع بوهمند بعد إعلان ولائه للامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية وعزل بطرس بطريق إنطاكية بسبب انحيازه للملك ليو وعيّن بدلاً منه البطريق اليوناني سيمون. ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى تدبير المؤامرات ضده واستطاع بطرس في نهاية عام ١٢٠٧ م (٦٠٤ هـ) أن يدخل إلى إنطاكية بعض الفرسان الموالين له الذين حاولوا الاستيلاء على جنوب المدينة. ولكن بوهمند تمكن من رد المعتدين إلى خارج إنطاكية وقبض على بطرس وألقي به في السجن دون طعام أو شراب، وعندما استبد ببطرس اليأس شرب زيت مصباحه ومات بعد عذاب أليم.

وتجددت الحرب بين ليو وبوهمند مرة أخرى في عام ١٢٠٨ م (٦٠٤ - ٦٠٥ هـ)، إذ قام ليو بتخريب ضواحي إنطاكية كما قام الاسبتارية بالإغارة على

طرابلس. ولم يلجأ بوهمند إلى الاستنجاد بالملك الظاهر كما سبق، وربما يكون ذلك بسبب حرصه على عدم إغضاب العادل ـ الذي وقع معه الصلح في أواخر عام ٦٠٣ هـ (يوليو ١٢٠٧ م) ـ لاختلافه مع الظاهر في هذا الوقت ـ لذلك لجأ بوهمند إلى السلاجقة لمساندته ضد ليو. وانزعج بابا روما من ذلك، فاستنجد بالظاهر صاحب حلب لإنقاذ إنطاكية من تدخل السلاجقة. ومما تجدر الإشارة إليه أن أمر استنجاد البابا بالملك الظاهر لم يرد في المصادر العربية على الإطلاق. ويبدو أن البابا فضل أن يستنجد بالظاهر لحماية إنطاكية على دخول السلاجقة فيها حتى تبقى المملكة الصليبية على حالها أملاً في الوصول إلى حل بين ليو وبوهمند تمهيداً لحملة صليبية أخرى وهو ما أكدته الأحداث فيما بعد.

وقد زادت الخلافات بين ليو وبوهمند من قلق البابوية فعاود البابا التدخل لفض هذا النزاع وطلب من ألبرت بطريق بيت المقدس الإسمي في مارس ١٢٠٩ م (رمضان ٦٠٥ هـ) التوسط لحل هذه المشكلة، في نفس الوقت الذي سعى فيه بوهمند للتقرب من البابوية وقبل تعيين بطريق لاتيني على الإمارة من قبل البابا. وقد أدى التقارب بين البابا وبوهمند إلى غضب ليو، وتفاخر بأنه عقد محالفة مع امبراطور نيقية Nicea البيزنطية في المنفى، كما تقرب إلى هيو Hugue ملك قبرص (١٢٠٥ ـ ١٢١٨ م). وتم زواج ريموند المطالب بعرش إنطاكية من هلفيس Helvis أخت هيو. ولعل ليو قصد بذلك ضمان مساندة قبرص له ولابن اخته ريموند في المطالبة بعرش إنطاكية، كما منح ليو طائفة التيوتون بعض القلاع في قيليقية، وتعقد الموقف أكثر من ذي قبل.

ولكن هذه الخلافات ما لبثت أن تبددت عندما قتل الإسماعيلية ريموند أكبر أبناء بوهمند في كاتدرائية أنطرطوس. فتجمعت القوات الصليبية من قبرص وعكا وطرابلس وإنطاكية وأرمينية لقصد بلاد المسلمين، ولم يتراجعوا إلا بعد خروج الظاهر لملاقاتهم. وزاد التقارب بين كل من مملكة بيت المقدس وأرمينية وقبرص عندما تزوج جان دي برين من ستيفاني ابنة ليو الذي ظل

يتحين الفرص لتنصيب ابن اخته ريموند أميراً على إنطاكية. وتمكن الملك ليو في عام ١٢١٦ م (٦٠٣ ـ ٦١٤ هـ) من احتلال إنطاكية بالتآمر مع بطريق المدينة أثناء غياب بوهمند في طرابلس ونصب عليها ريموند في الرابع عشر من فبراير سنة ١٢١٦ م، وأعاد قلعة بغراس إلى الداوية وتصالح مع البابا «وأطلق جماعة من أسرى المسلمين» وتصالح مع الملك الظاهر في الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات قائمة على قدم وساق في أوروبا لإرسال الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر.

أحوال قبرص

أما فيما يتعلق بقبرص فقد تولى أمرها عموري الأول في الفترة من سنة ١١٩٧ إلى سنة ١٢٠٥ م، كما حكم أيضاً مملكة بيت المقدس الإسمية من سنة ١١٩٨ م إلى سنة ١٢٠٥ م نتيجة زواجه من إيزابيلا. وعند موته انفصلت المملكتان عن بعضهما وحكم قبرص ابنه هيو وكان صبياً دون العاشرة من عمره، فتولى أمر الوصاية عليه والتراف مونتبليار الذي تزوج من برجنديا Burgundia أخت هيو الكبرى. وفي عام ١٢١٠ م تسلم هيو مقاليد الحكم وتزوج بعد ذلك من أليس أميرة بيت المقدس وهي ابنة زوجة أبيه. إلا أنه تمكن من تثبيت دعائم الحكم في مملكته. وقد شارك هيو في الحملة الهنغارية على فلسطين عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ)، ومات في فبراير ١٢١٨ م (ذو القعدة ٦١٤ هـ) قبل أن يعود إلى بلاده، ودفن في قلعة طرابلس.

هكذا ظل الصراع حاداً بين الحكام الصليبيين في المناطق والإمارات التي كانت لا تزال في قبضتهم، وكان ذلك بسبب المنافسة على السلطة والأرض. ولا شك أن هذا الصراع كان من العوامل التي أنهكت الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة وساعدت فيما بعد على تقلصه وزواله. ولا يعني هذا أن الحرب بين المسلمين والصليبيين قد توقفت خلال تلك الفترة من الزمن التي سبقت وصول طلائع الحملة الصليبية الخامسة إلى فلسطين، إذ

كانت المصادمات بين الفريقين تكاد لا تنقطع منذ مطلع القرن السادس الهجري (بدايات القرن الثالث عشر الميلادي)، كما كانت أيضاً من قبل. فالصليبيون في نظر المسلمين أعداء احتلوا أرضهم واستولوا على ديارهم. ومن الطبيعي ألا يهنأ للمسلمين بال إلا إذا استردوا أرضهم المغتصبة وأجلوا الغزاة عنها. وما كانت الهدن التي تعقد بين الطرفين إلا وقتاً لالتقاط الأنفاس حتى يستعد المسلمون لطرد العدو الغاصب من بلادهم.

أحوال الغرب الأوروبي

احوال البابوية

هكذا فتتت الصراعات الشرق اللاتيني وإن كان قد ساده هدوء نسبي قبيل قيام الحملة. بينما كان الجانب الإسلامي في حالة تمكنه من مهاجمة الغزاة ودفعهم. وإذا انتقلنا إلى الجانب الأوروبي وهو الجانب الذي قام بإمداد الحملات الصليبية بالرجال والمال والسلاح، فإننا نجد أن البابوية لعبت دوراً رئيسياً في الحوادث التي سادت أوروبا في الفترة السابقة لقيام الحملة الخامسة. فقد اعتلى كرسي البابوية البابا أنوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦ م) وكان على درجة واسعة من العلم والمعرفة، إذ درس اللاهوت في باريس كما درس القانون في بولونيا. ولم يكن لملوك أوروبا وأباطرتها المعاصرين له قوته وبصيرته، فقد برهن على أنه سياسي ماهر سريع البديهة متطور لمقتضيات الظروف والأحوال. وكانت آمال أنوسنت الثالث تنحصر في العمل على تسوية كافة مشاكل الممالك الأوروبية ليسودها السلام كي يتمكن من تسخير كافة القوى الأوروبية في سبيل غزو مدينة بيت المقدس التي استردها صلاح الدين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ (٢ أكتوبر ١١٨٧ م) خاصة بعد أن نجح أخوه العادل في جمع شمل البيت الأيوبي وأن يتبوأ مكان الصدارة على عرش مصر، التي كانت مصدر قوة المسلمين ومعقلهم المنيع ومركز تموينهم بالمال والمؤن والسلاح. وغير خاف أن البابا أنوسنت الثالث كان يرمي من وراء ذلك إلى رفع شأن البابوية وأن يكون له

السلطة العليا على السلطة الدنيوية. وكان في الدعوة إلى الحملة الجديدة فرصة طيبة لتحقيق الآمال، فضلاً عن الهدف البعيد المدى الذي ينحصر في فرض سيطرة الغرب الأوروبي على العالم الإسلامي.

لذلك بدأ البابا أنوسنت عهده بالكتابة إلى البنادقة يطلب منهم ألا يبيعوا أو يتبادلوا مع العرب المواد الاستراتيجية كالسفن والسلاح والحديد وغير ذلك من المواد ذات التأثير الفعال في الحروب وإلا تعرضوا لغضب الكنيسة وتوقيع أشد العقاب عليهم. كذلك سارع بالكتابة في عام ١١٩٩ م إلى بطريق بيت المقدس الأسمي إيمارموناكو Aymar Monaco يطلب منه تقريراً مفصلاً عن الحالة في بلاد الشام مع تدعيم هذا التقرير بكافة البيانات التي تتعلق بالحكام المسلمين وطبيعة العلاقات بين بعضهم البعض. كما طلب نفس الشيء في عام ١٢١٣ م من الداوية الاسبتارية، ويبدو أن هذه التقارير كانت ترسل إليه من آن لآخر. فقد أرسل إليه بطريق بيت المقدس الإسمي تقريراً في عام ١٢١٤ م. وقد اشتمل هذا التقرير على معلومات على جانب كبير من الأهمية تضمنت بعض النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية الخاصة بالمسلمين. فمن الناحية السياسية تضمن الحديث عن البلاد التي يحكمها كل من العادل وأولاده الكامل والمعظم، واشتمل الجانب الاقتصادي الحديث عن النيل وموعد فيضانه وبعض المنتجات الزراعية في مصر، وعن الناحية الاجتماعية تناول الحديث عن أحوال المسيحيين واليهود وعلاقتهم الطيبة بالمسلمين. والجانب الخطير في هذا التقرير هو الجانب العسكري، فتحدث عن بعض البلدان المصرية والمسافة بين بعضها البعض. وكان ما تناوله بالتفصيل من المدن مدينة دمياط وعدد أبراجها وأسوارها وبرج السلسلة وكيفية دخول السفن إلى دمياط التي كانت مفتاح مصر آنذاك. والواضح من هذاأن البابا أنوسنت الثالث كان يضع مسألة الشرق اللاتيني وغزو بيت المقدس نصب عينيه لتحقيق الآمال الكبار التي رسمها لنفسه وللكنيسة.

وإن كان البابا قد استهل عهده بالعمل على دعم الحركة الصليبية التي

بدأ يشوبها الفتور، فإن الحوادث التي جرت في أوروبا أثناء توليه كرسي البابوية، مكنته من أن يبسط نفوذه على كل ربوع أوروبا تقريباً. واستطاع أن يعلي شأن البابوية لما قام به من مجهودات طوال فترة بابويته حتى أصبح السيد الأوحد الذي لا منازع له مما هيأ الجو للدعوة إلى الحملة الصليبية الخامسة بعد أن انحرفت الحملة الصليبية الرابعة عن وجهتها وفشلت في تحقيق أغراضها.

أحوال المانيا

هذا عن البابوية ومشروع الحملة الصليبية أيام أنوسنت الثالث، أما أوروبا فقد كانت في ذلك الحين نهباً للانقسامات والاضطرابات والمشاكل التي صرفتها عن الاشتراك بصورة فعالة في الحملة التي كانت البابوية تستعد للدعوة لها. ففي ألمانيا تمكن هنري السادس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١١٩٠ - ١١٩٧ م) من الحصول على موافقة الأمراء الألمان بأن يخلفه على العرش ابنه فردريك الثاني Frederic II ومات هنري وهو يستعد للحاق بالحملة الصليبية التي وصلت طلائعها إلى الشام في أغسطس ١١٩٧ (شوال ٥٩٤ هـ). ورفض الأمراء الألمان اعتبار فردريك الذي كان لا يزال في الثالثة من عمره مرشحاً للعرش. ولم تبذل أية محاولات لحصول فردريك الصغير على تاج ألمانيا وصقلية، وآثرت والدته كونستانس Constance - الوصية عليه - أن تحتفظ بعرش نابلي وصقلية وأن تدفع جزية سنوية للبابا وأن تبتعد عن ألمانيا ومشاكلها وأعلنت تبعيتها للبابا.

ومن الطبيعي أن يرتاح البابا لهذا الوضع الذي ضمن به ولاء صقلية للنفوذ البابوي في وقت كان فيه أنوسنت الثالث يسعى سعياً حثيثاً لفرض نفوذه الديني والدنيوي على الغرب المسيحي كله. وظل فردريك تحت وصاية والدته، ولكن الوصاية انتقلت إلى البابا نفسه بعد وفاتها عام ١١٩٨ م وكان ذلك بناء على رغبتها. وقد أعطى ابتعاد كونستانس عن ألمانيا الفرصة إلى فيليب Philippe دوق سوابيا - عم فردريك الثاني - الذي تسانده فرنسا، فتوجه مسرعاً إلى ألمانيا عساه أن يتمكن من الحصول على عرش الامبراطورية لنفسه. وأيده في ذلك حزب الجبليين الامبراطوري وانتخبوه امبراطوراً للامبراطورية الرومانية في نفس

العام. ولكن حزب الجلف البابوي المعزز بالنفوذ الإنجليزي انتخب أوتو أف برونزويك Otto of Brunswick وهو الابن الثاني لهنري الثاني Henry II ملك إنجلترا. وفي نفس الوقت كونت مدن شمال إيطاليا إدارة لنفسها، وعلى ذلك سادت الحروب الأهلية كلاً من لمبارديا وتسكانيا وألمانيا.

وتدخل البابا أنوسنت الثالث مؤيداً أوتو نظراً لوعده بخضوعه للبابوية، ولكن فيليب دوق سوابيا لم يذعن للأمر وظل يتحين الفرصة للقضاء على أوتو. وتمكن في عام ١٢٠٧ م من هزيمته فاضطر إلى الفرار واتخذ من إنجلترا حليفته مأوى له. ولم تستقر الأمور على هذا الحال فقد قتل فيليب في العام التالي. وأنعش ذلك الأمل في نفس أوتو للعودة للمطالبة بالعرش وأيده أمراء الهوهنشتاوفن الألمان في طلبه بشرط زواجه من ابنة غريمه فيليب. ووافق أوتو على ذلك وذهب إلى روما وأعلن ولاءه للبابا وتوج في أكتوبر ١٢٠٩ م، وارتاح البابا لهذه النتيجة لأن كل ما كان يعنيه هو خضوع السلطة الزمنية للسلطة البابوية في وقت اشتد فيه الصراع بين البابوية والامبراطورية حول المسائل الدنيوية.

ولكن العلاقات تأزمت بين البابا وأوتو عندما قام الأخير بغزو جنوب صقلية في عامي ١٢١٠، ١٢١١ م، وهو ما لم تكن ترضى عنه البابوية لما يترتب عليه من توحيد المانيا وصقلية، فأصدر قرار الحرمان ضد أوتو. ويبدو أن الأمراء الألمان قد ضايقهم حكم أوتو، فاستغلوا قرار الحرمان ضده واعتبروه قراراً بعزله واختاروا فردريك الثاني ملك صقلية ملكاً عليهم، وكان لا يزال تحت وصاية البابوية. فعاد أوتو مسرعاً من إيطاليا إلى إلمانيا وسانده حنا ملك إنجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) وأمير فلاندرز. وفي نفس الوقت ساند فردريك الثاني فيليب أوغسطس ملك فرنسا بحكم عدائه القديم لملك إنجلترا وحتى لا يكون على الأراضي الأوروبية قوة يخشى بأسها على فرنسا فيما بعد، كما أيدته البابوية، وبدت أوروبا وقد انقسمت إلى معسكرين. ويلاحظ أن النبلاء الإنجليز لم يساندوا مليكهم، حنا، فاعتمد على بعض الجنود المرتزقة في ذلك الصراع. وانتهى الأمر بوقوع الحرب بين القوتين المتحالفتين، وهزم أوتو

وحلفاؤه في موقعة بوفين Bovines في سهول بلاد الفلاندرز في السابع والعشرين من يوليو عام ١٢١٤ م، وتعتبر هذه الموقعة نقطة تحول كبير في تاريخ أوروبا بأسرها، أبرزت كلاً من فرنسا وإلمانيا المؤيدين من البابوية كأعظم قوة في أوروبا وقتذاك.

أحوال فرنسا

وليس معنى ذلك أن فيليب أوغسطس ملك فرنسا كان على وفاق دائم مع البابوية فقد تعرض لقرار الحرمان عام ١٢٠٠ م بسبب تنكره لزوجته الأولى إنجبرج Ingeberg وزواجه مرة أخرى من ابنة دوق شرق بافاريا المسماة أجنس أف ميران Agnes of Meran. وقاوم فيليب في أول الأمر ولكنه استسلم في العام التالي وأعاد زوجته الأولى. وكان ذلك انتصاراً لكلمة البابوية تمشياً مع سياسة البابا أنوسنت الثالث التي كان يرمي إليها. وبعد أن ضمن البابا ولاء فيليب له استغله في التهديد به لغزو إنجلترا عندما تأزمت مشكلة تعيين رئيس أساقفة كانتربري في عام ١٢٠٥ م، كما استغله أيضاً في ضرب أوتو أف برونزويك عندما تمرد على البابوية وقام يغزو صقلية ولجأ إليه أيضاً في القضاء على الهراطقة في جنوب فرنسا.

وكان ظهور حركات الهرطقة من الأمور التي شغلت بال البابوية خاصة بعد أن استفحل أمرها، وحاول أنوسنت في أول الأمر إقناع الهراطقة بالعودة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية في روما واتباع تعاليمها ولكن مبعوثيه فشلوا في هذه المهمة. وتعاطف ريموند Raymond كونت تولوز مع الهراطقة وتقبل آراؤهم ورفض إمداد البابوية بالقوة الكافية للقضاء عليهم. وأخيراً اتجه البابا إلى فيليب ملك فرنسا في عام ١٢٠٤ م، إلا أن فيليب كان مشغولاً بصراعه ضد حنا ملك إنجلترا. وكرر البابا نداءه لملك فرنسا عام ١٢٠٥ م وأيضاً في عام ١٢٠٧ م دون جدوى.

وتطورت الحوادث وأصدر البابا قرار الحرمان ضد ريموند كونت تولوز لرفضه إعادة الكنائس التي استولى عليها، فضلاً عن قيام أحد فرسانه باغتيال مندوب البابا. ولم يطق البابا صبراً على هذا التمرد الذي من شأنه القضاء على

النفوذ البابـوي في الممالك الأوروبية، فـدعا إلى حملة صليبيـة ضد هؤلاء الهراطقة وهي المعروفة بالحملة الإلبيجنسية، وكـان على رأس الداعين لهـا جاك دي فتري الذي عيّن فيما بعد أسقفاً على عكا وجاء مع الحملة الصليبية الخامسة إلى دمياط عام ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) وأرخ لها أيضاً. ولبى بعض الأمراء دعوة البابا وعلى رأسهم سيمون أف مونتفرات Simon of Montfort متولياً قيادة الحملة، واستطاع هزيمة ريموند في عام ١٢١٣ م، لذلك كافأه البابا بأن ولاه بعض الإمارات الإقطاعية المجاورة له، وهذا يدل على مدى النفوذ البابـوي وسيطرته على السلطة الزمنية. ولم يستطع فيليب أن يقف مكتوف الأيدي ويصم آذانه عما يحدث حتى لا تضيع هيبته أمام البابوية وأوروبا فأرسل ابنة لويس Louis للمشاركة في هذه الحملة عام ١٢١٣ م، وقد اعترف سيمون بالتبعية لفيليب، إلا أن سلوك سيمون بعد ذلك تجاهه جعل فيليب يساند ريموند كونت تولوز في استرداد أملاكه، ثم قتل سيمون في عام ١٢١٨ م وهي السنة التي وطأت فيها أقدام الصليبيين مدينة دمياط، ومشكلة الهراطقة قائمة في جنوب فرنسا.

أحوال إنجلترا

أمـا فيما يتعلق بـالوضـع في إنجلترا فقـد تولى الملك حنـا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) حكم البلاد وهو الذي اختاره المجلس الكبير دون معارضة داخل إنجلترا نفسها، رغم أن المقاطعات الإنجليزية في فـرنسا كـانـت تؤيد آرثـر Arther دوق بريتاني ضد عمه الملك حنا ليكون ملكاً على الجزيرة البريطانية. وكان في ذلك فـرصة طيبـة استغلها فيليب ملك فـرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) للاستيلاء على أملاك إنجلترا في شمال فرنسا. لذلك قام بتشجيع آرثر على مهاجمة مقاطعة أكـويتين الإنجليزيـة وهي الواقعـة إلى الجنوب من مقـاطعة بريتاني. وفي نفس الوقت قام فيليب بنفسه بغزو مقاطع نورمانديا. وقد أيد البابا الملك الفرنسي في موقفه حتى يكسبه - وهو الأقوى - إلى جانبه. ونجح حنا في السيطرة على اكويتين وقبض على آرثر في عام ١٢٠٢ م الـذي لم يلبث أن اغتيل بعد ذلك. أما نورمانديا فقد سقطت قلاعها الواحدة تلو الأخرى في يد

فيليب، وحتى عام ١٢٠٤ م، كانت إنجلترا قد فقدت كل أملاكها في شمال فرنسا وآلت هذه المناطق إلى فرنسا نفسها.

والحدث الثاني الذي وقع في إنجلترا في هذه الفترة وكان فرصة مواتية للبابوية لترمي فيه بكل ثقلها، هو موضوع تعيين رئيس أساقفة كانتربري. ففي التاسع والعشرين من شهر يونيه عام ١٢٠٥ م مات هوبرت والتر Hubert Walter رئيس أساقفة كانتربري وانتهز رجال الدين في إنجلترا هذه الفرصة واختاروا سراً مرشحاً لهذا المنصب وهو ريجنالد Reginald وأرسلوه إلى البابا في روما، وعندما علم الملك حنا بذلك رشح من جانبه حنا أف جراي Joan of Grey أسقف نوروتش Norwich، ولكن البابا أعرض عن المرشحين وتم انتخاب ستيفن لانجتون Stephen Langton لشغل هذا المنصب. وغضب الملك حنا لرفض مرشحه وأدى ذلك إلى سوء التفاهم بين البابا والملك الإنجليزي وانتهى الأمر بأن أصدر البابا ضده قرار الحرمان في عام ١٢٠٨ م. ولما كانت الغالبية من رجال الدين تدين بالولاء للبابوية فقد قام الملك باضطهادهم ومصادرة أملاكهم كما قام أيضاً بنهب الكنائس الإنجليزية، الأمر الذي أثار البابا ضد الملك وحرض فيليب أوغسطس العدو القديم للملك حنا على غزو إنجلترا نفسها.

ورحب فيليب بهذه الفكرة ولا سيما أن ابنه لويس كان يطالب بعرش إنجلترا عن طريق زوجته بلانش Blanche صاحبة قشتالة ابنة أخي الملك حنا. ويدأ لويس يستعد لهذا الغزو، ولكننا نجد الملك الإنجليزي يستسلم في إذلال للبابوية في عام ١٢١٤ م ويقبل تعيين ستيفن لانجتون - مرشح البابا - رئيساً لأساقفة كانتربري. كما قام الملك بإعادة جميع رجال الدين إلى مناصبهم وقبل الخضوع للنفوذ البابوي مع دفع جزية سنوية ضخمة للبابا عن كل من إنجلترا وإيرلندا. ويتضح أن هذا التصرف من قبل الملك حنا قد زاد من هيبة البابوية وأضاع على فرنسا فرصة القيام بعمل عسكري ضد إنجلترا لتحقيق أطماعها فيها.

وكان لهذه النكبات أثراً بالغ الأهمية على سلطة الملك في إنجلترا. فقد بدأ سخط النبلاء على الملك يزداد يوماً بعد يوم خاصة عندما بدأ الملك في المطالبة بفرض ضرائب جديدة تساعده على استئناف القتال مع حليفه أوتو أف برونزويك ضد فرنسا وإلمانيا. ولكن النبلاء تكتلوا ضد الملك وأجبروه في النهاية على توقيع الوثيقة المعروفة باسم العهد الأعظم Magna Carta في عام ١٢١٥ م التي سلبت الملك الكثير من الامتيازات التي كان يتمتع بها. ويبدو أن الصراع بين الملك حنا والنبلاء لم ينته عند هذا الحد لعدم احترام العهد الأعظم من كلا الجانبين. وتطور الأمر واتخذ شكلاً مسلحاً واحتل النبلاء لندن دون مقاومة في السابع عشر من مايو ١٢١٥ م وانتخبوا لويس بن فيليب أوغسطس ملكاً على إنجلترا وأرسلوا إليه يطلبون منه الحضور. ولكن البابا الذي كان يحرض فيليب بالأمس على غزو إنجلترا لم يرض عن هذا التدخل من جانب فرنسا بعد أن أعلن الملك حنا ولاءه للبابوية وهو كل ما كان يأمله البابا. لذلك أخذ يتعاطف مع الملك الإنجليزي ويسانده وكتب إلى النبلاء في إنجلترا يعنفهم على مقاومتهم للملك ويأمرهم بالانصياع لأوامره وتأدية الخدمات له طبقاً لما كان متبعاً من قبل. ولم يكتف بذلك بل أرسل أيضاً الكاردينال جوالو Gualo مندوباً عنه لحماية الملك حنا. وقد قام هذا المندوب وهو في طريقه إلى إنجلترا بزيارة فرنسا وطلب من الملك فيليب عدم إرسال ابنه لغزو إنجلترا، ولكن فيليب لم ينصت لقول المندوب وأرسل ابنه لويس لغزو إنجلترا متحدياً بذلك رغبات البابا. ونزل لويس في خليج ساندويتش Sandwich واستولى على المنطقة بما فيها مدينة دوفر، وتقدم تجاه لندن. وكان لهذا الغزو العسكري ضد إنجلترا أسوأ الأثر في نفس البابا مما دفعه إلى إصدار قرار الحرمان ضد لويس.

وعندما تقدم لويس إلى لندن كان الملك حنا يهاجم أمراء الشمال المتمردين، وفي هذا الوقت العصيب من تاريخ إنجلترا مات الملك حنا في قلعة نيوارك Newark عام ١٢١٦ م وبعد موته تقابل المندوب البابوي مع كثير من

النبلاء الإنجليز وتم الاتفاق على إعلان هنري أكبر أبناء حنا ملكاً على البلاد.
وبادر لويس بالعودة إلى فرنسا للحصول على المزيد من المعونة من والده بعدما تخلى عنه النبلاء الإنجليز. ولم يلبث أن عاد مرة أخرى إلى إنجلترا، ولكنه هزم في موقعة بحرية بالقرب من دوفر وأرغم على عقد معاهدة سلام مع إنجلترا.

أحوال أسبانيا

وعن الموقف في إسبانيا قبل الحملة فإن البابا أنوسنت الثالث لم تسنح له فرصة إلا وانتهزها لدعوة الممالك المسيحية في إسبانيا لطرح عداواتها جانباً وأن تجمع نفسها لتتمكن من إخراج المسلمين من شبه الجزيرة الإيبيرية. ولم يكتف بذلك بل دعا إلى حملة صليبية في عام ١٢١١ م لطرد المسلمين من إسبانيا. ونجحت جهود البابا إذ اتحدت أراجون ونافار وقشتالة وتمكنت من هزيمة المسلمين في موقعة العقاب في السادس عشر من يوليو عام ١٢١٢ م (١٤ محرم ٦٠٩ هـ) وهو الانتصار الذي رجع الكفة المسيحيين على المسلمين. وأعقبه عديد من الانتصارات التي انتهت بخروج المسلمين نهائياً من إسبانيا. ولكن هذه الحروب شغلت الممالك المسيحية في الشمال الإسباني عن المساهمة الفعالة في الحرب الصليبية التي كان البابا يستعد لإعلانها لاستعادة مملكة بيت المقدس.

وهكذا كان الغرب الأوروبي في أواخر القرن الثاني عشر وبدايات القرن الثالث عشر للميلاد مسرحاً للقلاقل والاضطرابات والمشاكل الداخلية والحروب المستمرة التي حالت بينه وبين القيام بحملة صليبية فعالة ضد المسلمين. وكان على رأس البابوية في ذلك الحين شخص من أقوى شخصيات العصور الوسطى هو البابا أنوسنت الثالث الذي كان ينظر إلى البابا باعتباره خليفة الله على الأرض وأن الحكام والملوك أتباعه وعماله وليس أدل على ذلك من مواقفه من ملوك الغرب وحكامه. وقد بلغت البابوية أوج عظمتها وقوتها في عهده بعد أن اصبحت أوروبا تحت رحمته وبعد أن دانت له كافة دول الغرب بالولاء. وأتاحت له هذه الظروف الفرصة للتفكير في الدعوة إلى حملة صليبية جديدة

ضد العالم الإسلامي تحقق أغراض البابوية ومطامعها وتعيد بيت المقدس إلى حظيرة اللاتين التي فشلت الحملة الصليبية الثالثة في استعادتها.

الحملة الصليبية الرابعة

وإذا عرجنا على شرق أوروبا نجد أنه عندما اعتلى البابا أنوسنت الثالث كرسي البابوية كان يجلس على عرش الامبراطورية البيزنطية الكسيوس الثالث Alexis III (١١٩٥ - ١٢٠٣ م). وكان هذا الامبراطور قد استولى على العرش أثر ثورة قام بها ضد أخيه إسحق الثاني ١١٨٥ - ١١٩٥ وسمل عينيه وزج به وبابنه الكسيوس الرابع في السجن. وقام الامبراطور الجديد بإغداق الأموال على من عاونوه في الاستيلاء على العرش فأرهق خزينة الدولة، في الوقت الذي كانت فيه هيبة الامبراطورية قد ضاعت من قبل في الخارج بسبب ثورة بلغاريا، بالإضافة إلى ضياع قبرص واستيلاء ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩ م) عليها في مايو ١١٩١ م وهو في طريقه إلى عكا مع الحملة الصليبية الثالثة. ويعتبر ضياع قبرص أول إشارة إلى ضياع هيبة الأباطرة البيزنطيين في القسطنطينية.

وعلى أية حال، فلم يقم الامبراطور البيزنطي الجديد بأي عمل ناجح من شأنه إعادة أملاك دولته الضائعة في قبرص وإعلاء شأن الامبراطورية البيزنطية مرة أخرى. فقد واصل الحرب البلغارية بنفس الفشل الذي صاحب سلفه، كما تنازع مع الامبراطور الألماني هنري السادس بسبب ادعاء هنري لعرش بيزنطة عن طريق والد زوجته روبرت الصقلي Robert of Sicily واستعد هنري فعلاً لغزو بيزنطة إلا أن المرض داهمه وأصيب بالحمى التي قضت عليه عام ١١٩٨ م.

وإن كانت الامبراطورية البيزنطية قد أمنت شر هنري بمماته، فإنها تعرضت بعد قليل إلى ما هو أشد فتكاً عندما اجتاحتها جحافل جنود الحملة الصليبية الرابعة واستولت على معظم أراضيها في الفترة من سنة ١٢٠٤ م إلى سنة ١٢٦١ م. وقد بدأت فكرة هذه الحملة في عام ١١٩٩ م، عندما ظهرت في أوروبا مجموعة من المتحمسين للحركة الصليبية على رأسهم فولك

Fulk أسقف نيللي Neuilly يدعو لحملة صليبية ضد المسلمين . وقام بنفس الدور الذي قام به بطرس الناسك من قبل، ومن الطبيعي أن يوافق البابا أنوسنت الثالث على مثل هذه الحملة طالما ترمي إلى تحقيق الآمال التي تصبو إليها نفسه. وقد انضم إليها عدد كبير من الأمراء الفرنسيين على رأسهم ثيبوت الرابع Thibout IV كونت شامبانيا الذي أخذ على عاتقه تمويل الحملة وبلدوين التاسع Baldwin IX كونت فلاندرز وفلهاردوين Villehardouin مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة وغيرهم. واستمرت الاستعدادت لهذه الحملة مدة عامين (١١٩٩ - ١٢٠٠ م) وتم اختيار ثيبوت ممول الحملة قائداً لها. كما تم الاتفاق على نقل قوات الحملة بحراً وأن تكون وجهتها مصر باعتبارها زعيمة العالم الإسلامي ومعقل القوى الإسلامية، ولأن غزوها يجعل الصليبيين يستولون بسهولة على فلسطين. وأرسل القادة ضمن خطة عملهم سفارة إلى البندقية على رأسها فلهاردوين لإجراء الترتيبات اللازمة لنقل الحملة بحراً. واتصلوا بهنري داندلو Henry Dandalo دوق البندقية وعقدوامعه الاتفاقية المعروفة باتفاقية مارس ١٢٠١ م. وبموجب هذه الاتفاقية تعهد البنادقة بإعداد السفن اللازمة لنقل الحملة المكونة من أربعة آلاف وخمسمائة فارساً وتسعة آلاف مقاتل وعشرين ألفاً من الجنود المشاة مع تموينهم لمدة تسعة أشهر فقط. وذلك مقابل خمسة وثمانين ألف مارك، وبشرط أن تكون نصف الغنائم للبنادقة. ووافق البابا أنوسنت الثالث على هذه الاتفاقية بعد تردد وذلك بسبب اشتراك آل مونتفرات في هذه الحملة باعتبارهم أصدقاء لأسرة الهوهنشتافن الألمان أعداء البابا، كما تم الاتفاق أيضاً على أن يكون أسطول البنادقة معداً لنقل الحملة في موعد غايته السادس والعشرين من يوليو عام ١٢٠٢ م.

ولكن الأمور لم تسر طبقاً للخطة الموضوعة بسبب موت ثيبوت قائد الحملة ومموّلها في مايو سنة ١٢٠١ م، ولذلك عقد اجتماعاً في مدينة سواسون في يونيه من نفس العام تم فيه اختيار بونيفاس Boniface ماركيز مونتفرات قائداً

للحملة. وعجز القائد الجديد عن دفع كل المبلغ المتفق عليه عندما أعد البنادقة السفن اللازمة لنقل الحملة ولم يتمكن إلا من دفع تسعة وأربعين ألف مارك فقط. ووجد داندلو فرصته في عجز القادة عن دفع باقي المبلغ المتفق عليه فعرض عليهم إعفاءهم من باقي المبلغ إذا ساعدوه في إخضاع مدينة زارا - الواقعة على ساحل دالماشيا - التي تمردت عليه وأعلنت خضوعها لملك هنغاريا. ويرى بعض المؤرخين أن داندلو قصد توجيه الحملة وجهة أخرى غير مصر حتى لا يفسد العلاقات التجارية معها وهو أمر له أهميته بالنسبة للبنادقة، ويؤيد هذا الفريق من المؤرخين ذلك بقوله أنه في اللحظة التي كان يتم فيها التفاوض بين البنادقة والصليبيين على نقل الحملة كان سفراء البنادقة يوقعون معاهدة تجارية مع مصر، وقد تم توقيعها بالفعل في ربيع عام ١٢٠٢ م (منتصف عام ٥٩٦ هـ).

وعلى أية حال وافق الصليبيون على عرض داندلو الخاص بمدينة زارا. ولكن البابا هدد بقرار الحرمان عندما علم بذلك. ولم يعبأ الصليبيون بهذا التهديد واتجهوا إلى مدينة زارا وحاصروها وسقطت في أيديهم في الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٢٠٢ م، ويعتبر سقوط هذه المدينة فاتحة عهد جديد في تاريخ الحروب الصليبية اتجهت فيه إلى قتال المسيحيين بدلاً من المسلمين. وثار البابا على ما حدث وأصدر قرار الحرمان على الحملة بأكملها - وعندما تيقن أن الصليبيين كانوا ضحايا قادتهم سامحهم وأبقى قرار الحرمان على البنادقة فقط الذين تعارضت سياستهم مع سياسة البابا في الشرق الإسلامي. وربما قصد البابا برفع قرار الحرمان عن الحملة نفسها هو أن يكسبها إلى جانبه وتقوم بالاتجاه إلى مصر.

وكان المفروض أن تتجه الحملة بعد سقوط مدينة زارا إلى مصر طبقاً للخطة الموضوعة ولكنها انحرفت مرة أخرى واتجهت إلى القسطنطينية. ويرجع ذلك إلى أن الكسيوس - ابن الامبراطور البيزنطي السابق إسحق - استطاع الفرار من سجنه ولجأ إلى زوج أخته فيليب أف سوابيا الامبراطور الألماني في ذلك

الوقت. وقد وجد فيليب في مساندة الكسيوس وإعادته إلى عرشه فرصة لتحقيق أمنيته الموروثة عن هنري السادس وهي احتواء عرش بيزنطة. ولكي يتم ذلك دبر أمر الاتصال بين الكسيوس والصليبيين أثناء تواجدهم في مدينة زارا. وعرض الكسيوس على الصليبيين مائتي ألف مارك نظير مساعدته في استرداد عرش بيزنطة، كما تعهد بتبعية الكنيسة الشرقية للكنيسة الغربية اللاتينية وأن يقدم عشرة آلاف جندي للمساهمة في استرداد الأراضي المقدسة. وقد لقيت مهاجمة بيزنطة التأييد من معظم كبار المسؤولين الأوروبيين بالإضافة إلى موافقة البابا نفسه على هذا المشروع طالما أنه يحقق فكرة البابوية العالمية في توحيد الكنيستين الشرقية والغربية تحت سيادة روما بعد قطيعة سنة ١٠٥٤ م، ووافق فيليب أف سوابيا على ذلك لأنه يحقق سيطرته على عرش بيزنطة إلى حد ما.

كما وافق البنادقة أيضاً لإبعاد الضربة عن مصر بعد أن منحهم الملك العادل امتيازات تجارية قيمة في ميناء الإسكندرية جعلت جميع التجارة مع ممالك الهند في أيديهم. ومن جهة أخرى اقتنع البنادقة بأنه طالما بقيت هذه الامبراطورية في القسطنطينية، فإنهم لا يأمنون بقاء مراكزهم التجارية الاحتكارية في حوض البحر الأبيض، وأن الحل الوحيد لتأمين تجارتهم هو تسخير هذه الحملة في القضاء على الامبراطورية البيزنطية. كذلك رحب قادة الحملة الصليبية بهذه الفكرة لإرضاء البابوية بعد تمردهم عليها عندما هاجموا مدينة زارا. وتم الاتفاق في يناير عام ١٢٠٣ م على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن أغلبية رجال الحملة وافقت على أن تكون مصر هي وجهتهم بعد ذلك. أما بعض المتحمسين للحركة الصليبية وهم الأقلية فقد رفضوا الاشتراك في هذا العمل غير المقدس من وجهة نظرهم، وأصروا على تنفيذ هدف الحملة الأصلي وهو مهاجمة مصر مباشرة، ولكنهم كانوا قلة بحيث لم يستطيعوا أن يؤثروا في مجرى الحوادث. وهكذا انحرفت الحملة رسمياً عن هدفها الأصلي واتجهت صوب القسطنطينية واستولت عليها في الثالث عشر من إبريل عام ١٢٠٤ م وهرب الامبراطور البيزنطي الكسيوس

الثالث وجلس على العرش إسحق الثاني وإلى جانبه ابنه الكسيوس الرابع الذي ما لبث أن انفرد بالعرش، لكنه عجز عن الوفاء بوعوده المالية لقادة الحملة فانتهى الأمر بعزله وإزالة الامبراطورية البيزنطية وإقامة الامبراطورية اللاتينية التي جلس على عرشها بلدوين التاسع كونت فلاندرز. وقسمت الامبراطورية الزائلة إلى حين على القادة الصليبيين والبنادقة كما طرد البطريق البيزنطي ونصب بدلاً منه أسقفاً من البنادقة وأرسلت الأخبار إلى البابا تنبئه بتوحيد الكنيستين، وهو أمل طالما كان يتمناه ويسعى إليه بعد قطيعة سنة ١٠٥٤ م.

وعندما نصب بلدوين وعد بتحرير الأرض المقدسة، ولكنه لم يفعل وربما يرجع ذلك إلى حروبه مع البلغار التي انتهت بوقوعه أسيراً في يد قيصر البلغار الذي قتله بعد أشهر من أسره. وتولى بعده أخوه هنري (١٢٠٥ - ١٢١٦ م) الذي واجهته متاعب كبيرة رغم انتصاره على الامبراطورية البيزنطية المتقلصة في بروسه، لأن البلغار لم يتركوه يهنأ بهذا النصر. وظل الصراع مع البلغار حتى عام ١٢٠٧ م عندما مات قيصر البلغار جوهانتزا Johannitze وعقد هنري معاهدة مع بلغاريا وقد أعطت هذه المعاهدة للامبراطور اللاتيني الفرصة للسيطرة على أملاكه إلى حد ما. ولكن موت هنري عام ١٢١٦ م أضاع كل أمل في استقرار دولة اللاتين في القسطنطينية الأمر الذي لم يسمح لها بالمساهمة الفعلية في الحملة الخامسة.

أما عن موقف البابا من الامبراطورية في القسطنطينية فإنه حتى عام ١٢٠٦ م، كان لديه الأمل بأن تستعد الحملة وتتجه إلى مصر، ومما شجع على هذا الاعتقاد أن الامبراطور هنري عبّر في خطاباته للبابا عن حماسه للحملة وأنه على استعداد للمساهمة بجيشه لتحرير بيت المقدس. ولكن شيئاً مثل هذا لم يحدث، ويرجع ذلك لعدة أسباب، منها فتور الحماس الصليبي عن ذي قبل بعد أن أصبح الناس يتشككون في جدوى حرب صليبية ضد المسلمين والصراع بين هنري وأتباعه من جانب وبين هنري وبلغاريا من جانب آخر، بالإضافة إلى الصراع بين هنري وتيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذي

كان يحاول استعادة عرش بيزنطة من منفاه في بروسة. كما أن صليبيي الحملة الرابعة أنفسهم لم يفضلوا ترك مواقعهم الجديدة بعد ما رأوا هجرة إخوانهم الصليبيين من الشام إليهم. يضاف إلى ذلك الأوضاع السياسة التي سادت أوروبا في هذا الوقت والتي جعلت الحكام ينشغلون بتأمين ممتلكاتهم عن أي عمل آخر.

حملتا الصبيان

وبينما تجري الحوادث على هذا النحو في الشرق والغرب وفي الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ظهر في مايو من سنة ١٢١٢ م عند كنيسة سانت دنيس بفرنسا صبي من رعاة الغنم ـ من مدينة كلويس Cloyes ـ في الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن Stephen وقدم إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا ـ حيث كان يعقد مجلساً مع رجال بلاطه ـ قدم خطاباً ذكر فيه أن السيد المسيح هو الذي أتاه وأمره بالدعوة لحملة صليبية جديدة. ولم يهتم الملك بالصبي وطلب منه العودة إلى منزله، ولكن ستيفن لم ينصاع للأمر وأعلن أنه سينجح في إنقاذ المسيحية وفي استرداد الأراضي المقدسة، وأن البحر سينشق أمام مؤيديه ويتمكنوا من عبوره من أوروبا إلى بيت المقدس كما عبر موسى عليه السلام البحر الأحمر. وبدأ في الدعوة لحملته وبالفعل تجمع حوله عدد كبير من الصبيان من بينهم كثير من أبناء وبنات الأمراء بلغوا في مجموعهم حوالي خمسين ألف صبياً، وانضم إليهم بعض القساوسة والشبان والحجاج وتجمعوا في وسط باريس استعداداً للرحيل.

ورحل الجميع عن طريق تولوز وليون إلى مرسيليا على الأقدام، وهلك عدد كبير منهم بسبب مشقة الطريق وطول المسافة. وما أن وصلوا إلى مرسيليا حتى رحب بهم أهلها وشجعوهم على المضي لتنفيذ فكرتهم ووفروا لهم ما أمكن من المأكل والإيواء. وعندما تجمع الصبيان أمام البحر لم تحدث المعجزة ولم ينشق البحر أمامهم كما كانوا يظنون، وثار البعض على ستيفن وعاد من تمكن منهم العودة إلى وطنه، بينما ظل البعض الآخر مع ستيفن، انتظاراً لحدوث المعجزة التي لم تحدث لهم. وفي هذا الوقت عرض تاجران

هما هيو أن أيرون Hugu of Iron ووليم William الخنزير أن يضعا السفن تحت تصرف الصبيان وينقلونهم بدون أجر إلى فلسطين، وقد تم وركب الصبيان وظل مصيرهم مجهولاً لفترة من الوقت.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أحد الرحالة الغربيين الذين عاشوا في القرن الخامس عشر الميلادي ذكر أن مقدم طائفة الإسماعيلية في الشام استغل إثنين من الأساقفة المنشقين على الكنيسة اللاتينية في أن يهيئوا لستيفن ولصبي آخر في إلمانيا يدعى نيقولا Nicolas، هذه الرؤية الباطلة التي أدت إلى هلاكهم أو بيعهم كعبيد في مصر أو في تونس، ومن وصل منهم سالماً إلى عكا أثار دهشة أهلها الذين اعتقدوا بعدم وجود حكومات أو قوانين في أوروبا تمنع هذا الجنون الذي اعتبر عاراً على أوروبا بأسرها.

أما عن نيقولا الذي ظهر في كلونيا بألمانيا في نفس الوقت الذي ظهر فيه ستيفن في فرنسا، فإنه ادعى أنه سيخلص بيت المقدس عن طريق نشر المسيحية بين المسلمين. ونجح في أن يجمع حوله بضعة آلاف من الصبيان انضم إليهم أيضاً كثير من العاهرات والرجال الذين لا أخلاق لهم. وادعى أيضاً أن البحر سينشق أمامهم مثلما ادعى ستيفن. وتولى نيقولا بنفسه قيادة ما يقرب من عشرين ألفاً واتخذوا طريقهم إلى إيطاليا عبر جبال الألب وقابلوا البابا في روما، ولكنه فشل في إعادتهم إلى أوطانهم. وكان لا بد أن يهلك الكثير منهم في الطريق، فلم يصل إلى جنوه إلا الثلث فقط. ولم تحدث لهم المعجزة التي كانوا ينتظرونها. وانتهى بهم الأمر بأن أبحر بعضهم من بيزا وبرنديزي إلى الشرق وتبنى الإيطاليون من تبقى منهم. ولم يختلف مصير هؤلاء الصبيان عن مصير الصبيان الذين صاحبوا ستيفن. وعندما علم آباؤهم بهذه الكارثة ثاروا على والد نيقولا لتشجيع ابنه وشنقوه.

هذه هي أحوال مصر والشام الإسلامية والشرق اللاتيني بأقسامه الخمسة، مملكة بيت المقدس الإسمية وإمارة كل من إنطاكية وطرابلس ومملكة أرمينية بالإضافة إلى مملكة قبرص، في بدايات القرن السابع الهجري (أوائل

القرن الثالث عشر الميلادي)، فضلاً عما كان يسود الغرب الأوروبي والدولة البيزنطية في نفس هذه الفترة التي سبقت قيام الحملة الصليبية الخامسة، ومن الملاحظ أيضاً أنه بسبب انحراف الحملة الصليبية الرابعة ولأسباب أخرى عديدة بدأ الاستعداد والدعوة لحملة صليبية أخرى هي الحملة الصليبية الخامسة لتحقيق الهدف الأصلي للحملة المنحرفة وهو غزو مصر توطئة للاستيلاء على الأراضي المقدسة بعد ما فشلت كافة المشروعات السابقة للقيام بهذا الغرض.



الفصل السادس

الحملة الصليبية الخامسة

أسباب الحملة:

تنقسم الأسباب المباشرة إلى أقسام ثلاثة: الأول منها يتعلق بالجانب الإسلامي والثاني يختص بالجانب الصليبي في الشام والثالث يرجع إلى الجانب الأوروبي. وعن الجانب الإسلامي فإن صلاح الدين الأيوبي تمكن من ضرب الصليبيين وإنزال الهزيمة تلو الأخرى بهم وذلك بعد سيطرته على مصر والشام. أما بعد وفاة صلاح الدين فإن الدولة الإيوبية كانت تعاني من التمزق والاضطراب بسبب الفرقة والخلاف بين أفراد البيت الأيوبي. وربما ارتاح الصليبيون والغرب الأوروبي إلى ما وصلت إليه حالة الممالك الإسلامية من التفكك والانقسام، ولكن بعد أن تمكن العادل من جمع شمل البيت الأيوبي تحت لوائه ومن أن يحتل إلى حد ما مكانة أخيه صلاح الدين من الناحية السياسية على الأقل، فقد أزعج دلك أهل الغرب الأوروبي والصليبيين في الأرض المقدسة وجعلهم يعجلون بضربة أرادوها أن تكون قاصمة للعالم الإسلامي قبل أن يتمكن العادل من تطويق الإمارات الصليبية في الشام والقضاء على البقية الباقية من الوجود الصليبي في المنطقة، في الوقت الذي لم تكن فيه الإمارات الصليبية المتقلصة تتحمل ضربة أخرى مماثلة لضربة صلاح الدين بسبب ما كان يعتريها من ضعف وتفكك وانقسام نتيجة الخلافات التي قامت بينها، فضلاً عن عوامل الانهيار الأخرى الكامنة فيها.

وهنـاك سبب آخر يخص الجـانب الإسـلامي يتعلق بشخصيـة العـادل وسلوكه تجاه الصليبيين، فالمعروف أن العادل كان يبادر أو يوافق على عقـد هدنة جديدة كلما انقضت مدة الهدنة السابقة. كما أنه لم يقم بالهجوم على الممتلكات الصليبية، وإنما التزم بـواجب الدفـاع عن ممتلكاتـه إذا ما أغـار الصليبيون عليها. وربما لجأ العادل إلى هذه السياسة في أول الأمر بسبب المشاكل الداخلية التي اعترت الدولة الأيوبية ـ بعد وفاة مؤسسها ـ من نزاع على الحكم أو بسبب المجاعات التي وقعت في مصر. أما عن التزام العادل بهذه السياسة بعد أن استقر له الأمر، فإن ذلك مرجعه إلى طبيعة العادل المسـالمة. وربما تكون هذه السياسة تجاه الصليبيين التي كانت لها مبرراتها في نظر العادل قد أطمعت الصليبيين والغرب الأوروبي في ضرب العالم الإسلامي ممثلاً في مصر وعلى رأسها مثل هذه الشخصية قبل أن يتولى أمرها شخصية أخرى تكون أشد صلابة وأكثر عناداً تجاه الصليبيين. ولذلك فإنه عندما قـام العادل ببنـاء حصن الطور بالقرب من عكا، اعتبرت الإمارات الصليبية أن في ذلك اعتداء عليها وتهديداً للوجود الصليبي في الشام، وأحس الفرنج أن العادل بدأ يتحول من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم. فانزعجوا واضطروا لعقد الهدنة. وفي نفس الوقت أرسل الملك جان دي برين إلى البابا في روما أنـوسنت الثالث يطلب منه إعداد حملة صليبية تكون مستعدة للقدوم إلى الشرق مع موعد انتهاء هذه الهدنة أي في عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ).

أمـا عن الجانب الأوروبي فـإن الحملة الصليبية الخـامسـة ليست هي التفكير الأول لضرب مصر في بدايات القرن الثالث عشر الميلادي (أوائل القرن السابع الهجري). فقد سبقتها الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤ م في مستهل حكم العادل وقد يكون ذلك مرجعه أن الغرب الأوروبي حاول التعجيل بضرب مصر قبل أن يستتب الأمـر للعادل. ولكن هـذه الحملة انحرفت عن هـدفها الأصلي وهاجمت مدينة زارا ثم مدينـة القسطنـطينية وأسقـطت الامبراطـورية البيزنطية إلى حين. وإذا كان البابا قد أيد انحراف الحملة طالما أن ذلك يؤدي

إلى توحيد الكنيستين الغربية والشرقية، إلا أنه كان يأمل أن تستكمل الحملة مسارها إلى مصر. ولكن ذلك لم يحدث رغم ما بدله البابا أنوسنت الثالث من جهود في هذا الشأن، وذلك بسبب اقتناع قادة الحملة بما أحرزوه من نصر وما حققوه من مكاسب بإقامة الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية على أنقاض الامبراطورية البيزنطية. ومما لا شك فيه أن انحراف الحملة عن هدفها الأصلي وفشل البابا في السيطرة عليها وتوجيهها إلى مصر قد أضاع الكثير من هيبة البابوية في الوقت الذي كان يسعى فيه البابا جاهداً لإعلاء شأنها باحتوائه الحركة الصليبية والسيطرة على الغرب الأوروبي دينياً ودنيوياً. وإذا كانت هذه الحملة قد أضاعت بعضاً من النفوذ البابوي، فإن حملتي الصبيان اللتين قامتا في عام ١٢١٢ م وما آلتا إليه من نتائج قد قضيتا أيضاً على جزء كبير من هيبة البابوية، لدرجة أن بعض المؤرخين الغربيين المحدثين اعتبروها عاراً على أوروبا بأسرها. وإذا أمعنا النظر في الحملة الرابعة وحملتي الصبيان نجد أن البابوية قد فشلت فشلاً ذريعاً في القيام بأي عمل عسكري تجاه الشرق، وكان على البابا أنوسنت الثالث أن يقوم بعمل صليبي ضخم عساه يجني من ورائه نصراً يعوض به فشل الحملة الرابعة ويمحو الآثار التي ترتبت على حملتي الصبيان وأخيراً ليستكمل به انتصاراته على ملوك أوروبا وأباطرتها.

ومن ذلك يتضح أن العوامل الجوهرية المباشرة للحملة تنحصر في توحيد العادل للقوى الإسلامية في مصر والشام وبناء حصن الطور، واقتناع الغرب الأوروبي والقادة الصليبيين بضرورة ضرب مصر لتأمين ممتلكاتهم في الشام واستعادة البيت المقدس. هذا بالإضافة إلى العوامل غير المباشرة التي أسلفنا إليها، فضلاً عن بعض العوامل الأخرى التي مهدت السبيل لقيام الغزو الصليبي. ويرجع بعض هذه العوامل إلى النواحي السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي سادت أوروبا قبيل قيام طلائع الحملة الصليبية الخامسة في عام ١٢١٧ م.

فالعامل السياسي الذي ساعد على قيام الحملة هو أن البابا أنوسنت

الثالث سعى جاهداً طوال فترة بابويته إلى فرض سلطانه على الممالك المسيحية في أوروبا. وقد نجح في ذلك الوقت إلى حد كبير لدرجة أنه أصبح سيداً على كل ربوع أوروبا تقريباً خاصة بعد ما تمكن من فرض سلطانه على الملك حنا ملك إنجلترا وعلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا الذي يعتبر القوة المنفذة لإرادة البابا، وتأييده للامبراطور فردريك الثاني في اعتلائه عرش إلمانيا. وتجلت السيادة البابوية في موقعة بوفين عام ١٢١٤ م. كما يبدو أيضاً أن البابا قد تشجع في الدعوة إلى الحملة الخامسة بعد انتصار المسيحيين على المسلمين في إسبانيا في موقعة العقاب عام ١٢١٢ م (٦٠٨ - ٦٠٩ هـ) فأراد أن يكلل هذا النصر في الغرب بنصر آخر في الشرق بغزو مصر.

والجانب الاقتصادي الذي ساعد على قيام الحملة هو ترحيب أهل المدن الإيطالية كالمعتاد بالحملات الصليبية لما يعود عليهم من منافع اقتصادية. حقيقة أن العادل قد منحهم بعض الامتيازات في بعض الموانى الإسلامية وبصفة خاصة في مدينة الإسكندرية، إلا أنهم كانوا يطمعون في الاستيلاء على الموانى نفسها، وتتضح أطماع الإيطاليين في ميناء دمياط في معارضتهم الجلاء عنها عندما تقدم الكامل بعرض السلام إلى قادة الحملة الصليبية الخامسة قبل وبعد استيلاء الصليبيين على المدينة.

أما عن العامل الاجتماعي فرغم معارضة الرأي العام الغربي المعاصر للحركة الصليبية، إلا أن العامة كانوا ينضمون إلى صفوفها لما يعود عليهم من فوائد. فقد كانت الحملات الصليبية هي الوسيلة الوحيدة التي يهربون عن طريقها من وطأة الظلم الاجتماعي ومن دفع الديون وفوائدها فضلاً عن البحث عن مناخ أفضل للحياة بالإضافة إلى التكفير عن خطاياهم بالاشتراك في هذا العمل المقدس من وجهة نظرهم. وقد ساعد على ذلك المجهود الكبير الذي قام به بعض الدعاة والمبشرين خاصة في فرنسا، فضلاً عما أعلنه البابا أنوسنت الثالث بأنه سيسير بنفسه على رأس الحملة، فكان ذلك عاملاً مشجعاً. وهكذا تهيأ الجو للبابا في أوروبا وفي الشرق للقيام بالحملة المنتظرة، وبدأ يعد العدة

لعقد مجلس اللاتيران الكنسي في عام ١٢١٥ م.

مجلس اللاتيران الكنسي:

والواقع أن البابا إنوسنت بدأ دعوته لهذا المجلس منذ عام ١٢١٣ م، فأرسل الكاردينال روبرت أف كورسون Robert of Corcon مندوباً عنه إلى فرنسا للدعوة للمؤتمر وللحملة. وطلب البابا من العائلة الملكية مساعدته بكل إمكاناتها. واتجه روبرت إلى فرنسا وبدأ عمله بحل بعض المشاكل الداخلية وعلى رأسها مشكلة الربا، ومشكلة اعتداء مندوبي البابا على سلطات رجال الدين في اسقفياتهم. ويبدو أن روبرت قام بهذا الإجراء لمحاولة تهيئة الظروف للدعوة للحملة وكسب رجال الدين إلى جانبه لمساعدته في تحقيق الهدف الذي أوفد من أجله إلى فرنسا. وانتشرت الأنباء في فرنسا عن الحملة المرتقبة التي انضم إليها عدد كبير من العامة كذلك سمح روبرت للمسنين من الرجال والنساء ولذوي العاهات والأطفال بالإنضمام إلى صفوف الحملة. ولكن هذا الترخيص الذي أصدره روبرت ضايق كثيراً من النبلاء الفرنسيين واشتكوا إلى البابا واستجاب البابا لشكواهم وطالب روبرت بمراعاة اللياقة البدنية والصحية للمتطوعين. وبالإضافة إلى الدعاية المبدئية للحملة في فرنسا فإن البابا أعلن بأن المسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقى من مملكة بيت المقدس اللاتينية وأنه لا سبيل لصمود هذه المملكة وإعادتها إلى ما كانت عليه إلا بالمال والرجال. وطالب كافة المسيحيين بحمل السلاح للقضاء على المسلمين. كما كتب البابا إلى الملك العادل في عام ١٢١٥ م (٦١٢ هـ) قبل انعقاد المؤتمر يطالبه بتسليم بيت المقدس. ويبدو أن العادل لم يعبأ بمثل هذا الخطاب ولم يتوقع وصول حملة صليبية في القريب العاجل بدليل أنه لم يستعد عسكرياً لملاقاة الحملة المرتقبة، وأنه كان بمصر عندما وصلت طلائع الحملة إلى الشام في صيف عام ١٢١٧ م (٦١٤ هـ).

وبعد أن قام البابا بالدعاية المبدئية للحملة والدعوة لمجلس اللاتيران الكنسي انعقد المجلس في الحادي عشر من نوفمبر ١٢١٥ م (٢٠ رجب

٦١٢ هـ) ويعتبر هذا الاجتماع من أعظم الاجتماعات المسيحية لم ينعقد مثله منذ سبعة قرون قبل ذلك التاريخ كما أنه لم يكن مثل مؤتمر نيقية أو القسطنطينية أو خلقدونية، لأنه لم ينظر في خلافات أو انشقاقات مذهبية وإنما نظر في بعض الشؤون المتعلقة بالكنيسة وكذلك مسألة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية فضلاً عن الإعداد للحملة الصليبية الخامسة وهو الهدف الرئيسي الذي من أجله عقد المؤتمر. وحضر المجلس كبار رجال الدين من الشرق والغرب وعلى رأسهم جاك دي فتري واليفر سكولاستك Oliver Scholastique كما حضره أيضاً يوستورج Eustorgc رئيس أساقفة نيقوسيا بقبرص، وراؤول أف ميرنكورت Raoul of Merencourt بطريق بيت المقدس. أما جرماس Jeremiasبطريق إنطاكية فلم يتمكن من حضور هذا المؤتمر لمرضه، ولذلك أناب عنه في الحضور بودين Baudin أسقف أنطرطوس، وعلاوة على بطارقة ، ساقفة الشام وقبرص فقد حضر فولك Fulk أسقف تولوز بفرنسا والقديس دومنيك Dominic وبطريق القسطنطينية.

ولم يقتصر الأمر على حضور رجال الدين لهذا المؤتمر، فقد أعلن البابا في جميع أنحاء العالم المسيحي عن رغبته في عقد هذا المجلس وأنه بوسع الحكام الزمنيين حضور هذا الاجتماع وأن الذين لا تسمح لهم الظروف بالحضول فيمكنهم إرسال مندوبين عنهم، وبالفعل حضر جان التوري Jean of Tetor مندوباً عن الملك جان دي برين، بالإضافة إلى مندوب عن كل من الامبراطورية الرومانية في الغرب وفرنسا وإنجلترا وإسبانيا، فضلاً عن مندوب الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ومندوب هنغاريا.

بالإضافة إلى رجال الدين البارزين والمندوبين الممثلين عن الأباطرة والملوك، فقد حضر المؤتمر أيضاً جمع كبير من المهتمين بالشؤون الدينية والسياسية. واختلف المؤرخون في تحديد عدد الذين حضروا المؤتمر، فيذكر المؤرخ روجر أوف وندوفر أن عدد الحاضرين كان يزيد عن ألف ومائتين تسعة وثمانين وأشار أن من بينهم كان إثنان من البطارقة وسبعة وسبعون من المطارنة

وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديرة. ويشير المؤرخ متى أوف وستمنستر أن عدد الحاضرين كان يزيد عن ألف ومائتين ثلاثة وستين منهم واحد وستون من رؤساء الأساقفة وأربعمائة وإثنان من الأساقفة بالإضافة إلى ثمانمائة من رؤساء الأديرة. بينما يروي الرحالة فليكس فابري Flix Fab·ı أن جملة من حضروا بلغ ألف وثلاثمائة. ويسجل رهرشت Rohricht أن الذين تجمعوا في هذا المؤتمر يزيد عن ألف ومائتين ثلاثة وثمانين، منهم سبعون من المطارنة وأربعمائة وإثني عشر أسقفاً وأكثر من ثمانمائة من رؤساء الأديرة. ويشير أرشر وكنجزفورد Archer et Kingsford أن عدد الأساقفة بلغ أربعمائة وإثني عشر ولم يذكر باقي الطوائف الأخرى. كما ذكر جون لامونت أن عدد من حضروا هذا المؤتمر بلغ ألفاً وثلاثمائة - ويتفق في ذلك مع ما ذكره الرحالة فليكس فابري - بينما بلغ مجموع الفئات التي ذكرها لامونت ألف ومائتين وثلاثة وثمانين وهي تتفق في تفاصيلها مع ما ذكره رهرشت وكتب كارل ستيفن أن جملة الحاضرين بلغت ألفاً ومائتين وخمسين من الأساقفة ورؤساء الأديرة والوعاظ ورجال القانون الذين حضروا لصياغة قرارات المؤتمر. ومن ذلك يتضح أن مجموع من حضروا المؤتمر يتراوح بين ألف ومائتين وخمسون وألف وثلاثمائة.

ومن الواضح أن عقد مثل هذا المؤتمر بهذه الصورة قد رفع من شأن البابوية إلى حد كبير، لأن الأباطرة والملوك الذين أرسلوا نواباً عنهم لحضور المؤتمر قد اعترفوا ضمناً بالسيادة البابوية على سلطانهم، علاوة على ما ساد جو هذا المؤتمر من الاعتقاد بأن الكنيسة هي الطريق الوحيد للخلاص وأن رضاء الكنيسة من رضاء الله.

وفي وسط هذا الجلال الذي أحاط بالبابوية افتتح البابا أنوسنت الثالث المجلس في الحادي عشر من نوفمبر عام ١٢١٥ م. وألقى في المجتمعين خطاباً عبر فيه عما تقاسيه مدينة القدس تحت حكم المسلمين، وأن المسلمين ينتهكون حرمات كنيسة القيامة ويتهكمون على صليب السيد المسيح. كما أشار البابا إلى أن الوقت قد حان للقضاء على المسلمين، وطالب الحاضرين

بمساعدته في القيام بهذا العمل المقدس من وجهة نظره ونظر المجتمعين. ومن الواضح أن البابا المعروف بفصاحته حاول جذب أذهان الحاضرين عندما بدأ خطابه بهذا الجانب الديني الذي يؤثر تأثيراً مباشراً في قلوب وعقول الناس لا سيما في هذه الفترة من الزمن التي ساد فيها التزمت الديني في المجتمع الغربي الوسيط. ومما لا شك فيه أن ما ذكره البابا عن سلوك المسلمين في بيت المقدس يبعد كل البعد عن الحقيقة. والدليل على ذلك هو حسن معاملة صلاح الدين الأيوبي لأسرى الصليبيين بعد استرداد مدينة بيت المقدس والمدن الأخرى وقد شهد الصليبيون أنفسهم بذلك. وعلى أية حال، فقد استطاع البابا أن يهيء الجو المناسب في المؤتمر حتى يضمن تحقيق أهدافه لدرجة أنه اعتذر شخصياً لرجال الدين الذين اشتكوا من تصرف روبرت أف كورسن بسبب تحديه لحقوقهم أثناء قيامه بعملية الدعاية للحملة في فرنسا قبل انعقاد المؤتمر.

ودارت عدة مناقشات في المؤتمر يهمنا منها ما يتعلق بالحملة الصليبية الخامسة، فقد تحدث جان التوري مندوب جان دي برين ملك مملكة بيت المقدس الإسمية فتكلم عن الحالة السيئة التي وصلت إليها المملكة وأشار بأن الهدنة مع المسلمين سوف تنتهي في صيف عام ١٢١٧م. وناقش المؤتمر عدة مشروعات لاستعادة بيت المقدس، وكان من بينها مشروع مهاجمة مصر، وانتهى الأمر بأن قرر المجلس غزو مصر. وتسهيلاً لأعمال المؤتمر فوض الحاضرون البابا أنوسنت الثالث في وضع الخطة اللازمة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ.

وبعد أن تحددت مصر لتكون هدف الحملة الصليبية المقبلة بدأ رجال القانون الذين حضروا المؤتمر في صياغة القرارات التي تضمنت موعد تجمع الحملة، وواجبات رجال الدين والحكام، ومصادر تمويل الحملة والامتيازات التي تعود على المشتركين فيها، مع تحريم الاتجار مع العرب والتهديد لمن يخالف هذه القرارات.

وفيما يتعلق بموعد تجمع الحملة فقد تحدد أول يونيه من عام ١٢١٧ م موعداً لذلك على أن يكون الالتقاء في ميناء برنديزي أو مسينا في إيطاليا أو أي مكان آخر على خليج مسينا للإبحار منه إلى الشرق. أما الذين سيذهبون بالطريق البري فعليهم أيضاً أن يكونوا مستعدين في نفس الوقت. واتفق على أن يتولى المسؤولون إبلاغهم بخطة العمل وعلى أن يرافقهم المندوب البابوي.

وعن واجبات رجال الدين فقد طلب منهم البابا أن يتخلوا عن منازعاتهم وأحقادهم وأن يكونوا قدوة للصليبيين قولاً وعملاً، وأن يحثوا الذين يتعهدون بالذهاب مع الحملة على الوفاء بوعدهم. وأما الفرسان والأدواق والأمراء والكونتات ومن في مستواهم فعليهم الكف عن المنازعات والحروب لمدة ثلاث سنوات حتى يسود السلام كافة أنحاء أوروبا وتتمكن الحملة من القيام في الموعد المحدد.

وإذا انتقلنا إلى مصادر تمويل الحملة، فإن البابا بدأ بنفسه وقدم ثلاثين ألف جنيه، علاوة على ثلاثة آلاف مارك فضي. كما فرض على نفسه وعلى كافة الكرادلة في الكنيسة اللاتينية أن يقدموا عشر دخلهم، أما باقي الطوائف الدينية فيتحملون ١/٢٠ من دخلهم. كما طلب البابا من الذين سوف لا يذهبون مع الحملة بكافة طبقاتهم أن يمدوا إخوانهم الصليبيين المتوجهين مع الحملة بالمصاريف الضرورية لمدة ثلاث سنوات. وعهد البابا إلى بطريق بيت المقدس وإلى رئيسي جماعتي الفرسان الداوية والاسبتارية أمر الصرف من هذه الأموال لصالح الحملة.

وأوضحت القرارات التي صدرت عن المؤتمر بعض الامتيازات الروحية للذين يساهمون في الحملة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر. فقد وعد البابا الذين يقدمون سفنهم لحمل الجنود أو الذين يعملون في بناء هذه السفن أو يساهمون في نفقات الحملة بغفران خطاياهم. فضلاً عن الإعفاءات المادية للذين سيذهبون مع الحملة على نفقتهم الخاصة. فقد قرر البابا إعفاءهم من دفع الضرائب بمجرد حمل الصليب، بالإضافة إلى وضع أملاكهم تحت حماية

الكنيسة لحين عودتهم وإرجاء دفع ما عليهم من ديون لليهود. وكلف البابا رجال الدين بتنفيذ ذلك.

كذلك تقرر منع الاتجار مع العرب مع تهديد من يخالف ذلك بمصادرة تجارته. وفوق هذا وذاك فقد أعطت القرارات الحق لمن يقبض على أي تاجر لاتيني يتعامل مع العرب أن يعامله معاملة الأسرى.

ومن الطبيعي أن يهدد البابا بحرمان كل من يخالف أي بند من البنود السبعة عشر التي صدرت عن مجلس اللاتيران في التاسع عشر من يناير عام ١٢١٦ م، كما وعد كل من يعمل على تنفيذ هذه التعليمات بنصيب من الغفران كل بقدر إسهامه في تخليص الأرض المقدسة. كذلك أمر البابا بإعلان هذه القرارات في أيام الآحاد والأعياد الرسمية في كافة أنحاء البلاد الخاضعة للكنيسة اللاتينية في روما.

الدعوة للحملة:

ولكي يضمن ا لبابا تنفيذ هذه القرارات وقيام الحملة في الموعد المحدد، قام بإرسال الدعاة والمبشرين للدعوة لها في كافة أرجاء الغرب حتى يعملوا على تهيئة أذهان المسيحيين للإنضمام إلى صفوفها. وانتشر الوعاظ في معظم ربوع أوروبا لتهيئة الرأي العام الغربي عن طريق الخطب والاجتماعات لحشد الصليبيين. ولجأ الوعاظ إلى دفع النبلاء على حمل الصليب ليكونوا قدوة للعامة، كما لجأ بعضهم إلى الإشارة بأن القوة الإلهية قد وعدتهم بالنصر على المسلمين.

والمنابع الغربية مليئة بالأمثلة الدالة على استغلال النعرة الدينية لدى أهل الغرب للاشتراك في الحملة، ومن ذلك ما ذكره روجر أف وندوفر في كتابه تحت أحداث سنة ١٢١٧ م، من أنه في شهر مايو من السنة المذكورة (محرم - صفر ٦١٤ هـ) ظهر في السماء السيد المسيح مصلوباً على خشبة الصليب ثلاث مرات في ثلاث مناطق متفرقة بمقاطعة كولونيا بالمانيا، الأمر الذي جعل

الشعب الأوروبي يهب عن بكرة أبيه للانضمام إلى صفوف الحملة وتخليص بيت المقدس. ويزودنا الكاتب بتفاصيل هذه الظاهرة قائلاً أنه لاح في السماء شيء أشبه ما يكون بالصليب في ثلاثة أماكن، الأول تجاه الشرق وكان الصليب أبيض اللون والثاني تجاه الجنوب وبنفس اللون والشكل، أما الثالث فكان يتوسطهما ولكن لونه كان أسود. والصليب الأوسط الأسود هو الذي يمثل السيد المسيح مصلوباً والآخرين للصين كما هو معروف عند المسيحيين. ويستطرد موضحاً أن المسيح كان مثبتاً عليه وقد دقت المسامير في يديه وقدميه بينما رأسه متدلية إلى أسفل. ويقول أن هذه الظاهرة تكررت أكثر من مرة في سماء المقاطعة وفي إحدى المرات ظهر بالقرب من الشمس صليب أزرق اللون وأن كثير قد شاهدوه، وفي مرة أخرى ظهر صليب أبيض كبير الحجم شاهده الآلاف من الناس، ويضيف بأن هذا الصليب كان يتحرك ببطء من الشمال إلى الشرق.

ومن الواضح أن مثل هذه الظواهر هي أقرب إلى الأساطير والخرافات التي كان المسؤولون في الغرب يستغلونها لتحريك الشعور الديني لدى مواطنيهم ضد المسلمين في وقت كان عامة الشعب في الغرب الأوروبي يغط في الجهل كما كانت الكنيسة الكاثوليكية متسلطة على مصائر الأفراد تحركهم كيفما تشاء.

كما لعب الشعر دوراً في الدعاية للحملة فضلاً عن أن بعض الوعاظ أعلن أن البابا أنوسنت الثالث سيتوجه بنفسه على رأس هذه الحملة لزيادة حماس الصليبيين وازداد التبشير والدعاية للحملة خاصة في فرنسا وإلمانيا وإنجلترا وإيرلندا وإسكتلنداوالمدن الإيطالية فضلاً عن الإمارات الصليبية في الشام.

وفيما يتعلق بالدعوة للحملة والتبشير بها في فرنسا، نجد أن ذلك بدأ قبل انعقاد مجلس اللاتيران عندما أوفد البابا روبرت أف كورسون إليها. ولكن نظراً لاستياء رجال الدين من تصرفات روبرت، فقد أرسل البابا إلى فرنسا بعد انتهاء المؤتمر جاك دي فتري الذي يعتبر أشهر من قام بالتبشير للحملة. فقد سبق له الدعاية للحملة الالبيجنسية في جنوب فرنسا. وقد أعطته هذه التجربة السابقة

خبرة واسعة في مثل هذه الأمور. ولذلك نجح نجاحاً كبيراً في المهمة التي كلف بها واكتسب صفة شعبية واسعة أثناء جولاته في فرنسا. والمعروف أنه بذل جهداً كبيراً لحث أهل فرنسا على حمل السلاح والتوجه مع الحملة مشجعاً إياهم على الوفاء بوعدهم للاشتراك فيها. ورغم هذا، فقد صادف جاك دي فتري بعض الصعوبات أثناء قيامه بواجبه. ذلك أن الفرنسيين كانوا لا يرغبون في العمل إلى جانب الألمان في الحملة المرتقبة أو حتى التجمع معهم في مدينة برنديزي أو مسينا للتوجه إلى الأرض المقدسة. وعلى أية حال، فقد استمر جاك دي فتري يعظ في فرنسا حتى عين أسقفاً لمدينة عكا التي وصل إليها في الرابع من نوفمبر عام ١٢١٦ م وخلفه في فرنسا سيمون Simon أسقف مدينة صور التي كانت في أيدي الصليبيين وقتها، وقد بدأ عمله في فرنسا في الشهر التالي من نفس العام.

ويبدو أن سيمون لم يكن بليغاً كسلفه جاك دي فتري، فلم تكن إجاباته على تساؤلات المواطنين الفرنسيين مقنعة خصوصاً فيما يتعلق بقرارات المؤتمر وكثيراً ما كان يكتفي بذكر أن البابا لم يغير شيئاً من خطته. والمهم أن عملية الوعظ والتبشير في فرنسا قد آتت أكلها، وتجمع عدد كبير من الصليبيين. ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض رجال الدين في فرنسا سمحوا للنبلاء الذين سجلوا اسمهم في سجل الحملة بتأجيل الوفاء بوعدهم ورحيلهم إلى الشرق في الموعد المحدد، ففي الوقت الذي كانوا يهددون فيه العامة بقرار الحرمان إذا ما طلبوا نفس الشيء. وقد سبب هذا التصرف من قبل رجال الدين قلقاً كبيراً للبابا شخصياً، علاوة على الغضب الذي ساد صفوف العامة. وربما لجأ رجال الدين إلى هذا الإجراء للحصول على المال من النبلاء. وهذا يفسر فتور الروح الصليبية بين أهل الغرب من ناحية وعلى أن رجال الدين اتخذوا من الفكرة الصليبية ذريعة لاكتناز المال من ناحية أخرى.

هذا وقد قام بالتبشير بالحملة في فرنسا أيضاً الكاردينال جريفاس Grivas الذي حث أودو Odo دوق برجنديا وتيبوت Thibaut دوق اللورين على حمل

الصليب والذهاب مع الحملة حتى يستفيدا من كافة الامتيازات التي يتمتع بها كل من إنضم إلى صفوف الحملة.

وانضم إلى طائفة الوعاظ في فرنسا القديس دومنيك - الذي أطلق لحيته منذ انعقاد مجلس اللاتيران كدليل منه على الذهاب مع الحملة إذ قام بالتبشير بها في فرنسا إلى جانب زملائه، كما استغل وجوده في فرنسا وقام بالدعوة للحملة الالبيجنسية في جنوب فرنسا في نفس الوقت.

وبالإضافة إلى هؤلاء الوعاظ فقد توجه إلى فرنسا - عقب الانتهاء من أعمال المؤتمر - جان التوري مندوب الملك جان دي برين ليبلغ الملك فيليب أوغسطس وابنه لويس والبارونات الفرنسيين بقرارات المجلس، وليحثهم على التشاور فيما بينهم من أجل استعادة بيت المقدس. ويبدو أن الملك الفرنسي وباروناته لم يكونوا على استعداد للذهاب مع الحملة، فاكتفوا بتقديم المساعدات المالية. فقدم فيليب ١/٤٠ من دخله لدعم الحركة الصليبية ومساهمة منه في نفقات الحملة، وقد حذا حذوه كثير من النبلاء في تقديم المساعدات المالية للحملة.

وصفوة القول أنه رغم اهتمام البابا بالدعوة للحملة في فرنسا وإرسال مشاهير رجال الدين وأكثرهم فصاحة إليها، فقد وجدت في فرنسا بعض المشاكل منها فتور الروح الصليبية عند النبلاء بعكس العامة رغم شعورهم بعدم وجود النبلاء إلى جانبهم. وثانياً عدم رغبة الفرنسيين في العمل إلى جانب الألمان، وثالثاً جشع رجال الدين في ابتزاز أموال النبلاء للترخيص لهم بتأجيل الوفاء بوعودهم كما أسلفنا.

وأسند البابا مهمة الدعوة إلى الحملة في إلمانيا إلى بعض الأساقفة ورؤساء الأديرة وبعض رجال الدين الآخرين. ولكن أعظمهم نجاحاً كان أوليفر سكولا ستك الذي كان يتولى أسقفية بادنبورن في إلمانيا. وقام أوليفر بالتبشير للحملة في أقاليم فريزنا وفلاندرز وبارابانت وأترخت وبعض المناطق الأخرى، ونجح في مهمته نجاحاً كبيراً واستطاع أن يجمع ما يقرب من خمسين ألفاً من

الصليبيين وإن كان هذا العدد مبالغاً فيه إلى حد كبير. ويبدو أن أعمال أوليفر قد حازت رضا البابا لذلك عينه كاتباً للمندوب البابوي في الحملة.

وقام ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربري في إنجلترا بتعبئة الشعب الإنجليزي للمشاركة في الحملة، رغم ما كان يسود إنجلترا في هذا الوقت من الاضطرابات. ووعد الملك حنا بحمل الصليب والذهاب مع الحملة، و لكنه قصد من وراء ذلك أن يضع تاجه تحت حماية الكنيسة والحصول على مزيد من رضا البابوي لمساندته ضد باروناته الثائرين عليه. وكان النبلاء الإنجليز أوفى عهداً من ملكهم، وقد رحل مع الحملة النبلاء الذين وعدوا بحمل الصليب وبروا بوعدهم.

كما طاف المبشرون بإيرلندا وإسكتلندا للدعاية للحملة لتشجيع أهل هذه البلاد للانضمام إلى صفوفها. أما المدن الإيطالية فإن التنافس التجاري بينها وبخاصة بين كل من بيزة وجنوه لم يجعلهما قادرتين على العمل جنباً إلى جنب في سبيل الحملة. وقد أخذ البابا على عاتقه تسوية هذا النزاع، ولكنه مات وهو في طريقه إلى الجنيوية والبيازنة للعمل على فض هذا النزاع.

وكان لا بد أن تحظى الدعاية للحملة والتبشير بها بعناية خاصة في الإمارات الصليبية بالشام باعتبارها محصلة الحركة الصليبية ومنطقة المواجهة مع المسلمين، فضلاً عن أنه يوجد بالشام الأماكن المقدسة التي قامت من أجلها الدعوة للحركة الصليبية منذ أكثر من مائة عام قبل ذلك التاريخ. لذلك رأى البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ ـ ١٢٢٧ م) الذي خلف البابا أنوسنت الثالث أن يرسل إلى تلك الإمارات الكاردينال جاك دي فتري نظراً لفصاحته وبلاغته وتحمسه الزائد لمشروع الحملة. فعينه البابا هونوريس أسقفاً لمدينة عكا وليتولى مهمة الوعظ والتبشير والدعوة للحملة المقبلة. ووصل جاك دي فتري إلى عكا في الرابع من نوفمبر عام ١٢١٦ م ليتولى مهام منصبه الجديد. واستاء جاك دي فتري مما وجده في المجتمع الصليبي في الشام، فقد وجد مجتمعاً صليبياً غير مترابط يحوي في طياته كثيراً من التناقضات. كما

شاهد التنافس الشديد بين أهالي المدن الإيطالية الذين انضموا إلى المجتمع الصليبي في الشام لا بدافع الولاء للحركة الصليبية، ولكن سعياً وراء الأرباح التي تعود عليهم من وراء التجارة. وقد أدت هذه المنافسة إلى المشاجرات الدامية بينهم مما كان له أسوأ الأثر في الإمارات الصليبية خاصة في كل من صور وعكا. ولذلك أطلق عليهم جاك دي فتري اسم المرتزقة، وكذلك عانى الكثير من الإفرنج المتمشرقين الذين كان يطلق عليهم اسم Poulains «بولان» والذين تأثروا بالعادات الشرقية خاصة في ملبسهم واستخدامهم اللغة العربية في حياتهم اليومية، هذا بالإضافة إلى افتقارهم للروح الصليبية واعتيادهم على حياة الكسل والترف والفساد. ولذلك اعتبرهم جاك دي فتري جماعة من الخونة الغشاشين الأفاقين لتفشي الفجور والدعارة بينهم فضلاً عن كونهم جواسيس للمسلمين. أما المسيحيون الشرقيون في الشام فقد كانوا يكرهون حكم الصليبيين ويفضلون عليه حكم المسلمين. وربما يرجع ذلك إلى اختلافهم مع الصليبيين مذهبياً، فقد كانوا من السريان واليعاقبة والنساطرة والموارنة والأرمن.

هذا علاوة على الخلافات السياسية بين الإمارات الصليبية نفسها. لذلك كانت المهمة الملقاة على كاهل جاك دي فتري صعبة ومعقدة، ولكنه رغم ذلك كله فقد استطاع أن يجدد الحماس الصليبي بعض الشيء في الإمارات الصليبية.

ولم يقتصر الأمر على أصوات الوعاظ ومندوبي البابا ورجال الدين في التبشير بالحملة، فقد لعب الشعر دوراً كبيراً في حث الأوروبيين على حمل الصليب. واختار الشعراء فكرة الحملات المقدسة لتكون موضوعاً لأشعارهم. كما عبر الشاعر بونزأف كابدال في شعره عن رغبته في عقد الصلح بين ملكي إنجلترا وفرنسا ليسود بينهما السلام، وأن يتصافى كل من فردريك الثاني وأوتو الرابع في إلمانيا من أجل استعادة بيت المقدس. كما أعجب الشاعر أمري Aimery بتحمس البابا للحملة، وأرسل أشعاره إلى الماركيز وليم أف مونتفرات William of Montferrat يحثه على التوجه إلى الأرض المقدسة، فضلاً عن

الأشعار التي رفعت غفلاً من الأمضاء إلى فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وأوتو منافس الامبراطور فردريك الثاني في إلمانيا، وحنا ملك إنجلترا تحثهم على إنهاء الحروب الدائرة بينهم والتوجه إلى الأرض المقدسة.

وإذا كان الوعظ للحملة والدعوة لها قد تطلب جهداً كبيراً من البابا ورجاله فإن عملية جمع الأموال طبقاً لقرار مجلس اللاتيران قد واجهت بعض المتاعب أيضاً. ففي إسبانيا كانت الحرب دائرة بين المسلمين والمسيحيين وهي الحرب التي دعا إليها البابا أنوسنت الثالث في عام ١٢١١ م، وقد تطلب ذلك جمع الأموال اللازمة لتغطية نفقاتها. ولذلك فإن جمع أية مبالغ أخرى للحملة الصليبية الخامسة قد قوبل باحتجاج شديد. كما أن تحصيل الأموال في إسكتلندا لم ينفذ بكل دقة. أضف إلى هذا أن بعض الناس في أنحاء أوروبا كانوا يتساءلون عن فائدة الأموال المودعة في خزانة البابا والأموال التي يدفعها رجال الدين. ورغم هذا كله فقد تم جمع مبلغ كبير من المال للانفاق على الحملة المرتقبة. وتجمعت هذه الأموال لدي إيمار Aymard أمين مال الفرسان الداوية في باريس، ثم أرسلت إلى مارتين Martin أمين مال الداوية وإلى جارين أف مونتاني Garin of Montaigne ماريشال الاسبتارية في الأرض المقدسة وإلى القادة الصليبيين ليوزعوها بمعرفتهم بالعدل على جنودهم. ومن الملاحظ أن هذه الأموال لم تسلم من الاختلاسات، فقد اتهم روبرت أف كورسون باختلاس بعض هذه الأموال وهذا هو السبب الرئيسي في إبعاده عن مهمة الوعظ في فرنسا. كما أن البابا قد استاء أيضاً من هذا التصرف وأمر بإجراء التحقيق معه في هذه الواقعة. وإن دل ذلك على شيء فإنه يدل على ضعف الروح الصليبية حتى لدى كبار رجال الدين واتخاذهم من الحركة الصليبية وسيلة لابتزاز الأموال.

هكذا نجح البابا أنوسنت الثالث في عقد مجلس اللاتيران الكنسي وفي إرسال الوعاظ إلى كافة أنحاء أوروبا للدعوة للحملة والتبشير بها، يساعدهم في ذلك رجال الدين، كما أنه كان على اتصال دائم بهم للوقوف على مدى

استجابة أهل الغرب الأوروبي للحملة. وتلقى وجهات نظرهم فضلاً عن أنه تبنى موضوع تسوية الخلافات التي كانت قائمة بين المدن الإيطالية ولكنه مات في بروجيا Perugia في شمال إيطاليا وهو في طريقه لتسوية هذه الخلافات عام ١٢١٦ م عن ست وخمسين عاماً بعد أن تولى كرسي البابوية لمدة ثمانية عشر عاماً، قضاها في عمل دائم ومستمر من أجل سيادة البابوية وفي سبيل نجاح الحركة الصليبية دون أن يتطرق إلى نفسه اليأس أو الملل. وتولى بعده الكاردينال سنسيوس Censius تحت اسم البابا هونوريوس الثالث وسار هونوريوس على هدى المبادىء التي اتخذها مجلس اللاتيران فيما يتعلق بالحملة. وربما يرجع ذلك إلى أن البابا الجديد كان هادىء الطبع ولم يرغب في الدخول في صراعات مع الحكام الزمنيين. ولذلك فضل توجيه جهده وجهد العالم الأوروبي نحو الحرب الصليبية، خاصة بعد أن هيأ له سلفه الجو المناسب لقيامها ووضع كافة الخطوط الرئيسية الخاصة به.

ولما كان على البابا هونوريوس الثالث أن يطلع العالم الصليبي على موقفه من الحملة فقد كتب إلى الملك جان دي برين يشجعه ويؤكد له عزمه على إرسال الحملة وأنه سيتم العمل الذي بدأه سلفه أنوسنت الثالث بنفس الحماسه والإخلاص. كما كتب أيضاً إلى جميع الأساقفة ورجال الدين يحثهم على الاستمرار في الدعوة للحملة والتبشير بها والعمل على زيادة حماس البارونات والفرسان استعداداً للذهاب إلى الأرض المقدسة. هذا، فضلاً عن إيفاده جاك دي فتري إلى الأراضي المقدسة ليتولى منصب رئيس أساقفة عكا بالإضافة إلى الدعوة للحملة المقبلة في الإمارات الصليبية بالشام. ومن الملاحظ أن موت البابا أنوسنت الثالث لم يؤثر تأثيراً كبيراً على قيام الحملة. فقد عمل البابا هونوريوس الثالث بكل جهده لقيام الحملة في موعدها لاسترداد بيت المقدس ورغم هذا فقد صادف البابا الجديد كثيراً من الصعاب، أهمها الصراع الحاد الذي تجدد في إنجلترا بين الملك هنري الثالث والبارونات عقب موت الملك حنا عام ١٢١٦ م ومطالبة أوتو الرابع بعرش إلمانيا مرة أخرى وعدم

وفاء الامبراطور فردريك الثاني بوعده في قيادة الحملة.

وإذا كان موقف البابا هونوريوس من الحملة هو نفس موقف البابا أنوسنت الثالث فما هو موقف الملوك والأباطرة في أوروبا من الحملة؟ من الملاحظ أنه حتى قبيل اجتماع مجلس اللاتيران الكنسي في عام ١٢١٥ م كان الصراع والتطاحن بين الملوك والأباطرة يسود القارة الأوروبية من أقصاها إلى أقصاها تقريباً. هذا بالإضافة إلى الحملة الالبيجنسية القائمة في جنوب فرنسا والحروب بين المسلمين والمسيحيين في شبه جزيرة إيبريا مما شغل الأوروبيين إلى حدما

موقف حكام أوروبا من الحملة

وفيما يتعلق بموقف الملك حنا ملك إنجلترا فنجد أنه قد وعد بحمل الصليب وبهذا لاح الأمل للبابوية في الملك الإنجليزي لقيادة الحملة بغرض استعادة الأرض المقدسة. ولكن الملك حنا كان يعلم جيداً أنه لو ترك إنجلترا فإن البارونات الإنجليز سينجحون في الحصول على مزيد من الامتيازات على حساب الملكية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الملك الإنجليزي لم يكن على وفاق مع البابا، وأن ما حدث من تقارب بين الرجلين هو تقارب ظاهري قصد البابا والملك من ورائه مصلحتهما فقط. وعلى أية حال فقد ماتا أنوسنت وحنا قبل قيام الحملة وخلف أنوسنت الثالث هونوريوس الثالث وخلف يوحنا الملك هنري الثالث. وقد وعد الملك الجديد بحمل الصليب لا رغبة منه في الذهاب مع الحملة بل رغبة منه في الحفاظ على رضاء البابوية فقط.

وبالنسبة لموقف فيليب أوغسطس ملك فرنسا فقد كان أمل البابا فيه أكثر من أمله في الملك الإنجليزي حنا وذلك لارتباط فيليب ارتباطاً كبيراً بمملكة بيت المقدس الصليبية الإسمية فقد كان بمثابة مستشار إمارة عكا الصليبية، وهو الذي رشح جان دي برين لعرش مملكة بيت المقدس الإسمية للزواج من ماريا وريثة عرش بيت المقدس. كما أن جان التوري مندوب الملك جان دي برين توجه إلى فيليب أوغسطس بعد انتهاء أعمال مجلس اللاتيران ليحثه على إنقاذ مملكة بيت المقدس. علاوة على هذا فقد وجه البابا إلى فرنسا اهتماماً زائداً

للدعوة للحملة والتبشير بها قبل وبعد انعقاد مجلس اللاتيران الكنسي في عام ١٢١٥ م.

وبالإضافة إلى هذا كله فإن العلاقة بين البابا وفيليب كانت طيبة إلى حد بعيد في معظم الأوقات. ورغم هذا فقد اعتذر فيليب أوغسطس عن حمل الصليب وقيادة الحملة. وكان عذره في ذلك هو انتشار الهرطقة في جنوب فرنسا وأن ابنه لويس يحارب مع عساكره في الحملة الالبيجنسية للقضاء على هؤلاء الهراطقة.

أما في النرويج فقد نجحت الدعوة للحملة ووعد الملك أنجي الثاني Ingi II بحمل الصليب والتوجه إلى الأرض المقدسة ولكنه مات في ربيع عام ١٢١٧ م.

ورغم أن البابا كان يأمل في ذهاب الملك حنا والملك فيليب أوغسطس مع قواتهما إلى الأراضي المقدسة ضمن الحملة المزمع قيامها فإن أمله الكبير كان معقوداً على الامبراطور فردريك الثاني. ذلك لأن فردريك يعتبر صنيعة البابوية. فقد كان البابا أنوسنت الثالث وصياً عليه بعد وفاة والدته أيام كان صبياً يحكم صقلية، كما أن البابا سانده بكل ثقله في صراعه ضد أوتو عندما قام الأخير بغزو صقلية عامي ١٢١٠ م و ١٢١١ مما ترتب عليه عزل أوتو واختيار فردريك الثاني ملكاً على إلمانيا وعندما توج فردريك الثاني في عام ١٢١٢ م في مدينة أكس لاشابل رد هذا الجميل للبابا أنوسنت الثالث ووعد بحمل الصليب. ومما لا شك فيه أن هذا الإعلان من قبل فردريك الثاني قد زاد الأمل في نفس البابوية فضلاً عن ذلك فإن الامبراطور فردريك الثاني كان ابناً باراً للبابوية ـ قبل قيام الحملة ـ وكان يعمل دائماً على الحصول على رضا البابوية، ففي عام ١٢١٢ م أعلن ولاءه للكنيسة وجعل البابا المرجع الأخير في كافة الأمر التي تتعلق بالكنيسة في مملكته. ولذلك ساندته البابوية مرة أخرى ضد أوتو وحلفائه. ومما أكد أمل البابا في فردريك الثاني لقيادة الحملة هو ما أعلنه الأخير ـ بعد ما توجه سيفريد Sifride رئيس أساقفة مينز إمبراطوراً للإمبراطورية

الغربية ـ عن اشتراكه في الحملة التي قررها مجلس اللاتيران الكنسي. وأضاف أنه ليس لديه عمل أفضل من محاربة العرب. وكان لموقف فردريك الثاني من البابوية ومن قرارات مجلس اللاتيران الكنسي ووعده بالذهاب إلى الأرض المقدسة أثراً كبيراً في نفوس الأمراء الألمان. فقد حذوا حذو إمبراطورهم وعقدوا اجتماعات متعددة لهذا الغرض كما انضم إليهم كبار رجال الدين وبدأوا يعملون جميعاً جنباً إلى جنب. وزاد من اطمئنان البابوية أن فردريك كان يجلس بنفسه في الكنيسة ويطالب المواطنين الألمان بالانضمام إلى صفوف الحملة وكلل هذا النشاط الكبير الذي تزعمه الامبراطور فردريك بانضمام عدد كبير إلى الحملة من البافاريين والفريزيين والسكسون وأهل مورافيا وبرابانت وستراسبورج وبعض العناصر الأخرى.

ورغم الآمال المعقود على فردريك ونشاطه الملحوظ في الدعوة للحملة فلم تظهر عليه بوادر الوفاء بوعده للرحيل مع الحملة في أول يونيه من عام ١٢١٧ م ثم اعتذر عن الذهاب على رأس القوات الصليبية ووعد باللحاق بها وعلل ذلك بأن أوتو الرابع ظهر مرة أخرى ليطالب بعرش إلمانيا وأنه مضطر للبقاء في أوروبا لحماية ممتلكاته. وكان هذا الموقف من جانب الامبراطور الألماني بمثابة صدمة كبيرة للبابا هونوريوس الثالث، ولكنه لم يفعل شيئاً من شأنه أن يسيء إلى العلاقات بين الامبراطور والبابوية واكتفى بعتاب فردريك وأمرائه على أمل أن يلحقوا بالحملة.

وهكذا ضاع الأمل أيضاً في قيادة الامبراطور الألماني للحملة الصليبية الخامسة ولم يبق في أوروبا ممن وعدوا بحمل الصليب سوى أندريه الثاني Andre II ملك هنغاريا (١٢٠٥ ـ ١٢٣٥ م). فقد تعهد بحمل الصليب وفاء لعهد قطعه أبوه على نفسه لم يتمكن من الوفاء به. فاتصل البابا بالملك الهنغاري ولكن الملك اعتذر في أول الأمر بسبب الحرب الأهلية الدائرة في بلاده. وهكذا ضاع الأمل في كافة الحكام الأوروبيين في تولي قيادة الحملة. ولا شك أن ذلك كان له أسوأ الأثر في نفس البابا وعلى نتائج الحملة كلها.

ولكن البابا لم ييأس وعاود الاتصال مرة أخرى بالملك أندريه الثاني فوافق آخر الأمر على قيادة الحملة. وهي المعروفة في التاريخ باسم الحملة الهنغارية والتي تعتبر من وجهة التخطيط العام طليعة الحملة الصليبية الخامسة أو مقدمة لها. ويلاحظ أن الحملة التي قادها أندريه تختلف عن الحملة التي قادها جان دي برين للهجوم على مصر.

الحملة الهنغارية:

هكذا استقر الأمر أخيراً على قيام الملك أندريه الثاني على رأس الحملة التي تحدد لها أول يونيه من عام ١٢١٧ م موعداً لقيامها، حسب ما تقرر في مجلس اللاتيران الكنسي وهو نفس موعد انتهاء الهدنة مع المسلمين. وكان على أندريه إعداد السفن اللازمة لنقل الجنود من مراكز تجمعها على خليج مسينا بإيطاليا إلى الأراضي المقدسة. فبدأ بإرسال سفارة من جانبه على رأسها الكسندر سيبنبرجن Alexendre Sibenburgen وفوضه بسلطات واسعة في عقد اتفاقية مع بطرس زياني Peter Ziani دوج البندقية لنقل جنود الحملة إلى سواحل الشام. وتم الاتفاق، وبموجبه تنازل أندريه نهائياً عن مدينة زارا وإطلاق حرية التجارة بين هنغاريا والبندقية، مقابل أن تمدهم البندقية بعشر سفن كبيرة الحجم نظير خمسمائة وخمسين ماركاً فضياً عن كل سفينة، بالإضافة إلى بعض سفن أخرى أقل حجماً من السفن العشرة، على أن يدفع لكل سفينة مبلغاً من المال يعادل نسبة حجمها. وقد تم الاتفاق على دفع مجموع المبالغ على ثلاث دفعات. تدفع الدفعة الأولى منها في عيد العنصرة (٥ مايو ١٢١٧ م) ويتم دفع الثانية قبل نهاية مايو، أما الأخيرة فيتم دفعها عند قيام الحملة. وقد تم إعداد السفن اللازمة لنقل الجنود وأصبحت مستعدة للإبحار إلى عكا في الخامس والعشرين من يوليو من نفس العام، وبذلك تأخر موعد قيام الحملة حوالي شهرين تقريباً. ولهذا السبب فإن الملك الهنغاري بدأ السير من بلاده في بداية شهر يوليو في طريقه إلى مدينة سبلاتو Spalato - التي اختيرت أخيراً كمنطقة لتجمع الحملة - برافقه ليوبولد Leopold دوق استريا وعديد من الأساقفة

والكونتات بالإضافة إلى جموع الصليبيين. واتخذ الجميع طريقهم عبر موانيء ساحل دالماشيا.

وفي الثالث والعشرين من أغسطس وصل أندريه ورجاله إلى سبلاتو حيث استقبله أهل المدينة استقبالاً رائعاً وأكرموا ضيافته ومن معه من الجنود. وقد تأثر أندريه بهذه الحفاوة فأهدى إلى المدينة قلعة سليسا Clissa المجاورة لهم، كما أهدى إليهم أيضاً الجزيرة المقابلة لهذه القلعة. ولما كان عدد الفرسان الصليبيين يزيد عن عشرة آلاف فارس بالإضافة إلى عدد كبير من المشاة فكان على الملك الهنغاري الانتظار لعدة أسابيع حتى يتم توفير السفن الكافية لنقل كل هؤلاء الجنود، في حين فضل بعض الفرسان العودة إلى بلادهم على أن يلحقوا بالحملة في الربيع القادم. أما عن الفرنسيين الذين انضموا إلى قوات أندرية فكانوا قليلي العدد، ذلك لأن القوات الفرنسية أرسلت إلى الشرق على فترات امتدت حوالي سنتين قبل وبعد ذلك التاريخ، فضلاً عن أنهم كانوا لا يفضلون العمل إلى جانب المجريين والألمان. أما القوات الألمانية فلم تنضم إلى قوات الملك الهنغاري ولم تعمل في صفوف الحملة الهنغارية في الشام لأنها اتخذت الطريق البحري في الشمال حتى وصلت إلى البرتغال وهناك انضمت إلى إخوانها المسيحيين وحاربت المسلمين ثم اتجهت بعد ذلك إلى إيطاليا ومنها إلى عكا فوصلتها في ربيع عام ١٢١٨ م أي بعد انتهاء أعمال الحملة الهنغارية وعودة أندرية إلى بلاده. والمهم أن الملك الهنغاري وجنوده ظلوا ينتظرونهم على ساحل دالماشيا حتى نفذت أموالهم. فاضطر أندرية إلى فرض بعض الضرائب والاستيلاء على بعض الأوعية المقدسة من الكنائس فضلاً عما تم بيعه ورهنه من العقارات لمواجهة نفقات الحملة المتزايدة. وبعد أن مل أندريه ورجاله انتظار إخوانهم الألمان تحركت دفعة منهم تحت قيادة ليوبولد دوق استريا ووصلت إلى عكا في بداية سبتمبر من عام ١٢١٧ م، يدفعهم الأمل في نجدة الأراضي المقدسة واستعادة بيت المقدس.

وما أن وصل ليوبولد إلى عكا حتى أرسل سفارة إلى بوهمند الرابع أمير

إنطاكية يدعوه للانضمام للحملة. وقد لبى بوهمند الدعوة وأحضر معه بعض الأمراء الصليبيين منهم جي أف جبيل Guy of Jebail وشخص يدعى برتران Bertran وآخر يدعى وليم William وهما من جبيل أيضاً بالإضافة إلى جان مارشال طرابلس. وبعد أن التقى هؤلاء الزعماء اتفقوا على إرسال سفارة إلى قبرص لدعوة الملك هيو للانضمام إلى الحملة. وتكونت السفارة من فيري أف بيتو Feri of Beto وهو من أعيان إلمانيا وجارنييه Garnier وهو من أعيان الصليبيين. كما انضم إلى الحملة أيضاً جوتييه الثالث Gautier III صاحب قيسارية (١٢١٧ - ١٢٢٩ م) وجان دبلين صاحب بيروت - الوصي السابق على عرش مملكة بيت المقدس الإسمية وابنه فيليب، فضلاً عن راؤول بطريق بيت المقدس، وعدد آخر من كبار رجال الدين على رأسهم جاك دي فتري وسيمون أسقف صور وغيرهم بالإضافة إلى رؤساء جماعات الفرسان الداوية الاسبتارية والتيوتون وآخرين غيرهم.

وفي تلك الأثناء واجه الزعماء المجتمعون في عكا انتظاراً لوصول الملك أندريه والملك هيو، واجهوا مشكلة نقص المواد الغذائية لتموين الحملة. وتفاقمت الأزمة حتى بيع الرغيف الصغير بحوالي إثني عشر ديناراً مما دفع الجند إلى السلب والنهب، فسلبوا ونهبوا كل ما وقع تحت أيديهم ولم يتورعوا عن سلب المنازل والأديرة. وكانت هذه الأزمة سبباً في هلاك عدد كبير من الصليبيين وضعف الروح المعنوية بينهم فأشار بعض الأساقفة والقادة على الصليبيين بالعودة إلى أوطانهم. وفعلاً رحل عدد كبير منهم إلى ديارهم. ونتيجة لما حدث سادت الفوضى المعسكر الصليبي، ورأى القادة الصليبيون ضرورة القيام ببعض الأعمال العسكرية ضد المسلمين لشغل الصليبيين عن الحالة التي وصلوا إليها. وفي هذا الوقت وصل الملك هيو ملك قبرص ومعه قائد الجيش القبرصي وعدد كبير من التركوبول والفرسان، هذا بالإضافة إلى يوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا. كما وصل أيضاً في نفس الوقت الملك أندرية الذي بدأ رحلته من ميناء سبلاتو في أوائل سبتمبر سنة ١٢١٧ م تاركاً ورائه الجزء الأكبر

من جيشه. وربما يكون ذلك بسبب قلة إمكاناته المالية.

على أية حال، فإنه عقب وصول الملك أندريه عقد القادة مجلساً للحرب حضره الملوك الثلاثة أندريه وجان دي برين وهيو، كما حضره بوهمند أمير طرابلس وانضم إليهم من الأساقفة جاك دي فتري أسقف عكا وسيمون أف موجاستيل Simon of Maugastel رئيس أساقفة صور وروبرت Robert رئيس أساقفة الناصرة وراؤل دي ميرنكورت بطريق بيت المقدس هذا بالإضافة إلى يوستورج رئيس أساقفة نيقوسيا وعدد آخر من رجال الدين والفرسان. وعرض على هذا المجلس الخطة التي سبق أن تدارسها - قبل وصول الحملة الهنغارية - جان دي برين مع رؤساء الداوية والاسبتارية والتيوتون.

وتتلخص هذه الخطة في قيام بعض القوات الصليبية بمهاجمة مدينة نابلس للتمويه على هدف الحملة الرئيسي وهو غزو مصر. وفي نفس الوقت تقوم القوات الرئيسية للحملة بمهاجمة مدينة دمياط تمهيداً للاستيلاء على مصر كلها باعتبارها الطريق الوحيد لهزيمة المسلمين في الشام واستعادة الأرض المقدسة. ولكن مجلس الحرب المنعقد أرجأ تنفيذ هذه الخطة لوقت لاحق وذلك بسبب قلة القوات وعدم توافر السفن اللازمة لنقل جنود الحملة إلى مدينة دمياط استعداداً للقيام بهذا الغزو الكبير. وبعد أن طرحت هذه الخطة جانباً تدارس المجلس خطة أخرى تهدف إلى مهاجمة مدينة بيت المقدس. ولكن المجلس أرتأي عدم إمكان تنفيذها لعدم توفر الماء الكافي لقواتهم عند المدينة المقدسة، وبعد أن تعذر على القادة المجتمعين تنفيذ خطة مهاجمة دمياط أو بيت المقدس قرر المجلس مهاجمة مدينة دمشق، وبدأ القادة الصليبيون في إعداد الجيش تمهيداً للقيام بهذا الهجوم. ولما أصبحت القوات الصليبية على أهبة الاستعداد لمنازلة المسلمين قدم راؤل - بطريق بيت المقدس الإسمي - في خشوع واحترام شظية الصليب إلى الملك أندريه باعتباره قائد القوات المجتمعة علامة على بداية الحرب.

وفي هذه الأثناء كان الملك العادل مقيماً بالقاهرة، وقد بلغه نزول

الصليبيين بالشام واجتماعهم لمهاجمة المسلمين. فخرج من مصر متجهاً إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد. وعندما علم الصليبيون بقدومه غيروا خطتهم، وبدلاً من مهاجمة دمشق خرجوا من «عكا ليقصدوه». وساروا في طريقهم إلى مدينة بيسان في نفس الوقت الذي سار فيه العادل إلى بيسان أيضاً «لحماية أطراف البلاد مما يلي عكا»، ونجح العادل في الوصول إلى بيسان قبل أن يصل إليها الصليبيون. وصعد العادل إلى تل المدينة وأخذ يراقب الصليبيين وهم في طريقهم إليه عن طريق عين جالوت يتقدمهم الملك أندرية، وقد بلغ عددهم ما يقرب من خمسة عشر ألفاً. ورأى العادل أنه من الأفضل عدم الاشتباك مع الصليبيين لكثرتهم العددية وقلة عساكره «لأن العساكر كانت متفرقة في البلاد»، وقرر التراجع عن مدينة بيسان. ولما استعد للانسحاب من المدينة قال له ابنه الملك المعظم «إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال بمن أقاتل أقطعت الشام مماليك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول». ويروي أبو شامة أن العادل أضرم النار في مدينة بيسان قبل أن ينسحب منها. بينما يذكر تاريخ هرقل أنه عندما وطأت أقدام الصليبيين مدينة بيسان وجدوها خالية من السكان فنهبوها واستولوا على كل ما وقعت عليه أيديهم. وهذا يوضح أن العادل لم يشعل النار في المدينة لأنه لو اشتعلت المدينة لما وجد الصليبيون فيها ما ينهبوه. أما ابن الأثير فيروي أن أهل مدينة بيسان اطمأنوا إلى وجود العادل بينهم فلم يفارقوا المدينة ففاجأهم الصليبيون ولم يستطع ا لنجاة منهم إلا القليل. وتؤكد هذه الرواية أن العادل لم يحرق المدينة. وتتفق رواية كل من ابن واصل والمقريزي مع ما ذكره كل من ابن الأثير وتاريخ هرقل. والأرجح أن العادل انسحب فجأة من بيسان ـ دون أن يشعل فيها النار ـ في الوقت الذي وطأت فيه أقدام الصليبيين للمدينة، ويبدو أن انسحاب العادل بهذه الصورة قد شجع الصليبيين على التمادي في مهاجمة المنطقة الواقعة بين بيسان وبانياس. وليس ذلك فحسب، بل أنهم توغلوا داخل الأراضي الإسلامية وانتشرت جنودهم في القرى حتى وصلت إلى خسفين ونوى وأطراف السواد وقاموا

بأعمال النهب والسلب. بالإضافة إلى أنهم قتلوا خلقاً عظيماً، كما حاصروا مدينة بانياس لمدة ثلاثة أيام ثم عادوا إلى عكا محملين بالغنائم والأسرى، سوى «ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا»، وذلك في الوقت الذي أقام فيه العادل بمرج الصفر بعد انسحابه من بيسان.

وبعد أن استراح الصليبيون بمرج عكا اتجهوا شمالاً إلى مدينة صور الصليبية ومنها اتجهوا إلى مدينة صيدا الإسلامية فأغاروا عليها ونهبوها، ثم أغاروا على الشقيف وأنزلوا بها ما أنزلوا بصيدا ثم عادوا إلى عكا مرة أخرى.

ومن الواضح أن أعمال القتل والسلب والنهب التي مارسها الصليبيون في هذه الغارات قد أزعجت المسلمين وتسببت في غلاء الأسعار. وخاف الناس على أنفسهم وعزموا على ترك البلاد وامتلأت المساجد بالضجيج والدعاء، ولم يطمئن أهل دمشق الا بعد أن رأوا الملك المجاهد صاحب حمص وقد أتى إلى دمشق على رأس عساكره لنجدة عمه العادل. لذلك خرج الأهالي لاستقباله وكان يوماً مشهوداً.

كما أن العادل نفسه قد أنزعج أيضاً لدرجة كبيرة حتى أنه بعث «بأثقاله ونسائه إلى بصرى». ومهما يكن أمر هذا الانزعاج، فإن الملك العادل بدأ يستعد لملاقاة الصليبيين بعد أن وافته الإمدادات. فقام بتجهيز ابنه المعظم عيسى صاحب دمشق بطائفة من الجند وأرسله إلى نابلس لكي يمنع الصليبيين من الوصول إلى مدينة بيت المقدس.

ويبدو أن ما أحرزه الصليبيون من نصر في الغارات السابقة قد أغراهم على مزيد من الهجمات ضد القلاع والحصون الإسلامية. وكان حصن الطور من القلاع المتقدمة التي تهدد كيان الصليبيين والذي من أجله طلب الملك جان دي برين من البابا أنوسنت الثالث إعداد الحملة الصليبية الخامسة. وكان جان دي برين غير مقتنع بضياع الجهود الصليبية في الغارات التي لا تعود إلا بالأسلاب والغنائم فحسب، بل كان يرى القيام بعمل عسكري ضد حصن

الطور الذي يهدد أمن مملكته. ويبدو أن هذا العمل لم يحظ بموافقة الجميع، لذلك نجده يقوم من جانبه بإعداد حملة لمهاجمة هذا الحصن وتدميره. ومن الملاحظ أن الملك أندرية والملك هيو لم ينضما إلى هذه الحملة، كما أنه لم ينتظر مساعدة الهيئات الدينية. ولم يلحق به سوى بوهمند الرابع أمير إنطاكية

واتجهت هذه الحملة الجزئية إلى حصن الطور فوصلته يوم الأربعاء ثامن عشر من شعبان عام ٦١٤ هـ، ٢٠ نوفمبر ١٢١٧ م. ويبدو أن الظروف لم تساعدهم على شن هجوم سريع على الحصن، وربما يرجع ذلك إلى مناعة حصن الطور. فانتظروا إلى يوم الأحد الثاني من رمضان (٣ ديسمبر) من نفس العام حيث ساعدهم وجود ضباب كثيف على مهاجمة الحصن. ولم يشعر المسلمون الذين بداخل الحصن إلا برماح الصليبيين وقد التصقت بجدار الحصن.

ورغم ذلك لم يستسلم المسلمون بل فتحوا باب الحصن وانقضوا على المهاجمين «بالفارس والراجل» مما جعل الصليبيين يرتدون إلى أسفل الحصن، وبدأوا في إعادة تنظيم صفوفهم استعداداً لمهاجمة الحصن مرة أخرى. وفي الرابع من رمضان (٥ ديسمبر) هاجموا الحصن من الناحية الشمالية الشرقية واستخدموا سلماً كبيراً زحفوا به وألصقوه بجدار الحصن ودار بين الفريقين قتال عنيف، ورجحت كفة الصليبيين لدرجة أنهم كادوا يستولون عليه. ولم يستسلم المسلمون لليأس، وأبدوا شجاعة فائقة في الدفاع. وتمكن أحد الزراقين من ضرب السلم بالنفط فأحرقه، كما قتل أيضاً عدداً من أعيان الصليبيين فصاحوا وكسروا رماحهم. وفي نفس الوقت استشهد بعض المسلمين منهم الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم. ولما كان المسلمون يقدرون أهمية حصن الطور بالنسبة لهم وللصليبيين فقد قرروا القتال حتى الموت. ومن الواضح أن انتصار المسلمين قد فت في عضد الصليبيين فلم يتمكنوا من مهاجمة الحصن مرة أخرى فقرروا الانسحاب. وقاموا باشعال النار حول الحصن لتغطية انسحابهم ورحلوا في فجر يوم الخميس السادس من رمضان (٧

ديسمبر) ومعهم بعض الأسرى. وكان من بين الأسرى بعض الأطفال فنصرهم راؤل بطريق بيت المقدس وجاك دي فتري أسقف عكا. وتكشف فكرة تنصير المسلمين عن التزمت الديني عند الصليبيين، وارتباط الناحية التبشيرية بالفكرة الصليبية نفسها بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضهما وبخاصة منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي بعد فشل الحملات الصليبية العسكرية خلال القرن الثاني عشر في تحقيق أهدافها في رقعة الشرق الأدنى الإسلامي.

والمهم أن الصليبيين فشلوا في الاستيلاء على حصن الطور الذي يعتبر أحد الأسباب المباشرة لقيام الحملة الصليبية الخامسة - التي كانت الحملة الهنغارية طليعة لها - وذلك بسبب عدم شجاعة الفرسان الصليبيين، وقلة المياه عند الحصن، فضلاً عن بسالة المسلمين في الدفاع عنه. أما تاريخ هرقل فيروي أن سبب فشل الصليبيين يرجع إلى عدم وجود آلات الحصار اللازمة، لذلك انسحبوا بعد عشرة أيام من الحصار. وعلى أية حال، فإنه بعد انسحاب الصليبيين حضر الملك المعظم وصعد إلى الحصن «وأطلق المال وطيب قلوب الناس» وشكر لهم ما صنعوه.

وبعد عودة الصليبيين من غاراتهم الفاشلة على حصن الطور رأى بعضهم القيام بعمل عسكري آخر علهم يحققون من ورائه نصراً يستردون به كرامتهم المهدورة. فاتجهوا إلى مرج عيون وشقيف أرنون. وأثناء تواجد الصليبيين في هذه المنطقة صمم ديونيسيوس Dionisus ابن أخت أندرية ملك هنغاريا على مهاجمة جبل صيدا. وقد نهاه صاحب صيدا الصليبي وقال له «هؤلاء رماة وبلد وعر» ولكن ديونيسيوس لم يقبل النصيحة وقام ومعه خمسمائة من أبطال الصليبيين واتجهوا إلى الميادنة، فأخلاها أهلها فنزل بها الصليبيون وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا. ولكن أهل الميادنة لم يتركوهم ينعموا بهذه الراحة فنزلوا عليهم من الجبال وفاجأوهم واستولوا على خيولهم، وأعملوا فيهم الأسر والقتل. وكان ديونيسيوس من بين القتلى ولاذ الباقون بالفرار بعد أن تمكنوا من أسر رجل يدعى الجاموس. وقد أشار عليهم هذا الأسير بأنه يعرف طريقاً سهلاً

إلى صيدا فوعدوه بالمال، ولكنه سلك بهم طريقاً وعراً، وتمكن المسلمون من أن ينزلوا بالفارين القتل والأسر أيضاً. وشعر الباقون أن الجاموس غرر بهم فقتلوه. وتمكن أهل الميادنة من إبادة الصليبيين عن آخرهم عدا ثلاثة منهم تمكنوا من الوصول إلى صيدا. وسيق الأسرى إلى دمشق وكان يوماً عظيماً مشهوداً.

ولم يقم الصليبيون بعمل عسكري ضد المسلمين بعد ذلك حتى قدوم الحملة إلى دمياط. فقد كان الشتاء قارص البرودة وتسبب في هلاك عدد كبير من الفرنج فضلاً عن شدة الرياح التي اقتلعت خيامهم وبعثرت أمتعتهم. وقد أوجدت هذه الحوادث شعوراً لدى الصليبيين بأن الله قد تخلى عنهم. هذا بالإضافة إلى إعلان الملك أندرية في أوائل يناير ١٢١٨ م (أوال شوال ٦١٤ هـ) عن استعداده للعودة إلى بلاده. مما دفع راؤل بطريق بيت المقدس إلى تهديده بقرار الحرمان ليثنيه عن عزمه خاصة في هذه الظروف الحرجة التي يمر بها الجيش الصليبي. ولكن أندرية لم يعبأ بذلك، فرحل إلى طرابلس ومعه كثير من الصليبيين والمعدات العسكرية واصطحب معه هيو ملك قبرص وبوهمند أمير إنطاكية وطرابلس واتجه الجميع إلى طرابلس حيث تم زواج مليسند Melisende أخت الملك هيو، من بوهمند. ولم يعش هيو بعد ذلك طويلاً فقد مات في شهر فبراير ١٢١٨ م ودفن في كنيسة الفرسان الاسبتارية بطرابلس. كما قام أندرية بزيارة حصن الأكراد وحصن المرقب وأسبغ هداياه على الاسبتارية كمساعدة منه في الدفاع عن الحصنين.

وبعد ذلك عاد أندريه إلى عكا بعد أن حصل على بعض الآثار المسيحية ومنها أحد الأواني السبع التي أحال فيها السيد المسيح الماء إلى خمر ورأس كل من القديسة مارجريت والقديس ستيفن بالإضافة إلى اليد اليمنى للقديس توماس، ومن عكا اتجه إلى أرمينية حيث رتب زواج ابنه من إيزابيلا ابنة ملك أرمينية ومنها أبحر إلى أكويليا ومنها إلى بلاده.

وهكذا انتهت الحملة الهنغارية على الشام دون أن تحقق عملاً ذا أهمية

بالنسبة للموقف في الشام، كما أن الملك أندرية تسبب في إلحاق الضرر بالصليبيين عندما رحل إلى وطنه ومعه عدد كبير من جنوده. فقد كان الموقف يحتم عليهم البقاء بالشام للانضمام إلى القوات الصليبية القادمة لتهاجم دمياط أو البقاء بالشام للدفاع عن الممتلكات الصليبية أثناء تواجد إخوانهم في مصر. وعلى أية حال، فبرحيل أندرية ضاع أمل الصليبيين في هزيمة المسلمين. ويسجل أحد المؤرخين الغربيين المحدثين أن رحيل أندرية تسبب في فشل الحملة الصليبية الخامسة بأكملها.

وبعد موت هيو ورحيل الملك الهنغاري إلى بلاده تشاور الملك جان دي برين وليوبولد دوق استريا وبعض الزعماء الآخرين فيما يجب أن يفعلوه حتى تصل باقي الحملة الصليبية. واستقر رأيهم على تحصين مدينة قيسارية وبناء قلعة ضخمة في عتليت جنوبي يافا فوق جبل الكرمل. وهي القلعة التي عرفت باسم قلعة الحجاج. وقد قام بهذا العمل فرسان الداوية والاسبتارية والتيوتون. ويروى أنه أثناء قيام الصليبيين بعملية الحفر عثروا على كمية كبيرة من العملة الذهبية التي لم يعرف زمانها ولا الدولة التي صكتها، فقام الصليبيون بصهرها واستغلوها في دفع مرتبات جنودهم. وبعد أن أتموا أعمال التحصين والبناء عادوا إلى عكا، وظلوا ينتظرون قدوم باقي القوات الصليبية الآتية من أوروبا وهم يتدبرون الأمر للهجوم على مدينة دمياط تمهيداً لغزو مصر كلها.

الهجوم على دمياط

سمع السلطان العادل محمد بكل هذه الأخبار وهو بدمشق، فلم يصدق أولاً أن الصليبيين ـ وخاصة الملك حنا برين ـ سوف ينقلبون إلى الحرب بعد الهدنة، بل اعتقد كما اعتقد ابنه ونائبه في مصر، وهو الكامل محمد، أن الزعامات الصليبية في غرب أوروبا والشرق سوف تجنح إلى السلم جنوحاً طويلاً، بعد أن وضحت ثمرات العلاقات السلمية في ميادين التجارة الدولية، وبعد أن انصرفت المغامرات الصليبية إلى أقاليم الدولة البيزنطية. واستند

السلطان العادل محمد، كما استند ابنه الكامل كذلك، على ما أظهرته جمهورية البندقية سنة ١٢١٧ م من اهتمام بعقد معاهدة تجارية جديدة مع مصر، لضمان استمرار الحال على ما هو عليه منذ أوائل القرن الثاني عشر، هذا فضلاً عن وجود جالية تجارية أوروبية ناجحة بالموانى المصرية، يناهز عددها ثلاثة آلاف من مختلف الجمهوريات الإيطالية. ولذا فوجيء السلطان العادل محمد وابنه الكامل بوصول قوات صليبية كبيرة من عكا بحراً، بقيادة الملك حنا برين، إلى الشواطيء المصرية، ونزول هذه القوات عند قرية بورة، ثم زحفها على شاطيء البحر حتى الشمال الغربي قبالة دمياط القديمة، وأسرع العادل إلى إعداد جيش بالشام، على حين زحف الكامل محمد من القاهرة شمالاً بما لديه من القوات المصرية الأيوبية، فمر على فارسكور في يونيه سنة ١٢١٨ م، وعسكر أخيراً عند بلدة العادلية عل فرع دمياط، حيث أخذ يعد العدة للقتال.

ثم بدأ الصليبيون عملهم بأن حفروا حول معسكرهم خندقاً، وشرعوا في الرمي فجأة في شهر أغسطس على برج دمياط، وهو برج منيع فيه سلاسل من حديد ممدودة عبر النيل، لتمنع المراكب التي في البحر من الدخول إلى الأراضي المصرية، ومن بقاياه قرية الجربى وعزبة البرج الحاليتين. غير أن المفاجأة الهجومية مكنت الصليبيين الاستيلاء على ذلك البرج، ولم يلبثوا أن قطعوا السلاسل المتصلة به، لكي تسير مراكبهم في النيل وتتقدم بهم إلى أسوار دمياط.

ووصلت أخبار هذه الكارثة إلى السلطان العادل محمد وهو مريض بدمشق، ويخشي أن تكون هذه الأخبار مقدمة إلى ما هو أسوأ وأفدح، ولم يحتمل الصدمة، وتوفي بسببها أواخر أغسطس ١٢١٨ م، وكان عمره وقتذاك خمساً وسبعين سنة.

وخلف السلطان العادل في مصر ابنه الكامل محمد، وفي الشام ابنه

المعظم عيسى. ولم يكن شيئاً قليلاً أن ينشأ السلطان الكامل محمد ابناً للسلطان العادل، وأن يرى هذا الابن أباه يعمل دائباً بمختلف الوسائل الدبلوماسية الطويلة والقصيرة، فضلاً عن الاستعداد العسكري، لتجنيب بلاده ويلات الحروب. وكان الكامل متولياً منذ سنين نيابة السلطنة في القاهرة، متمرساً بأساليب الحكم والسياسة والدبلوماسية، والمهارة في الحرب. ولذا نهض الكامل نهوضاً حميداً، لتعويض ما نجم عن استيلاء الصليبيين على برج دمياط، فجعل بدل السلاسل الحديدية جسراً من السفن في عرض النيل، لمنع السفن الصليبية من التقدم نحو أسوار دمياط. غير أن فرقة صليبية برية استطاعت أن تخترق هذا الجسر، تمهيداً لمحاولة الوصول إلى أسوار دمياط براً، فأجاب السلطان الكامل على هذه الحركة بإغراق عدد من مراكبه في النيل، واستحال بذلك تقدم الصليبيين بحراً أو براً، من هذه الناحية.

وحوالي ذلك الوقت وصلت الفرق الفرنسية الإنجليزية المنتظَرة إلى جيزه دمياط بقيادة نائب بابوي إسباني الأصل اسمه بيلاجيوس. وكان مجيء هذا الرجل كفيلاً ببذر عوامل الشقاق والبغضاء في صفوف الصليبيين، إذ أنكر ما للملك حنا برين من قيادة عامة للحملة، وأعلن أن حنا ملك فقط بحق الزواج من ماريا بنت عموري الثاني، ثم بعد وفاتها بحق أبوته لابنتها منه، وهي يولاند التي سوف يرتبط مستقبل مملكة عكا بمستقبلها الزواجي كائناً ما يكون. وأضاف بلاجيوس أنه هو الجدير وحده بالقيادة العامة، وأنه سوف يتحمل هذه المسؤولية نيابة عن البابوية التي بذلت ما بذلت في سبيل إعداد هذه الحملة الصليبية الكبيرة. وبناء على تعليمات هذه القيادة الجديدة تحول الصليبيون في أكتوبر إلى تسيير مراكبهم في فرع قديم من فروع النيل مصبه قرب بورة، واسمه الخليج الأزرق، فحفروه حفراً عميقاً، وجرت المراكب الصغيرة فيه إلى بلدة صغيرة اسمها بستان بورة، على الشاطيء الغربي للنيل، قبالة العادلية التي كان فيها معسكر السلطان الكامل. وبذا صارت القوات الصليبية البحرية على مقربة من دمياط القديمة، وصار الجيشان الأيوبي والصليبي وجهاً لوجه، يفصل بينهما

ماء النيل، وتقاتل الطرفان قتالاً بحرياً غير حاسم دون نتيجة منظورة حتى دخل الشتاء.

واستغل بلاجيوس فرصة قدوم بعض الإمدادات العسكرية وارتفاع روح الصليبيين المعنوية وأعد قلعة قائمة مكونة من ست سفن مثبتة مع بعضها في شكل ثلاثة صفوف متوازية وهاجموا بها المعسكر الإسلامية ولكن القوات الإسلامية تصدت لهم وأجبرتهم على العودة إلى الضفة الغربية مرة أخرى. واستعد الصليبيون في محاولة أخرى لعبور النيل ولكن سقوط الأمطار أفسد خطتهم، فاضطروا إلى تأجيل عملية الهجوم لليوم التالي. ورغم أن المسلمين والصليبيين كانوا مستعدين للقتال إلا أن رداءة الجو عاقت كلا الطرفين عن القيام بأي عمل عسكري تجاه الآخر.

ثم جرت المقادير في مصلحة الصليبيين مؤقتاً، وذلك حين اضطر السلطان الكامل محمد إلى الرحيل ذات ليلة من أوائل فبراير سنة ١٢١٩ م من معسكره في العادلية، اجتناباً لمؤامرة ضده. وأصبح المعسكر المصري الأيوبي، فوجدوا أنفسهم بغير سلطان، فتركوا أثقالهم وخيامهم وأسلحتهم، ورحلوا هم أيضاً عن العادلية، على مرأى من الصليبيين على الضفة الغربية للنيل، عند ذلك بادر بلاجيوس وجنوده إلى عبور النيل إلى الضفة الشرقية، وهي الضفة التي تقع عليها دمياط، واحتل العادلية بغير قتال، واستولى على ما كان بالمعسكر المصري الأيوبي من سلاح ومؤونة. وبذا تم تطويق الصليبيين لمدينة دمياط القديمة، فأحاطوا بأسوارها من البر والبحر، وضيقوا عليها، ومنعوا الأقوات أن تصل إلى حاميتها أو أهلها. واستغرق ذلك شهر فبراير كله من تلك السنة، أي أن الصليبيين لم يستطيعوا أن يلقوا الحصار التام على دمياط إلا بعد مضي تسعة أشهر من حلولهم بالشواطيء المصرية.

أما السلطان الكامل فانتقل إلى بلدة أشموم طناح، قبالة دكرنس الحالية تقريباً ثم استقر أخيراً في فارسكور، حيث لحق به جيشه، وانضمت إليه عساكر أخيه المعظم عيسى القادم لمساعدته من دمشق. غير أن الكامل برغم نجاحه

في هدم المؤامرة السابقة ضده، وبرغم انضمام عساكر أخيه المعظم عيسى لجيشه، لم تتوفر لديه القوات الكافية لرفع الحصار الصليبي عن دمياط، أو الهجوم على المعسكرات الصليبية في بورة وبستان بورة والعادلية، لذا اضطر إلى القنوع بمناوشات حربية خفيفة على مختلف المراكز الصليبية وبمحاولات متكررة لإيصال المؤونة إلى دمياط، ريثما تصل إليه نجدات إضافية من الملوك الأيوبيين أخوته وأقاربه بالشام والجزيرة ومن الخلافة العباسية ببغداد.

ولم يكن الصليبيون في الواقع أحسن حالاً، لاشتداد الخلاف بين الملك حنا برين والنائب البابوي بلاجيوس حول خطة القتال، وانتشار أخبار ذلك الخلاف بين عامة الجنود الصليبيين.

ثم حدث وقتذاك ما لم يكن في الحسبان، وهو أن السلطان الكامل أخذ يتشكك في قرب وصول ما يحتمل أن يسعفه من نجدة خارجية، وتحول في سرعة ملحوظة إلى فكرة فريدة لم تكن من مألوف العصور الوسطى أو مقبولها أو معقولها، بين المسلمين أو الصليبيين. ومحور هذه الفكرة أن الصلح خير من الحرب، وأن السلام الدائم سيد العلاقات بين أي طرفين متحاربين، إذا توفرت بينهما حسن النية والرغبة في التوفيق، ولذا عمد الكامل في سبتمبر سنة ١٢١٩ م، بموافقة أخيه المعظم عيسى، إلى محاولة حل المسألة الصليبية الغربية الجاثمة بجيشها حول دمياط، عن طريق المفاوضة والمصالحة مع المحافظة على كرامة الطرفين.

وخلاصة ما عرض السلطان الكامل على الصليبيين أن تجلو الحملة الصليبية عن الشواطيء المصرية جلاءً تاماً، فتعود دمياط وغيرها من البلاد المحيط بها إلى أهلها وأن تبحر السفن الصليبية عن المياه المصرية. وفي مقابل ذلك يقدم السلطان الكامل للصليبيين صليب الصلبوت الذي استولى عليه صلاح الدين عند فتح مدينة بيت المقدس، وأن يرد عليهم مدينة بيت المقدس نفسها، ومعظم البلاد الفلسطينية التي استردها منهم صلاح الدين، ما عدا بلدتين صغيرتين واقعتين في منطقة الأطراف المصرية بفلسطين، وهما الكرك

والشوبك، إذ رأى السلطان الكامل وجوب بقائهما في يده، تأميناً لهذه الأطراف البرية من عادية المعتدين.

غير أن الصليبيين لم يقبلوا هذه العروض السخية، ولو كان غرضهم دينياً فقط لما ترددوا في قبولها، بعد أن وضّح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية، وهي المدن التي قامت الحروب الصليبية من أجلها، على حد قول أهلها أما السبب الذي دعا إلى رفض عروض السلطان الكامل، فهو أن المندوب البابوي بلاجيوس رأى أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم، لإملاء شروط خضوعهم، وأن مهادنتهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال بمثابة فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يرحلوا عن دمياط. وهناك سبب آخر بعيد كل البعد عن الأغراض الصليبية الدينية وهو أن المدن الإيطالية التي اشتركت في هذه الحملة الصليبية، بجنودها وأموالها وأطماعها، عز عليها أن تقبل شروطاً معناها عدم البقاء في دمياط. وهي الثغر التجاري الهام الذي تستطيع المصالح الإيطالية بخاصة، والأوروبية بعامة، أن تنفذ منه إلى جوف البلاد المصرية. ومن الحق أن يقال أن الملك حنا برين اقترح قبول شروط السلطان الكامل، لسبب واضح، وهو أن تصبح مملكة بيت المقدس الصليبية حقيقة جغرافية مرة أخرى، لا رمزاً فقط وليس له من هذه المملكة سوى عكا. ومن هنا يتبين من جديد أن الأغراض السياسية والاقتصادية، لا الدينية فحسب، هي التي حركت الحروب الصليبية جيلاً بعد جيل.

وبينما تجري المفاوضات بين السلطان الكامل والقيادة الصليبية مجراها الفاشل، جاء إلى المعسكر الصليبي في دمياط رجل مشرف على الأربعين من العمر، بالي الثياب، وليس في مظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل. كان هذا الرجل هو القديس فرنسيس الذي يرجع إليه تأسيس جماعة الرهبان الفرنسسكان، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء، أو الفقراء الرماديين، إشارة إلى لون ملابسهم الرهبانية. ووصل القديس فرنسيس إلى

المعسكر الصليبي، حيث وجد الزعامات الصليبية مختلفة حول قبول عروض السلطان الكامل، للجلاء الناجز الشامل عن دمياط والسواحل المصرية. واشترك القديس في النقاش المضطرب، ونصح بقبول عروض السلطان، حقناً للدماء. غير أن نصيحته لم تلق مجيباً، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين في فارسكور، حيث قبض عليه الحراس المصريون دون أن يبدي أية مقاومة، وهو يتكلم كلاماًلم يفهم أحد منه شيئاً سوى لفظ «صلدان»، يريد بذلك أنه يرغب في المثول بين يدي السلطان الكامل. وأخيراً وجد القديس نفسه في حضرة السلطان الكامل، تحيط به حاشية قليلة من قادته وتراجمته، وربما كان بعض أولئك التراجمة ممن اشتراهم الكامل أيام نيابته عن أبيه بالقاهرة من أفراد حملتي الصبيان. وشرح القديس للسلطان الكامل سبب قدومه إليه، واستأذن أن يعظه ويصف له المسيحية، ويدعوه إليها. وأذن السلطان للقديس في الكلام، واستمع في دماثة المتمكن من عقيدته، المحترم لعقيدة غيره.

ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن الكامل لم يجادل القديس فرنسيس فيما قال، ولم يستدع أحداً من علمائه لمجادلته، بل اكتفى بالمبالغة في إكرامه. واكتفى القديس بدوره بالإمعان في إطراء السلطان، بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين، وبعد أن طلب إليه إعطاء الإخوان الفرنسسكان سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس. ثم استأذن القديس فرنسيس السلطان في الاتصال بالجنود الأيوبيين المسلمين، والحديث إليهم، فأذن له. وظل القديس المسيحي يتقلب في معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل، فرده السلطان الكامل محروساً إلى أطراف معسكر الصليبيين. ورجع القديس فرنسيس إلى أصحابه، ليخبرهم بما شهد وسمع من أحوال المسلمين وسلطانهم، ولينذرهم بما عساه يتطور إليه مشروع الهجوم على دمياط، وليكرر عليهم فوائد عروض السلطان. لكنه وجد النية معقودة على الحرب، وهي

عكس ما أراد أن يسهم به في خدمة المسيحية، فاقتنع بأن لا مصلحة في مقامه، ونفض تراب المعسكر الصليبي عن قدميه، ويمم نحو الشام وفلسطين بإذن من السلطان الكامل، حيث أقام بضع سنوات ليؤسس للإخوان الفرنسسكان نواة أعمالهم في سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس، التي ظلت حتى العصر الحاضر.

سقوط دمياط:

أما دمياط فاشتد حولها حصار الصليبيين، وتمعن المراجع العربية والأوروبية في وصف ما حدث لحاميتها وسائر أهلها منذ أوائل الحصار الصليبي، فتقول أن الحامية الدمياطية صمدت للحصار، وقاومت مقاومة مجيدة، وأن الدمياطيين أنفسهم صبروا على ويلات الحرب، وندرة الأقوات وغلاء الأسعار، وفتك الأمراض الوبائية. ومما خفف عنهم قليلاً أن السلطان الكامل دأب منذ استقرار معسكره في فارسكور، على إرسال قوارب تموينية لمساعدة جند الحامية والسكان في محنتهم، واستعان في ذلك برجال شجعان ذوي معرفة بنظام الحراسة بين السفن والعساكر الصليبية المحاصرة. وكان من أولئك الشجعان رجل اسمه شمايل الشامي، وهو من أبناء قرية من قرى حماة، ووظيفته في المعسكر السلطاني ترتيب البريد السري الوارد للسلطان الكامل من دواوين القاهرة. واختار السلطان الكامل هذا البريدي ليكون رسوله إلى أهل دمياط، لشجاعته الفائقة. وخاطر شمايل بنفسه ليلة بعد ليلة، فسبح بين السفن الصليبية المحيطة بميناء دمياط في الظلام، وحمل إلى الحامية الدمياطية رسائل السلطان بوجوب استمرار المقاومة، وأمدهم بأخبار القوارب التموينية الصغيرة وأماكن وصولها في ساعات الفجر، محملة بالأطعمة من دقيق وسكر، وجبن وعسل، واتسعت أعمال هذا البريدي الباسل، فاستخدم المعاونين والمساعدين في البر والنهر، وخصص لكل منهم عملاً ينهض به، فاختص بعضهم بالمحافظة على استمرار وسائل المواصلات البريدية مفتوحة بين السلطان وأهل دمياط، وقام بعض ثان بإحضار المؤن إلى شاطيء النيل، ليحملها إلى

الدمياطيين في القوارب الصغيرة، وعمل بعض ثالث في إرشاد هذه القوارب وتوجيهها في جوف الليل إلى مواضع خافية آمنة، لتفريغ حمولاتها وتسليمها إلى المكلفين بتوزيعها على أهل دمياط. وهكذا تشعبت أعمال هذا الرجل حتى بات اسمه أحدوثة مقرونة بالنجدة والإغاثة، فضلاً عن الشجاعة والجسارة.

غير أن طول الحصار، وانتشار الأمراض، وقلة الأقوات عموماً، هدم المقاومة الدمياطية واستطاع الصليبيون أن يدخلوا دمياط بعد حصار ظل عدة أشهر، وكان دخولهم إ'ها في نوفمبر ١٢١٩ م، وأعقب ذلك احتلال فرقة صليبية لمدينة تانيس الواقعة على مصب الفرع التانيسي من النيل، جنوبي بحيرة المنزلة. ووجد السلطان الكامل نفسه مهدداً من ناحيتين كما يتضح، فرحل بجيشه عن فارسكور جنوباً، أواخر تلك السنة إلى موضع اختاره سابقاً فيما يبدو، وأودعه في حساب خططه الدفاعية المستقبلة، لنقل معسكره إليه إذا هو اضطر مؤقتاً للانسحاب من فارسكور. ولم يكن لهذا الموضع اسم معروف وقتذاك، كما لم تكن له أية صفة طبوغرافية تميزه عن سائر ما حوله من أراضي الدلتا الرخوة، ما عدا أنه موضع فضاء فسيح، معتدل الهواء، مثلث الشكل تقريباً، بين بحر أشموم طناح (البحر الصغير المردوم) والشاطىء الشرقي للنيل، قبالة قرية اسمها جوجر، وهي الآن من قرى طلخا الحالية.

وكان طبيعياً أن يختار السلطان الكامل هذا الموضع الفضاء الفسيح لمعسكره الجديد، لا اعتباطاً أو خبط عشواء، بل بناء على اعتبارات استراتيجية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية، ضد الحملة الصليبية التي باتت مسيطرة على دمياط، وسوف تزحف منها عاجلاً أو آجلاً للاستيلاء على القاهرة، لتحقيق ما عجزت عنه المحاولات الصليبية السابقة جميعاً. ومن هذه الاعتبارت الاستراتيجية كذلك ـ رغم صمت المراجع عن أية إشارة قصيرة أو طويلة بصددها ـ أن هذا الموضع المثلث الشكل حصين بضلعين مائيين هما البحر الصغير والنيل، فلا تستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهري طويل بعيد عن قواعده. ثم أن هذا الموضع تنتهي عنده أقصر

مسافة لوصول النجدات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام، عبر شبه جزيرة سيناء والأطراف الشرقية المصرية. وأنه كذلك قريب من طريق البريد والمواصلات الرئيسية من القاهرة، نضلاً عن قربة من ميناء سمنود ذات الصواري والسفن النيلية التجارية الكثيرة والمحاصيل الزراعية الوفيرة، والمركز الجغرافي الواصل بين مختلف بلاد الدلتا. ومن هذا وذاك، مما يسهل إستنتاجه وإدراكه. يتضح أنه لم يكن في الإمكان أحسن مما كان من اختيار السلطان الكامل لهذا الموضع لنقل معسكره إليه للوقوف عن طريق الزحف الصليبي جنوباً. وليس أدل على حسن هذا الاختيار من مجموعة الحوادث التي جرت في مسالكها، ودونت حركات الحملة الصليبية غداة زحفها من دمياط، وسجلت أوصاف النشأة الأولى لمدينة المنصورة الحالية.

أما الحملة الصليبية فاختلفت قيادتها حول موعد الخطوة التالية، بعد دخول دمياط وتنظيم حكومتها، وقرر بلاجيوس الانتظار لحين وصول حملة إضافية منتظرة بقيادة الامبراطور فردريك الثاني هوهنشتافن، قبل الشروع في حركة عامة نحو الجنوب وازداد اختلاف القيادة شدة بسبب ذلك الانتظار، ورحل الملك حنا برين غاضباً إلى عكا في فبراير سنة ١٢٢٠ م، وخلا الجو للنائب البابوي وسياسته الانتظارية في دمياط ،ولذا لم يقم الصليبيون بعمل ما حتى أواسط ١٢٢١ ما خلا ترميم الأسوار الدمياطية وتحويل جامع دمياط الكبير (جامع أبي المعاصي القديم)، إلى كنيسة كاتدرائية للعذراء، ومهاجمة بلدة البرلس هجوماً أدى إلى وقوع فئة صليبية في كمين، ولذا عادت هذه الفرقة إلى قواعدها غير سالمة.

وفي تلك الأثناء انتظر السلطان الكامل كذلك قدوم الإمداد إليه من مختلف البلاد الإسلامية، غير أنه لم يكن عارفاً بأسباب جمود الصليبيين عن الحركة، بل خشي أن يكون جمودهم هذا مقدمة لهجوم كبير. ولذا عكف الكامل في هذه المدة البالغة ثمانية عشر شهراً على تحصين معسكره الجديد، وبناء الدور والأسواق اللازمة لاستقبال النجدات التي وصلت إليه أولاً بقيادة

أخيه المعظم عيسى، وأخيه الأشرف موسى بعده. هكذا نشأت واتسعت المدينة العسكرية التي عرفها التاريخ فيما بعد باسم المنصورة والتي لا يوجد من أخبار ازدياد نموها الحربي الأول، حتى سنة ١٢٢١ سوى ما أورده المقريزي، ونصه: «المنصورة هذه البلدة على رأس بحر اشموم، تجاه ناحية طلخا. بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في أواخر سنة ست عشرة وستمائة، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط، فنزل في موضع هذه البلدة، وخيم به، وبنى قصراً لسكناه، وأمر من معه من الأمراء بالبناء فبنى هناك عدة دور، ونصبت الأسواق. وأدار الكامل عليها سوراً مما يلي البحر، وستره بالآلات الحربية والستائر».

وبديهي أن بناء هذه المدينة العسكرية في ثمانية عشر شهراً، في بقعة من أرض طينية خالية من أحجار البناء والصخور الطبيعية، لم يتسع لمتانة معمارية أو زخرفة هندسية، من طراز أيوبي أو غيره من الطرز المعمارية، بل غلب على عملية البناء كلها طابع السرعة والبساطة، والمنفعة العسكرية وحدها. وكيفما كان الأمر، فمن هذه المدينة العسكرية التي اعتبرها المؤرخون منزلة من منازل دلتا النيل، وسموها لذلك أولاً باسم المنزلة فحسب، أنفذ السلطان الكامل عيونه في يوليه سنة ١٢٢١ م، لتحقيق مدى ما ترامى إليه من وصول الحملة الإضافية المنتظرة إلى دمياط، ولكشف شيئاً مما رتبه بلاجيوس من خطة حربية، بعد جموده الطويل. ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى السلطان مصدقة بوصول الحملة الإضافية، لا بقيادة الامبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن كما كان متفقاً عليه، بل بقيادة لويس دوق بافاريا، وهذا فضلاً عن عودة الملك حنا برين من عكا إلى دمياط، للمشاركة بجيشه فيما انعقدت النيات الصليبية على القيام به بعد هذه الشهور الطويلة وبعد أن أوشك نهر النيل على موسم الفيضان وارتفاع منسوب المياة.

الزحف صوب القاهرة:

وأخيراً زحف الصليبيون جنوباً في قوات برية بحرية كبيرة نحو فارسكور،

واستولوا عليها في منتصف يوليه سنة ١٢٢١ م، ورتبوا صفوفهم عندها استعداداً لقتال قريب. وزحف السلطان الكامل بدوره شمالاً، فعبر بحر أشموم وتقدم نحو شارمساح، غير أنه رجع عنها إلى معسكره الحصين، واختار أن يجعل منه محور الارتكاز لجميع خططه المستقبلة. ولذا زحف الصليبيون جنوباً مرة أخرى حتى وصلوا إلى شارمساح واحتلوها ومدوا كتائبهم على طول مجرى بحر أشموم، إلى قرب أضحال بحيرة المنزلة، ولم يفصل بينهم وبين القوات المصرية الأيوبية سوى هذا المجرى المائي، وكان ذلك في أواخر يوليه سنة ١٢٢١ م.

ويتضح من دراسة الأوضاع الحربية للفريقين، ومن الأحوال الداخلية في المعسكرين أن القوات المصرية الأيوبية كانت أحسن مكاناً وجمعاً وروحاً معنوية، فالمعسكر الكاملي يسيطر على ضفتي النيل الرئيسي، بما في ذلك جوجر وطلخا، متحصن بمواقعه وراء بحر أشموم طناح،والامدادات الإسلامية المطلوبة واصلة إليه تباعاً من بلاد الشام والجزيرة، والأرض التي سوف يشتبك عليها الجيشان ذات قنوات وترع كثيرة، تعرفها القوات المصرية الأيوبية، ولا يعرفها الصليبيون وخاصة بعد أن وضحت بشائر الفيضان. ثم أن الجيش المصري الأيوبي صار خالياً من المؤامرات والدسائس التي أقلقت السلطان الكامل من قبل، كما أن أبناء البيت الأيوبي من أخوة السلطان وأقاربه جاءوا إليه على رأس قواتهم في حماسة ظاهرة.

وهنا كانت المعرفة بأحوال النيل،وقنواته ومياه فيضانه ذات أثر عظيم في تطور الحوادث، إذ غفل الصليبيون في حركتهم الانتشارية ـ جنوبي شارمساح على طول بحر أشموم ـ عن قناة تجري وقت الفيضان بين النيل وفرع قديم من فروعه، وسوف تمتلىء هذه القناة وشيكاً بماء الفيضان، وتصبح حائلاً بينهم وبين خط الرجعة إلى دمياط كما غفلوا عن زحف فئات من جيش السلطان الكامل شرقاً، وعبورها بحر أشموم قرب أضحال المنزلة. ثم حل الفيضان في اغسطس وامتلأ هذا وذاك بالماء، وصار من المتعذر على الصليبيين أن يعبروا

بحر أشموم، على حين قطعت عليهم القوات المصرية الأيوبية خط الرجعة إلى دمياط، ووقفت السفن المصرية الأيوبية لسفنهم بالمرصاد في عرض النيل.

والواقع أن البحرية المصرية الأيوبية اضطلعت وقتذاك بدور حاسم، إذ استولت على بضع سفن صليبية كبيرة، محملة بالمؤونة وأدوات القتال، وأسرت معظم رجالها. ثم أبحر عدد من السفن المصرية الأيوبية في بحر المحلة، وهو فرع هام كان يخرج وقتذاك من النيل قرب بنها الحالية، ويلتقي به جنوبي فارسكور، فحالت هذه السفن بين الصليبيين وما سوف يأتي إليهم من النجدات عن طريق النيل من دمياط، كما قطعت خط الرجعة كذلك على السفن الصليبية. ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمالي طلخا، فضلاً عن قطع الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة، ففاض الماء وغمر مساحة شاسعة من الأرض شمالي مواضع الصليبيين، وصارت هذه المساحة الغارقة على جانبي النيل حائلاً بينهم بين دمياط، ما عدا طريق ضيق عند أشموم طناح سده السلطان الكامل كذلك بعدد من عساكره.

هكذا انحصر الصليبيون، وتبددت آمالهم في الزحف جنوباً نحو القاهرة، ولم يبق لهم محيص، إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً شمالياً نحو قاعدتهم في دمياط. ولذا أحرقوا خيامهم ومجانيقهم، وسائر أثقالهم، وانتهزوا فرصة المستميت للانسحاب في جنح الظلام، ليلة السادس والعشرين من أغسطس، فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم، ولم يلبثوا أن أدركوا يأس موقفهم. عند ذلك ـ وليس قبله ـ انقلب النائب البابوي بلاجيوس إلى مشروع مفاوضة السلطان الكامل، وطلب منه السماح للصليبيين بالعودة إلى دمياط، للجلاء عنها دون قيد أو شرط أو مساومة جديدة، إلا ما رضي به السلطان، وذلك بعد طلب الأمان.

وعقد السلطان الكامل مجلسا للتشاور، لتقليب الرأي فيما ينبغي الإجابة به على الصليبيين، فأشار عليه بعض قادته وأهله من البيت الأيوبي أن يخلي بين الصليبيين ومأزقهم حتى تنفذ أقواتهم وقواتهم، فتنتشر بينهم المجاعة، ويأكل

بعضهم بعضاً، أو يهلكهم المرض. وأشار بعض آخر بإعطاء الصليبيين الأمان، من بـاب العفـو عنـد المقدرة، وإن كـان هـذا من غيـر المألـوف عنـد قادة الحروب في هـذه المرحلة. وبرهن السلطان الكامـل على أنه منطقي مع نفسـه ـ وتلك صفة من الصفات التي لم تذكرها له كتب التراجم، إذ مال كل الميل إلى الرأي الثاني، وهو على أية حال رأيه الأصلي، منذ مجيء الصليبيين إلى الشواطيء المصرية. ولذا بعث السلطان الكامل إلى الصليبيين ليحيطهم بأمانه، وباستعداده لقبول جلائهم الكامل عن دمياط. ثم انتهى الطرفان إلى هدنة مدتها ثمانية أعوام، بشرط موافقة الامبراطور فردريك الثاني عليها، كما انتهوا إلى إطلاق كل من الطرفين طوائف الأسرى عنده.

وفي اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٢٢١ م جـلا الصليبيون عن دميـاط ودخلتها القوات المصرية الأيوبية عصر ذلك اليوم نفسه. وقبل ذلك ببضعة أيام كوفئت مدينة المعسكر الكاملي ـ وهي التي بدأت منها هذه النتائج ـ باحتفال عظيم شهده السلطان الكامل وأخوته وأبناؤه، وزعماء الصليبيين، وعلى رأسهم الملك جان دي برين، والنائب البابوي بلاجيوس، ودوق بافاريا. وتبادل المهنئون التهاني، وتبارى الشعراء بقصائد المديح، وهكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة. وحق لمدينة المعسكر الكاملي أن تسمى «المدينة المنصورة»، على قول المقريزي، كما حق لها أن تنمو نمواً ملحوظاً، وأن تصير «مدينة كبيرة بها الحمامات والفنادق والأسواق»، مع بقاء مبانيها وملامحها العسكرية على حالها، مدة جيل أو جيلين على أقل تقدير.

وتسامع الشرق والغرب بأخبار الحملة الصليبية التي هدفت إلى الاستيلاء على مصر، وهال المعاصرون أن استولت هذه الحملة فعلاً على ثغر دمياط لمدة غير قصيرة، كما هالهم رفض الصليبيين أكثر من مرة عروض السلطان الكامل للجلاء عن مدينة واحدة، بالغة ما تبلغ من الأهمية، مقابل تسليمهم معظم مملكة بيت المقدس ثم تسامع الشرق والغرب بما رضيت به هذه الحملة من تسليم دمياط، ومن جلاء سريع عن الشواطيء المصرية، دون قيد أو

شرط. وعلم القديس فرنسيس، وهو لا يزال بالشام بتلك النتيجة الفاشلة التي أراد هو أن ينقذ الصليبيين منها، وتندر المتندرون، ومنهم فيليب أغسطس ملك فرنسا، بغفلة زعماء الحملة، وعكف الدعاة للفكرة الصليبية على إثارة أوروبا لحملة أخرى على مصر في المستقبل القريب.

أسباب فشل الحملة:

أما عن أسباب فشل الحملة الصليبية الخامسة فيرجع إلى عدة عوامل بعضها يتعلق بالجانب الصليبي، والبعض يتعلق بالجانب الأوروبي، والبعض الأخر يتعلق بالجانب الإسلامي. كما أن بعض هذه الأسباب جوهري غير مباشر والبعض الأخر ثانوي مباشر، وقد تكاتفت كلها معاً في إلحاق شر أنواع الهزيمة بالصليبيين.

والسبب الرئيسي لفشل الحملة يرجع إلى الجانب الصليبي ويشمل عدة نواح. ومن أهمها إن لم يكن أهمها على الإطلاق أخطاء رجال الدين وغرورهم واعتدادهم بأنفسهم، وعلى رأسهم المندوب البابوي بلاجيوس الذي وصفته المراجع الأجنبية بالغباء والعجرفة وقلة الحيلة، فضلاً عن أنه كان متشبثاً برأيه وغير محبوب. كما أنه تناسى وضعه في الحملة كمندوب للبابا وليس قائداً عسكرياً، وتدخل في اتخاذ القرارات العسكرية وكان عليه أن يترك هذه الأمور للخبراء العسكريين. وكانت حجته أن الصليبيين ليسوا أداة في يد مملكة بيت المقدس، ولكنهم أداة الكنيسة وبصفته مندوب البابا والكنيسة فيكون له الحق في إدارة الحملة بالكيفية التي يراها. وعلى هذا تصرف كقائد عسكري وليس كرجل دين. وقد أدى تصرف المندوب البابوي على هذا النحو إلى اختلاف وجهات النظر بينه وبين الملك جان دي برين. وأخذت الخلافات بين الطرفين تزداد يوماً بعد يوم مما أدى إلى ازدواج القيادة في الحملة. وقد أدى هذا الازدواج مع اختلاف الآراء إلى ضياع الفرص الذهبية التي أتيحت للقيادة الصليبية لتحقيق أهداف الحملة. ذلك أن الملك الكامل عرض على الصليبيين

الجلاء عن دمياط نظير استعادة جميع الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك بعد مؤامرة ابن المشطوب وعبور القوات الصليبية إلى الضفة الشرقية للنيل. ووافق الملك ومؤيدوه على هذا العرض الذي يحقق أهداف الحملة سلمياً، بينما وقف المندوب البابوي ومن يساندوه في جانب المعارضة. ثم تقدم الكامل بهذا العرض مع بعض الأموال بعد ذلك مرتين قبل سقوط دمياط ومرة أخرى أثناء زحف الصليبيين على القاهرة.

وتمسك الملك والمندوب كل منهما بموقفه السابق من العرض. وكان على المندوب البابوي تدارك الأمر في المرات الأخرى. وقد تسبب تمسكه بقرار الرفض في ضياع مملكة بيت المقدس والقضاء على الهدف الأصلي للحملة وضياع دمياط وفقدان الأرواح وأخيراً إلحاق الهزيمة بالقوات الصليبية. ويرى فليكس فابري أنه كان يجب عقاب الممثل البابوي بتقطيعه ألف قطعة على ما اقترفت يداه في حق الحملة وعلى تسببه في إلحاق العار والخزي بالصليبيين جميعاً لرفضه عروض الصلح التي تقدم بها المسلمون متجاهلاً تعليمات البابا إليه. ويرى رانسيمان أن بلاجيوس كان له العذر عندما رفض عروض الصلح لأنه كان يرى أنه من المتعذر على الصليبيين الاحتفاظ بمملكة بيت المقدس بدون وجود قلعتي الكرك والشوبك في حوزتهم. وأياً كان موقف كل من المندوب البابوي والملك جان دي برين من عروض الصلح السخية التي تقدم بها الملك الكامل محمد، فقد كشفا النقاب عن أطماعهما وتطلعهما إلى الزعامة والقيادة، الأمر الذي أضر بالحملة ضرراً بليغاً.

وإذا كان ذلك هو الجانب السياسي الذي تسبب في ضياع أهداف الحملة، فإن من أهم الأسباب العسكرية التي تسببت في هزيمة الحملة عسكرياً هو جهل الصليبيين بجغرافية البلاد المصرية وطبوغرافية الطريق الذي اختاروه للزحف صوب القاهرة، وهو الطريق المحاذي لفرع النيل الشرقي (فرع دمياط) ماراً بفارسكور وشارمساح والمنصورة، رغم علمهم بمواعيد ارتفاع وانخفاض مياه النيل. وكان يعترض هذا الطريق العديد من الترع والقنوات التي

تتفرع من النيل وهي أشبه بشبكة الصائد وتصلح لأن تكون أفخاخاً وكمائن للإيقاع بالجيش الصليبي. أضف إلى ذلك أنه محصن بمراكز الدفاع القوية التي تستطيع القوات المصرية استغلالها ضد القوات الصليبية. وفي الحقيقة أن غزو مصر من هذا الطريق كان مصيره الفشل. وقد فطن أحد المعاصرين لهذا الخطأ، إذ كتب نيقولا الأول بطريق طائفة الملكانيين بالإسكندرية في عام ١٢٢٢ م (٦١٩ هـ) بعد رحيل الحملة، إلى البابا هونوريوس الثالث يدعوه فيه إلى حث الامبراطور فردريك الثاني على سرعة المجيء إلى الشرق لمحو العار الذي لحق بالحملة الصليبية الخامسة. ويسجل فيه أن طريق السلامة هو أن تدخل السفن الصليبية من فرع النيل عند رشيد وترسي في مدينة فوة، وبذلك تكون بعيدة عن الأخطار. ويستطيع الامبراطور حينئذ أن يستولي على مصر كلها، خاصة أن فرع النيل الغربي (فرع رشيد) واسع وعميق، كما أن المنطقة التي سترسي فيها قوات الامبراطور محصنة ومليئة بالخيرات ورغم هذه المعلومات القيّمة والخطيرة عن طبوغرافية البلاد المصرية، إلا أن حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر عام (١٢٤٨ ـ ١٢٥٠ م/ ٦٤٦ ـ ٦٤٨ هـ) اتخذت نفس الطريق الذي اتخذته حملة جان دي برين، ولذلك كان نصيبها الفشل. وفي الحقيقة أن مسؤولية الفشل في هذا الجانب ترجع إلى الملك جان دي برين، فهو الذي اختار مدينة دمياط لبداية العلميات العسكرية ضد مصر. فلم تكن دمياط بالمدينة التي تصلح لتكون قاعدة يتقدم منها الصليبيون لغزو مصر.

وكما أخطأت القيادة الصليبية في اختيار الطريق السليم للزحف صوب القاهرة، فقد أهملت أيضاً العامل الزمني الذي يعتبر من أهم العوامل في انتصار أو هزيمة الجيوش. فقد أهملت هذا العامل بعد ما تمكنت القوات الصليبية من العبور إلى الضفة الشرقية بعد مؤامرة ابن المشطوب. ولو بادر الصليبيون بالزحف مباشرة تجاه مصر لتمكنوا من الاستيلاء عليها، خاصة وأن الصدمة العنيفة التي لحقت بمصر جيشاً وشعباً وحالة الارتباك التي سيطرت على القوات

الإسلامية كانا سيجعلان مهمة القوات الصليبية سهلة ويسيرة، وربما تغيرت نتائج الحملة بأكملها.

ومرة أخرى تغافلت القيادة الصليبية عن عامل الزمن. ذلك أنه رغم علم الصليبيين بموعد فيضان النيل، ورغم تحذير الملك جان دي برين للمندوب البابوي، إلا أن بلاجيوس قرر الزحف صوب القاهرة في أواخر شهر يوليو ١٢٢١ م (أوائل جمادي الثانية ٦١٨ هـ) أي في الوقت الذي أخذت بوادر الفيضان تبدو واضحة أمام أعين الصليبيين. وكان على القيادة الصليبية بزعامة بلاجيوس أن تختار الوقت المناسب لبداية عملية التقدم من دمياط جنوباً إلى مصر متجنبين الفيضان وأخطاره.

والمرة الثالثة التي تجاهل فيها الصليبيون عامل الوقت هو أن الحملة بدأت تعمل على الزحف إلى قلب مصر بعد حوالي ثلاث سنوات من قدومها إلى الشواطيء المصرية، مما أعطى القيادة الإسلامية الفرصة الكافية لإعادة تنظيم صفوفها مرة بعد أخرى. أضف إلى ذلك أنه طوال هذا الوقت والملوك الأيوبيون يعملون على دعم الجبهة المصرية سواء بالمال أو الرجال أو العتاد مما أعاد للجيش الإسلامي قوته ورفع من روحه المعنوية. وأخذ في إقامة التحصينات الكافية في الأماكن المناسبة، وتم تجهيز البحرية الإسلامية تجهيزاً قوياً حتى تمكنت من تطويق البحرية الصليبية من بحر المحلة. وفي الواقع أن فشل الحملة من هذا الجانب مرجعه إلى المندوب البابوي بلاجيوس لاتخاذه قرار الزحف في هذا الوقت غير المناسب ضارباً بنصائح الملك جان دي برين عرض الحائط سواء فيما يتعلق بموعد الزحف أو بحراسة بحر المحلة حيث بدأت أولى الهزائم التي لحقت بالصليبيين بعد ما سيطرت البحرية الإسلامية على سفن الصليبيين.

وإلى جانب العامل السياسي واختيار الطريق الخطأ للزحف صوب القاهرة وإهمال عامل الوقت، فمن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى فشل الحملة ما يرجع إلى الملك جان دي برين شخصياً. فلم يحظ الملك الصليبي

بطاعة كافة رجال الجيش. ويرجع ذلك إلى الدعاية التي روجها ضده المندوب البابوي بأنه ليس ملكاً وإنما وصياً. ولم يكن لبلاجيوس من وراء ذلك إلا هدف محدد هو هدم شخصية الملك فتعلو شخصيته على كل أفراد الحملة وبذلك تتحقق له الزعامة المطلقة. وقد أدت هذه السياسة إلى انقسام الجيش الصليبي إلى فرق وشيع إحداها تساند الملك والأخرى تؤيد المندوب البابوي الذي تسانده السلطة الروحية ممثلة في رجال الدين. ونجحت سياسة بلاجيوس وطغى بشخصيته على شخصية الملك الذي سلم بالأمر الواقع وانتحل الأعذار وعاد إلى عكا وبقي بها أكثر من عام مما أعطى بلاجيوس فرصة ثمينة لإعلاء كلمته واتخاذ قرار الزحف على مصر متغافلاً سلطة الملك. وفي الواقع فإن الملك الصليبي أصبح لا حول له ولا قوة بعد ما ركب بلاجيوس قمة القيادة على الحملة التي منحه إياها البابا هونوريوس الثالث بعد رحيل الملك. ورغم ما اتصف به الملك جان دي برين من شهامة وشجاعة وخبرة عسكرية، فلم تكن له الهيبة أو الشخصية القوية لقيادة جيش صليبي دولي.

وإذا كانت هذه الأسباب الرئيسية تتعلق بالقيادة الصليبية فهناك بعض الأسباب التي تتعلق بالقوات الصليبية نفسها. فقد كان الصليبيون كثيراً ما يتصرفون من تلقاء أنفسهم والأمثلة على ذلك كثيرة. منها أن بعض القوات قررت الهجوم على القوات الإسلامية عندما كانت ترابط في فارسكور، وكان لها ما أرادات مما تسبب في قتل المئات من الصليبيين. كما كانت هذه القوات ترحل إلى بلادها عندما يحلو لها الرحيل غير عابئة بالأوامر التي تصدر من قادتها أو بالتهديد بقرار الحرمان. أضف إلى ذلك الخلافات التي نشبت بينهم بسبب تقسيم الغنائم التي أدت إلى الصدام المسلح. يضاف إلى ما تقدم أن القوات الصليبية قد انغمست في الفساد واللهو طوال بقائها في دمياط. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على الإنهيار الخلقي عند الصليبيين أنفسهم وضعف القيادة أيضاً هذا فضلاً عن عدم اكتراث بعض القادة الصليبيين بالأوامر التي تصدر إليهم مثل ما حدث من لويس دوق بافاريا عندما تناسى التعليمات التي تلقاها من

الامبراطور فردريك بعدم القيام بأي عملية عسكرية كبيرة إلا بعد حضوره. ورغم ذلك فقد كان من المؤيدين لفكرة الزحف إلى القاهرة مع بلاجيوس.

وإذا تركنا أسباب الفشل التي ترجع إلى الجانب الصليبي وانتقلنا إلى الجانب الأوروبي. فنجد أن البابوية ضالعة في المسؤولية. ويرجع ذلك أن الحملة الصليبية الخامسة قد وضعت تحت قيادة البابوية للسيطرة عليها وحتى لا تتعرض لما تعرضت له الحملة الرابعة. وكان اختيار البابا هونوريوس الثالث للكاردينال بلاجيوس مندوباً عنه في الحملة، ثم إعطائه من السلطات ما جعله يتعالى على الملك جان دي برين، وعدم حسم الخلاف الذي نشأ بين الملك والمندوب الذي تصاعد إلى صراع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية على مستوى الحملة بأكملها - كل هذا قد أسهم في هزيمة الحملة - إلى جانب العوامل السابقة. أضف إلى ذلك أن شخصية البابا هونوريوس الثالث لم تكن من القوة التي يخشاها بلاجيوس ويعمل لها حساباً. وإلا لما تصرف من تلقاء نفسه برفض العرض الإسلامي بالصلح دون الرجوع إلى البابا حسب التعليمات التي صدرت منه إليه.

ومن الأخطاء التي ارتكبها البابوية وأدت إلى فشل الحملة هو عدم اختيار الوقت المناسب لإرسال الحملة. ففي ذلك الوقت كانت الروح الصليبية قد تقصلت عند الأوروبيين، فلم يعد لديهم الحماس الكافي للانضمام إلى صفوف الحملات الصليبية القادمة إلى الشرق، أضف إلى ذلك قيام الحملة الالبيجنسية والحروب الدائرة بين المسلمين والمسيحيين الغربيين في إسبانيا الأمر الذي امتص جهداً ومالاً ورجالاً كان من الممكن الاستفادة بها وضمها إلى إمكانات الحملة الخامسة. وفوق هذا كله الصراع الذي كان دائراً بين ملوك أوروبا من أجل تدعيم مراكزهم، مما أعجز البابا هونوريوس الثالث عن إرسال الامبراطور فردريك الثاني إلى دمياط.

ونخص فردريك الثاني بالذات لأنه كان قد وعد بتحرير الأراضي

المقدسة منذ عهد البابا أنوسنت الثالث. كما حمل الصليب عندما توج في آخن في الخامس والعشرين من يوليو ١٢١٥ م. وقام يحث الشعب الألماني على الانضمام إلى صفوف الحملة بعد ما تقررت في مجلس اللاتيران الكنسي. ولذلك عقد عليه البابا أنوسنت الثالث الآمال الكبار في قيادة الحملة المرتقبة التي تحدد لها أول يونيه ١٢١٧ م (٢٢ ربيع أول سنة ٦١٤ هـ) للإبحار إلى الشرق. ولم يظهر فردريك الثاني أية علامة تشير إلى الوفاء بوعده للرحيل مع الحملة في الموعد المحدد أو حتى اللحاق بها. وأرسل مونتفرات Montfe .:t رئيس دير القدس جول Gall يعتذر للبابا هونوريوس الثالث عن الذهاب مع القوات الصليبية بسبب مشاكله مع أوتو، وحتى يتمكن من تأمين مملكته. ولكي تبحر الحملة في موعدها طلب البابا من أندريه ملك هنغاريا قيادة الحملة في الوقت الذي لم يستطع فيه القيام بعمل ما سوى لوم الامبراطور والأمراء الذين يساندوه على عدم الوفاء بوعدهم في الموعد المحدد.

وبعد ما تطورت الحوادث ووطأت أقدام الصليبيين أرض مصر، طلب البابا من الامبراطور اللحاق بالحملة ولكنه اعتذر مرة أخرى في الثاني عشر من يناير عام ١٢١٩ م (٢٣ شوال سنة ٦١٥ هـ) وكانت حجته في ذلك أن هنري دوق برونزويك أصبح يهدد مملكته. وأعلن وهو يطلب التأجيل هذه المرة بأن أي إنسان لا يفي بوعده ويلحق بالحملة حتى الرابع عشر من شهر يونيه من نفس العام (٢٧ ربيع أول ٦١٦ هـ) يستحق أن يصدر ضده قرار الحرمان. ولكنه عاد مرة أخرى وأخبر البابا بأنه سوف لا يتمكن من اللحاق بالحملة في هذا الموعد، فحدد له البابا شهر أكتوبر من نفس العام (رجب ـ شعبان ٦١٦ هـ) ليكون موعداً يلحق به بقوات الحملة المحاصرة لدمياط. ولكن فردريك اقترح أن يكون الحادي والعشرين من مارس عام ١٢٢٠ م (١٤ محرم ٦١٧ هـ)، موعداً للرحيل، ولكي يظهر الامبراطور حسن نواياه كان يرسل الإمدادات إلى الحملة مثل ما حدث عام ١٢١٩ م (٦١٦ هـ) وعام ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ). ومن الملاحظ أن القوات الصليبية كانت تسير في عملياتها

العسكرية عاقدة الأمل على حضور الامبراطور فيشتد به ساعدها، وتتمكن من إلحاق الهزيمة الكاملة بالقوات الإسلامية وتغزو مصر.

ويبدو أن البابا قد أحس بأن الامبراطور لا ينوي الذهاب إلى مصر في الموعد الجديد فأسرع إليه كونراد أف متز Konrad of Metz في السادس عشر من فبراير عام ١٢٢٠ م (١٠ ذو الحجة ٦١٦ هـ). وفي الواقع لم يكن البابا وحده هو الذي يطالب الامبراطور بالرحيل، فإن القيادة الصليبية في دمياط كانت تكتب إليه هي الأخرى تبلغه ما دار من أحداث على أرض مصر، وتطالبه بالحضور إليها. ولكن الامبراطور لم يكن مستعداً للرحيل هذه المرة أيضاً وطلب مهلة أخرى فحدد البابا أول مايو ١٢٢٠ م (٢٥ محرم ٦١٧ هـ) بدلاً من مارس وأبدى فردريك من الأعمال ما يدعو للتفاؤل وتنفيذ وعده. ولكنه عاد وأعلن أنه سيذهب إلى مصر في أغسطس عام ١٢٢١ م (جمادي الآخرة - رجب ٦١٨ هـ) ووعد بإرسال بعض الإمدادات للحملة، وفعلاً وصلت إمداداته في مايو ١٢٢١ م (ربيع ثان ٦١٨ هـ)، ثم أعقبها إمدادات أخرى في الوقت الذي لحقت الهزيمة بالقوات الصليبية فكان وصولها بعد فوات الأوان.

والواضح أن الامبراطور لم يكن لديه النية في القدوم إلى مصر في هذا الوقت، كما أنه وجد في تلهف البابا عليه بالذهاب إلى مصر فرصة لتحقيق أطماعه في أوروبا. ذلك أن ابنه هنري السابع كان يتولى عرش صقلية، ثم عمل على توليته على إلمانيا وحجته في ذلك أنه لا يستطيع التوجه إلى الشرق دون أن يترك ابنه ملكاً على إلمانيا. وكان الغرض الحقيقي من وراء ذلك هو توحيد عرشي صقلية وإلمانيا والتهرب من اللحاق بالحملة، وقد تم ذلك رغم احتجاج البابا، ومن جانب اخر فإن الامبراطور فردريك استغل الحملة في الحصول على اللقب الامبراطوري وساوم البابا ليقوم بتتويجه ليتوجه بعد التتويج إلى مصر. وبالفعل انخدع البابا في نوايا الامبراطور وكتب إلى المندوب البابوي بلاجيوس في الرابع والعشرين من يوليو عام ١٢٢٠ م بأن فردريك سيتوج إمبراطوراً في التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٢٢٠ م، وأنه بدون

شك سيتوجه بعد ذلك إلى مصر. وانتهى عام ١٢٢٠ م (٦١٧ هـ) دون أن يتوجه فردريك إلى دمياط. وفي بداية عام ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) عاد فردريك للمراوغة مرة أخرى وأرسل أوجلينو اف أوستيا Ugolino of Ostia مندوباً عنه إلى شمال إيطاليا لجمع المال والجنود لدعم الحملة، وتعهد في هذا الوقت مرة أخرى بالتوجه إلى مصر في أغسطس من نفس العام (جمادي الأخرة - رجب ٦١٨ هـ). ويبدو أن البابا هونوريوس الثالث كان رجلاً طيباً واعتبر وعود فردريك الثاني وعوداً صادقة، فقد ظل يبعث بالرسائل إلى الصليبيين يخبرهم بأن يترقبوا وصول الامبراطور فردريك وجيشه في القريب العاجل. وبعد فوات الأوان تنبه البابا إلى نوايا فردريك الثاني وكتب إلى مندوبه بلاجيوس في العشرين من يونيه عام ١٢٢١ م (٢٧ ربيع الثاني ٦١٨ هـ) يخبره أن الامبراطور لن يصل قريباً إلى دمياط، وعليه أن يتصرف بنفسه، خاصة أن الملك جان دي برين كان غائباً عن الحملة مقيماً بعكا في هذا الوقت. ونظراً لما إبداه الامبراطور فردريك الثاني من إهمال للحملة وعدم الوفاء بوعده واللحاق بالقوات الصليبية التي سبقته، هذا بالإضافة إلى المراوغة التي اتبعها مما أضاع كثيراً من الوقت على القوات الصليبية فقد اعتبره بعض المؤرخين المحدثين الأجانب مسؤولاً عن فشل الحملة.

هذه هي العوامل الصليبية والأوروبية التي أدت إلى فشل الحملة. ولكن في الحقيقة هناك عامل هام جداً يرجع إليه الفضل الأول في الهزيمة العسكرية التي لحقت بالقوات الصليبية، وهذا العامل هو الجانب الإسلامي بقيادة الملك الكامل ومساندة الملك المعظم. فإن الفضل يرجع إلى الملك الكامل في إعداد خط دفاع العادلية في مواجهة الصليبيين، إذ ظل صامداً هو وقواته طوال ثمانية أشهر. ولكنه اضطر إلى التراجع نتيجة مؤامرة ابن المشطوب التي ساعدت القوات الصليبية على العبور إلى الضفة الشرقية وحصار دمياط. ويأتي دور أخيه الملك المعظم في دفع هذا الخطر وإزالة ابن المشطوب من المعسكر الإسلامي. ثم أعاد الإخوان تنظيم القوات الإسلامية مرة أخرى، وبدأ الكامل في

جمع المال والرجال لدعم الجبهة المصرية في الوقت الذي تولى فيه المعظم الجبهة الشامية والضغط على أملاك الصليبيين في الشام وهدم القلاع الإسلامية خشية استيلاء الصليبيين عليها بعد ذلك، وتركها بحالة يتيسر على المسلمين استردادها إذا ما سقطت في يد الصليبيين. أضف إلى ذلك الجهود العظيمة التي قام بها لجمع الإمدادات في الشام وإرسالها إلى أخيه الكامل. حقيقة أن كافة ملوك البيت الأيوبي تعاونوا في إرسال هذه الإمدادات، ولكن دور الملك المعظم كان أبرزها على الإطلاق، فإنه لم يتوان لحظة عن إنجاد أخيه الكامل وأنقاذ دمياط. وفي الحقيقة فإن عامل الوقت الذي أهمله الصليبيون كان عاملاً من أهم العوامل التي ساعدت المسلمين على إعداد هذه الإمدادات، وجعلت من الميسر على الملك الكامل استقبالها وإنزالها في الأماكن المخصصة التي تناسبها. أضف إلى هذا أن الملك الكامل قد استفاد من تراخي الصليبيين في الزحف صوب القاهرة، وأقام مدينة المنصورة وهي الصخرة التي تحطمت عليها آمال الصليبيين فعلاً.

كما أن الفضل الأكبر في ما لحق بالصليبيين من هزيمة يرجع إلى خطط الملك الكامل البحرية والبرية. ذلك أنه تمكن من تطويق الصليبيين بحراً عن طريق السفن التي سيرها في بحر المحلة وضرب مؤخرة الأسطول الصليبي وقطع الاتصال بين القوات الصليبية المتقدمة وبين قاعدتها في دمياط في نفس الوقت الذي طوق فيه القوات الصليبية من الخلف. هذا، بالإضافة إلى اختيار الوقت المناسب لكسر الجسور وإغراق القوات الصليبية بينما حملت القوات الإسلامية على الصليبيين حملة شعواء. فقد كان لهذه العوامل التي تمت في وقت واحد تقريباً أثرها البالغ في إنهاك القوى الصليبية وتبديد قواها وإلحاق الهزيمة النكراء بها دون خسارة عسكرية تذكر في الجانب الإسلامي. وعلى ذلك تعتبر الخطة العسكرية التي أعدها الملك الكامل العامل الأساسي في هزيمة القوات الصليبية وفشلها في تحقيق أطماعها.

هكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة على مصر سياسياً وعسكرياً عندما رفضت

عرض الصلح الذي تقدم به الملك الكامل أكثر من مرة للقيادة الصليبية بسبب تعصب المندوب البابوي بلاجيوس، وكذلك بفعل جهل الصليبيين بطبوغرافية ميدان المعركة وإهمالهم العامل الزمني الذي يعتبر من أهم عوامل الحروب في أي زمان ومكان. أضف إلى ذلك ازدواج القيادة على الحملة، وفساد وتهور وعصيان القوات الصليبية وعدم توفيق البابا في اختيار مندوبه في الحملة، وكذلك إخفاقه في تحديد الوقت المناسب لقيام هذه الحملة وانشغال الامبراطور فردريك الثاني بأمور دولته في أوروبا عن اللحاق بالحملة في دمياط. ويكلل هذه العوامل جميعها اتحاد الجبهة المصرية والشامية جيشاً وشعباً وعلى رأسها القيادة الرشيدة التي اضطلع بها الملك الكامل محمد في هذه الفترة العصيبة من تاريخ مصر التي تمكنت من رد المعتدين على أعقابهم مدحورين.

الفصل السابع

الحملة الصليبية السادسة

الإعداد للحملة

رحلت الحملة الصليبية الخامسة عن دمياط فاشلة تجر وراءها أذيال الخذلان، بعد أن قضت فيها وعلى شاطئيها الغربي والشرقي الفترة الواقعة بين الثالث من ربيع أول عام ٦١٥ هـ إلى التاسع من رجب عام ٦١٨ هـ (٣٠ مايو ١٢١٨ - ٨ سبتمبر ١٢٢١ م). وقد فشلت الحملة الخامسة في تحقيق أهدافها تماماً وترتب على ذلك نتائج مباشرة وأخرى غير مباشرة.

وعاد الملك جان دي برين إلى عكا مباشرة بعد إطلاق سراحه من الأسر في عام ١٢٢١ م، ولكنه قرر السفر إلى أوروبا في العام التالي (١٢٢٢ م) لمقابلة البابا هونوريوس الثالث وبعض ملوك أوروبا للتداول فيما يمكن عمله حول مستقبل مملكة بيت المقدس الإسمية، والبحث عن زوج مناسب لابنته الملكة الصغيرة إيزابيلا والتي اشتهرت عادة باسم يولاندا بعد أن ماتت أمها ماريا. فقد كان جان دي برين ملكاً مشكوكاً فيه حسب قوانين المملكة، ولم يكن سوى وصياً على ابنته وعلى المملكة حتى تتزوج ابنته، وقد سبب له هذا الوضع الكثير من المتاعب داخل المملكة وأثناء قيادته للحملة الصليبية الخامسة خاصة أن الملك كان قد بلغ السبعين من عمره وأن ابنته لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها.

وقبل مغادرة الملك أرض المملكة عين أود أف مونتبليار Odo of Mountbeliard نائباً عنه في الحكم، ثم أبحر من ميناء مدينة عكا بصحبة

الكاردينال بلاجيوس المندوب البابوي في الحملة وبعض القادة الصليبيين. وقد وصلت المجموعة إلى ميناء برنديزي Brindisi في إيطاليا في نهاية شهر أكتوبر من العام نفسه ١٢٢٢ م. وكان هرمان فون سالزا قد سبق هذه المجموعة إلى روما.

ومن برنديزي اتجه جان دي برين إلى البابا هونوريوس في روما وصحبه الكاردينال بلاجيوس. وبعد ما ناقش الملك والبابا أسباب فشل الحملة الخامسة وعرض عليه أحوال الصليبيين في بلاد الشام. طلب الملك من البابا العمل على إعداد حملة صليبية جديدة لمحاربة المسلمين في بلاد الشام وإذا استولت هذه الحملة على أراضي من المسلمين تضم هذه الأراضي إلى مملكة بيت المقدس. ولكن بلاجيوس اعترض على هذا الاقتراح إلا أنه البابا وافق عليه. وقد ساعد على ذلك أن الامبراطور فريدريك أرسل موافقته على قيادة الحملة المقترحة.

وحول اختيار زوج مناسب للأميرة يولاندا اقترح هرمان فون سالزا مقدم جماعة الفرسان التيوتون أن تتزوج الأميرة من الامبراطور فردريك الذي ماتت زوجته كونستانس منذ فترة قصيرة. ورأى هرمان فون سالزا والآخرون أن هذه الزيجة تعتبر صفقة مناسبة، فقد وجد أن زواج فريدريك من يولاندا سوف يدفعه إلى الإسراع في قيادة الحملة المرتقبة. ولكن يوحنا دي برين خاف على وضعه كوصي في المملكة الصليبية، ولكن هرمان فون سالزا طمأنه بأنه سوف يظل وصياً على العرش حتى وفاته.

اتجه يوحنا من روما إلى باريس لمقابلة الملك فيليب أوغسطس الذي كان قد علم بأمر مشروع زواج فريدريك من يولاندا، فلما قابل الملك جان دي برين الملك الفرنسي لامة الأخير على هذا التصرف، فقد وجد فيليب أنه ينبغي الرجوع إليه أولاً في مثل هذا الأمر، ولكن ذلك لم يترك أثراً عند الملك الفرنسي والملك الصليبي لما يربط بها من علاقة وطيدة، ولم يطل بقاء فيليب على العرش فقد مات في الرابع عشر من يوليه ١٢٢٣ م، بعد ما أوصى بمبلغ

أربعمائة ألف مارك فضي لكل من الطوائف الدينية الثلاثة وهي التيوتون والاسبتارية والداوية. وحضر جان دي برين جنازته، كما حضر أيضاً تتويج لويس الثامن ملكاً على فرنسا (١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ م) ثم غادر إلى إسبانيا ومنها إلى ولاية جيليقية لزيارة مدينة سانت ياقب (القديس يعقوب) Santiago التي تحظى بمكانة عظيمة عند الإسبان والبرتغاليين حتى يومنا هذا لاعتقادهم أن القديس يعقوب أحد تلاميذ السيد المسيح يرقد في كاتدرائية المدينة. وقد ربطت الأساطير في العصور الوسطى بين معجزات هذا القديس وبين نضال المسيحيين ضد المسلمين في الأندلس، فصورته بصورة ملاك محارب يخرج مع المسيحيين لمقاتلة المسلمين وأسموه باسم قاتل المسلمين Matumoros فأصبح قديساً ورمزاً قوياً. وتعتبر زيارة جان دي برين لقبر القديس يعقوب ربطاً بين الحركة الصليبية في بلاد الشام والأندلس.

وفي العام التالي ١٢٢٥ م أبحر هنري كونت مالطة Henry Count of Malta ومعه جيمس رئيس أساقفة كابوا James Archbishop of Capua في طريقهما إلى بلاد الشام ومعهما حشد كبير وحملتهم جميعاً أربع عشر سفينة، وكان الغرض من هذه الرحلة تزويج الملكة يولاندا إلى الامبراطور فردريك وينوب عنه رئيس الأساقفة جيمس. وقد رست هذه البعثة في ميناء عكا في أغسطس من العام نفسه، وفي كنيسة الصليب المقدس بالمدينة تزوج جيمس بالإنابة عن الامبراطور الملكة يولاندا. ومن عكا انتقلت البعثة إلى صور حيث تم تتويج الملكة التي كانت في الرابعة عشر من عمرها. وقد قام بمراسم التتويج راوُل أف ميرينكورت بطريق مملكة بيت المقدس الإسمية (١٢١٥ ـ ١٢٢٤ م) وحضر الحفل حشد كبير من الأمراء الصليبيين.

وبعد سبوعين أبحرت البعثة من صور ومعهما الملكة يولاندا، وقد صحبها سيمون أف موجاستيل Simon of Maugastel رئيس أساقفة صور، وابن عمها باليان Balian حاكم صيدا وكانت المحطة الأولى للملكة في جزيرة

قبرص حيث زارت خالتها الملكة أليس أف شامباني Alice of Champagne ملكة قبرص. ثم رحلت الملكة يولاندا مع مرافقيها بعد أن ودعت البلاد وداعاً حزيناً.

كان فردريك في الخامسة والثلاثين من عمره في هذه المرحلة، وكان يتمتع بصحة طيبة وسيماً يميل إلى البدانة، مثقفاً إلى درجة عالية، قالوا عنه أنه تحدث بالفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية، واسع الاطلاع في الفلسفة والعلوم والطب والتاريخ الطبيعي والتاريخ. واهتم فريدريك بالديانات الأخرى خاصة الإسلام الذي تأثر به كثيراً نظراً لأنه تربى في صقلية التي كانت جزيرة نصفها أوروبي والنصف الآخر عربي، استقبل الكثير من السفراء والعلماء العرب والمسلمين وناقشهم في أمور الدين، وأطلقوا عليه اسم أعجوبه الدنيا.

وعلى أية حال لقد استقبل الامبراطور فردريك والملك جان دي برين الامبراطورة يولاندا في برنديزي، وقد لقيت من الترحيب ما يليق بهما، وفي كاتدرائية المدينة تم الاحتفال بعقد قران جديد للامبراطور والامبراطورة. ولم يبق فردريك في برنديزي طويلاً فقد غادرها دون أن يخطر جان دي برين الذي لحق به، وقد أعلن له فردريك أنه لم يعد وصياً على عرش مملكة بيت المقدس بعد زواجه من ابنته، ولكن جان دي برين كان حريصاً على أن يظل وصياً حتى تبلغ ابنته السادسة عشر من عمرها في عام ١٢٢٧ م، أي لمدة عامين. وأصر فريدريك على موقفه فأدرك جان دي برين أنه استبعد من الوصاية، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد قام جنود فريدريك بسلب المال الذي كان في حوذة يوحنا دي برين، وهو المال الذي منحه له الملك فيليب أوغسطس.

قطعت السبل أمام الملك جان دي برين بعد أن فقد الوصاية والمال، ولم يعد له من طريق إلا طريق البابا فلجأ إليه. فأرضاه البابا بأن عينه حاكماً على

إحدى الولايات الباباوية وهي ولاية توسكانيا، ولكنه لم يمكث بها طويلاً، فقد تزوج بلدوين الثاني الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية من ماريا ابنة جان دي برين، وحمل لقب الامبراطور في البداية كوصي على بلدوين وظل يحمل هذا اللقب حتى مات في عام ١٢٣٧ م.

ولم تعش يولاندا طويلاً، فقد أهملها فردريك فانضمت إلى حريم الامبراطور في بالرمو حيث أنجبت إبنها كونراد في عام ١٢٢٨ م ولكنها ماتت بعد أسبوع وهي تبلغ من العمر سبع عشر عاماً. وبذلك أصبح الإبن كونراد هو الملك المرتقب لعرش مملكة بيت المقدس الإسمية، ويعتبر فردريك وصياً عليه.

وعلى أية حال كان الغرض من هذا الزواج ربط الامبراطور بالأراضي المقدسة، ولذلك فإنه في عام ١٢٢٥ م وقبل إتمام الزواج تم لقاء في مدينة سان جرمانو بين الامبراطور ومندوبين عن البابا حيث أقسم الامبراطور يميناً بأنه سوف يبحر إلى بلاد الشام بعد عامين وبالتحديد في أغسطس عام ١٢٢٧ م. كما وعد بإرسال ألف فارس على الفور إلى بلاد الشام، وضماناً لذلك أودع الامبراطور مبلغ مائة ألف أوقية من الذهب في روما تصادر لصالح الكنيسة إذ لم يف بوعده ويقود حملة إلى بلاد الشام. والواضح أن في هذا الموعد نوعاً من التعجل، فقد كان عليه أن يؤجل سفره حتى عام ١٢٢٩ م حتى تنتهي أجل الهدنة التي عقدها قادة الحملة الخامسة بعد فشلها مع الملك الكامل. ومن الملاحظ هنا أن من شروط صلح الحملة الخامسة والمحدد بمدة ثمان سنوات قد استثنى منه ملوك أوروبا فلهم أن ينقضوها إذا أرادوا. وكان بوسع الامبراطور فردريك أن يأتي مبكراً دون الإخلال بشروط الصلح ولكنه سوف يحرم من المساعدات الصليبية في بلاد الشام إذا التزم القادة الصليبيون في عكا بشروط الصلح . وإذا كانت البابوية قد أصرت على إبحار فردريك الذي وافق على ذلك، فمعنى ذلك أن كلاهما لم يلق بالاً بشروط صلح الحملة الخامسة.

وعلى أية حال فقد وعد الامبراطور من قبل بإرسال ألف من الفرسان إلى

الأراضي المقدسة، وقد بر بوعده وأرسل هؤلاء الفرسان، ولكنهم لم يرسلوا ليقاتلوا بل ذهبوا ليكونوا في انتظار الامبراطور، ولعلهم كلفوا ببعض المهام ربما يكون أهمها دراسة أوضاع بلاد الشام وتهيئة الأوضاع تمهيداً لوصول الامبراطور. كما أن تواجد هؤلاء الفرسان في بلاد الشام يعني أن الممتلكات الصليبية أصبحت تابعة للامبراطور فردريك بعد زواجه من الملكة الصليبية يولاندا.

وفي الفترة الواقعة بين اتفاق سان جرمانو (يوليه ١٢٢٥ م) وحتى وصول الامبراطور فردريك إلى عكا في (سبتمبر ١٢٢٨ م) وقعت أحداث في الغرب والشرق كان لها أكبر الأثر على أحداث ونتائج الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة. وإذا كان ما وقع في الغرب من أحداث يعتبر مألوفاً بين البابوية والامبراطورية إلى حد ما، إلا أن ما حد . في الشرق كاد خروجاً على المألوف والعرف والتقاليد حسب ما عبرت عنه مؤلفات الحروب الصليبية وما عاصرها من المؤلفات.

الصراع بين الكامل والمعظم

وأهم أحداث الشرق في هذه المرحلة الحرجة هو الخلاف الذي وقع بين الملك الكامل والملك المعظم. ويرجع سبب هذا الخلاف حسب ما ذكره المؤرخ ابن الأثير المعاصر لهذه المرحلة أنه لما توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده بعده اتفاقاً حسناً وهم الملك الكامل صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس وما يجاورها من البلاد، والملك الأشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية. فلما فارق الفرنج دمياط وعاد كل من الملوك أولاد العادل إلى بلده بقوا كذلك فترة قصيرة، ثم سار الأشرف إلى أخيه الكامل في مصر عبر دمشق ولم يذهب المعظم مع أخيه الأشرف إلى مصر

ويضيف ابن الأثير أن الأشرف مكث طويلاً في مصر، فسار المعظم إلى مدينة حماه وحاصرها فأرسل إليه أخواه الكامل والأشرف يطلبان من المعظم

الرحيل عن حماه فرحل عنها كارهاً فإزداد المعظم نفوراً من أخويه، ويقال أن الكامل والأشرف اتفقا على أخيهما المعظم.

ويفسر المؤرخ أبو الفدا هذه الأحداث ويقول أن الملك المعظم قصد حماه لأن الملك الناصر صاحب حماه، كان قد التزم له بمال يحمله إليه، إذا ملك حماه، فلم يف له. فقصد الملك المعظم حماه التي أغلقت أبوابها، فجرى قتال قليل. ثم ارتحل الملك المعظم إلى مدينة سلمية، فاستولى على حواصلها وولي عليها ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها والياً من جهته وقرر أمورها ثم عاد إلى سلمية وهو عازم على حصار حماه حتى أمراه أخواه الكامل والأشرف بالرحيل.

يضاف إلى ذلك أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله ٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م، قد إستوحش من الملك الكامل لأن أخاه الملك المسعود يوسف صاحب اليمن قد ذهب لأداء فريضة الحج عام ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م. فلما وقف الملك المسعود بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر لترفع على جبل عرفات تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع ذلك، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة، ولم يقدر رجال الخليفة على منعه من ذلك. ولما بلغ الخليفة العباسي ما حدث عظم عليه الأمر وأرسل يشكو إلى الملك الكامل فاعتذر عن ذلك وقبل عذره. ولكن الملك المسعود عاد إلى مكة واستولى عليها ثم عاد إلى اليمن.

ترتب على هذه الأحداث الأخيرة أن أعرض الخليفة العباسي عن الملك الكامل والملك الأشرف لاتفاقهما وقاطعهما، وأرسل إلى مظفر الدين كوكبري صاحب أربل لعلمه بانحرافه عن الأشرف، واستماله واتفقا على مراسلة المعظم وتعظيم الأمر عليه فمال إليهما وانحرف عن أخويه. وهكذا انشقت الجبهة الإسلامية إلى جانبين أخذ كل منهما يتربص بالآخر وخاف الملك المعظم من أن يقتسم أخواه الكامل والأشرف ملكه.

وفي هذه المرحلة بلغت دولة جلال الدين خوارزمشاه ذروة قوتها، فقد

نجح جلال الدين في صد غارة مغولية هاجمت بلاده، فعظم شأنه وامتدت مملكتـه وأصبح يحكم المناطق الممتدة من أذربيجان حتى نهر السين. وبحث الملك المعظم عن حليف فاتجه بصره إلى دولة خوارزم فترددت الرسل بين المعظم وجلال الدين. كما قام المعظم من جانب آخر بإرسال ولـده الملك الناصر صلاح الدين داود إلى أربل ليكون عند عمته خانون بنت أيوب زوجة مظفر الدين صاحب أربل. وكان القصد من ذلك توفيق الحال مع مظفر الدين وأن يكونا يد واحدة بعدما استحكمت الـوحشة بين المعـظم وأخويـه الملك الكامل والملك الأشرف، وبذلك اتفق هؤلاء الثلاثة جلال الدين ومظفر الدين صاحب أربل والملك المعظم وصاروا يداً واحدة، وقد فعل الملك المعـظم ذلك معاندة لأخويه الملك الكامل والملك الأشرف.

وقد ظهرت بوادر الخوف لدى الملك الكامل والملك الأشرف عندما قام جلال الدين الخوارزمي بحصار مدينة خلاط التابعة للملك الأشرف وزحفت قواته حتى بلغت سور المدينة وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ثم عاودوا الكرة مرة أخرى وصمد أهل المدينة وقاتلوا قتـالاً شديـداً، ولكن القوات الخـوارزمية تقدمت حتى وصلت إلى المدينة ونهبوا وسبوا الحريم، ولم يغادروا المدينة إلا بسبب سقوط الثلوج بعد حصار ونهب دام أربعين يوماً ويعرف هذا الحصار باسم الحصار الأول (٦٢٣ هـ) وقد كان الثاني في نهاية عام ٦٢٥ هـ.

علم الكامل بكل هذه الأحداث وخاف أن يكون هذا الاتفاق سبباً في زوال دولته، فأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ إلى الامبراطور فريدريك الثاني في صقلية يطلب منه القدوم إلى عكـا ووعده أن يعطيه البيت المقـدس وبعض الأراضي التي فتحها صـلاح الدين الأيـوبي، ويقول المؤرخ ابن واصل أن الملك الكامل قصد بذلك إشغال سر أخيه الملك المعظم ليحتاج إلى موافقته والدخول في طاعته.

وصلت رسـالة الملك الكـامل إلى الامبـراطور فـردريـك في الـوقت المناسب، ورغم العرض المغري الذي قدمه الملك الكامل إلا أن الامبراطور

لم يعد بشيء، فالامبراطور واقع تحت ضغط الرأي العام الاوروبي ويعد لحملة صليبية. وحتى لا يضيع فرصة كهذه أرسل اسقف مدينة بالرمو إلى عكا واصطحب بدوره توماس أكوينو كونت أكيرا واتجها إلى القاهرة محملين بالهدايا إلى السلطان الكامل وفتحت المفاوضات بين رسولي الامبراطور والملك الكامل الذي عرض التنازل عن كل الأراضي التي فتحها صلاح الدين عدا الكرك والشوبك أي مثلما عرض أثناء تواجد الحملة الصليبية الخامسة في دمياط. والواقع أن الأمر قد اختلف عن زمان الحملة الخامسة، فالعلاقات قد توترت بين الكامل والمعظم، وأصبح من المتعذر أن يفي الملك الكامل بوعده.

واتضح ذلك عندما ذهبت رسل الامبراطور إلى دمشق لتعرض على الملك المعظم مقترحات الملك الكامل فثارت ثائرة المعظم وأجاب في غضب أنه ليس من الساعين إلى الصلح وأن قواته مستعدة للقتال. ومما لا شك فيه أن الرسل قد أبلغت الامبراطور فردريك بهذه الأحداث ولكنه لم ييأس فقد وجد في عرض الملك الكامل رغم تعثره عاملاً مشجعاً للرحيل إلى الشرق، كما لقي من البابا التشجيع نفسه،لذلك استعد للرحيل.

وحدث قبل رحيل فردريك ما لم يكن في الحسبان، فقد مات الملك المعظم في ذي القعدة ٦٢٤ هـ/ نوفمبر ١٢٢٧ م في قلعة دمشق، وتولى بعد المعظم ابنه الملك الناصر داود وحكم ما بين حمص وعريش مصر وعمره إحدى وعشرين سنة. والواضح أن الملك الكامل قد استخف بالمليك الصغير وأرسل إليه من مصر يطلب منه أن يتنازل عن قلعة الشوبك ولكن الناصر رفض فوقعت الوحشة بين الناصر والكامل، وأدى ذلك في النهاية إلى تصميم عزم الملك الكامل على الخروج إلى الشام وأخذ دمشق وغيرها منه.

استعد الكامل للخروج من مصر وتولى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ولاية عهده في مصر، وخرج في عساكره ومعه ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين محمد بن الملك المنصور وهو موعود من جهته بأن ينتزع له مدينة حماة وبلادها من أخيه الملك الناصر قلج أرسلان وتسليمها إليه. وكان خروج

الملك الكامل في شهر رمضان ٦٢٥ هـ/، ولما وصل إلى غزة نزل بها مخيماً في تل العجول، وبعث ولاته إلى نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال، فانزعج الملك الناصر لذلك وخاف منه خوفاً شديداً.

تقدم الملك الكامل إلى نابلس ونزل بها في دار أخيه الملك المعظم، ولما تحقق للملك الناصر قصد عمه الملك الكامل استنجد بعمه الملك الأشرف فأرسل إليه يستنصر به على الملك الكامل. وسار الأشرف إلى دمشق وخرج الناصر لاستقباله، ودخلا قلعة مدينة دمشق في أواخر شهر رمضان ٦٢٥ هـ.

ومن دمشق أرسل الأشرف رسولاً إلى أخيه الملك الكامل يشفع في الملك الناصر ويطلب منه إبقاءه في دمشق، ولم يجب الملك الكامل على ذلك، وحول المفاوضات إلى ما فيه أطماع للملك الأشرف في دمشق. عاد الرسول ليخبر الأشرف بما حدث فأشار إلى الملك الناصر بأن يتوجها معاً إلى نابلس حيث يمكث الملك الناصر ويتوجه الأشرف إلى الكامل الذي كان قد أخذ طريقه إلى الديار المصرية ويقيم في تل العجول.

ولما سمع الملك الكامل بقرب أخيه الملك الأشرف، خرج لاستقباله وعاد به إلى المعسكر بتل العجول ونزلا به، وقد تم الاتفاق بين الأخوين الكامل والأشرف على انتزاع دمشق من الناصر وأن تكون للملك الأشرف وما معها من الأعمال إلى عقبة فيق أو عقبة أفيق وهي منطقة ينحدر منها إلى غور نهر الأردن ومنها يشرف على مدينة طبرية وبحيرتها، ويكون للملك الكامل جنوب عقبة أفيق حتى مدينة غزة، ويكون للملك الناصر بلاد الأشرف حران والرقة والرها وسروج ورأس العين وقلعة جملين وقلعة الموزر، إلى جانب تسويات أخرى تتعلق بأمراء البيت الأيوبي.

ولما علم الملك الناصر بما تم الاتفاق عليه بين عميه الكامل والأشرف قرر الرحيل من نابلس والعودة إلى دمشق، ولحق به عمه الملك الأشرف وبعض

أمراء البيت الأيوبي قبل أن يرحل وعرض عليه ما تم الاتفاق عليه مهدداً إياه أن الملك الكامل يعتبر كبير أمراء البيت الأيوبي ولا يمكن الخروج عما أمر به، ولم يوافق الملك الناصر على تسليم دمشق وسانده في ذلك بعض الأمراء منهم أستاذ داره عز الدين أيبك الحلبي ـ صاحب صرخد وأعمالها ـ الذي قال للملك الكامل «لا كيد ولا كرامة ولا تسلم من البلاد حجراً واحداً، ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم ومعنا العساكر المتوافرة». وأضاف قائلاً للملك الناصر «نم وأمض إلى دمشق».

أمر الملك الناصر بتقويض الخيام ورحل وأصحابه إلى دمشق ولم يتمكن الملك الأشرف من مقاومته أو منعه إذ لم يكن معه إلا جمع قليل مع عسكر حلب. وعندما وصل الملك الناصر إلى دمشق استعد للحصار، وقام أهل المدينة بنصرته أحسن قيام، لأنهم كانوا يحبونه ويحبون والده الملك المعظم، وبقي معه عسكر قوي إلى الغاية من حيث الشهامة وحسن الاستعداد العسكري.

استعد الأشرف ووصل إلى دمشق فنزل ظاهرها من جهة الجنوب وقطع عنها مياه نهر بانياس ـ أحد روافد نهر بردى ـ الذي يصل المياه إلى قلعة المدينة وكذلك مياه النهر الواصل من باب الجابية المسمى القنوات، فخرج عسكر دمشق وقاتلوا أصحاب الملك الأشرف أشد قتال، وساعدهم في ذلك عامة أهل دمشق لفرط محبتهم للملك الناصر حتى أعادوا الماء إلى دمشق.

ولما تطورت الأحداث على هذه الصورة أرسل الملك الناصر من دمشق رسوله الشيخ شمس الدين إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه يخبره أن أعمامه إنما قصدوه لانتمائه هو وأبيه إليه، ويحثه بمعاجلة النزول على خلاط ومضايقتها، حتى يضطر الملك الأشرف إلى الانسحاب من أمام دمشق، فقصدها جلال الدين خلاط بعساكره في نهاية عام ٦٢٦ هـ/ وضرب الحصار عليها حتى فتحها في العام التالي، ولكن الأشرف نجح في استعادتها بعد أن صارت خراباً.

كان حصار جلال الدين لمدينة خلاط سبباً في رحيل الأشرف من دمشق، لذلك أرسل الأشرف إلى الكامل يستعجله القدوم إلى دمشق لإتمام الحصار، ووصلت قوات الملك الكامل إلى دمشق في جمادي الأولى من عام ٦٢٦ هـ/ م، وحاصرت المدينة وضايقتها وقطعت عنها المياه فشرب أهل المدينة من الآبار وساندوا الملك الناصر مناصرة شديدة، وطال الحصار حتى شهر رجب من العام نفسه حتى فقدت المؤن وأنفق الناصر ما عنده من أموال حتى اضطر لضرب ما عنده من الأواني الفضية والذهبية دراهم ودنانير وانفقها حتى أتى على أكثر ما عنده من الذخائر.

ولما أدرك الناصر أنه لا قبل له بعمه الملك الكامل وأن الأصلح الخروج إليه ليرى فيه رأيه، خرج إليه ليلاً من قلعة دمشق في أواخر شهر رجب مع نفر يسير من أصحابه فأكرمه الملك الكامل وعاتبه، وانتهى الأمر بأن تقرر للملك الناصر الكرك والشوبك وأعمالها، والصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل، ثم تنازل الناصر عن الشوبك لعمه الكامل. وتسلم الكامل دمشق ثم سلمها للملك الأشرف طبقاً لتسوية تمت بين الكامل والأشرف.

تحرك الحملة من اوروبا

وخلال هذه الأحداث كان لا بد للامبراطور فردريك أن يرحل إلى الشرق، واستعد طوال صيف عام ١٢٢٧ م/ بجمع جيشاً كبيراً في مدينة أبوليا، ولكن وباء الملاريا قضى على عدد كبير من هذه القوات، وقد رحلت البقية وعددها عدة آلاف من مدينة برنديزي في أغسطس عام ١٢٢٧ م/ بقيادة هنري الرابع Henry IV دوق ليمبورج Limburg. وبعد عدة أيام لحق الامبراطور بالجيش واستعدت السفن للرحيل في الثامن من سبتمبر ١٢٢٧ م/ الثالث والعشرين من رمضان ٦٢٤ هـ، ولما وصلت السفن إلى أوترانتو مرض فردريك فغادر الأسطول واتجه إلى بوتسولي Pozzuoli للاستشفاء.

وأرسل الامبراطور فردريك من مقر استشفائه رسولاً إلى البابا يشرح له ظروف تخلفه عن الحملة ، ولم يقتنع البابا بما قدمه فردريك من أسباب

واعتقد أن فردريك قد عاد إلى المماطلة مرة أخرى فبادر بإصدار قرار الحرمان من رحمة الكنيسة ضد الامبراطور. وانتظر ثلاثة أشهر لعل الامبراطور يبحر إلى بلاد الشام، ولما تبين للبابا عدم إبحار فردريك أعلن قرار الحرمان ضد الامبراطور في كنيسة القديس بطرس في روما في نوفمبر ١٢٢٧ م، وحذره من أن يتوجه لقيادة حملة صليبية لوقوعه تحت حرمان الكنيسة.

ولعل الامبراطور كان محقاً في تأخيره عن الحملة لأن موسم الإبحار وهو موسم الخريف قد مضى ولا بد من انتظار الموسم التالي وهو موسم الربيع، لذلك وجه الامبراطور بياناً إلى حكام أوروبا ينكر فيه مزاعم البابا وبدأ يستعد للرحيل حتى أقلع في ٢٨ يونيه عام ١٢٢٨ م/ أي بعد حوالي تسعة أشهر ونصف من الاستعداد الأول. وخلال هذه الفترة كان الوضع قد تغير كثيراً في البيت الأيوبي، كما أن زوجته يولاندا قد ماتت بعد ما أنجبت له كونراد وبذلك تغير وضع فردريك القانوني في مملكة بيت المقدس، فقد صار وصياً على ابنه الطفل، وهذا أمر يتطلب موافقة بارونات مملكة بيت المقدس ومن حقهم أن يرفضوا هذه الوصاية. ولهذه الأسباب وغيرها لم ينظر بعض الأمراء الصليبيين في بلاد الشام وقبرص إلى قدوم الامبراطور بارتياح.

ومن هؤلاء بوهمند الرابع ١١٨٩ - ١٢٣٣ م أمير طرابلس وإنطاكية الذي كان يعترف بسيادة الامبراطور اللاتيني في القسطنطينية. ورغم هذا فإن الامبراطور كان ينظر إلى مملكة بيت المقدس ومملكة قبرص على أنهما تابعان له. وقد هيأت ظروف قبرص للامبراطور فردريك التدخل في شؤونها. فقد كانت أليس ملكة بيت المقدس السابقة وصية رسمية على ابنها الطفل هنري الأول ملك قبرص ١٢١٨ - ١٢٥٣ م، ثم عهدت بالحكومة إلى خالها فيليب أبلين، ولكن العلاقات بين أليس وفيليب لم تكن ودية، وكانت الملكة تشكو خالها لأنه أهمل رغباتها، ولما اشتد سخطها لجأت إلى طرابلس وعينت المريك بارليس نائباً عنها ولم يعترف به بارونات قبرص فتأجل الوضع حتى قدوم الامبراطور فردريك.

وما أن وصل الامبراطور إلى قبرص حتى كان المريك ورجاله في انتظاره في ٢١ يوليو ١٢٢٨ م/ ١٥ شعبان ٦٢٥ هـ. وكانت قوات فردريك حوالي أربعة آلاف على أكثر تقدير. وحاول فردريك وهو في قبرص أن ينتزع اعترافاً بأنه سيد قبرص، واستدعى يوحنا أبلين سيد بيروت وأولاده وملك قبرص للاجتماع به، وقد لبى الجميع الحضور بعد شيء من التردد. وحاول فردريك انتزاع بيروت من باليان ولكن الأمر ترك للمحكمة العليا في بيت المقدس. كما استدعى الامبراطور كبار الأمراء الصليبيين، فوصل قبرص باليان حاكم صيدا في أغسطس ١٢٢٨ م/ رمضان ٦٢٥ هـ، ثم تبعه جاي الأول أمبرياكو Guy I Embriaco صاحب جبيل. وزحف الجميع تجاه العاصمة القبرصية نيقوسيا ثم لحق بهم بوهمند الرابع أمير طرابلس وإنطاكية.

خاف يوحنا أبلين فلجأ إلى قلعة إله الحب Dieu D'Amour المعروفة باسم سانت هيلاريون. وفي هذه الأثناء لعبت الوساطة دورها وانتهى الأمر بأن يقدم هنري ملك قبرص يمين الولاء والتبعية للامبراطور فردريك، وأن يحلف جميع القبارصة يمين الولاء للامبراطور باعتباره السيد الأعلى. وبعد ما تم الاتفاق وحلف اليمين أبحر الامبراطور من ميناء فاماجستا Famagusta في الثالث من سبتمبر ١٢٢٨ م/ الواحد والعشرين من شوال ٦٢٥ هـ ومعه ملك قبرص وسادة آل أبلين ومعظم بارونات قبرص بعد ما عين الامبراطور نائباً عنه في الجزيرة هو المريك بارليس Almeric Barlais.

فريدريك في بلاد الشام

وصل الامبراطور فردريك إلى ميناء عكا، وبادر يوحنا أبلين بالتوجه إلى مدينة بيروت ليرى مدى استعداد المدينة للصمود أمام أية هجمات ربما يقوم بها الامبراطور فردريك، ثم عاد يوحنا أبلين إلى عكا واستعد للدفاع عن حقه في بيروت أمام المحكمة العليا لأن الامبراطور فردريك قد طلب منه أثناء تواجده في قبرص التنازل عن أقطاع بيروت. والواضح أن هذه القضية قفل بابها

من قبل الامبراطور فردريك، ويرجع ذلك إلى أن قرار قطع الامبراطور من رحمة الكنيسة الذي أعلنه البابا في أوروبا قد وصل إلى عكا مع وصول الامبراطور.

وهنا بدأت قضية أخرى بالإضافة إلى أن وضع الامبراطور الشرعي أنه أصبح وصياً وليس ملكاً على بيت المقدس وللبارونات الصليبيين أن يرون فيه غير ذلك لأن من حقهم تعيين وصياً بدلاً منه. أما القضية التي برزت بوصول الامبراطور إلى عكا، هي وضع الامبراطور الديني والعسكري. وفيما يتعلق بالوضع الديني فإن جميع الأمراء الذين أقسموا للامبراطور يمين الولاء في قبرص يعتبرون في حل منها باعتبارهم قدموا يميناً لامبراطور محروم من رحمة الكنيسة. أما الوضع العسكري فهو يتعلق بطاعة الصليبيين لأوامر الامبراطور وهو محروم من رحمة الكنيسة، وهل يمكن التعاون معه أم لا. لذلك رفض البعض التعاون مع الامبراطور وعلى رأسهم جيرولد Gerold البطريق الكاثوليكي الأسمى لمملكة بيت المقدس (١٢٢٥ - ١٢٣٩ م) وتبعه في ذلك فرسان الداوية والاسبتارية. ومما لا شك فيه أن هذا الموقف قد أثر كثيراً على الوضع العسكري للحملة.

والواقع أنه لم يكن لدى الامبراطور جيشاً كبيراً، فقد حدده البعض بحوالى أحد عشر ألف رجل على أكثر تقدير، وبحث فردريك عن القوة التي يمكن أن تسانده فلم يقف جانبه سوى جماعة فرسان التيوتون باعتبارهم ألمان وأن مقدمهم هرمان فون سالزا كان صديقاً للامبراطور. وحاول الامبراطور بما لديه من قوات أن يعيد تنظيم صفوفه لمواجهة القوات الإسلامية، ومقاومة سخط الأمراء الصليبيين الذين تخلوا عنه، ولكنه فوجيء بإبحار عدد كبير من العساكر تحت قيادة دوق ليمبورج خوفاً من غضب البابا عليهم إذا ساندوا إمبراطوراً محروماً من رحمة الكنيسة.

وبينما كان الامبراطور يعاني من هذا الموقف وصلت إليه أنباء سيئة من إيطاليا تفيد أن نائبه رينالد دوق سبلاتو Reynald Duke of Spoleto فشل في

الهجوم الذي شنه عند أنكونا Ancona، وأن البابا هونوريوس الثالث قد حشد قواته لغزو ممتلكات فردريك في إيطاليا. وعلى ذلك تخلى الامبراطور عن فكرة المواجهة العسكرية مع المسلمين ولجأ إلى الطرق الدبلوماسية، وهي الطرق التي تناسب وضع الحملة وتتناسب أيضاً مع أفكار الملك الكامل الذي مهد لها من قبل عندما أرسل إلى الامبراطور يطلب منه الحضور لاستلامه القدس وبعض الفتوح الصلاحية، وإن كان الأمر قد اختلف عند الملك الكامل بوفاة أخيه الملك المعظم.

وعلى أية حال فقد كان الملك الكامل يحاصر الملك الناصر في دمشق عندما وصل الامبراطور إلى عكا، ودار بعقل الملك الكامل أن الملك الناصر ربما يطلب مساعدة الامبراطور فردريك، أو أن الامبراطور يستغل فرصة إنشغال الملك الكامل بحصار دمشق ويوجه ضرباته إلى الممتلكات الإسلامية وعلى رأسها القدس التي كانت أسوارها مهدمة حتى هذه المرحلة وأن دخولها يعتبر أمراً سهلاً إلى حد ما. وفي هذه الحالة إما أن ينسحب الكامل من أمام أسوار دمشق أو أن يوزع قواته بين دمشق وبين مواجهة الامبراطور.

ودار بخلد الملك الكامل فكرة لكسب الوقت مع الامبراطور حتى يتمكن من إسقاط دمشق، لذلك أرسل الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الامبراطور في عكا لفتح باب المفاوضات وطلب منه إطالة هذه المفاوضات حتى تسقط دمشق أو يعود الامبراطور إلى بلاده. واستمرت المفاوضات عدة شهور استعمل خلالها كل طرف ما لديه من أساليب الخداع والمراوغة، ويرجع طول المفاوضات إلى كل من شخصية الملك الكامل والامبراطور فردريك، فالمعروف أن الامبراطور كان شخصية شرقية في ثياب غربية، كما أن كلاً منهما يعمل على تجنب الحروب بقدر الإمكان، وفي الوقت نفسه كان كل منهما أيضاً مسؤول أمام رعيته وأنه يريد أن يحقق نصراً على الآخر لذلك تشدد كل منهما في المفاوضات.

وخلال المفاوضات كان يجري بين الملك والامبراطور محاورات في

أشياء شتى، فقد سير الامبراطور إلى الكامل أثناء ذلك مسائل في الحكمة والهندسة والرياضة ليمتحن بها من عنده من الفضلاء فعرض الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر أمام هذه الصناعة (أي العلم) وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل وقد أجاب الجميع على ما أورده الامبراطور. وعلى أية حال ظلت الرسل تتردد بين الكامل وفردريك الذي كانت أطماعه متعلقة بما استقر بينه وبين الملك الكامل قبل وفاة الملك المعظم، ورفض الامبراطور العودة إلى بلاده إلا إذا تسلم بيت المقدس وبعض الفتوح الصلاحية، ورفض الملك الكامل هذا الطلب لأنه يجرح مشاعر المسلمين.

ويبدو أن الامبراطور فردريك حاول القيام بعمل عسكري لعله يستطيع أن يرغم الملك الكامل على قبول الصلح. وكان من هذه الأعمال أن القوات الصليبية قد شرعت في عمارة مدينة صيدا، ولقد كانت صيدا مناصفة بين المسلمين والصليبيين وكان سورها خراب، فعمرها الصليبيون واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين.

ولم يقم الملك الكامل بعمل عسكري للرد على هذه الأحداث، فقد كانت قوات الكامل لا تزال تحاصر مدينة دمشق والملك الناصر بداخلها، وقد نجح الملك الناصر في الخروج من دمشق على رأس جيش حتى مدينة نابلس بهدف قطع خطوط إمدادات القوات الكاملية، ولكن الملك الكامل لم ينخدع بهذه الأحداث ولم يتبع الملك الناصر بل ظل محاصراً للمدينة.

الهدنة وتسليم القدس

وعلى أثر إزالة الحكم الإسلامي في صيدا غضب الملك الكامل وقطع المفاوضات مع الامبراطور، ولكن المفاوضات عادت من جديد، وكانا رسولا الامبراطور، توماس أكيرا وباليان حاكم صيدا، ومن جانب الملك الكامل تولى أمر المفاوضات فخر الدين بن شيخ الشيوخ. وأقام الكامل في تل العجول في المرحلة الأخيرة من المفاوضات. وفي الحادي عشر من فبراير عام ١٢٢٩ م/ ١٥ ربيع أول ٦٢٦ هـ عاد رسل الامبراطور بشروط الملك الكامل النهائية فوافق

عليها الامبراطور. وفي الثامن عشر من فبراير/ ٢٢ ربيع أول تم التوقيع على معاهدة الصلح وشهد عليها من الجانب الصليبي هرمان فون سالزا مقدم طائفة الفرسان التيوتون وأسقفا مدينتي أكستر دونشستر. كما مثل الملك الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وصلاح الدين أمير أربل. ثم حلف السلطان الكامل والامبراطور فردريك على الاتفاق وعقدت الهدنة لمدة عشر سنوات ميلادية.

ونصت بنود المعاهدة على النقاط التالية:

١ - قيام الملك الكامل بتسليم القدس إلى الامبراطور على شريطة أن يبقى خراباً، وللامبراطور فريدريك وحده دون سواه أن يعيد بناء أسوار المدينة.

٢ - إطلاق سراح الأسرى المسلمين والصليبيين من كلا الجانبين.

٣ - تكون جميع قرى المسلمين للمسلمين ولهم والي يكون مقامه في مدينة البيرة.

٤ - أن يكون الحرم الشريف بما حداه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة ويتولاه قوام المسلمين.

تحصل مملكة بيت المقدس على مدينة القدس ذاتها وبيت لحم، مع شريط من الأرض يخترق مدينة اللد وينتهي عند يافا، بالإضاف إلى الناصرة وغرب الجليل بما اشتمل عليه من حصن مونتفورت وتبنين.

ويرجع السبب في التنازل عن هذا الشريط الخوف من أن يغتال الصليبيين أحد المسلمين.

٦ - لا تسري هذه المعاهدة على إمارتي إنطاكية وطرابلس وكان يحكمها بوهمند الرابع، وقد تم ذلك بناء على رغبة الامبراطور، لأن بوهمند قد سبب للامبراطور كثيراً من القلق.

وانتظمت الأمور بين الملك الكامل والامبراطور فردريك وآمن كل المسلمين والصليبيين، ويقول ابن واصل أن الامبراطور قال لرسول الملك الكامل فخر الدين بن شيخ الشيوخ «لولا أني أخاف إنكسار جاهي عند الفرنج،

لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، إنما قصدت حفظ ناموسي عندهم» أي عند الفرنج.

وعلى أية حال لما وقعت الهدنة بعث السلطان الكامل من نادي في القدس بخروج المسلمين وتسليمه إلى الفرنج، ولما نودي بالقدس بخروج المسلمين، وتسليم القدس إلى الفرنج وقع في أهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل، واستشنعوه منه، لأن فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الصليبيين كان من أعظم أعمال صلاح الدين. ولكن الملك الكامل كان يعرف أن الفرنج لا يمكنهم التحصن بالقدس لخراب أسواره. وأنه إذا قضى غرضه واستتب له الأمر، كان بإمكانه تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه. ويروى أن السلطان الكامل قال إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس ودور خراب، «والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله».

ومن الواضح أن العالم الإسلامي قد فزع لقيام الملك الكامل بتسليم القدس للامبراطور فردريك، وأن ما قدمه الملك الكامل من أسباب وأعذار لم يكن ما يبررها. وإذا كان الامبراطور قد أعاد إلى العالم المسيحي الأماكن المقدسة، رغم أنه كان محروماً من رحمة الكنيسة. فإن المعاهدة قد قوبلت بالنقد من الجانب الصليبي والمسيحي الأوروبي، فقد حزن بعضهم خاصة الصليبيون لأن الامبراطور لم يسترد القدس بقوة السلاح. وأدرك آخرون أن القدس بوضعه وأسواره خربه لا يقدم ميزة عسكرية للقوات الصليبية. وتذكر بعضهم عروض الملك الكامل أثناء تواجد الحملة الصليبية الخامسة في مصر وأنهم رفضوا هذا العرض لأن القدس بدون قلعتي الكرك والشوبك لا يمكن الدفاع عنه خاصة أن الشريط الضيق الذي حصل عليه الامبراطور لا يكفي لحمايته.

وكان الامبراطور فردريك يتوقع عكس ذلك، فقد كان يعتقد أنه حصل على بعض المكاسب الهامة دون إراقة دماء، وأنه يتوقع رفع قرار الحرمان الذي وقع عليه ولكن أحداً لم يقترح مثل ذلك على البابا. وزاد غضب الامبراطور عندما أعلن البطريق جيرولد عدم رضاه عن المعاهدة وسار إلى أبعد من ذلك عندما هدد بفرض قرار القطع على بيت المقدس إذا استقبلت الامبراطور. كما غضب فرسان الداوية لبقاء مقرهم الرئيسي في القدس في أيدي المسلمين، وانضموا إلى الاسبتارية وأعلنوا أنهم لم يتعاونوا مع الامبراطور عدو البابا. ورغم هذا كله فقد أعلن الامبراطور أنه سوف يتوجه إلى القدس ليتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس رغم علمه أنه أصبح وصياً وليس ملكاً.

وبعد ما تقررت الهدنة استأذن الامبراطور من السلطان الكامل في زيارة مدينة القدس فأذن له، وطلب السلطان من القاضي شمس الدين قاضي نابلس باعتباره رجلاً جليلاً في الدولة وله مكانته عند ملوك بني أيوب أن يلازم الامبراطور أثناء زيارته للقدس حتى يعود إلى عكا. وفي السابع عشر من مارس ١٢٢٩ م/ التاسع عشر من ربيع ثاني ٦٢٦ هـ دخل الامبراطور المدينة في احتفال أعد لهذا الغرض، وقد رافقه بعض العساكر الصليبية من الألمان والإيطاليين وعدد قليل من الأمراء الصليبيين المحليين، وصاحبه أيضاً ممثلون عن جماعة الفرسان التيوتون ومقدمهم هرمان فون سالزا، ومقدم الاسبتارية رغم أن طائفته لم تحضر الاحتفال ولم يحضر ممثلون عن طائفة الداوية أو مقدمهم. أما رجال الدين المحليين فلم يصاحب أحد منهم الامبراطور، ولم يصاحبه سوى أساقفة صقلية وأسقف ونشستر وأسقف أكستر، فقد كانا الأخيران صديقين للامبراطور.

وعندما وصل الامبراطور إلى باب المدينة سلمه القاضي شمس الدين ممثل الملك الكامل مفاتيح المدينة. ثم تقدم موكب الامبراطور إلى دار الاسبتارية القديمة واتخذه مقراً لإقامته. ومن الملاحظ أن المدينة كانت شبه خالية من السكان المسلمين الذين غادروها خوفاً على أنفسهم. والواقع أن

الامبراطور لم يمكث بالمدينة سوى ليلتين فقط شهدت خلالها أحداث توضح وجهة نظر المسلمين والصليبيين المحليين والأوروبيين في نتائج الحملة.

وأول هذه الأحداث ما أصبح معروفاً أن بطرس رئيس أساقفة مدينة قيسارية إستعد للتوجه للقدس لوضع المدينة تحت قرار القطع بناء تعليمات جيرولد بطريق مملكة بيت المقدس الإسمية - ورغم علم الامبراطور بذلك إلا أنه لم يعبأ به وتوجه في اليوم التالي لوصوله ليتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس. ولعلها كانت مفاجأة أم لا عندما لم يجد الامبراطور في كنيسة القيامة أحداً من القساوسة، بل وجد بعض فرسان جماعة الداوية. وتم وضع تاج المملكة على مذبح الكنيسة ثم قام الامبراطور نفسه وأخذ التاج ووضعه على رأسه. والملاحظ هنا أن المسلمين بقيادة صلاح الدين عندما دخلوا مدينة القدس بعد معركة حطين لم يمسوا أماكن العبادة المسيحية بل تركت على حالها كما نلاحظ الآن، على العكس من الأماكن الإسلامية المقدسة التي حولها الصليبيون إلى دور عبادة لهم عندما دخلوا القدس عام ١٠٩٩ م

وعلى أية حال جرت مراسم التتويج بأن ألقى هرمان فون سالزا مقدم جماعة الداوية بعض الكلمات التي مجد فيها الامبراطور وأعماله، ثم عاد الجميع إلى مقر الامبراطور في دار الاسبتارية حيث عقد مجلساً للتداول في أمور شؤون المملكة. وكان أول هذه الأمور تحصين مدينة القدس، وهو ما نصت عليه الهدنة والذي أصبح من حق الامبراطور وحده القيام بمثل هذا العمل. ويبدو أن البدء بأمر تحصينات المدينة كان من اقتراح القادة الصليبيين المحليين الذين حضروا مع الامبراطور إلى القدس وعلى رأسهم مقدما التيوتون والاسبتارية، لأنه إذا رحل الامبراطور والقدس على حالها خربة لم يعد بوسع أحد أن يعيد بناء الأسوار أو غير ذلك. ولذلك أصدر الامبراطور أوامره بإصلاح أبراج المدينة وأن تكون البداية ببرج داود وبرج القديس ستيفان.

ومن المعروف عن الامبراطور حبه للحضارة الإسلامية، لذلك لم يدع الفرصة تفوته وهو بالقدس، فقد طلب من القاضي شمس الدين أن يصحبه

لمشاهدة المزارات الإسلامية، ويروي القاضي أنه دخل معه إلى الحرم الشريف فرأى ما فيه من المزارات، ثم دخل المسجد الأقصى فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة. ولما وصل إلى محراب المسجد الأقصى أعجبه حسنه وحسن المنبر، وصعد في درجة إلى أعلاه، ثم نزل وأمسك بيد القاضي شمس الدين وخرجا من المسجد الأقصى. ويروى أن الامبراطور رأى بعد خروجه من الأقصى قسيساً وفي يده الإنجيل وهو يريد دخول المسجد الأقصى فصاح عليه صيحة منكرة وقال «ما الذي أتى بك إلى ها هنا، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى ها هنا بغير إذني لآخذن ما في عينه، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدق علي وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه، ولا يتعدى أحد منكم طوره».

وفي رواية أخرى أن الامبراطور «عندما دخل الصخرة رأى قسيساً جالساً عند الصخرة عند القدم يأخذ من الفرنج القراطيس، فجاء إليه [الامبراطور] كأنه يطلب منه الدعاء، ثم تسلمه فرماه إلى الأرض وقال له يا خنزير، السلطان تصدق علينا بزيارة هذه المكان وتفعلوا فيه هذه الأفاعيل القباح، إن عاد منكم أحد إلى هذا الفعل قتلته».

وعاد الامبراطور إلى مقر إقامته وبات ليلته، وأعطى القاضي شمس لدين أوامره للمؤذنين في المساجد إلا يؤذنوا احتراماً للامبراطور. وفي الصباح توجه شمس الدين إلى الامبراطور في مقر إقامته فسأله بعد ما دخل عليه «يا قاضي لِم لَم يؤذن المؤذنون على المنابر على جاري عادتهم؟»، فقال له «أن الملك منعهم من ذلك إعظاماً للملك [يقصد الامبراطور] واحتراماً له» فقال: «أخطأت فيما فعلت، والله أنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل».

وعلى أية حال، فقد وصل رئيس أساقفة قيسارية إلى مدينة القدس ليضع المدينة تحت قرار القطع. وكان بالإمكان الإعلان عن ذلك في مدينة عكا ولكن إصرار البطريق جيرولد عى ذهاب رئيس الأساقفة يحمل معنى كبير، فهو على

الأقل إعلان الرفض التام للمعاهدة وموقف الامبراطور فردريك، كما تحمل في طياتها تحد سافر للامبراطور وإحراجه أمام المسلمين. والمهم هنا أنه عندما وصل رئيس أساقفة قيسارية إلى القدس غضب الامبراطور، ولعل ما سمعه من قبل عن قرار القطع اعتبره على سبيل التهديد، ولكنه وقع بالفعل. لذلك غضب الامبراطور غضباً شديداً وتخلى عن مناقشة أمور الدفاع عن المدينة وتحصين أسوارها، وسوف يكون ذلك في صالح المسلمين فقد أضحى بوسعهم دخول المدينة عندما تسمح الظروف. ثم رحل من القدس في طريقه إلى يافا ثم غادرها بعد يوم واحد حيث وصل إلى عكا في الثالث والعشرين من مارس ١٢٢٩م/.

ولما وصل خبر تسليم القدس إلى الامبراطور بدأ الملك الناصر داود في دمشق بالتشنيع على عمه الملك الكامل، وطلب الناصر من الواعظ شمس الدين يوسف ـ وكان له قبول عند الناس ـ أن يجلس في جامع دمشق للوعظ، «ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يحزّن الناس ويذكر ما في تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والعار، وكان الملك الناصر يقصد بذلك تنفير الناس من عمه [أي الملك الكامل] ليناصحوه في قتاله». ونفذ شمس الدين يوسف تعليمات الملك الناصر، وقد حضر الناس لاستماع وعظه، وكان يوماً شهدوا، وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم. وكان من بين الحاضرين المؤرخ ابن واصل.

وعلى أية حال وصل الامبراطور إلى عكا التي استقبلته أسوأ استقبال، لأن أمراء الصليبيين المحليين اعترضوا على قيام الامبراطور بعقد معاهدة مع المسلمين دون رضاهم، كما غضبوا أيضاً من قيام الامبراطور بتتويج نفسه ملكاً على مملكة بيت المقدس رغم أنه لم يكن سوى وصياً على ابنه كونراد. ومن جراء هذا الغضب وقع صدام بين قوات الامبراطور والقوات الصليبية المحلية وغيرهم خاصة تجار مدينتي جنوه والبندقية لأن الامبراطور أغدق الامتيازات على التجار البيازنة لأن أهل مدينة بيزا الإيطالية قد تحالفوا مع الامبراطور ضد البابوية.

وأحس الامبراطور بغضب الصليبيين المحليين، فدعاهم إلى اجتماع ليوضح وجهة نظره، وبدأ الاجتماع بعرض تقرير عن أعمال حملته، ولكن الحاضرين قابلوه بالغضب مما اضطره لاستخدام القوة للدفاع عن نفسه، فحاصر مقر البطريق جيرولد، ووضع حراسة مشددة على مدخل مدينة عكا بحيث لم يخرج أو يدخل أحد إلا بتصريح خاص.

وقضى الامبراطور خمسة أسابيع في عكا، فقد وصلها في الثالث والعشرين من مارس ١٢٢٩ م بعد زيارته لمدينة القدس وغادرها في أول مايو من العام نفسه/ الخامس من جمادي الثانية ٦٢٦ هـ/ حاول خلالها السيطرة على الموقف داخل المدينة ولكنه لم يوفق. وعجل من رحيل الامبراطور ما وصله من أنباء عن قيام صهره جان دي برين الذي تحالف مع البابوية وقاد جيشاً بابوياً وأغار على ممتلكات الامبراطور في إيطاليا. لذلك استعد الامبراطور للرحيل، فعين باليان حاكم صيدا، وجارنيه الألماني Garnier the German نائبين عنه في حكم المملكة، وعين أيضاً أودو أف مونتبليارد Odo of Montbeliard قائداً للجيش. ومن الملاحظ أن الذين عينهم الامبراطور في هذه المناصب كانوا من القادة الصليبيين المحليين، وبقبولهم هذه المناصب من الامبراطور يعتبر اعترافاً منهم بسلطة الامبراطور بصفته ملكاً على مملكة بيت المقدس. وربما يكون قبول هذه المناصب مراوغة منهم حتى يرحل الامبراطور دون مزيد من المتاعب ثم يكون لهم ما يكون مع إخوانهم القادة بعد رحيل الامبراطور. ولكن الأمر الذي لا لبس فيه أن المملكة الصليبية أصبحت للصبي القاصر كونراد ابن الامبراطور.

رحيل فردريك

وقد ودع الصليبيون الامبراطور وداعاً سيئاً خاصة أهالي مدينة عكا الذين قذفوه بالقاذورات، واتخذ طريقه إلى قبرص. كما رتب زواج ابنه كونراد من الأميرة الإيطالية أليس مونتفرات. وفي النهاية أبحر إلى برنديزي التي وصلها في العاشر من يونيه ١٢٢٩ م، أي بعد حوالي عام منذ رحيله الأول عن المدينة

ذاتها عندما أبحر إلى قبرص ومنها إلى عكا.

لقد عادت مدينة القدس إلى مملكة بيت المقدس، إلا أن ذلك لا يعتبر من الأهمية بمكان من الناحية العسكرية، فقد كانت مدينة دور دون أسوار يسهل السيطرة عليها من قبل المسلمين، كما أن الشريط البري الذي يربط المدينة المقدسة بمدينة يافا الساحلية كان عرضة للغارات الإسلامية. كما أن المملكة ذاتها كانت عبارة عن مجموعة من المدن والقلاع سهلة المنال للقوات الإسلامية إذا وجدت من يوحدها ويوجهها لمحاربة الصليبيين. ونظراً لتنافس الأمراء ا لصليبيين المحليين أصبح من الصعب إقامة حكومة مركزية تقف في وجه القوات الإسلامية، فإمارة إنطاكية وطرابلس منفصلة عن مملكة بيت المقدس وليس في الأخيرة من القوة العسكرية سوى جماعات الفرسان العسكرية وهي الاسبتارية والداوية والتيوتون والبارونات. وفي الوقت نفسه فضل الكثير من الصليبيين الرحيل إلى القسطنطينية للخدمة في الامبراطورية اللاتينية التي أطاحت بالامبراطورية البيزنطية ١٢٠٤ - ١٢٦١ م.

ورغم هذا كله فإن الامبراطور فردريك نجح بالطرق الدبلوماسية أن يحرز من النصر على المسلمين ما أثار دهشة الكثيرين، فرغم ضآلة قواته فإنه نجح فيما لم تنجح فيه أكبر الحملات الصليبية استعداداً مثل الحملة الثالثة التي تولاها ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس، والحملة الخامسة على مصر بقيادة جان دي برين، والحملة السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا.

ومما نود الإشارة إليه في هذا الوضع أن العلاقات الودية ظلت مستمرة بين الملك الكامل والامبراطور فردريك وبين أولادهم وأحفادهم من بعدهم. فعندما توفي الملك الكامل وتولى بعده ابنه الملك العادل المعروف بالعادل الثاني ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م، ظلت العلاقات والمراسلات بينه وبين الامبراطور فردريك. وبعد الملك العادل تولى أخوه الملك الصالح أيوب ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م حكم البلاد، واستمر الأمر على ما هو عليه وأرسل إليه العلامة سراج

الدين فأقام عنه مكرماً لبعض الوقت، وصنف له كتاباً في المنطق وقد أحسن إليه الامبراطور. كما أن الامبراطور أرسل إلى الصالح إيوب يحذره بأن لويس السابع ملك فرنسا يعد حملة صليبية لغزو البلاد. وبعد الامبراطور تولى ابنه كونراد ثم ابنه مانفريد Manfred في صقلية. ويروي المؤرخ ابن واصل أنه توجه بنفسه رسولاً من قبل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس إلى الامبراطور مانفريد في عام ٦٥٩ هـ وأنه أقام عنده مكرماً واجتمع به مراراً وقد وجده متميزاً ومحباً للعلوم العقلية، وأن أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة كانوا من المسلمين، وكان الأذان يعلن في معسكره للصلاة.

ومهما يكن الأمر فقد ظلت الهدنة قائمة بين المسلمين والصليبيين حتى عام ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م حيث قدمت إلى الشام حملة صليبية أخرى دعا إليها البابا جريجوري التاسع واستجاب لها بعض الفرسان الفرنسيين وعلى رأسهم ثيوبالد الرابع Theobald IV أمير شامباني وملك نافار، وهيو الرابع Hugh IV أمير برجنديا، وبطرس موكلرك Peter Mauclerce أمير بريتاني وغيرهم، ووصلت هذه الحملة إلى عكا في أول سبتمبر ١٢٣٩ م/ ٣٠ محرم ٦٣٧ هـ.

وعندما علم الناصر داود صاحب الأردن بوصول الصليبيين تذرع بنقض الصليبيين لصلح يافا وقيامهم بتحصين القدس وطردهم منها. وانتهى أمر الحملة باستلام الصليبيين للقدس مرة أخرى ومعها طبرية وعسقلان، بالإضافة إلى قلعة شقيف أرنون وأعمالها وقلعة صفد وبلادها وبعض البلاد الأخرى.

ولم تكد هذه الحملة تغادر الأراضي المقدسة حتى وصلتها حملة أخرى تعرف باسم الحملة الانجليزية في الحادي عشر من أكتوبر عام ١٢٤٠ م/ ٢٢ ربيع ثاني ٦٣٨ هـ وعلى رأسها ريتشارد أف كورنول Richard of Cornouailles أخو هنري الثالث ملك إنجلترا. وقد نجحت الحملة في تأكيد حق الصليبيين في ملكية بيت المقدس، وإقليم الجليل وشقيف أرنون وعسقلان ومجدل يابا.

ولم يمض وقت طويل على رحيل هذه الحملة حتى تمكن الصالح نجم الدين أيوب بمساعدة الخوارزمية من استعادة بيت المقدس في عام ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م. وبذلك فقد الصليبيون إلى غير رجعة تلك المدينة المقدسة. وكان هذا السبب بالإضافة إلى أسباب أخرى دافعاً لقيام لويس التاسع بحملته على مصر.



الفصل الثامن

الحملة الصليبية السابعة

أسباب الحملة:

ترجع أسباب الحملة إلى عدة عوامل متعددة منها، حالة الضعف والتدهور التي وصلت إليها القوى الصليبية في الشام حتى ضاعت من أيديها مدينة بيت المقدس، وما تلي ذلك هو توجيه الضربات العديدة إلى الكيان الصليبي. وكان في ذلك كله سبباً في إثارة لويس التاسع ملك فرنسا ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م بصفة خاصة وأهل الغرب الأوروبي بصفة عامة للثأر لما نزل بالصليبيين من هزائم.

وإلى جانب هذا السبب الرئيسي فهناك أسباب أخرى غير مباشرة أسهمت في دفع الغرب الأوروبي لإعداد الحملة وتوجيهها إلى مصر. فقد كان الملك الفرنسي قد وقع فريسة لمرض عضال شارف به على الموت. وعندما شفي منه كرس كل جهوده للقيام بحملة صليبية لتخليص الأراضي المقدسة والعمل على استرداد بيت المقدس اعترافاً منه بفضل الله عليه. كما أن الكوارث التي توالت على الإمارات الصليبية دفعت بالمبعوثين إلى الغرب الأوروبي طلباً في النجدة، هذا فضلاً عن الدور الذي لعبه رجال الدين في الشرق وبصفة خاصة روبرت البطريق الإسمي لمدينة بيت المقدس.

ولعبت البابوية دورها أيضاً في هذه الحملة للتخلص من مضايقات الملوك والأمراء حتى تخلو للبابوية الساحة الأوروبية بابتعاد لويس التاسع ذو

الموقف الصارم تجاه رجال الدين، حتى تتمكن البابوية من فرض سيطرتها على الغرب الأوروبي. ودعا البابا أنوسنت الرابع ١٢٤٢ - ١٢٥٤ م إلى مجلس كنسي في مدينة ليون في فرنسا عام ١٢٤٥ م. وأخذ البابا على عاتقه مهمة تقديم التسهيلات اللازمة للحملة. وصدر عن المؤتمر عدة قرارات لدفع الناس للاشتراك في الحملة، ووعد كل من يحمل الصليب بالغفران التام عن خطاياه وذنوبه. وبعد انتهاء أعمال المؤتمر أرسل البابا مندوبيه إلى أنحاء أوروبا للتبشير بالحملة. وكانت حماسة فرنسا واضحة نظراً لموقف الملك لويس فاتسمت الحملة بالطابع الفرنسي.

الإعداد للحملة:

لقد برز موضوع دور البابا أنوسنت الرابع، فقد كانت دعواه عاملاً فعالاً في إعداد الحملة، فضلاً عن لويس التاسع الذي أخذ على عاتقه مهمة النهوض بالحملة. وقد استغرق إعداد الحملة ثلاث سنوات، وفرضت ضرائب استثنائية على الجميع بما فيهم رجال الدين للإنفاق على الحملة. كما عقد لويس التاسع مجلساً كبيراً في باريس حضره كبار رجال المملكة والكنيسة، ودعاهم إلى حمل الصليب والإنضمام إلى صفوف الحملة، ونجح في إثارة حميتهم الدينية، وبادر بالانضمام للحملة أخوته الثلاثة، روبرت كونت أرتو Robert of Artois، والفونس كونت بواتيه Alfonso of Poitou وشارل كونت أنجو Charles of Anjou وعدد كبير من الشخصيات التي تركت فرنسا بمقاطعاتها المختلفة للإنضمام إلى صفوف الحملة.

ومن جانب آخر قام لويس بتجهيز أسطول كبير لنقل الجنود والعتاد عبر البحر بعد ما تقرر استبعاد الطريق البري حتى يضمن نجاح حملته، واستأجر عدداً من السفن من جنوه ومرسيليا لهذا الغرض. كما عمل لويس على توفير العتاد والمؤن فضلاً عن المال لتغطية نفقات الحملة، واستعان بالبابا في هذا الصدد لأن البابا هدد بإنزال قرارات الحرمان على كل من يخالف التعليمات التي

أصدرها من أجل إعداد الحملة. وبعد أن انتهى لويس من المشاكل الخاصة بالنقل والتموين وموارد الحملة، عمل على تنظيم مملكته وإقرار الأمن والنظام بداخلها قبل سفره، وأناب عنه في الحكم والدته الملكة بلانش Blanche، وأحضر من يعملون في بلاطه ليقسموا يمين الولاء والطاعة له وللملكة الأم أثناء غيابه.

رحيل الحملة واستعداد مصر لمواجهتها:

غادر الملك والحملة مدينة باريس إلى مدينة ليون حيث كان البابا أنوسنت الرابع فحصل منه على البركة والغفران. ثم اتجه إلى ميناء إيجسمورت Aigues Mortes جنوب فرنسا في الثالث عشر من يونيه عام ١٢٤٨ م. ومن جنوب فرنسا أبحرت الحملة إلى جزيرة قبرص حيث مكثت بالجزيرة حوالي ثمانية أشهر، وخلال هذه الفترة تسربت أخبار الحملة إلى مصر، فاستعدت القيادة المصرية لمواجهة الغزاة وحصنت مدينة دمياط التي كانت تتوقع الهجوم عليها وزودت المدينة بالمقاتلة والمؤن.

وكان السلطان الأيوبي الصالح أيوب في بلاد الشام عندما وصلت إليه الأنباء بتحركات الصليبيين، فأسرع بالعودة إلى مصر بعد ما عقد صلحاً مع صاحب حمص، ونزل ببلدة أشموم طناح في الثالث من صفر عام ٦٤٧ هـ/ الثامن عشر من مايو عام ١٢٤٩ م ليكون في مواجهة القوات الصليبية إذا ما وصلت إلى دمياط. وزاد الصالح أيوب في تحصين المدينة وإعداد الجيوش وعهد إلى طائفة من بني كنانة لما عرف عنهم بالشجاعة لحماية المدينة من الداخل والخارج، كما أصدر أوامره إلى نائبه في حكم مصر حسام الدين بن علي لإعداد قطع الأسطول وإرسالها إلى دمياط تباعاً. وأوفد السلطان الأمير فخر الدين يوسف مقدم العساكر على رأس جيش كبير إلى البر الغربي لدمياط (جيزة دمياط) حتى يكون في مواجهة الصليبيين عند وصولهم إلى بر المدينة الغربي، كما حدث في الحملة الصليبية الخامسة. ويروي ابن تغري أنه «في

يوم السبت من ذي القعدة وقع الشروع في عمل عدة مراكب للرد على غزو الفرنج واستمر العمل فيهم كل يوم إلى أن نزل السلطان في يوم الثلاثاء الحادي عشر من صفر سنة ثمان وعشرين [وستمائة]. وكشف عمل المراكب. .»، وأضاف وفي هذه الأيام «كثرت الأطيار بحركة الفرنج فخرج عدد من الأمراء المماليك لحراسة الثغور. .»، ومما ذكره ابن تغري أيضاً «وفي هذا الشهر أخذ السلطان في تجهيز الغزاة وعيّن جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء وألزم كل أمير أن يجهز عشرة مماليك من مماليكه. .».

خط سير الحملة:

عندما خرجت الحملة من إيجسمورت أسند لويس قيادة الأسطول إلى الجنويين لخبرتهم في شؤون الملاحة، وتقدم الأسطول السفنية التي تحمل علم القديس دنيس شعار فرنسا، ورست الحملة في ميناء ليماسول Limassol جنوب قبرص في السابع عشر من سبتمبر عام ١٢٤٨ م. وفي الوقت نفسه أبحر بعض الصليبيين ومن بينهم مؤرخ الحملة جوانفيل Joinville من مرسيليا في سبتمبر من العام نفسه ولحقوا بإخوانهم في قبرص بعد رحلة شاقة. وفي قبرص تناقش الصليبيون في تحديد وجهة الحملة، وبعد دراسة مستفيضة تقرر أن تكون مصر هدف الحملة بسبب ما أدركه الصليبيون من أهمية مصر لقوتها وثروتها وقيامها بالدفاع عن الأراضي المقدسة.

أمضت الحملة في قبرص حوالي ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ ـ مايو ١٢٤٩ م)، رغم رغبة الملك في التقدم بسرعة نحو مصر ولكنه نزل عن رغبته لنصيحة قواده الذين آثروا الانتظار حتى يلحق بالحملة بقية الجيش الذي لم يصل بعد إلى قبرص، وقد عاد التأخير بالفائدة على القيادة الإسلامية في مصر لأنها سارعت بالاستعداد لمواجهة الحملة. وبعد رحلة بحرية شاقة بسبب هبوب الرياح وصلت الحملة إلى الفرع الشرقي للنيل المعروف بفرع دمياط في يوم الجمعة الموافق الرابع من يونيه عام ١٢٤٩م/ العشرون من صفر عام ٦٤٧ هـ

إستيلاء الصليبيين على دمياط ونتائجه:

وفي اليوم التالي شرعت القوات الصليبية في النزول إلى جيزة دمياط. ولم يكن ذلك بالأمر الهين لضحالة مياه الشاطىء فاضطر الصليبيون إلى ترك سفنهم الكبرى في عرض البحر، وانتقلوا إلى البر في قواربهم الصغيرة، وفي تلك الأثناء كانت القوات الإسلامية ترمي الفرنج بالرماح والسهام. وفي نهاية الأمر نجحت الحملة ونزلت على الأرض، وظلت المناوشات بين المسلمين والصليبيين على الشاطىء. ونتيجة لضربات الصليبيين تراجع قائد القوات فخر الدين بجيشه وعبر بعسكره إلى الجانب الشرقي من دمياط واتخذ طريقه إلى أشموم طناح، ونسي الجند في عجلتهم عند تراجعهم أن يحطموا الجسر الذي يصل بين البر الغربي والشرقي وتركوه على حاله، فاستولى عليه الصليبيون فانفتح الطريق أمامهم إلى مدينة دماط.

وإذا قمنا بتحليل الأسباب التي أدت إلى تراجع فخر الدين إلى أشموم طناح - غداة وصول القوات الصليبية - وليس إلى مدينة دمياط رغم حصانتها، فإن فهم الحقيقة يرجع إلى فخر الدين نفسه وليس إلى ضعف القوات الإسلامية، فقد كان فخر الدين كبير المطامح وكثيراً ما حدثته نفسه بالسلطنة. وكان فخر الدين قد أرسل برسالة إلى الصالح أيوب في أشموم طناح ولما تأخر الرد لبعض الوقت اعتقد أن السلطان قد مات لأن المرض كان قد اشتد عليه في الأونة الأخيرة، فاتجه إلى أشموم طناح المقر العسكري للسلطان ليستولي على السلطة. ويروي ابن واصل حول ذلك «وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، فلم يكن لهم من يردهم ولا يردعهم، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح» ولم يبق للسلطان «قدرة على ضبط جنده، وقد اشتد طمعهم فيه».

على أية حال عندما خلا البر الغربي للصليبيين ورحل المسلمون بعيداً عن دمياط فزع أهل المدينة وهربوا منها ولحقوا بالجند عند أشموم طناح، بعد ما خربوا المدينة حتى لا تقع غنيمة باردة في أيدي القوات الصليبية.

وفي صباح السادس من يونيه، الثاني والعشرين من صفر اتجه الفرنج إلى دمياط للاستيلاء عليها، ولما وجدوها خالية دخلوها دون قتال. وكان لسرعة سقوط دمياط في أيدي الفرنج آثاراً سيئة في صفوف القوات الإسلامية. وعندما وصل خبر سقوط المدينة إلى مسامع السلطان تأثر تأثراً شديداً، علاوة على ما يعانيه من مرض، ولكنه ثار عندما علم بفرار بني كنانة وتخليهم عن الدفاع عن المدينة، فأمر بشنق ما يزيد عن خمسين من كبار رجالهم، وكاد يأمر بقتل فخر الدين لانسحابه من جيزة دمياط ولكنه عدل لدقة الموقف. وبعد هذه الأحداث قرر السلطان التراجع من أشموم طناح جنوباً إلى مدينة المنصورة لحصانتها حيث كان النيل يحدها غرباً وبحر أشموم في الشمال ليفصل بينه وبين الصليبيين.

تمركز المسلمين في المنصورة:

تجمعت القوات الإسلامية في المنصورة، وشرعت في شحن المدينة بالعتاد وإعدادها للمعركة المقبلة، ومن ذلك إصلاح سور المدينة المحيط بها وزودت المدينة بالعتاد والمقاتلة، وساعد على ذلك تطوع عدد كبير من العربان والعامة استعداداً لملاقاة الصليبيين.

وخلال هذه المرحلة كان الصليبيون يعملون على تدعيم مركزهم في دمياط، وتوقفت الأعمال العسكرية بين الطرفين لمدة تقرب من خمسة أشهر ونصف عمل كل طرف أثنائها على تدعيم مركزه. وكما كان تأخير الحملة في قبرص قد عمل على تسرب أخبارها، فإن بقاء القوات الصليبية طوال هذه الفترة في دمياط قد عمل على اختلال الحملة، فقد عملت هذه الفترة على فساد النظام. وساد الإفراط في الملذات حتى أصبح الملك لويس التاسع عاجزاً عن السيطرة على القوات الصليبية. وإذا كان هذا هو الحال في المعسكر الصليبي فقد كان العكس في المعسكر الإسلامي فقد نجح المسلمون في إعادة تنظيم صفوفهم وبدأوا المناوشات مع القوات الصليبية ونجحوا في أسر بعضهم.

ويذكر ابن واصل أن المسلمين نجحوا في أسر ما يقرب من ثلاثمائة أسير.

زحف الصليبيين تجاه القاهرة:

وقرر الصليبيون الزحف صوب القاهرة بعد ما وصلت إليهم بعض الإمدادات، ورتب الملك لويس حراسة قوية لحراسة المدينة بعد تحرك القوات الصليبية. وفي هذه المرحلة مات السلطان الصالح أيوب، وكانت محنة عظيمة ألمت بالمسلمين. ولكن زوجته شجر الدر ظهرت على مسرح الأحداث وأدركت خطورة إذاعة هذا الخبر على الجند، فقررت إخفاء خبر الوفاة ولم يعرف بذلك إلا الخاصة، وزورت وثيقة تحمل توقيع السلطان بتعيين ابنه توران شاه قائداً عاماً للجيوش ونائباً للسلطان أثناء مرضه. وخلال ذلك كان الصليبيون يتحركون جنوباً فوصلوا إلى مدينة فارسكور في الثاني عشر من ديسمبر ١٢٤٩ م، ومنها تقدموا إلى شارمساح ثم إلى البرامون وأصبح بحر أشموم هو الفاصل بين المسلمين والصليبيين.

وعند هذه المرحلة توقفت القوات الصليبية وأقامت معسكرها على الضفة الشمالية وعملت على تأمين معسكرها بحفر الخنادق وإقامة المتاريس، وظلوا على هذا حوالي شهر ونصف، ثم شرعوا في بناء جسر ليعبروا عليه إلى الضفة الجنوبية لبحر أشموم. ولم تكن عملية إقامة الجسر بالأمر الهين فقد أمطرهم المسلمون وابلاً من القذائف، ولم يتمكنوا من إقامته. وأخيراً نجح الصليبيون في التعرف على مخاضة ـ دلهم عليها أحد العربان بعد ما رشوه بالمال ـ تمكنهم من العبور إلى المعسكر الإسلامي.

كانت خطة الملك لويس أن يعبر هو وأخوته وجزء كبير من الجيش المخاضة إلى الجنوب، ويقوم بقية الجيش الصليبي بحراسة المعسكر الصليبي، وبعد إتمام عملية العبور تقوم الفرقة المخصصة للحراسة باستكمال عملية إقامة الجسر، وإذا ما تم النصر على القوات الإسلامية في المنصورة، يتقدم الجيش الصليبي إلى القاهرة.

عبرت القوات الصليبية في فجر الثامن من فبراير عام ١٢٥٠ م، وكانت عملية شاقة وبطيئة بسبب عمق المخاضة، وكان في طليعة القوات الصليبية الكونت أرتو الذي شن على القوات الإسلامية المواجهة له هجوماً عنيفاً، وحقق نصراً عليها. وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الأمير فخر الدين أسرع بدعوة القوات الإسلامية والتحم مع الصليبيين في معركة عنيفة وقع فيها فخر الدين شهيداً فغسل بذلك عار انسحابه من جيزة دمياط.

اغتر الكونت أرتو بالنصر الذي أحرزه ولم يبال بأوامر الملك لويس ونصائح القادة الصليبيين بالتريث حتى تتكامل القوات الصليبية، وأراد أن ينفرد بشرف النصر لنفسه، فاندفع بفرسانه في حالة من التهور إلى داخل مدينة المنصورة. وبدأت معركة مع الجيش الإسلامي الذي تمكن من إعادة تنظيم قواته بقيادة ركن الدين بيبرس البندقداري، وانتهت المعركة بنصر كبير للمسلمين، قتل فيه عدد كبير من الصليبيين وعلى رأسهم الكونت أرتو في العاشر من فبراير عام ١٢٥٠ م ولكن الملك لويس نجح في الاستيلاء على معسكر المسلمين خارج المدينة.

قرر الملك لويس الاستعداد لمواجهة أي هجوم على معسكره الجديد، كما استعدت القوات الإسلامية لمهاجمة القوات الصليبية. وفي الحادي عشر من فبراير عام ١٢٥٠ م بدأت معركة طاحنة بين الطرفين انتهت بانتصار المسلمين، وترتب علي ذلك ارتباك القوات الصليبية بعد ما هزمت مرتين في يومين متتاليين، ولم تمض أيام قلائل حتى تفشى الوباء في القوات الصليبية، وأضعف كل هذا من كفاءة الجيش القتالية.

وأثناء النصر الذي أحرزه المسلمون وصل توران شاه من حصن كيفا ونزل بالصالحية وأعلن خبر وفاة الصالح أيوب ونودي بتوران شاه سلطاناً علي مصر. وتقدم توران شاه إلى المنصورة في الخامس والعشرين من شهر فبراير فالتف حوله الجيش الإسلامي المنتصر وبدأ على الفور في إعداد القوات لمنازلة الصليبيين المقيمين جنوبي بحر أشموم. ونجحت القوات الإسلامية في

الاستيلاء على سفن الفرنج التي كانت تمر في بحر أشموم، وشعر الصليبيون بقرب المجاعة وزاد موقفهم حرجاً عندما بدأ المسلمون في حصارهم، ودارت معارك عديدة بين الطرفين في البر والبحر حول المنطقة المحصورة بين شارمساح والمنصورة حالف النصر فيها القوات الإسلامية البحرية والبرية.

فشل مفاوضات الصلح وتراجع الفرنج:

بعد ما حلت الهزيمة بالقوات الصليبية، وبعد ما عانوه من صعاب طلب الملك لويس التاسع فتح باب المفاوضات مع المسلمين وأرسل مندوباً عنه إلى السلطان توران شاه يحمل شروط الصلح. وقد عرض الملك لويس تسليم مدينة دمياط والأراضي التي استولى عليها في مصر نظير تنازل سلطان مصر عن بيت المقدس وبعض المدن الساحلية في الشام، ولكن توران شاه رفض عرض الملك لويس. والواضح أن رفضه هذا نابع من قوته العسكرية التي أنزلت الهزيمة تلو الأخرى بالقوات الصليبية.

وبعد رفض توران شاه لعرض الصلح الذي تقدم به الملك لويس لم يعد أمام الملك الفرنسي سوى حلين، أما أن يواصل الحرب وهذا لم يعد في مقدوره، وأما أن يتراجع إلى دمياط وهو ما يمكن عمله. ولذلك أمر لويس ما تحت يديه من قوات بالاستعداد للانتقال إلى معسكرهم القديم الذي أقاموه على الضفة الشمالية لبحر أشموم تمهيداً للعودة إلى دمياط.

بدأ الفرنج في الانسحاب، ولكن القوات الإسلامية كانت لهم بالمرصاد وعبر الفرنج الجسر على عجل، ووقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه المسلمون عندما انسحبوا من جيزة دمياط، ونسوا تحطيم الجسر بعد عبورهم، فاندفعت القوات الإسلامية خلفهم بقيادة بيبرس البندقداري، واستطاعت القوات الإسلامية اقتحام المعسكر الصليبي وأجبروا الفرنج على الهرب بعد ما أنزلوا بهم خسائر فادحة وتعقبت القوات الإسلامية الفرنج حتى فارسكور.

أسر الملك لويس وشروط الصلح :

حلت كارثة أخرى بالصليبيين عند فارسكور، وكانت الخاتمة التي حلت بهم، وبعدها استسلم رجال الجيش الصليبي للمسلمين ووقع الملك لويس أسيراً في يد المسلمين ومعه أخويه الكونت شارل والكونت الفونس، وأودعوا دار القاضي فخر الدين بن لقمان في المنصورة. وبعد بضعة أيام فتحت أبواب المفاوضات بين السلطان توران شاه والملك الأسير، وطلب السلطان من لويس أن يسلمه بعض القلاع الصليبية في الشام. ولكن لويس اعتذر عن تنفيذ مثل هذا الشرط لأنه لا يستطيع التنازل عن أرض ليست ملكاً له. وبعد محاولات متكررة تنازل السلطان عن هذا الشرط مقابل أن يدفع لويس مبلغاً كبيراً من المال وتم توقيع الهدنة بين الطرفين، وكان من أهم شروط الهدنة، أن يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط فدية عن نفسه، وأن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف بيزنط فدية لأسرى الصليبيين، ويطلق سراح أسرى المسلمين الذين في حوزته، وأسرى المسلمين في الشام منذ الهدنة التي عقدت بين الامبراطور فردريك والملك الكامل عام ١٢٢٩ م وهو المعروف بصلح يافا، وأخيراً أن يعمل الصليبيون على حفظ الأمن والاستقرار في جميع البلاد التي تحت أيدي الصليبيين في بلاد الشام.

وإذا كان هذا ما يتعلق بالجانب الصليبي، فقد قضت شروط الصلح أن يطلق المسلمون أسرى الصليبيين الذين وقعوا في أيديهم منذ وصول الحملة، وكذلك الأسرى منذ صلح يافا، وأن يقوم السلطان بحماية العتاد الحربي الذي يتواجد في دمياط بعد رحيل الحملة حتى تسنح الفرصة لنقله خارج مصر، وأن يمنح الأمان لمن يبقى من الصليبيين في دمياط حتى رحيلهم.

وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح، وتم التوقيع عليها من الجانبين وانتقل السلطان توران شاه بعد ذلك من المنصورة إلى فارسكور ومعه الملك لويس. ومن فارسكور تم نقل لويس ومن معه من الأسرى على السفن

إلى فارسكور ثم إلى دمياط، ورسا الجميع بالقرب من الشاطيء في الثامن عشر من إبريل عام ١٢٥٠ م.

فشل الحملة ورحيلها:

وانتظر لويس لبعض الوقت حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين ودخلت القوات الإسلامية المدينة في السابع من مايو بعد ما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام. ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تبعهم باقي الصليبيين. وفي يوم الأحد الرابع من صفر عام ٦٤٨ هـ الموافق الثامن من مايو عام ١٢٥٠ م أقلعت سفن الفرنج واتخذت طريقها إلى عكا حاملة فلول الحملة بعد أن أنهكتها الهزائم، وحلت بها الكوارث.

أسباب فشل الحملة:

هناك عوامل عديدة متفاوتة التأثير أدت في النهاية إلى إخفاق الحملة. وبعض هذه الأسباب يرجع إلى الجانب الصليبي والآخر إلى الجانب الإسلامي. وفيما يتعلق بالجانب الصليبي يمكن حصر الأسباب في ست نقاط رئيسية، وأول هذه الأسباب يرجع إلى جهل الفرنج بجغرافية البلاد المصرية بعامة وبطبوغرافية الطريق الذي اتخذوه للتوجه صوب القاهرة بعد الاستيلاء على دمياط، فقد كان يعترض الطريق عدة قنوات وترع أشبه بشبكة الصائد وتصلح أفخاخاً للإيقاع بالجيش الدخيل. وكان على الملك الاتعاظ والاستفادة من الأخطاء التي وقع فيها قواد الحملة الصليبية الخامسة التي سلكت الطريق نفسه.

وإذا كان الخطأ الأول يتعلق بالمكان فإن الخطأ الثاني يتعلق بالزمان، فقد أخطأ قواد الحملة في تقدير العامل الزمني الذي له أكبر الأثر في عوامل نجاح الحروب. فالوقت الذي أضاعه الصليبيون في قبرص كان سبباً في تسرب

أثناء تحرك الحملة، والوقت الذي أضاعوه في دمياط كان سبباً في إعطاء الفرصة للقوات الإسلامية في التقاط أنفاسهم وإعادة تنظيم قواتها. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الوقت الذي ضاع في قبرص ودمياط قد أدى إلى نفاذ المؤن والأموال ودفع بالقوات الصليبية إلى اللهو والانغماس في الملذات، مما أدى إلى إنهاك القوات الصليبية واختلال توازنها، وانتشار الأمراض وموت عدد من الصليبيين. وكان على الصليبيين الاتعاظ من ضياع الوقت في قبرص ولكنهم عادوا وكرروه في دمياط. ولعل مرجع ذلك إلى غرور الصليبيين بأنفسهم خاصة بعد سقوط دمياط دون قتال واعتقادهم أن الطريق أصبح مفتوحاً أمامهم إلى القاهرة وأنهم سيستولون على القاهرة بنفس السهولة التي استولوا بها على دمياط.

والسبب الثالث الذي أدى إلى فشل الحملة هو عصيان القوات الصليبية وعدم إطاعتها أوامر قائد الحملة وهو الملك لويس. فواقع الأمر أن الملك لم يكن صاحب الكلمة المطلقة على قواده، والدليل على ذلك أن لويس كان راغباً في التوجه إلى مصر عقب وصوله إلى قبرص، ولكنه اضطر للبقاء في الجزيرة نزولاً عن رغبة قواد جيشه، وتكرر الحال في دمياط وفضل الصليبيون البقاء في دمياط لبعض الوقت، ولكنهم لم يستغلوا هذا الوقت في الإعداد والتدريب بل قضوه في الملذات وعلى مرأى من الملك الذي عجز عن كبح جماحهم، وغير ذلك من الأعمال المخلة. والحملة مليئة بالمعارك التي مات فيها الكثير من الصليبيين نتيجة تمردهم وعصيانهم لأوامر الملك لويس، والمثل الصارخ على ذلك هو عصيان الكونت أرتو شقيق الملك للأوامر الصادرة إليه من أخيه بعدم التقدم إلى المنصورة، ولكن الكونت اندفع بتهور إلى المدينة، وترتب على ذلك مصرع أرتو وغيره من الصليبيين.

وهناك عامل رابع أسهم في فشل الحملة، فانحلال الحملة خلقياً بصورة واضحة، أدى إلى إنهاك قواهم وضعف الروح المعنوية. وفي الوقت الذي انصرف فيه الصليبيين إلى اللهو والفجور، نجد المسلمين منهمكين في تنظيم صفوفهم وإعداد القوات لمواجهة الصليبيين والعمل على عدم تقدمهم في

الأراضي المقدسة. ورغم أن الحملة اتسمت بالطابع الديني وأن لويس نفسه عرف باسم القديس لويس، إلا أننا لا نلاحظ هذه السمة بين القوات الصليبية وتغلبت المصالح المادية والملذات الدنيوية على الحملة.

والسبب الخامس مرجعه إلى قلة بصيرة القادة الصليبيين، فالقائد الناجح عليه أن يضع خطة للانسحاب مع إعداده خطته للهجوم، والذي فكر فيه الصليبيون هو أن الطريق أصبح مفتوحاً إلى القاهرة، ولذلك عندما وقعت بهم الهزيمة الأولى عند بحر أشموم اختلت صفوفهم ولاذوا بالفرار دون ترتيب وعدم وضع القوات الكفيلة بتغطية انسحابهم. وكان نتيجة ذلك عدم تحطيم الجسر الذي بنوه على بحر أشموم وهو الجسر الذي استغله المسلمون في اقتفاء أثرهم وهو الخطأ نفسه الذي وقع فيه المسلمون عند انسحابهم من جيزة دمياط.

والخطأ السادس والأخير هو الشقاق الذي ساد صفوف الصليبيين وعدم التعاون في المعسكر الصليبي. ومن ذلك الاختلاف الذي وقع بين الصليبيين عند توزيع الغنائم التي استولوا عليها في مدينة دمياط، والعداء التقليدي بين فرسان الاسبتارية والداوية وهو العداء الذي ظهر بوضوح إبان العمليات العسكرية.

وإذا كان ذلك ما يتعلق بالجانب الصليبي، فإن ما يتعلق بالجانب الإسلامي يرجع إلى عاملين أساسيين، أولهما وهو عامل في غاية الأهمية وله أثر كبير في هزيمة الحملة، وهو تفوق القوات الإسلامية من الناحية العسكرية عل القوات الصليبية. ولقد كانت مصر في العصر الأيوبي تحتفظ بجيش منظم مدرب أحسن تدريب، صناعته الحرب والقتال وأبدى من المهارة والبسالة في قتال القوات الصليبية رغم هزيمتهم في بداية الأمر. وتميز القواد المسلمون بوضع الخطط الحربية الممزوجة بالمكر والخدع الحربية، والمثال على ذلك الخطة التي وضعها توران شاه عقب وصوله إلى المنصورة لقطع خطوط الإمدادات الصليبية عن الصليبيين المقيمين جنوب بحر أشموم ثم مهاجمة القوات الصليبية في الوقت المناسب.

والعامل الثاني يرجع إلى شجر الدر ملكة مصر، فقد قامت بدور مجيد في هذه المرحلة، والعمل الجليل الذي قامت به هو كتمان خبر موت زوجها وتحملها الموقف بكل صلابة وسارت الأمور كأن شيئاً لم يحدث ودارت العمليات العسكرية كأن السلطان لم يمت حتى وصل توران شاه الذي تولى القيادة في مصر. ولم تشر المصادر إلى وقوع أي خلل في الفترة الواقعة بين موت السلطان الصالح أيوب وحضور توران شاه. ولعل في ذلك ما يوضح عظمة هذه المرأة التي كرمتها مصر بإعلانها سلطانة على الديار بعد مقتل توران شاه، فكانت المرة الأولى والأخيرة التي حكمت مصر إمرأة في التاريخ الإسلامي، رغم قصر مدة حكمها.

ونختتم أخبار هذه الحملة بالقول أن الجانب الإسلامي كان متحد الكلمة ومتفق الرأي، ووقف المسلمون أمام القوات الصليبية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

الفصل التاسع

خاتمة الحروب الصليبية في الشام

الملك لويس في عكا

أبحر الملك لويس من دمياط في مساء يوم السادس من مايو ١٢٥٠ م واتخذ طريقه إلى عكا فوصلها بعد فترة مخلفاً وراءه في مصر العديد من الأسرى الذين لم يتمكن الملك من دفع فديتهم. وفي عكا ساعدت الظروف الملك ليتولى عرش مملكة بيت المقدس الإسمية عن طيب خاطر من يوحنا إبلين الصغير سيد أرسوف وابن عم الملك هنري الأول ملك قبرص ونائبه في حكم المملكة الصليبية

وعقب وصول الملك جاءته الأخبار بأن هنرى الثالث ملك انجلترا (١٢١٦ - ١٢٧١) يستعد لمهاجمة فرنسا، وأن العديد من فرسانه يرغبون في العودة إلى بلادهم. ولكن لويس أحس أن المملكة الصليبية في أشد الحاجة إليه في هذه المرحلة الحرجة، فآثر البقاء بعد أن سمح لمن يرغب في الرحيل بالعودة إلى فرنسا.

ولعل ما دفع لويس إلى البقاء في عكا ما دار من أحداث عقب مصرع توراشان وظهور النفوذ المملوكي في مصر. فقد تحرك البيت الأيوبي في الشام وتوجه الناصر يوسف صاحب حلب من حمص ودخل دمشق في التاسع من يوليو ١٢٥٠ م فاستقبل إستقبالاً حاراً، وبذلك ظهر الصراع بين دمشق والقاهرة، ففي دمشق سلالة صلاح الدين وفي القاهرة القوة المملوكية.

وأحس كل فريق أنه بحاجة إلى مساعدة خارجية ليتمكن من الانتصار

على الآخر، فالتمس كل منهما المساعدة من الملك لويس الذي وجد أنه يحتاج إلى العلاقات الدبلوماسية أكثر من الحرب، وبادر الناصر يوسف وأرسل إلى لويس سفارة إلى عكا، ولكن لويس لم يعد أو يلتزم بشيء مع هذه السفارة لأن أسرى الحملة السابعة لا زالوا في مصر رغم أهمية تحالف لويس مع دمشق ضد مصر.

وتعجل الناصر يوسف الأحداث وفكر في الهجوم على مصر لانتزاعها من أيدي المماليك وأعد قواته وجعل على رأسها معظم أمراء البيت الأيوبي حتى تكون بمثابة إعلان للشرعية الأيوبية في مصر. ولما علم المماليك بذلك خرجوا إليه، والتقى الجيشان عند العباسية وتمكن الناصر يوسف والبيت الأيوبي من الانتصار في بداية الأمر، ولكن المماليك وعلى رأسهم عز الدين أيبك التركماني - الذي أصبح سلطاناً على مصر بزواجه من شجر الدر زوج الصالح أيوب - تمكن من جمع القوات المملوكية مرة أخرى وحمل على القوات الأيوبية فانتصر عليهم ولاذ الناصر يوسف بالفرار . وبهذه المعركة تحققت سيادة المماليك على مصر.

ولجأ الناصر يوسف مرة أخرى إلى الصليبيين وأرسل سفاره إلى الملك لويس يلوح بالتنازل عن مدينة القدس مقابل الحصول على مساعدة الصليبيين ضد المماليك في مصر. واستغل الملك لويس هذه المبادرة وأرسل بدوره إلى القاهرة سفاره يهدد بالتحالف مع دمشق. ولم يكن عز الدين في مرحلة تمكنه من مواجهة هذا التحالف فلجأ إلى الدبلوماسية بدوره، وطالت المفاوضات لبعض الوقت بين سفير الملك لويس وبين القاهرة كان من نتيجتها إطلاق سراح الفرسان الذين وقعوا أسرى في معركة غزة عام ١٢٤٤م وعلى رأسهم مقدم الاسبتارية وليم شاتونيف، ثم أعقب ذلك الإفراج عن ثلاثة آلاف من الأسرى الآخرين مقابل الافراج عن عشر ذلك العدد من الأسرى المسلمين. وبهذا التنازل من جانب المماليك يتضح حرصهم على عدم الحرب الأمر الذي فسره الملك لويس بأنه تصرف الضعيف، فطالب بالإفراج عن بقية الأسرى دون أن

يؤدي عنهم الفدية. وفي الوقت نفسه كان لويس على إتصال دائم بالبيت الأيوبي في دمشق، لذلك وافق عز الدين أيبك على طلبات لويس مقابل عقد محالفة عسكرية ضد الناصر يوسف، ومع نهاية شهر مارس ١٢٥٢ م كان جميع أسرى الصليبيين في مصر قد أطلق سراحهم.

وكللت المعاهدة بين الملك لويس وعز الدين أيبك بأن وعد الأخير أنه في حالة السيطرة على دمشق فأنه سوف يعيد إلى الصليبيين كل الأراضي التي كانت خاضعة للصليبيين وتمتد من نهر الأردن حتى الساحل بما فيها مدينة القدس. ويمكن القول أن المصالح الشخصية للأيوبيين والمماليك تغلبت على المصالح الإسلامية والقومية في مرحلة من أدق المراحل في تاريخ العالم العربي.

وكرد فعل للتحالف بين القاهرة والصليبيين قام الملك الناصر بإرسال قواته إلى مدينة غزة حتى يقطع الاتصال البري بين المماليك والصليبيين، وظلت قوات الناصر حوالى عام على هذا الحال، ولم يدخل التحالف المملوكي الصليبي حيز التنفيذ. وخلال هذه المرحلة قام الملك لويس بإصلاح القلاع والأسوار ووسائل الدفاع عن عكا وحيفا وقيسارية ويافا. والواضح أن الملك الناصر أحس بخطورة الوضع فأرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم يطلب منه التوسط في الصلح بين القاهرة ودمشق، ولما كان الخليفة أشد حرصاً على وحدة الصف الإسلامي في هذه المرحلة التي بدأت فيها أخطار المغول، لذلك حث الخليفة السلطان عز الدين أيبك على قبول شروط الملك الناصر. وبذلك تقرر الاعتراف بالسلطنة المصرية وعلى رأسها عز الدين أيبك. وقام نجم الدين البادراي رسول الخليفة بدور كبير في الوصول إلى هذه النتائج التي أسقطت التحالف المملوكي الصليبي.

وإرتاح الناصر يوسف لهذه النتائج واستعد للعودة إلى دمشق، وأثناء عودته هاجمت قواته الأراضي الصليبية ونهبوا مدينة صيدا وساروا محملين بالغنائم والأسرى الأمر الذي جعل الملك لويس يشعر بالخطر بعد عودة الاتحاد

بين مصر ودمشق. لذلك سعى لويس للبحث عن حليف آخر، وقدوجده في طائفة الحشيشية فدخل معها في علاقات ودية. وكانت هذه الطائفة تدفع الجزية لفرسان الاسبتارية فطلبت من الملك لويس ألا تدفع الجزية مقابل التزام الحياد في الحرب بين الصليبين والمسليمن.

ولم يكتف لويس بذلك فكان غاية ما يتمناه أن يدخل في حلفاً مع المغول فأرسل السفارات إليهم والمبشرين ولكن هذه الاتصالات لم تأت بالنتيجة المرجوة في حينها، بسبب الأوضاع في فرنسا، وكان على الملك أن يغادر عكا عائداً إلى بلاده. وقد نجح لويس في عقد هدنة مع دمشق لمدة سنتين وسبعة أشهر إبتداء من الحادي والعشرين من فبراير ١٢٥٤ م، كما عقد لويس أيضاً هدنة مع القاهرة لمدة عشر سنوات بداية من عام ١٢٥٥ م، وعقب رحيل لويس في عام ١٢٥٤ م تجددت إشتباكات محدودة بين الصليبين والمسلمين ولكن الهدنة تجددت مرة أخرى لمدة عشر سنوات مع دمشق والقاهرة من جانب، والصليبيين من جانب آخر.

المغول يهاجمون بغداد ودمشق

إجتاز المغول نهر جيحون بقيادة هولاكو في طريقهم صوب مدينة بغداد ووصلوا إلى أسوارها الشرقية في يناير ١٢٥٨ م، ثم ما لبثوا أن أقاموا جسراً من القوارب على نهر دجلة فعبروا عليه إلى الجانب الغربي للنهر وبذلك تمكنوا من الإحاطة بالمدينة من كل جانب. واشتدت هجمات المغول على الأسوار خاصة الأسوار الشرقية. وأحس الخليفة العباسي المستعصم بخطورة الوضع فأرسل إلى هولاكو سفارة تضم البطريق النسطوري ماكيكا حيث أن زوجة هولاكو وتدعى طقز خاتون كانت مسيحية نسطورية المذهب، ولكن هولاكو لم يستجب للصلح وعادت السفارة، دون أن تلتقي بالقائد هولاكو. واشتدت هجمات المغول على المدينة حتى دخلوها في العاشر من فبراير ١٢٥٨ م فاستسلم الخليفة العباسي وقادة الجيش وكبار رجال الدولة فتم قتلهم جميعاً عدا الخليفة

الذي ظل خمسة أيام حتى دخل هولاكو المدينة. وبعد أن علم هولاكو بأماكن الكنوز أمر بقتل الخليفة، ولم يرحم المغول من بالمدينة سواء من الشيوخ أو النساء أو الأطفال حتى أنه يقال أن حوالي ثمانين ألفاً من سكان بغداد قد هلكوا خلال أربعين يوماً، ولم يبق على قيد الحياة سوى القليل الذي أصبح رقيقاً. أما الجالية المسيحية فقد لجأت إلى الكنائس ولم تصاب بسوء طبقاً لتعليمات طقز خاتون.

وفي نهاية شهر مارس أضطر هولاكو لسحب القوات المغولية من بغداد حتى لا تتعرض للوباء من جراء رائحة الجثث المتعفنة، بعد أن حمل معه ما جمعه الخلفاء العباسيون من كنوز وعاد إلى همدان ومنها إلى أذربيجان. وقد عين هولاكو الوزير العباسي السابق مؤيد الدين والياً على المدينة نظر لولائه للمغول، وبدأت المدينة تستعيد عافيتها تدريجياً ولكنها لم تعد إلى ما كانت عليه، بل أصبحت لا تتعد بعد نصف قرن حجم مدينة صغيرة وإن تمتعت بالرخاء.

كان ما حدث في بغداد صدمة مروعة للعالم الإسلامي لما كان للخلافة العباسية من مكانة أدبية وروحية في نفوس المسلمين، أما المسيحيون في كل آسيا فقد إبتهجوا لانتصار المغول. والحقيقة أن سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين عام ١٢٠٤ م ثم سقوط بغداد ١٢٥٨ م قد قضى على حكومتين متزنتين إزدهرت في حكمهما حضارة الشرق الأدنى.

كانت خطة هولاكو المقبلة دخول بلاد الشام، وبدأ بالاستعداد لمهاجمة مدينة ميافارقين الذي رفض حاكمها الدخول في طاعة المغول. وأحس حكام الشام بذلك، فأرسل بعضهم الرسل إلى هولاكو لتقديم فروض الولاء والطاعة. ورغم هذا فقد بدأ المغول في مهاجمة ميافارقين في مطلع عام ١٢٦٠ م وأنزلوا القتل بالمسلمين وأبقوا على حياة المسيحيين وعُذب حاكمها الأمير الأيوبي الكامل محمد حتى مات فحمل المغول رأسه على رمح وطافوا به البلاد.

تقدمت القوات المغولية حتى بلغت مدينة سروج التي قاومت المغول فتم

نهبها ثم واصلت الزحف حتى حلب وحاصرتها من كل جانب ورفض قائد حامية المدينة التسليم فاقتحمها المغول في الرابع والعشرين من يناير ١٢٦٠ بعد أن استبسلت المدينة ستة أيام في الدفاع عن نفسها. وحدث بالمدينة مثلما حدث بالمدن السابقة من مذابح. وظلت قلعة المدينة تقاوم مدة شهر حتى سقطت في النهاية ولكن هولاكو أظهر قدراً من الرحمة لم يكن متوقعاً، فقد أبقى على حياة تورانشاه بن صلاح الدين قائد الحامية لشجاعته. وبعد أن حصل هولاكو على كنوز المدينة عهد بالمدينة إلى الأشرف أمير حمص السابق بولاية المدينة نظراً لولائه للمغول. وتبع ذلك إستيلاء المغول على حصن حارم وجرى عليه ما جرى في المدن الإسلامية عند سقوطها من المذابح.

وكان السلطان الناصر يوسف في دمشق عندما دارت هذه الأحداث وعندما علم بسقوط مدينة حلب وإتجاه المغول إلى دمشق إستعد للفرار إلى مصر والالتجاء إلى السلطان المملوكي سيف الدين قطز، ولكنه عدل عن رأيه وفكر في الاتجاه إلى الحجاز، ولكن البعض عرض عليه التوجه إلى هولاكو لاسترضائه،فحسن عنده ذلك ولكن القائد المغولي كتبغا علم بمكانه فأرسل من قبض عليه وظل في الأسر حتى قتله المغول بعد موقعة عين جالوت.

وخلال هذه الأحداث وفد إلى هولاكو سفارة من حماه لتسليم مفاتيح المدينة إليه، وحذت دمشق حذو حماه وسلم أعيان دمشق مفاتيح المدينة إلى هولاكو، فسار جيش مغولي بقيادة كتبغا ودخل دمشق في مطلع مارس ١٢٦٠ م ومعه ملك أرمينية هيثوم الأول (١٢٢٦ - ١٢٦٩ م) والأمير الصليبي بوهمند السادس حاكم إنطاكية (١٢٥١ - ١٢٦٨ م). ورغم هذا كله فقد رفضت قلعة المدينة التسليم حتى سقطت في السادس من إبريل من العام نفسه، ثم تابع المغول الاستيلاء على سائر بلاد الشام حتى مدينة غزة واستقرت قواتهم في هذه البلاد.

وهكذا سقطت المدن الثلاثة الكبيرة بغداد ثم حلب ثم دمشق فاهتز الإسلام بسقوطهما هزة عنيفة. وأضحى المسلمون أقلية مغلوبة على أمرها.

ولما كان القائد المغولي كتبغا قد إعتنق النصرانية، فقد ازداد الأمل كثيراً عند الطوائف المسيحية بعامة والإمارات الصليبية بخاصة. فلم يكن في نية المغول مهاجمة الإمارات الصليبية بشرط الخضوع للمغول. ورغم هذا كله فقد ظل الأمل باقياً في نفوس المسلمين، وكان هذا الأمل هو مصر.

معركة عين جالوت ١٢٦٠ م

أرسل هولاكو سفاره إلى مصر في مطلع عام ١٢٦٠ م تطلب من السلطان المملوكي قطز الخضوع وتقديم الطاعة، ولكن السلطان رفض طلب هولاكو بل ذهب إلى أبعد من ذلك وأمر بقتل الرسل وبدأ يستعد لمقاتلة المغول في بلاد الشام. وفي هذه المرحلة تغيرت الأحوال داخل الدولة المغولية ونشبت الحرب الأهلية في منغوليا وأضطر هولاكو لسحب عدد كبير من قوات المغول من الشام وإرسالها إلى منغوليا وتبقى معه عدد قليل. حشد قطز قواته ووضع على المقدمة قائده بيبرس الذي تقدم إلى مدينة غزة حيث كان يوجد جيش صغير للمغول وتمكنت القوات المملوكية من هزيمته.

كان كتبغا في بعلبك عندما علم بهذه الأخبار فتجهز للسير لملاقاة بيبرس، كما علم المسلمون في دمشق بذلك أيضاً فقامت ثورة داخل المدينة ضد المغول، وفي الوقت نفسه كان السلطان قطز يقود الجيش المملوكي تجاه بلاد الشام. وبالقوة المملوكية الناشئة كان اللقاء مع الجيش المغول الذي عاد معظمه إلى الشرق وتفرغ جانب منه لمقاومة ثورة دمشق.

كانت الخطة المملوكية تقضي بمهاجمة المغول من الشمال، وتطلب الأمر عبور أراضي الصليبيين، لذلك ذهبت سفارة مملوكية إلى عكا تطلب من القيادة الصليبية السماح للجيش المملوكي بعبور الأراضي الصليبية وإمداد الجيش المملوكي بالمؤن اللازمة وتقديم المساعدة العسكرية.

إجتمعت القيادة الصليبية لمناقشة الأمر، وانتهى الرأي بقبول العرض المملوكي مع عدم تقديم المساعدة العسكرية. ويرجع ذلك لتفهم الصليبيين

للموقف وعدم ثقتهم بالمغول الذين حفل سجلهم بالمذابح، وثقتهم بالمسلمين وما اعتادوا عليه من الحضارة الإسلامية، وعلى ذلك تقدمت القوات المملوكية وعسكرت في مروج مدينة عكا عدة أيام في ظل علاقات ودية مع الصليبيين.

تحركت القوات المغولية بقيادة كتبغا على الفور وعبرت نهر الأردن دون أن يعلموا بخطط السلطان قطز، كما تحركت القوات المملوكية صوب عين جالوت. وفي يوم الجمعة الثالث من سبتمبر ١٢٦٠، خامس والعشرين من رمضان ٦٥٨ هـ، بدأ تطز بإخفاء الجيش الرئيسي في التلال، ولم يظهر للمغول سوى المقدمة التي كان يتولى قيادتهابيبرس، وبدأت القوات المغولية في مهاجمة المقدمة فانسحبت إلى التلال المجاورة فتبعتها القوات المغولية فوقعت في الكمين الذي أعده السلطان قطز، وجرى تطويق الجيش المغولي بأكمله ودارت معركة رهيبة بين الطرفين انتهت بهزيمة القوات المغولية ووقوع كتبغا أسيراً في أيدي القوات المملوكية، وحمل مقيداً بالأغلال إلى السلطان الذي أمر بقطع رقبته بعدما دخل دمشق.

كان إنتصار المماليك في عين جالوت نصراً للإسلام، وكانت صرخة السلطان قطز في أرض المعركة «وإسلاماه» علامة على هذا الرأي، فإن هذا النصر قد أنقذ الإسلام كله من أخطر تهديد عرفه التاريخ. كما أن هذه المعركة جعلت من سلطنة المماليك في مصر القوة الأساسية الضاربة في الشرق لمدة قرنين من الزمان. وهناك نقطة في غاية الأهمية وهي أن انتصار المسلمين دفع المغول الذين بقوا في غرب آسيا الصغرى إلى إعتناق الديانة الإسلامية حباً في الإسلام ومبادئه. وأخيراً كان في إنتصار المسلمين على المغول ـ الذين عرفوا بأنهم قوم لا يقهر، وأنهم أينما حلوا حل الخراب ـ بداية النهاية لبقية الإمارات الصليبية في الشام.

وبعد خمسة أيام من معركة عين جالوت دخل السلطان قطز مدينة دمشق وبدأ في تنظيم قواته لاسترداد حلب التي دخلها بعد عدة أسابيع. أما هولاكو

الذي فزع لهذه الانتصارات فقدحاول إسترداد حلب في ديسمبر عام ١٢٦٠ ولكنه فشل واضطر إلى الانسحاب بعد أربعين يوماً بعد أن أقام مذبحةللمسلمين خارج المدينة، ثم لقى المغول هزيمة أخرى عند مدينة حمص ففتح الله على المسلمين بالنصر، وولى المغول هاربين منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم الكثير. وتبع ذلك هزيمة أخرى للمغول عند مدينة حماه، وإنتهى الأمر في هذه المرحلة برحيل المغول إلى الشرق.

بيبرس والصليبيون

قرر السلطان قطز العودة إلى مصر ولكن بيبرس قتله في الطريق بعد أن حكم حوالي عام واحد، وتولى أمر السلطنة على مصر، واستدعيت العساكر فحلفوا له واستقر بيبرس في السلطنة وتلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحي ثم غير لقبه بعد ذلك وتلقب بالملك الظاهر، لأنه علم أن القاهر لقب غير مبارك ما تلقب به أحد وطالت مدة حكمه. وكانت القاهرة قد زينت لإستقبال السلطان قطز فاستمرت الزينة للسلطان بيبرس. ومن تاريخ بيبرس أنه انتصر على الصليبيين في معركة عزة عام ١٢٤٤ م وصار من أكفأ القادة العسكريين، ورجل دولة سياسي من الطراز الأول.

وقد نجح بيبرس في السيطرة على البيت الأيوبي في بلاد الشام، وأقام الخلافة العباسية في مصر، وأعد العدة للانتقام من مملكة أرمينية وإمارة أنطاكية الصليبية لما بذلاه من مساعدة للمغول، فتعرض ميناء السويدية للنهب، وقام بعدة غارات على أنطاكية في عام ١٢٦٢ م. وفي العام التالي شن هجوماً مفاجئاً على مدينة عكا وإنسحب بعد ما نهب أرباضها. وفي الوقت نفسه تعرضت حدود الإمارات الصليبية للغارات من قبل المسلمين، ورد الصليبيون على هذه الأحداث بغارات مشابه.

وفي عام ١٢٦٥ هاجم الجيش المملوكي مدينة قيسارية واستولى عليها، ثم تابع سيره إلى مدينة حيفا فدمرها عن آخرها، ثم تحول إلى قلعة عتليت

ولكنه عدل عنها وزحف إلى مدينة أرسوف فاستولى عليها بعد أن دمر أسوارها وفي العام نفسه توفي هولاكو وكان ذلك في صالح الأمة الإسلامية، وأصبح بوسع الظاهر بيبرس أن يتفرغ تماماً لقتال الصليبيين دون أن يخشى الكثير من تدخل المغول.

وفي العام التالي ١٢٦٦ م هاجم السلطان بيبرس صفد لما لها من أهمية في التحكم في مرتفعات الجليل، وكان فرسان الداوية يتولون قلعتها بوفرة من الفرسان، وحاول السلطان اقتحام القلعة ولكنه فشل عدة مرات، وفي النهاية عرض فرسان الداوية التسليم. وقد ساعد سقوط قلعة صفد الظاهر بيبرس في السيطرة على إقليم الجليل. فقد هاجم تبنين واستولى عليها دون قتال.

وفي العام نفسه تحولت أنظار المماليك إلى مملكة قيليقية الأرمينية لمساعدتها للمغول، وتقدمت القوات المملوكية إلى الشمال بقيادة قلاوون وعبرت جبال الأمانوس، وحاول الأرمن اعتراضها فدارت معركة حاسمة في الرابع والعشرين من أغسطس ١٢٦٦ م إنتصرت فيها القوات المملوكية وانفتح الطريق أمامها فدخلوا مدينة أياس وأذنه وطرسوس ونهبوهما. وواصلت القوات المملوكية طريقها إلى العاصمة الأرمينية «سيس» فدخلتها ونهبتها وأشعلت بها الحرائق، وعادت محملة بالأسرى الذين ذكرت المصادر أنها بلغت نحو أربعين ألف أسير. وفي خريف العام نفسه هاجم الجيش المملوكي أنطاكية، ولكن قادته إكتفوا بالنهب، ويقال أن الأمير بوهمند حاكم الإمارة بذل لهم الرشاوي فتخلوا عن مهاجمة المدينة. وفي مايو من العام التالي ١٢٦٧ م هاجم بيبرس مدينة عكا واكتفى بتخريب ما حول المدينة من القرى.

سقوط أنطاكية ١٢٦٨ م

كان بوهمند يحكم إمارة أنطاكية وطرابلس، وأمام تحركات القوات المملوكية وغاراتها على الممتلكات الصليبية تم الاهتمام بأسوار مدينة أنطاكية. ولكن الحامية الصليبية لم تكن كافية للدفاع عنها، وكان يتولى أمر الدفاع عن

المدينة الكندسطبل سيمون. وفي الرابع عشر من مايو وصل الظاهر بيبرس ومن معه من القوات إلى أنطاكية، وقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام وبدأ بالاستيلاء على ميناء المدينة وهو السويدية فقطع خطوط الاتصال بين المدينة والبحر، وقام جانب من الجيش بالسيطرة على الطرق المؤدية إلى المدينة ليمنع وصول أية نجدات برية، وقاد بيبرس الجيش الرئيسي وبدأ في تطويق المدينة.

وفي هذه المرحلة كان بوهمند موجوداً في طرابلس، فتسرع سيمون قائد القوات في أنطاكية وخرج لملاقاة القوات المملوكية ولكنه فشل في مهمته، ووقع في أسر قوات بيبرس فطلبوا منه إعطاء الأوامر بتسليم المدينة ولكن رجال الحامية رفضوا هذا الطلب. وبدأت القوات المملوكية في مهاجمة المدينة ثم توقفت بعض الوقت من أجل المفاوضات التي لم تصل إلى نتائج إيجابية. وفي الثامن عشر من مايو ١٢٦٨ هاجم المماليك المدينة من جميع الجهات ونجحوا في فتح ثغرة في سور المدينة فتدفقت القوات المملوكية إلى داخل المدينة، وتمكنت من فتح الأبواب لبقية الجيش المملوكي.

وأعقب دخول الجيش إغلاق الأبواب حتى لا يهرب السكان فلجأ بعضهم إلى القلعة الواقعة أعلى الجبل، وأنزلت المماليك القتل بأهل المدينة ومن نجا من القتل وقع الأسر. وفي اليوم التالي جمعت الغنائم والثروات التي تكدست بها باعتبارها أغنى مدن الإمارات الصليبية وبلغت كمية الحلي الذهبية والفضية من الكثرة حتى أنها وزعت بالطاسات، كما أن عدد الأسرى كان من الكثرة حتى كان ثمن الصبي إثنا عشر درهماً والجارية خمس دراهم.

سقطت أنطاكية بعد مائة وسبعين عاماً، وكانت أول إمارة صليبية تقام في بلاد الشام وكان سقوطها صدمة كبيرة للعالم الصليبي بخاصة والعالم الأوروبي بعامة، وتحولت طرق التجارة عنها إلى مدينة أياس ففقدت أهميتها التجارية ولم تعد المدينة سوى قلعة في أطراف بلاد الشام، ونظراً لتدهور أحوال المدينة إنتقل مقر الكنيسة اليعقوبية والأورثوذكسية إلى مدينة دمشق.

وكان من نتائج سقوط أنطاكية أن ظهرت بعض الدلائل على قيام المغول ببعض التحركات وربما تكون إلى بلاد الشام، وعُلم أيضاً أن الملك لويس السابع يستعد لحملة صليبية ضخمة عقد عليها الصليبيون آمالا كبار، ولكن الحملة اتجهت إلى تونس بأمل السيطرة عليها والزحف شرقاً إلى مصر ومنها إلى بلاد الشام ولكن هذا الحلم تبدد عندما مات لويس في تونس ١٢٧٠ م قبل أن يقوم بعمل عسكري يذكر. كما أن الحملة التي أرسلها ملك أراجون جيمس الأول بحراً لإنقاذ الصليبيين في بلاد الشام ١٢٦٩ م لم توفق في أعمالها وعادت إلى أراجون بعد قيامها ببعض الاشتباكات المحدودة التي تصدى لها الظاهر بيبرس عند عكا.

ومن نتائج سقوط أنطاكية أيضاً خوف بوهمند من القوة المملوكية وخشي أن تهاجم القوات المملوكية مدينة طرابلس فأرسل إلى الظاهر بيبرس يطلب عقد الهدنة، ولكن شروط بيبرس كانت قاسية ومنها دفع نفقات حملة المماليك الأخيرة، لذلك رفض بوهمند الشروط. وفي النهاية عرض بيبرس الهدنة على بوهمند لمدة عشر سنوات فوافق بوهمند، واتخذ طريقه عائداً إلى مصر ولم يتوقف إلا سبعة أيام عند حصن مونتفورت الذي كان تابعاً للفرسان التيوتون، واستسلم الحصن في الثاني عشر من يونيه ١٢٧١ م، وبسقوط هذا الحصن لم يعد للصليبيين حصناً داخل بلاد الشام. ولعل ما دفع بيبرس إلى عقد هذه الهدنة إلى ما وصل إلى مسامعه عن قدوم حملة إنجليزية إلى الشرق.

حملة الأمير الإنجليزي إدوارد ١٢٧١ م

ولعل قدوم هذه الحملة إلى الشرق يرجع إلى سقوط أنطاكية، لأن ملك إنجلترا هنرى الثالث قد وعد مرات عديدة بقيادة حملة صليبية إلى الشرق، ولكنه لم يف بوعده حتى هذه المرحلة فقد كبر سنه وأصبح لا يتحمل قيادة مثل هذه الحملة. والواضح أن هنرى شجع ابنه إدوار على قيادة حملة صليبية إلى الشرق. وتحمس إدوار لهذا المشروع حماس الشباب فقد كان في أوائل

الثلاثينيات من عمره وإعتمد على النبلاء الإنجليز الذين وعدوا بحمل الصليب والتوجه إلى الأراضي المقدسة. ومع سقوط أنطاكية وحماس الأب هنري والابن إدوار بدأت الدعوة لحملة صليبية داخل إنجلترا،ولكن هذا الحماس والنشاط لم يسفر سوى عن قيام إدوار بجمع حوالى الف رجل فأيقن أنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً بهذه القوة المحدودة، ففكر في التوجه إلى تونس للحاق بحملة الملك لويس التاسع ومن تونس يكون التوجه إلى الشرق.

إتجه إدوار وقواته إلى جزيرة صقلية ليأخذ طريقه إلى تونس، ولكنه علم وهو في الجزيرة بموت الملك لويس فحول اتجاه الحملة إلى الشرق فأبحر إلى قبرص ومنها إلى عكا فوصل إليها في التاسع من مايو ١٢٧١ م. ثم لحق به هيو الثالث ملك قبرص (١٢٦٧ ـ ١٢٨٤ م) وبوهمند السادس أمير طرابلس (١٢٥١ ـ ١٢٧٥ م)، ثم لحقت به أيضاً بعض القوات التي وفدت من إنجلترا.

كان إدوار يأمل ـ عندما فكر في التوجه إلى الشرق ـ في الاعتماد على قوة الصليبيين المحلية، وعلى القوات القبرصية، وعلى إقامة حلف مع المغول لقتال المماليك. وعن فكرة اعتماد إدوار على القوات الصليبية المحلية يمكن القول أن الأمير إدوار لم يكن له دراية كافية بالشرق اللاتيني وأحواله، لذلك صدم عندما علم أن العمل الرئيسي للبنادقة والجنيوية هو التجارة مع المسلمين وأن المحكمة العليا الصليبية في عكا قد وافقت على مثل هذه الأعمال، ولما كانت التجارة تنصب في توريد البنادقة والجنيوية الخشب والحديد اللازم ابناء السفن فقد أدرك إدوار مدى الخطورة الناتجة عن هذه التجارة.

أما اعتماد إدوار على القوات القبرصية فقد خاب أمله في هذه الناحية كذلك، لأن الإقطاعيين في قبرص رفضوا القتال في بلاد الشام وأعلنوا أنهم غير ملزمين بمثل هذه الأعمال وأنهم مسؤولون عن الدفاع عن جزيرة قبرص فقط.

لم يعد لدى إدوار إلا الاستعانة بالمغول في قتال المماليك لذلك أرسل سفارة إلى «أباقا» إيلخان المغول يطلب منه المساعدة العسكرية لمواجهة

المماليك، وقد استجاب أباقا لمطلب الأمير إدوار وأرسل إليه بعض القوات من الأناضول عبر مدينة عين تاب فتصدت لها الحامية التي كانت تدافع عن حلب ولكن المغول إنتصروا عليها، وواصل المغول تحركاتهم جنوباً حتى أفاميه.

ساد الذعر شمال الشام من جراء تحركات المغول، وعندما علم بيبرس بذلك وكان في دمشق أعد قواته وأرسل إلى القاهرة يطلب النجدات وتحرك صوب الشمال لملاقاة المغول في مطلع شتاء عام ١٢٧١ م، ولما أحست القوات المغولية باستعدادات بيبرس وأن قواتهم لا تكفي لمواجهة القوات المملوكية عادوا من حيث أتوا بعد أن حملوا معهم الكثير من الغنائم.

تشجع الأمير إدوار بتحركات المغول واعتقد أنهم سيواصلون الزحف إليه، فبادر بإعداد قواته وأعد خطته لمهاجمة حصن «قاقون» الذي يتولى حماية الطريق عبر التلال، لذلك عبر جبال الكرمل وأغار على سهل شارون. ولما كانت قواته قليلة العدد ولم تأت القوات المغولية لمساعدته لذلك فشل في مهمته فعاد أدراجه مرة أخرى.

أدرك إدوار عدم الاعتماد على الصليبيين المحليين أو على المغول، وليس لديه القوات الكافية للقيام بعمل عسكري يذكر، لذلك فكر في العودة إلى بلاده على أمل العودة بحملة صليبية كبيرة في الوقت المناسب، وفكر أيضاً في عقد هدنة صليبية مع الظاهر بيبرس تضمن على الأقل بقاء الوضع على ما هو عليه لحين عودته. أما الظاهر بيبرس فكان يرى في عقد الهدنة فرصة طيبة للماليك، لأن الإمارات الصليبية لم يتبق منها سوى طرابلس والمنطقة الممتدة من عكا إلى صيدا بالإضافة إلى بيروت وصور وقلعة المرقب، وأن هذه الأماكن أصبحت تحت رحمته طالما توقفت عنها المساعدات الخارجية، كما أنه كان يرى في هذه الهدنة فرصة للتفرغ لأخطار المغول التي لا زالت تهدد بلاد الشام، لذلك وافق الطرفان على عقد الهدنة لمدة عشر سنوات وعشر شهور. ونصت الهدنة على إحتفاظ مملكة عكا بممتلكاتها التي تمتد على شريط ساحلي

ضيق من عكا إلى صيدا ويكون للصليبيين إستخدام طريق الحجاج إلى مدينة الناصرة. وإذا أضفنا إلى هذه المدة الهدنة التي عقدها بيبرس مع بوهمند أمير طرابلس عام ١٢٧١ م لمدة عشر سنوات يكون الظاهر بيبرس قد فرغ من الوجهة النظرية لمدة عشر سنوات لمواجهة المغول إذا قدموا إلى بلاد الشام.

ارتاح إدوار لعقد الهدنة مع المسلمين ولكن بيبرس لم يرتاح لعلمه أن الأمير إدوار يود العودة إلى بلاد الشام على رأس حملة صليبية ضخمة لذلك فكر في التخلص منه على حد قول أحد المؤرخين، فأرسل إليه من تنكر في هيئة رجل مسيحي وطعنه بخنجر مسموم ولكنه لم يمت رغم أنه ظل لعدة شهور يعاني من آلام هذا الجرح. وما أن تماثل الأمير للشفاء حتى أبحر من عكا في الثاني والعشرين من سبتمبر ١٢٧٢ م، وعاد إلى إنجلترا ليتولى حكمها بعد أن ساءت صحة والدة هنري الثالث، وإن كانت الحروب الصليبية قد شغلت إدوار وهو أمير إلا أنه لم يأت إلى الشرق مرة أخرى وهو ملك.

سقوط قلعة المرقب ١٢٨٥م

توفي السلطان بيبرس في أول يوليو ١٢٧٧ م فابتهج الصليبيون لوفاته وتولى ابنه الأكبر بركة السلطنة من بعده، ولكنه كان ضعيفاً فثار الأمير قلاوون قائد القوات بالشام واتجه إلى مصر فتنازل بركة عن العرش لأخيه الذي لم يكن تجاوز السابعة عشرة من عمره وتولى قلاوون حكم البلاد عام ١٢٧٩ م، ورغم عدم اعتراف البعض بسلطنة قلاوون إلا أنه تمكن من السيطرة على الموقف وحكم مصر والشام في المرحلة التالية.

ومن المشاكل الكبيرة التي اعترضت السلطان قلاوون قدوم القوات المغولية إلى بلاد الشام ومنازلتها حمص عام ١٢٨١ م بعد ما إنضمت إليها قوات مملكة أرمينية وقوات الاسبتارية في حصن المرقب. وكان اللقاء بين المماليك والمغول في نهاية اكتوبر ١٢٨١ م خارج مدينة حمص، وأسفرت المعركة عن سقوط العديد من القتلى والجرحى من كلا الجانبين وانتهت

بانسحاب المغول إلى شرق الفرات الذي أصبح الحد الفاصل بين الحدود الشمالية للدولة المملوكية والحدود الغربية للمغول.

وعندما حل أجل انتهاء الهدنة في عام ١٢٨٣ م عرض قلاوون تجديد الهدنة لمدة عشر سنوات فوافق الجانب الصليبي ووقع عنه في عكا قومون المدينة، ووقع الدواية عن عتليت وصيدا.. وكفلت هذه الهدنة الأمان للبلاد الصليبية الممتدة من جنوب صور حتى عتليت بالإضافة إلى مدينة صيدا مع السماح للحجاج الصليبيين بالتوجه إلى الناصرة. واستبعدت مدينة صور وبيروت من الهدنة.

وبهذه الهدنة أصبح من حق السلطان قلاوون مهاجمة صور وبيروت فاستعد لمهاجمتهما، وعندما أحست القيادة الصليبية في المدينتين بذلك طلبت عقد الهدنة فوافق قلاوون على ذلك حتى يتفرغ لمهاجمة حصن المرقب التابع لفرسان الاسبتارية الذين دأبوا على التحالف مع المغول ومهاجمة المسلمين.

كان حصن المرقب غاية العلو والحصانة لم ينجح أحد من الملوك السابقين في فتحه، ورغم هذا فقد صمم قلاوون على مهاجمته، ففي السابع عشر من أبريل ١٢٨٥ م وصل السلطان بجيش كبير أسفل الجبل الذي تقع عليه القلعة ونصب المجانيق العديدة على جانب التل وبدأت في دك أسوار القلعة. ولما كانت القلعة من المناعة فقد تعذر السيطرة عليها طوال شهر كامل. لذلك بدأت القوات المملوكية في إحداث فتحة أسفل أحد الأبراج وهو البرج المعروف باسم برج الأمل. الذي يقع في الزاوية الشمالية للحصن ثم وضعوا الأخشاب سريعة الاشتعال في هذه الفتحة ثم أشعلوا فيها النار فبدأ البرج في التداعي وأثر هذا في بقية استحكامات القلعة، ولم يسع الحامية سوى طلب الأمان.

وافق السلطان على طلب الحامية وخرج فرسان الاسبتارية في كامل عدتهم العسكرية، أما بقية الحامية فخرجوا دون أن يحملوا معهم شيئاً، ودخل

قلاوون القلعة في الخامس والعشرين من مايو من العام نفسه. ويقول المؤرخ أبو الفدا الذي حضر هذه الأحداث «وكان يوماً مشهوراً أخذ فيه [السلطان] الثأر من بيت الاسبتار ومحيت آية الليل بآية النهار». ومما لا شك فيه أن ضياع هذا الحصن البالغ المناعة من أيدي الصليبيين كان خسارة كبيرة فزع لها كل الصليبيين خاصة سكان مدينة عكا.

وكان ظهور دولة المماليك على هذه الصورة قد أزعج المغول أكثر مما أزعج الصليبيين فبادر ايلخان المغول «أرغون» بالكتابة إلى الصليبيين بأنه يرى إعداد حملة صليبية وأنه سوف يتوجه إلى الشام في مطلع عام ١٢٩١ م ويصل إلى القدس في فبراير من العام نفسه ويطالب الصليبيين في الشام والغرب الأوروبي بإعداد قواتهم. ولكن المراسلات بين الصليبيين في الشام والبابا في روما وملوك أوروبا أخذت وقتاً طويلاً ولم يكتب لمثل هذه الحملة أن تدخل حيز التنفيذ في الوقت الذي تلاحقت فيه الأحداث في بلاد الشام.

سقوط ميناء اللاذقية ١٢٨٧ م

يرجع مهاجمة الميناء إلى عدة أسباب؛ منها أن هذا الميناء كان تابعاً لإمارة أنطاكية وعلى ذلك لم يدخل في الهدنة، ومنها أيضاً أن التجار المسلمين إشتكوا إلى السلطان لعدم ارتياحهم إلى إرسال بضائعهم إلى الميناء الصليبي. وعامل ثالث أن الزلزال الذي وقع في مارس عام ١٢٨٧ م قد دمر جانباً كبيراً من سور المدينة فأصبحت مكشوفة فضلاً عن كونها معزولة في الشمال عن بقية الممتلكات الصليبية. لذلك أرسل قلاوون في البداية نائب السلطنة حسام الدين طرنطاي بمن معه من العساكر المصرية والشامية إلى قلعة صهيون، وهي قلعة في أقصى الشمال بنيت على الطراز البيزنطي وأحاطت بها الخنادق الواسعة التي كانت تملأ بالمياه، وحاصرها واستولى عليها من سنقر الأشقر. ثم سارت القوات المصرية والشامية بقيادة حسام الدين طرنطاي إلى اللاذقية.

وكان بالمدينة برج للصليبيين يحيط به البحر من كل جانب، فقام

طرنطاي بعد أن استولى على المدينة بتوسيع الجسر وجعله عريضاً، وظل محاصراً للبرج حتى سقط وتسلمه بالأمان في العشرين من إبريل عام ١٢٨٧ م. وفي العام نفسه توفي بوهمند أمير طرابلس، وبعد جدل طويل حول أحقية الوارث لعرش طرابلس تولت اخته لوسيا أمر طرابلس في عام ١٢٨٨.

لم يرض البعض عن هذه التسوية وأرسلوا إلى السلطان قلاوون في القاهرة يبلغوه أن ذلك يعني سيطرة جنوه على المدينة وتجارتها، وسوف يؤدي ذلك إلى وضع تجارة الاسكندرية تحت رحمة الجنويين. وارتاح قلاوون لهذه الدعوة واعتبر ما حدث نقضاً للهدنة، فأعد قواته واتجه إلى بلاد الشام دون أن يعلن عن نواياه.

سقوط طرابلس ١٢٨٩ م

وكان قلاوون ينوي مهاجمة طرابلس والاستيلاء عليها وقد علم بعض الصليبيين بذلك ولكنهم لم يحركوا ساكناً حتى هذه المرحلة. وفي نهاية شهر مارس عام ١٢٨٩ م كانت القوات المملوكية بقيادة قلاوون مرابضة أمام أسوار طرابلس. وتحرك الصليبيون وأرسل فرسان الداوية والاسبتارية قواتهم لنجدة المدينة.

ورغم أن المدينة كانت في غاية الحصانة، إلا أن وفرة القوات المملوكية تفوقت عليها، لما تواجد معها من أدوات الحصار. ولما كان البحر يحيط بالمدينة وليس عليها قتال في البر إلا من الجهة الشرقية وهو جزء قليل، لذلك بدأ قلاوون في نصب المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار وشدد عليها القتال فانهار برج الأسقف القائم في الركن الجنوبي الشرقي للأسوار البرية، ثم إنهار أيضاً برج الاسبتارية. وعند هذه المرحلة أحس البعض أنه لا سبيل للمقاومة فبادروا بشحن أمتعتهم وأقلعوا بحراً خارج الميناء مما أدى إلى فزع السكان فهرب البعض عن طريق البحر خاصة البنادقة والجنيويون.

وأمام ما شاهده السلطان قلاوون وبعد انهيار جانب من السور أمر في

العشرين من إبريل ١٢٨٩ م باقتحام المدينة.

ورغم الزعر الذي ساد المدينة فقد حاول من بها الوصول إلى بعض السفن الراسية في الميناء ولكن بعضهم فشل في محاولته. وانزلت القوات المملوكية القتل في كل رجل وجدوه بالمدينة وتم سبي النساء والأطفال. كما لحقت فرسان المماليك ببعض الفارين بعد أن خاضوا البحر حتى وصلوا إلى جزيرة القديس توماس. ويروي المؤرخ أبو الفدا الذي شاهد هذه الأحداث أنه «لما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة وإلى الكنيسة التي فيها، عالم عظيم من الفرنج والنساء فاقتحم العسكر الإسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار».

وبعد الاستيلاء على المدينة أمر السلطان قلاوون بهدم المدينة عن آخرها وتسويتها بالأرض حتى لا يحاول الصليبيون الاستيلاء عليها مرة أخرى بفضل سيطرتهم البحرية، وهكذا استعاد المسلمون المدينة التي سقطت في عام ١١٠٩ م أي بعد مائة وثمانون عاماً. ثم أصدر السلطان أوامره ببناء مدينة جديدة في سفح تل الحجاج على بعد بضعة كيلومترات إلى الداخل. وبسقوط مدينة طرابلس أدرك بقية الصليبيين أنهم في إنتظار المصير نفسه.

وعلى أية حال فبعد سقوط طرابلس هاجمت القوات المملوكية البترون ونيفين، وصالحت «جبيل» على أن تظل تابعة للسلطان عشرة سنوات.

سقوط عكا ١٢٩١ م

إنزعج الصليبيون لسقوط طرابلس وبادرت عكا بتجديد الهدنة لمدة عشر سنوات وتبعتها قبرص وأرمينية وصور، وأرسلوا إلى أوروبا طالبين النجدة. وانعقد الأمل على الملك الإنجليزي إدوار بعد أن دعا البابا إلى حملة صليبية. لم يستجب لنداء البابا سوى بعض الفلاحين والعاطلين في بعض مدن إيطاليا الصغيرة خاصة في لومبارديا وتوسكانيا، وساعد البنادقة بتقديم بعض السفن،

كما إنضم إلى هذه الحملة خمس سفن أرسلها ملك أراجون.

أدى وصول هذه الحملة إلى عكا في عام ١٢٩٠ م إلى الإخلال بأمن المدينة حيث كانت التجارة بين المسلمين والصليبيين تسير سيراً حسناً داخل المدينة فوقع صدام بين الجانبين، وخرج رجال الحملة إلى شوارع المدينة وضواحيها يقتلون كل ما صادفهم من المسلمين كما قتل أيضاً عدد كبير من أهل المدينة. وعلم قلاوون بهذه الأحداث واعتبر ما حدث نقضاً للهدنة وأعلن أن الهدنة قد انتهت. وسارع حكام عكا بتقديم الاعتذار إلى السلطان ولكنه أصر على تسليم الجناة للسلطات الإسلامية، ولما كانت الأعراف المسيحية تقضي بعدم تسليم المسيحيين إلى المسلمين لقتلهم، فلم يعد أمام السلطان إلا الاحتكام للسلاح.

بدأ قلاوون بإعداد قواته في مصر وصدرت الأوامر بإعداد القوات الشامية، وحاول بعض القادة الصليبيين استرضاء قلاوون بالمال ولكن بعض القادة رفضوا هذا العرض، فاستمر قلاوون في إعداد القوات للقتال، ولكن المنية وافته خارج مدينة القاهرة عندما بدأ في الزحف إلى بلاد الشام في الرابع من نوفمبر عام ١٢٩٠م، فارتاح سكان عكا لهذا الخبر ولكن إلى حين. فقد تولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة من بعده وواصل مسيرة والده في الجهاد.

وحاولت القيادة الصليبية مرة أخرى فأرسلت سفارة إلى القاهرة لإسترضاء السلطان، ولكنه رفض مجرد مقابلة السفارة، بل ذهب أكثر من ذلك فقد أودع أعضاء السفارة السجن حيث ماتوا بعد قليل.

تحرك الأشرف خليل في ربيع عام ١٢٩١ م بعد أن أعد الجيش إعداداً دقيقاً وزوده بآلات الحصار اللازمة وكان مع هذه الآلات عرادة ضخمة اسمها المنصورة، وعرادة أخرى اسمها الغاضبة ومجانيق اشتهرت بالنيران السوداء. وصلت القوات الإسلامية إلى عكا في الخامس من أبريل، ويروى أن عدد

قوات الأشرف كانت ستين ألف فارس ومائة وستين ألف من المشاة.

وصلت هذه الأنباء إلى حكام عكا فأدركوا مصيرهم وأرسلوا يستصرخون الغرب الأوروبي، وتقرر تجنيد كل قادر على حمل السلاح في عكا للدفاع عن المدينة. ولم تكن استجابة الغرب الأوروبي بالقدر الذي يسمح بإنقاذ المدينة فلم يفد سوى أعداد قليلة. واعتمد حكام عكا على ما بقي من قوات بالمدينة بلغ عددهم حوالي ألف فارس وأربعة عشر ألف من المشاة. كما اعتمدوا أيضاً على مناعة المدينة وحصانتها المزودة من الناحية البرية بسورين مقام عليهما العديد من الأبراج المزدوجة.

بدأت العمليات العسكرية على طرابلس في السادس من إبريل ١٢٩١ م، وانهالت القذائف التي تدفعها المجانيق على المدينة، وكذلك القدور المليئة بالمواد المشتعلة، وطارت السهام في الهواء لتعبر الأسوار لتستقر داخل المدينة أيضاً. وبدأ النقابون في نقب الأسوار. ورغم هذا كله فقد كان جانب البحر للمدينة آمن وتفد إليها المؤن من قبرص، ومع طول الحصار بدأت المدية تعاني من نقص السلاح فاستغل الصليبيون إحدى سفنهم وجهزوها بعرادة أخذت تقذف معسكر السلطان فأحدثت به بعض الأضرار.

وحاول الصليبيون مهاجمة العسكر السلطاني من الجانب البري ونجحوا في هذه المهمة وأخذوا المسلمين مباغتة ولكن القوات الصليبية تعثرت في حبال الخيام عندما قل الضوء بدخول الليل فتكبدوا خسائر فادحة. وعاود الصليبيون الكرة مرة أخرى في ليلة مظلمة وكان نصيب هذه الغارة مثل ما سبقها.

مضى شهر على القتال دون الوصول إلى نتائج حاسمة، وعند هذه المرحلة وصل هنري ملك قبرص إلى المدينة فاشتد أزر المدافعين عنها، ولكنه أيقن أن ما حضر معه من قوات وهي حوالي مائة فارس وألفين من المشاة بالإضافة إلى القوات المدافعة عن المدينة لم يغير من الأمر شيئاً وأنه من

الأفضل استخدام الوسائل الدبلوماسية. وأرسل هنري سفارة إلى السلطان ولكنه رفض طلب السفارة فقد عقد العزم على إسقاط المدينة.

وخلال هذه المرحلة كانت بعض أبراج المدينة قد أخذ في التداعي، ثم تلى ذلك سقوط بعض جوانب الأسوار. وفي صباح يوم السادس عشر من مايو إقتربت القوات المملوكية من الأسوار وأجبروا المدافعين عن المدينة على التراجع، وواصلت الضغط على المدينة.

ولم يمض وقت طويل حتى تمكنت قوات السلطان من شق طريقها إلى الأسوار وسيطرت على أحد الأبراج وتمكنوا من الوصول إلى داخل المدينة، ودار قتال عنيف في شوارع المدينة وأزقتها بعدما هرب هنري ملك قبرص. وحاول البعض الفرار عن طريق السفن فتزاحموا على القوارب فسقطت بهم في قاع الماء.

كانت السفن من القلة فعجزت عن نقل من حاول الهرب فقتل منهم الكثير وأسر عدد كبير أيضاً منهم بعض فرسان الداوية والفرسان الآخرين بالإضافة إلى عدد كبير من النساء والأطفال الذين دخلوا في حريم المماليك، ومن بيع في سوق الرقيق قل ثمنه حتى بلغ ثمن الفتاة درهم واحد. ومع قدوم ليل الثامن عشر من مايو كانت القوات المملوكية تسيطر على المدينة بكاملها عدا دار فرسان الداوية الكبيرة التي تقع في الزاوية الجنوبية الغربية للمدينة وتطل على البحر. وظل الأشرف قلاوون يحاصرها لمدة أسبوع ثم عرض عليها التسليم بالأمان فوافق فرسان الداوية. ولكن التسليم لم يتم لسوء تصرف بعض القوات المملوكية.

وانتظم الأمر مرة أخرى وخرج بعض فرسان الداوية يعرضون تسليم القلعة ولكن السلطان أمر بالقبض عليهم، فاشتدت ثائرة المدافعين عن القلعة فأغلقوا باب القلعة واستعدوا للدفاع عنها. وبدأ النقابون في الزحف على سور القلعة فأحدثوا به ثقباً كبيراً فدفع الأشرف بالمئات من الرجال داخل الفتحة

ولكن القلعة انهارت على الجميع من المسلمين والصليبيين فدفنوا تحت الأحجار. واستباح الجيش المملوكي المدينة وبعدها قرر السلطان تدمير المدينة فتم هدم جميع الاستحكامات حتى لا يفكر الصليبيون في العودة إليها مرة أخرى وتهديد المسلمين.

تداعي المدن الصليبية

وبسقوط عكا إنحلت فرائض بقية المدن الصليبية، وعاجل الأشرف خليل بتوجه الضربات المتلاحقة إلى هذه المدن. وكانت البداية بمدينة صور المعروفة بحصناتها وكانت تعتبر أقوى مدن الساحل مناعة، ولكن حاميتها كانت قليلة العدد، فعندما اقتربت منها القوات المملوكية هرب قائدها إلى قبرص وحاول فرسان الداوية داخل المدينة المقاومة فلجأوا إلى قلعة البحر المشيدة على جزيرة صخرية تبعد عن الساحل حوالي ثلاثين متراً. وبدأت القوات المملوكية في إقامة جسر في البحر يصلون به إلى الجزيرة. ولما أدرك من في الجزيرة عدم قدرتهم على الصمود أبحروا إلى أنطرسوس وتم تدمير القلعة.

وبعد حوالي أسبوع دارت الدائرة على بيروت التي اعتقد أهلها أن الهدنة المعقودة مع السلطان سوف تحميهم، ولكن القيادة المملوكية قد نبذت كل الهدن جانباً، ولم تتمكن المدينة من المقاومة فهرع سكانها إلى السفن ولاذوا بالفرار، فدخلتها القوات المملوكية في نهاية يوليو ١٢٩١ م وتم هدم استحكاماتها وحولت كاتدرائيتها إلى جامع.

لم يتبق سوى قلعة أنطرسوس إلى الشمال من طرابلس وجزيرة أرواد الواقعة إلى الشرق من أنطرسوس على بعد حوالي ميلين، وقلعة عتليت الواقعة جنوبي جبل الكرمل والتي تعرف باسم قلعة الحجاج. ولم تكن الحامية في كل من أنطرسوس وعتليت كافية للدفاع عنها فرحلت حامية أنطرسوس في الثالث من أغسطس وتبعتها حامية عتليت في الرابع عشر من الشهر نفسه. ولم يبق غير الداوية في حصن جزيرة أرواد ولم يرحلوا عنه إلا في عام ١٣٠٣ م. وعلى هذه

الصورة إنطوت صفحة مريرة ـ وإن كانت حافلة بالأمجاد ـ على تاريخ الحروب الصليبية في الشرق، وسيكون للحروب الصليبية بقية في تاريخ الأندلس وفي شرق أوروبا ضد الدولة العثمانية. وفي ختام هذا الجانب السياسي من الحركة الصليبية أقول أن الصليبيين لم يتمكنوا من إقامة إماراتهم في الساحل الشامي إلا لضعف العالم العربي وتفرق الكلمة، وما نجح المسلمون في طرد الصليبيين إلا بوحدة الصف تحت قيادة حكيمة إحترمها الجميع وعملوا تحت لوائها.

نتائج الحروب الصليبية

إذا نظر دارس التاريخ إلى الحروب الصليبية من حيث أهدافها يلاحظ أنها فشلت فشلاً ذريعاً بعد أن دامت هذه الحروب حوالي قرنين من الزمان، فقد تمكنت القيادة الإسلامية من إستردادالأراضي - التي ملكهاالصليبيون - شبراً شبراً، وتمكن المماليك في النهاية من تطهير بلاد الشام من الصليبيين. يضاف إلى ذلك أن الحكومات الإسلامية التي إمتازت من قبل الحروب الصليبية بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى أخذت تتحفظ في تسامحها مع الأوروبيين بسبب هجماتهم المتكررة على الديار الإسلامية، لذلك نلاحظ قلة عدد الحجاج الأوروبيين عقب الحروب الصليبية.

وإذا نظرنا إلى نتائج الحروب الصليبية على أوروبا نجد أن الاقطاع الذي كان عصب النظام الاجتماعي والعسكري في أوروبا قد أصيب بضربة قاصمة لم يفق منها إلا بصعوبة وبعد أن خسر كل مكاسبه. ويرجع ذلك إلى أن ما كان يناسب النظام الاقطاعي هو المغامرات والبذلولات الفردية في حدود ضيقة، ومن هنا لم يتمكن الاقطاع من أن يوفق بين ما هو مألوف لديه وبين مناخ بلاد الشام والحروب في أماكن بعيدة عن مراكزه. كما أن الاقطاع قد إستنفد كل ما لديه من عتاد وفشل في الاحتفاظ بما لديه من بلاد في الشام، وتجرأ على مهاجمة الامبراطورية البيزنطية المسيحية.

كما أن الفرسان وهم عصب النظام الاقطاعي قد باعوا أملاكهم في أوروبا ليحصلوا على المال اللازم للحروب الصليبية، وبذلك تخلوا عما كان لديهم

من حقوق في بلادهم، كما أنهم أعفوا الكثير من الفلاحين من الضرائب، واستفاد الآلاف من أرقاء الأرض من إمتيازات الحروب الصليبية فتركوا الأرض ولم يعودوا إليها. وقد أدى هذا كله إلى تقلص النقود الاقطاعي في أوروبا، فإذا أضفنا إلى هذا ضعف الامبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا والإمبراطورية البيزنطية، نجد أن الفرصة قد واتت الملوك لزيادة سلطتهم وتقوية المركزية في دولهم.

ومن النتائج السياسية أيضاً أن الحروب الصليبية قد أخرت سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين. وتفسير ذلك أن الحروب الصليبية قد أنهكت القوى الإسلامية، مما جعلها أقل مقاومة لتيار المغول القادم من الشرق، ومع مقاومة وحروب الصليبيين من جانب وقوى المغول من جانب نجد أن القوى الإسلامية قد انشغلت لوقت طويل بهذا الصراع، ولم تتفرغ إلا بعد وقت طويل لمهاجمة العاصمة البيزنطية وهي القسطنطينية وإسقاطها عام ١٤٥٣ م.

ومن المعروف أن الحروب الصليبية قد أفرزت العديد من المنظمات العسكرية الدينية والجماعات التبشيرية. ونذكر بصفة خاصة جماعات فرسان الاسبتارية والداوية والتيوتون. وكان من نتائج الحروب الصليبية أن حلت الكوارث ببعض المنظمات العسكرية، ومن ذلك أن جماعة الداوية أو فرسان المعبد الذين نجوا من مذبحة عكا قد فروا إلى جزيرة قبرص، ثم استولوا على جزيرة رودس عام ١٣١٠ م واستبدلوا اسم فرسان الداوية إلى اسم فرسان رودس وظلوا يحكمون الجزيرة الأخيرة حتى استولى عليها الأتراك العثمانيين عام ١٥٢٢ م، فانتقلوا إلى جزيرة مالطة حتى حُل نظامهم في عام ١٧٩٩ م

أما فرسان التيوتون فقد انتقلوا بعد سقوط عكا إلى بروسيا واتخذوا من مدينة مارينبورج Marienburg مقراً لهم. كما أعاد فرسان الداوية تنظيم أنفسهم مرة أخرى، وكان لهؤلاء الفرسان أملاك واسعة وتمتعوا بثراء كبير في جميع

أنحاء أوروبا، كما أن أملاكهم كانت معفاة من الضرائب. وبفضل ما كان لديهم من أموال فقد تعاملوا في قرض الأموال بالربا الأمر الذي سهـل لهؤلاء جمع ثروات طائلة لا ينفقـوها مثـل جماعـة الاسبتاريـة في إنشاء المستشفيـات أو المدارس. وقد أثارت الأموال التي جمعها فرسان الداوية حسد الملوك. ومن ذلك أن الملك فيليب الرابع ملك فرنسا (١٢٨٥ - ١٣١٤ م) قد قبض في عام ١٣١٠ م على جميع أعضاء هذه الجماعة وصادر ممتلكاتهم واتهمهم بالهرطقة وحاكمهم بعد أن عذبهم. وصادر أيضاً إدوار الثاني ملك إنجلترا (١٣٠٧ - ١٣٢٧ م) أموال الداوية واسترضى الكنيسة ببعضها.

أما عن النتائج الحضارية للحروب الصليبية فهي كثيرة بخطئها الحصر، فقد دخلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة الأوروبية، وانتشرت القصص الشرقية في أوروبا وظهرت في، صورة جديدة في اللغات الأوروبية الناشـئة التي بدأت تحل محل اللغة اللاتينية.

وعن الجانب الفني فقد تأثر الصليبيون بروعة الزجاج المصنوع في بلاد الشام ونقلوا هذا التأثير وأسرار هذه المهنة فأدى ذلك إلى ظهور الزجاج الملون الذي نشاهده في الكنائس القوطية.

وشاهد الصليبيون البوصلة والبـارود وأوراق الطبـاعة في بـلاد الإسلام ونقلوا كل هذه الأدوات والمعرفة إلى بـلادهم في أعقاب الحـروب الصليبية وأفادوا منها.

كما تأثر الغرب بالشعر والعلوم والفلسفة العربية التي وصلت إليهم عن طـريق أسبانيـا وصقلية بـالإضافـة إلى الحروب الصليبيـة. وعندمـا استـولى الصليبيون على القسـطنطينية تأثروا كذلك بالثقافة اليونانية. وليس أدل على ذلك من أن موربيك Moerbeke كبير أساقفة مدينة كورنثه قد أرسـل إلى تومـاس الأكـويني Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) بتـراجم لكتب الفيلسـوف أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) عن أصولها اليونانية مباشرة. ومن هذه

المعرفة أدرك الأوروبيون المسيحيون أن غير المسيحيين بشر متحضر ولهم خلائق ممتازة ويفوقونهم حضارة. وقد شجع هذا كله بعض العقول على التفكير وأدى هذا إلى ضعف العقيدة الكاثوليكية التي فرضتها البابوية بمعرفتها وبأساليبها المتمثلة في صكوك الغفران.

وكان الذين تكلموا عن الحضارة الإسلامية كثر، ومن الذين تحدثوا عنها حديثاً ملؤه الإعجاب والإجلال في بعض الأحيان المؤرخ الصليبي وليم الصوري William of Tyre كبير أساقفة مدينة صور الذي ولد وعاش في بلاد الشام وأرخ للحركة الصليبية حتى وفاته عام ١١٨٤ م

ولا شك أن الحركة الصليبية قد أعلت من شأن البابوية في روما إلى حد كبير خاصة بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى، فلقد كان منظر الأمم الأوروبية المختلفة والنبلاء والفرسان والأباطرة والملوك وهم متحدين في صفوف حملة صليبية دعا إليها البابا للدفاع عن قضية دينية، أمراً يدعو للتساؤل عن مدى عظمة الكنيسة الكاثوليكية في روما. ومع علو شأن البابوية كان مندوبو البابا يجوبون البلاد يحثون الأفراد على التطوع للحروب الصليبية ويجمعون الأموال لها. وقد ارتاح الناس جميعاً لمثل هذا العمل الذي يخدم القضية الصليبية، ولكن عندما استخدمت هذه الأموال في أغراض أخرى غير الحملات الصليبية، وأصبح من حق البابا أن يفرض الضرائب، فقد أثار هذا التحول غضب الملوك ومقاومتهم لمثل هذا العمل.

وعن صكوك الغفران فإنها كانت تمنح لمن يقوم بالخدمة العسكرية من الأوروبيين في فلسطين، وكان ذلك يعتبر عملاً مشروعاً تقبله الناس وكان منح هذه الصكوك أيضاً لمن يتكفلون بنفقات محارب صليبي من الأعمال المقبولة والمشروعة، ولكن التوسع في منح صكوك الغفران إلى الذين يؤدون الأموال ليستخدمها الباباوات أو الذين يحاربون مع الباباوات ضد الأباطرة أو الملوك، أصبح من مصادر غضب الملوك واتباعهم. وتعرض مثل هذا العمل للنقد

والسخرية، ومن جملة من انتقد الكنيسة الشعراء الجوالون Troubadours في جنوبي فرنسا وشمالي إيطاليا .

ومن نتائج الحروب الصليبية كذلك ثراء الأديرة، وسبب ذلك أن بعض ملاك الأراضي في أوروبا قد باعوا أراضيهم للأديرة أو رهنوها ليحصلوا بذلك على ا لمال اللازم لسداد نفقات الحروب الصليبية وأصبح للأديرة بفضل ذلك ضياع واسعة وسيؤدي هذا في النهاية إلى حسد الملوك .

وعملت الحروب الصليبية على بث النشاط في الحياة المدنية باستخدام أساليب المسلمين التجارية والصناعية، فقد عرف الصليبيون كيف يرسمون الخرائط للبحر المتوسط، وتعرف الصليبيون كذلك على آراء جديدة عن بلاد الشرق واختلاف أصقاعها، ومن هنا جاءت الرغبة في كشف المزيد من أراضي العالم، وظهرت الكتب التي تصنف البلاد وترشد المسيحيين القادمين لزيارة الأراضي المقدسة، كما أخذ الأوروبيون العلم من أطباء الشرق وتقدم علم الجراحة داخل أوروبا .

ومن المعروف أن زيت التجارة أضاء نور الحضارة، ومن هنا جاء القول بأن التجارة سارت وراء الصليب، أو لعل التجارة هي التي قادت الصليبيين إلى بلاد الشام، فقد إنتزعت الأساطيل التجارية الإيطالية السيطرة على جانب كبير من البحر المتوسط كان تحت سيطرة المسلمين أو البيزنطيين. والحقيقة أن مدن إيطاليا مثل البندقية وأمالفي وجنوه وبيزه ومدن فرنسا مثل مرسيليا ومدن أسبانيا مثل برشلونة كانت تتجر مع المسلمين قبل الحروب الصليبية، ولكن الحروب الصليبية وسعت نطاق هذه المدن التجارية على حساب المسلمين والبيزنطيين إلى حد كبير.

وكان من جراء ذلك أن وصل إلى أوروبا كميات وافرة من الأقمشة الحريرية والسكر والتوابل التي كانت تعتبر من مواد الترف في أوروبا، كما انتقل إليها كميات كبيرة من النباتات والمحاصيل والأشجار التي عرفتها أوروبا من

الأندلس والشرق، ومن ذلك الحبوب مثل الذرة والأرز والسمسم، ومنتجات أخرى مثل الخروب والليمون والبطيخ والخوخ والمشمش والبصل والسكر.

لقد بدأت الحروب الصليبية بنظام إقطاعي زراعي، وانتهت بقيام الصناعة في أوروبا، واتساع نطاق التجارة في عهد ثورة اقتصادية مهدت السبيل لعصر النهضة والكشوف الجغرافية التي أدت إلى معرفة العالم الجديد وبداية الاستعمار الأوروبي في آسيا وإفريقية وأمريكا وإستراليا.

جـدول باسـماء الحـكام

١ ـ السلاجقة

(أ) سلاطين السلاجقة العظام

طغرلبك	١٠٣٧ ـ ١٠٦٣
ألب أرسلان	١٠٦٣ ـ ١٠٧٢
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢ ـ ١٠٩٢
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ ـ ١٠٩٤
بركيارق بن ملكشاه	١٠٩٤ ـ ١١٠٤
محمد بن ملكشاه	١١٠٤ ـ ١١١٨
أحمد بن ملكشاه	١٠٩٦ ـ ١١٥٧

(ب) سلاجقة العراق

محمود بن محمد بن ملكشاه	١١١٨ ـ ١١٣١
داود بن محمود	١١٣١
طغرل الأول بن محمد	١١٣١ ـ ١١٣٣
مسعود بن محمد	١١٣٣ ـ ١١٥٢
ملكشاه بن محمود	١١٥٣
محمد بن محمود	١١٥٣ ـ ١١٥٩
سليمان شاه بن محمد	١١٥٩ ـ ١١٦١

أرسلان شاه بن طغرل	١١٦١ - ١١٧٧
طغرل الثاني بن أرسلان شاه	١١٧٧ - ١١٩٤

(جـ) سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ - ١١١٣
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ - ١١١٣
ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ - ١١١٤
سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤ - ١١١٧

(د) سلاجقة الروم بآسيا الصغرى

سليمان بن قتلمش	١٠٨١ - ١٠٨٦
قلج أرسلان الأول	١٠٩٢ - ١١٠٧
ملكشاه الأول بن قلج أرسلان	١١٠٧ - ١١١٦
مسعود الأول بن قلج أرسلان	١١١٦ - ١١٥٦
قلج أرسلان الثاني	١١٥٦ - ١١٨٨
ملكشاه الثاني	١١٨٨ - ١١٩٢
كيخسرو	١١٩٢ - ١٢٠٠
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	١٢٠٠ - ١٢٠٣
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣ - ١٢٠٤
كيخسرو الأول (مرة ثانية)	١٢٠٤ - ١٢١٠
كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول	١٢١٠ - ١٢١٩
كيقباد الأول بن كيخسروا الأول	١٢١٩ - ١٢٣٦
كيخسرو الثاني بن كيقباد الأول	١٢٣٦ - ١٢٤٥
كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	١٢٤٥ - ١٢٥٧
قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	١٢٥٧ - ١٢٦٧
كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧ - ١٢٨٣

مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني	١٢٨٣ ـ ١٢٩٦
كيقباد الثالث	١٢٩٦ ـ ١٣٠٠

(٢) بنو أرتق

(أ) الأراتقة في حصن كيفا ثم في آمد

سقمان الأول بن أرتق	١١٠١ ـ ١١٠٤
إبراهيم بن سقمان	١١٠٤ ـ ١١٠٨
داود بن سقمان	١١٠٨ ـ ١١٤٨
قرا أرسلان بن داود	١١٤٨ ـ ١١٧٤
محمد بن قرا أرسلان	١١٧٤ ـ ١١٨٥
سقمان الثاني بن محمد	١١٨٥ ـ ١٢٠٠
محمود بن محمد	١٢٠٠ ـ ١٢٢٢
مودود بن محمود	١٢٢٢ ـ ١٢٣١

(ب) الأراتقة في ماردين

إيلغازى الأول بن أرتق	١١٠٨ ـ ١١٢٢
تمرتاش بن إيلغازي	١١٢٢ ـ ١١٥٢
ألبى بن تمرتاش	١١٥٢ ـ ١١٧٦
إيلغازى الثاني بن ألبى	١١٧٦ ـ ١١٨٤
بولق أرسلان بن إيلغازى الثاني	١١٨٤ ـ ١٢٠٠
أرتق أرسلان بن إيلغازى الثاني	١٢٠٠ ـ ١٢٣٩
غازي الأول بن أرتق أرسلان	١٢٣٩ ـ ١٢٥٩
قرا أرسلان بن غازي الأول	١٢٥٩ ـ ١٢٩١

(جـ) الأراتقة في خرتبرت

أبو بكر بن قرا أرسلان	١١٨٥ ـ ١٢٠٣
إبراهيم بن أبي بكر	١٢٠٣ ـ ؟

الخضر بن إبراهيم	؟
أرتقشاه بن الخضر	حوالي ١٢٦١

(٣) بنو زنكي

(أ) أتابكة الموصل

عماد الدين زنكي بن آقنسقر	١١٢٧ - ١١٤٦
سيف الدين غازي الأول بن زنكي	١١٤٦ - ١١٤٩
قطب الدين مودود بن زنكي	١١٤٩ - ١١٧٠
سيف الدين غازي الثاني بن مودود	١١٧٠ - ١١٧٦
عز الدين مسعود الأول بن مودود	١١٧٦ - ١١٩٣
نور الدين أرسلان شاه الأول بن مسعود	١١٩٣ - ١٢١٠
عز الدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه	١٢١٠ - ١٢١٨
نور الدين أرسلان شاه الثاني بن مسعود الثاني	١٢١٩ - ١٢٣٣
ناصر الدين محمود بن عز الدين مسعود الثاني	١٢١٩ - ١٢٣٣
بدر الدين لؤلؤ وابنه ركن الدين إسماعيل	١٢٣٣ - ١٢٥٩

(ب) أتابكة الشام

العادل نور الدين محمود بن زنكي	في حلب ١١٤٦ - ١١٧٤
	في دمشق ١١٥٤ - ١١٧٤
الصالح نور الدين محمود بن إسماعيل	في حلب ١١٧٤ - ١١٨١
ضم حلب إلى أتابكية الموصل وسنجار	١١٨١ - ١١٨٣

(جـ) أتابكة سنجار

عماد الدين أبو الفتح زنكي الثاني بن مودود	١١٧٠ - ١١٩٧
قطب الدين محمد بن زنكي الثاني	١١٩٧ - ١٢١٩
عماد الدين شاهنشاه بن محمد	١٢١٩
جلال الدين محمود بن محمد	١٢١٩ - ١٢٢٠

(٤) بنو أيوب

(أ) الأيوبيون في مصر

الناصر صلاح الدين يوسف	١١٧٤ ـ ١١٩٣
العزيز عمان	١١٩٣ ـ ١١٩٨
المنصور محمد	١١٩٨ ـ ١١٩٩
العادل (الأول) أحمد	١١٩٩ ـ ١٢١٨
الكامل (الأول) محمد	١٢١٨ ـ ١٢٣٨
العادل (الثاني) أبو بكر	١٢٣٨ ـ ١٢٤٠
الصالح أيوب	١٢٤٠ ـ ١٢٤٩
المعظم توران شاه	١٢٤٩ ـ ١٢٥٠

(ب) الأيوبيون في دمشق

الأفضا نور الدين علي	١١٩٣ ـ ١١٩٦
العادل , ذول) أحمد	١١٩٦
المعظم عيسى	١٢١٨ ـ ١٢٢٧
الناصر داود	١٢٢٧ ـ ١٢٢٩
الأشرف موسى	١٢٢٩ ـ ١٢٣٧
الصالح إسماعيل (المرة الأولى)	١٢٣٧
الكامل الأول محمد	١٢٣٨
العادل الثاني أبو بكر	١٢٣٨ ـ ١٢٣٩
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الأولى)	١٢٣٩
الصالح إسماعيل (المرة الثانية)	١٢٣٩ ـ ١٢٤٥
الصالح نجم الدين أيوب (المرة الثانية)	١٢٤٥ ـ ١٢٤٩
المعظم توران شاه (صاحب مصر)	١٢٤٩ ـ ١٢٥٠

(جـ) الأيوبيون في حلب

ادل الأول أحمد	١١٨٣ ـ ١١٨٦

الظاهر غازي الأول	١١٨٦ - ١٢١٦
العزيز محمد	١٢١٦ - ١٢٣٦
الناصر (الثاني) يوسف	١٢٣٦ - ١٢٦٠

(د) الأيوبيون في حمص

القاهر محمد بن شيركوه	١١٧٨ - ١١٨٦
المجاهد شيركوه الثاني	١١٨٦ - ١٢٤٠
المنصور إبراهيم	١٢٤٠ - ١٢٤٦
الأشرف موسى الثاني	١٢٤٦ - ١٢٦٣

(هـ) الأيوبيون في حماه

المظفر الأول عمر	١١٧٨ - ١١٩١
المنصور الأول محمد	١١٩١ - ١٢٢٠
الناصر قلج أرسلان	١٢٢٠ - ١٢٢٩
المظفر الثاني محمود	١٢٢٩ - ١٢٤٤
المنصور الثاني محمد	١٢٤٤ - ١٢٨٤

(و) الأيوبيون في ميافارقين

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٨٥
العادل سيف الدين أبو بكر	١١٩٤ - ١١٩٩
الأوحد نجم الدين أيوب	١١٩٩ - ١٢١٠
الأشرف الأول موسى	١٢١٠ - ١٢٢٠
المظفر شهاب الدين غازي	١٢٢١ - ١١٢٤
الكامل الثاني ناصر الدين محمد	١٢٤٤ - ١٢٦٠

(٥) سلاطين المماليك في مصر

أ ـ دولة المماليك البحرية

شجر الدر	١٢٥٠
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠
المنصور نور الدين علي بن أيبك	١٢٥٧
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩
الظاهر ركن الدين بيبرس (الأول)	١٢٦٠
السعيد ناصر الدين محمد بن بركه خان	١٢٧٧
العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
المنصور سيف الدين قلاون	١٢٨٩
الأشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠
الناصر محمد بن قلاون	١٢٩٣
العادل زين الدين كتبغا	١٢٩٤
المنصور حسام الدين لاجين	١٢٩٦
الناصر محمد بن قلاون (مرة ثانية)	١٢٩٨
المظفر ركن الدين بيبرس (الثاني)	١٣٠٨
الناصر محمد بن قلاون (مرة ثالثة)	١٣٠٩
المنصور سيف الدين أبو بكر بن الناصر محمد	١٣٤١
الأشرف علاء الدين كجك بن الناصر محمد	١٣٤١
الناصر شهاب الدين أحمد بن الناصر محمد	١٣٤٢
الصالح عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد	١٣٤٢
الكامل سيف الدين شعبان (الأول) بن الناصر محمد	١٣٤٥
المظفر زين الدين حاجي (الأول) بن الناصر محمد	١٣٤٦
الناصر ناصر الدين الحسن بن الناصر محمد	١٣٤٧

الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد	١٣٥١
الناصر ناصر الدين الحسن (مرة ثانية)	١٣٥٤
المنصور صلاح الدين بن حاجي	١٣٦١
الأشرف ناصر الدين شعبان (الثاني)	١٣٦٣
المنصور علاء الدين علي بن شعبان	١٣٧٦
الصالح صلاح الدين حاجي (الثاني)	١٣٨١

(ب) دولة الجراكسة

الظاهر سيف الدين برقوق	١٣٨٢
الناصر فرج بن برقوق	١٣٩٨
المنصور عبد العزيز بن برقوق	١٤٠٥
الناصر فرج بن برقوق (للمرة الثانية)	١٤٠٥
المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي	١٤١٢
المظفر أحمد بن شيخ	١٤٢١
الظاهر ططر	١٤٢١
الصالح محمد بن ططر	١٤٢١
الأشرف برسباي	١٤٢٢
العزيز يوسف بن برسباق	١٤٣٧
الظاهر جمقمق	١٤٣٨
المنصور عثمان بن جقمق	١٤٥٣
الأشرف إينال العلائي	١٤٥٣
المؤيد أحمد بن إينال	١٤٦٠
الظاهر خشقدم	١٤٦٠
الظاهر بلباي المؤيدي	١٤٦٧
الظاهر تمربغا	١٤٦٨
الأشرف قايتباي	١٤٦٨

الناصر محممد بن قايتباي	١٤٩٦
الظاهر قانصوه خمسمائة	١٤٩٧
الناصر محمد بن قايتباي (للمرة الثانية)	١٤٩٧
الظاهر قانصوه الأشرفي	١٤٩٨
الأشرف جانبلاط	١٥٠٠
العادل طومان باي الأول	١٥٠١
الأشرف قانصوه الغوري	١٥٠١
الأشرف طومان باي الثاني	١٥١٦

(٦) ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

جوفري أف بوايون (وصي على الدولة)	١٠٩٩ ـ ١١٠٠
بلدوين الأول (أول ملك متوج)	١١٠٠ ـ ١١١٨
بلدو ـ الثاني	١١١٨ ـ ١١٣١
فولك الأنجوي	١١٣١ ـ ١١٤٤
بلدوين الثالث	١١٤٤ ـ ١١٦٢
عموري الأول	١١٦٢ ـ ١١٧٣
بلدوين الرابع	١١٧٣ ـ ١١٨٥
بلدوين الخامس	١١٨٥ ـ ١١٨٦
جاي لوزجنان	١١٨٦ ـ ١١٩٢
كونراد دي مونتفرات	١١٩٢
هنري دي شامبني	١١٩٢ . ١١٩٧
عموري الثاني	١١٩٧ ١٢٠٥
ماري (ابنة كونراد تحت الوصاية)	١٢٠٥ ١٢١٠
حنا دي برين	١٢١٠ ١٢٢٥
الأمبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥ ١٢٥٠
كونراد الرابع ملك ألمانيا (ملك اسمي)	١٢٥٠ . ١٢٥٤

كونرادين (ملك اسمي)	١٢٥٤ - ١٢٦٨
هيو الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٦٩ - ١٢٨٤
حنا الأول ملك بيت المقدس	١٢٨٤ - ١٢٨٥
هنري الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٨٦ - ١٢٩١

(٧) أمراء أنطاكية التورمان

بوهيموند الأول	١٠٩٨ - ١١٠٤
تانكرد	١١٠٤ - ١١١٢
روجر دي سالرنو	١١١٢ - ١١١٩
بوهيموند الثاني	١١٢٦ - ١١٣٠
ريموند أف بواتييه	١١٣٦ - ١١٤٩
رينـــو أف شاتيون (أرناط)	١١٥٣ - ١١٥٦٠
بوهيموند الثالث	١١٦٣ - ١٢٠١
بوهيموند الرابع	١٢٠١ - ١٢١٦
ريموند روبان	١٢١٦ - ١٢١٩
بوهيموند الرابع (مرة ثانية)	١٢١٩ - ١٢٣٣
بوهيموند الخامس	١٢٣٣ - ١٢٥١
بوهيموند السادس	١٢٥١ - ١٢٦٨

(٨) أمراء طرابلس

ريموند الأول (الصنجيل)	١١٠٢ - ١١٠٥
وليم جوردان	١١٠٥ - ١١٠٨
برتراند	١١٠٨ - ١١١٣
بونز	١١١٣ - ١١٢٧
ريموند الثاني	١١٢٧ - ١١٥٢
ريموند الثالث	١١٥٢ - ١١٨٧
بوهيموند الرابع (+ أنطاكية)	١١٨٧ - ١٢٣٣

بوهيموند الخامس (+ أنطاكية) ١٢٣٣ ـ ١٢٥١

بوهيموند السادس (+ أنطاكية) ١٢٥١ ـ ١٢٧٥

بوهيموند السابع ١٢٧٥ ـ ١٢٨٧

(٩) أمراء أرمينية الصغرى

روبان الأول + ١٠٩٠

قسطنطين الأول + ١١٠٠

ثوروس الأول ١١٠٠ ـ ١١٢٩

ليون الأول ١١٢٩ ـ ١١٣٦

ثوروس الثاني ١١٤٤ ـ ١١٦٧

روبان الثاني (تحت الوصاية) + ١١٧٠

ملـح ١١٧٠ ـ ١١٧٥

روبان الثالث ١١٧٥ ـ ١١٨٧

ليون الثاني ١١٨٧ ـ ١٢١٩

(تزوجت إيزابيل ابنة ليون الثاني من هيثوم لامبرون الذي أصبح ملكاً على أرمينية الصغرى)

(١٠) ملوك أرمينية الصغرى

هيثوم الأول ١٢٢٩ ـ ١٢٦٩

ليون الثالث ١٢٧٠ ـ ١٢٨٩

هيثوم الثاني ١٢٨٩ ـ ١٢٩٣

ثوروس الثالث ١٢٩٣ ـ ١٢٩٤

هيثوم الثاني (مرة أخرى) ١٢٩٤ ـ ١٢٩٦

سمباد ١٢٩٧ ـ ١٢٩٨

قسطنطين الأول ١٢٩٨ ـ ١٢٩٩

هيثوم الثاني (مرة ثالثة) ١٢٩٩ ـ ١٣٠٥

ليون الرابع	١٣٠٥ - ١٣٠٨
اوشين	١٣٠٨ - ١٣٢٠
ليون الخامس	١٣٢٠ - ١٣٤١
جاي دي لوزجنان	١٣٤٢ - ١٣٤٥
ليون السادس	١٣٧٤ - ١٣٧٥

(١١) أباطرة الدولة البيزنطية منذ الحركة الصليبية

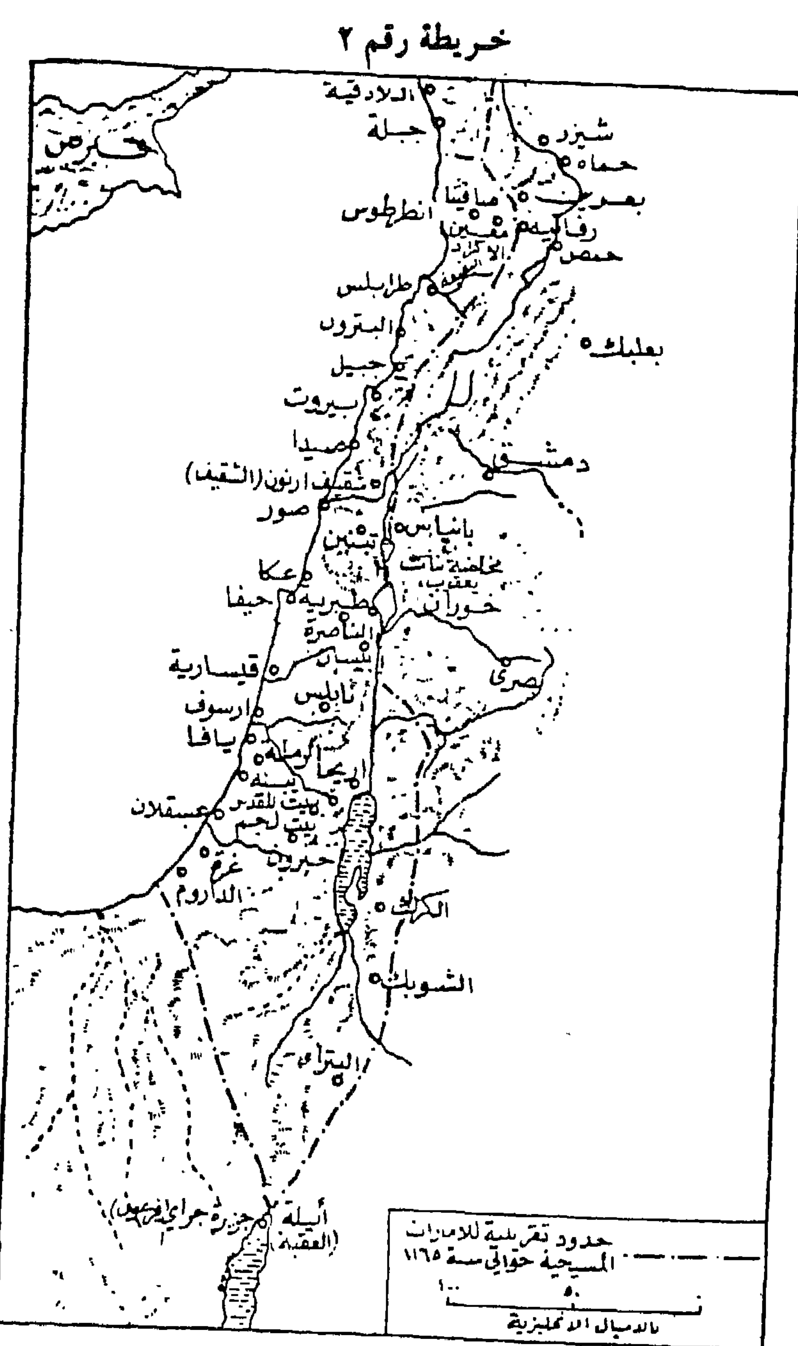
الكسيوس الأول كومنين	١٠٨١ - ١١١٨
حنا الثاني كومنين	١١١٨ - ١١٤٣
مانويل الأول كومنين	١١٤٣ - ١١٨٠
الكسيوس الثاني كومنين	١١٨٠ - ١١٨٣
اندرونيق الأول كومنين	١١٨٣ - ١١٨٥
إسحق الثاني أنجيلوس	١١٨٥ - ١١٩٥
الكسيوس الثالث انجيلوس	١١٩٥ - ١٢٠٣
إسحق الثاني + الكسيوس الرابع	١٢٠٣ - ١٢٠٤
الكسيوس الخامس	١٢٠٤
تيودور الأول لاسكارس	١٢٠٤ - ١٢٢٢
حنا الثالث دوقاس	١٢٢٢ - ١٢٥٤
تيودور الثاني لاسكارس	١٢٥٤ - ١٢٥٨
حنا الرابع لاسكارس	١٢٥٨ - ١٢٦١
ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٩ - ١٢٨٢
أندرونيق الثاني باليولوجس	١٢٨٢ - ١٣٢٨
أندرونيق الثالث باليولوجس	١٣٢٨ - ١٣٤١
حنا الخامس باليولوجس	١٣٤١ - ١٣٩١
حنا السادس	١٣٤٧ - ١٣٥٤

حنا السابع	١٣٩٠
مانويل الثاني باليولوجس	١٣٩١ ـ ١٤٢٥
حنا الثامن باليولوجس	١٤٢٥ ـ ١٤٤٨
قسطنطين الحادي عشر باليولوجس	١٤٤٩ ـ ١٤٥٣

خريطة رقم ١

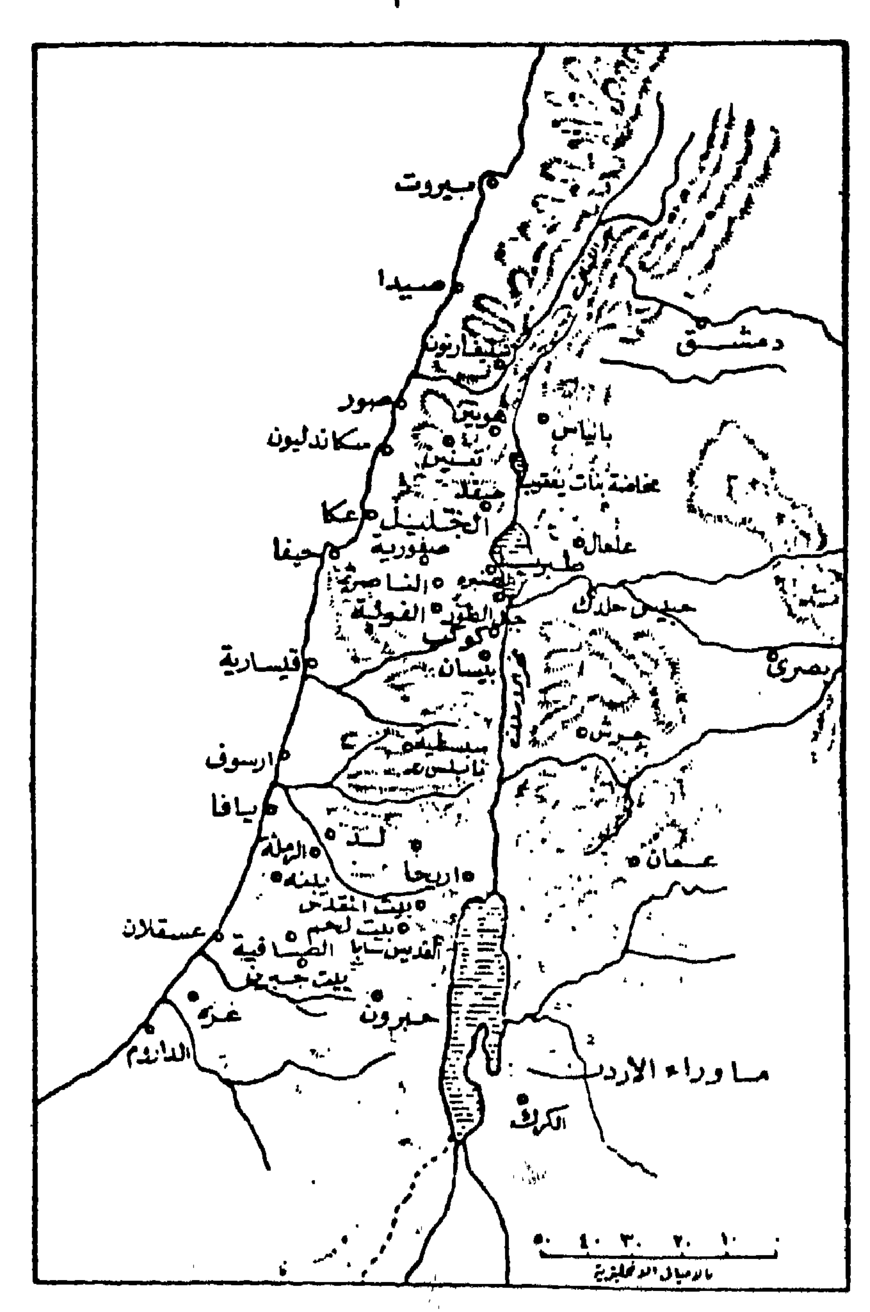
١ ـ شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

خريطة رقم ٢



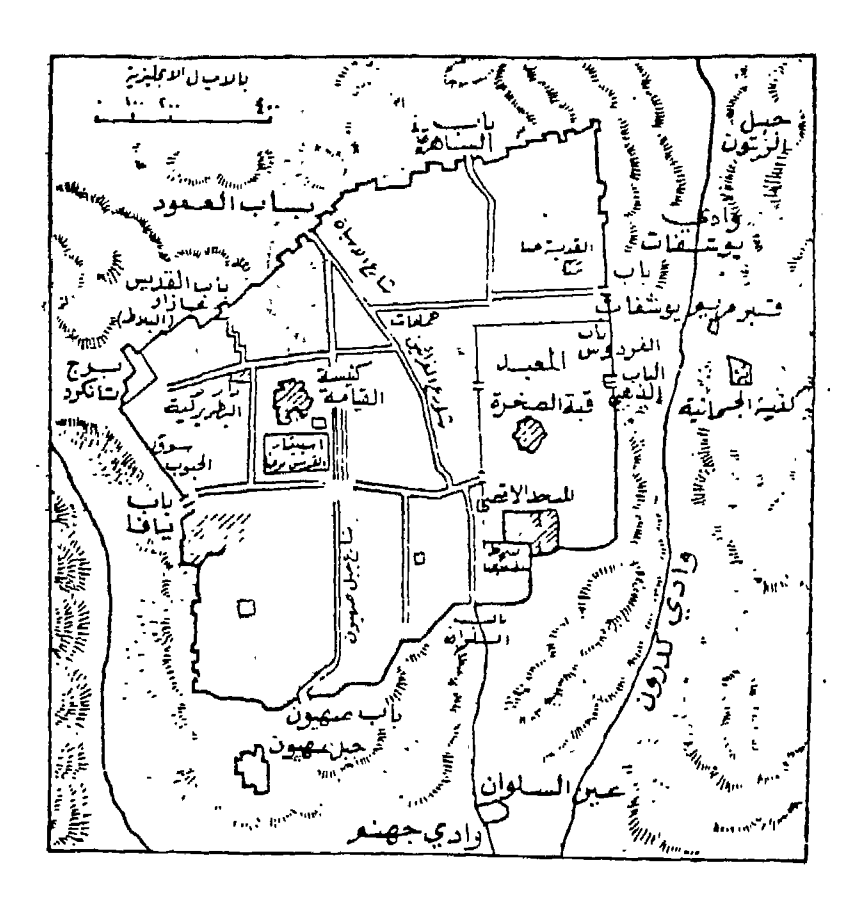
٢ ـ جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

خريطة رقم ٣



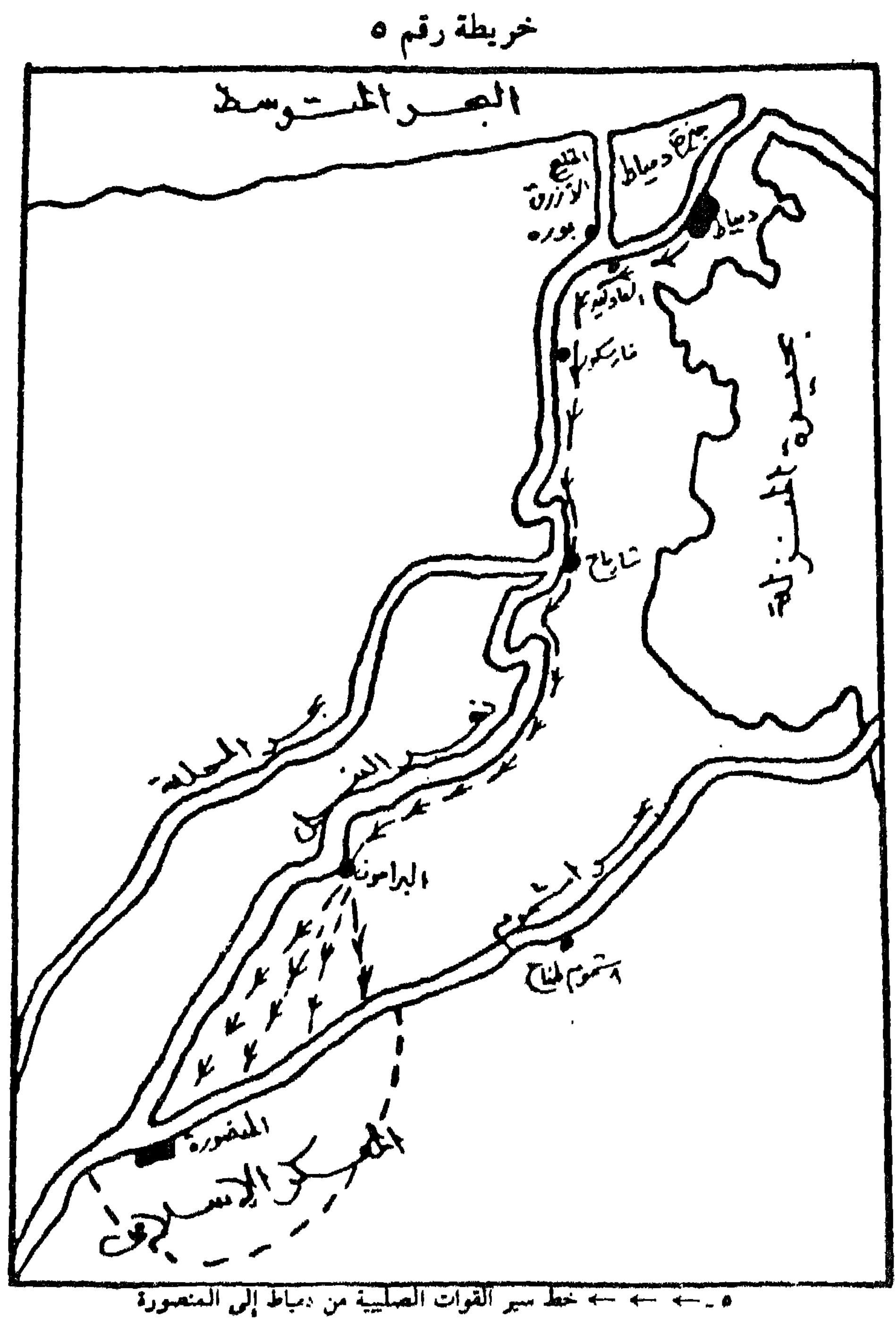
٣ ـ مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

خريطة رقم ٤



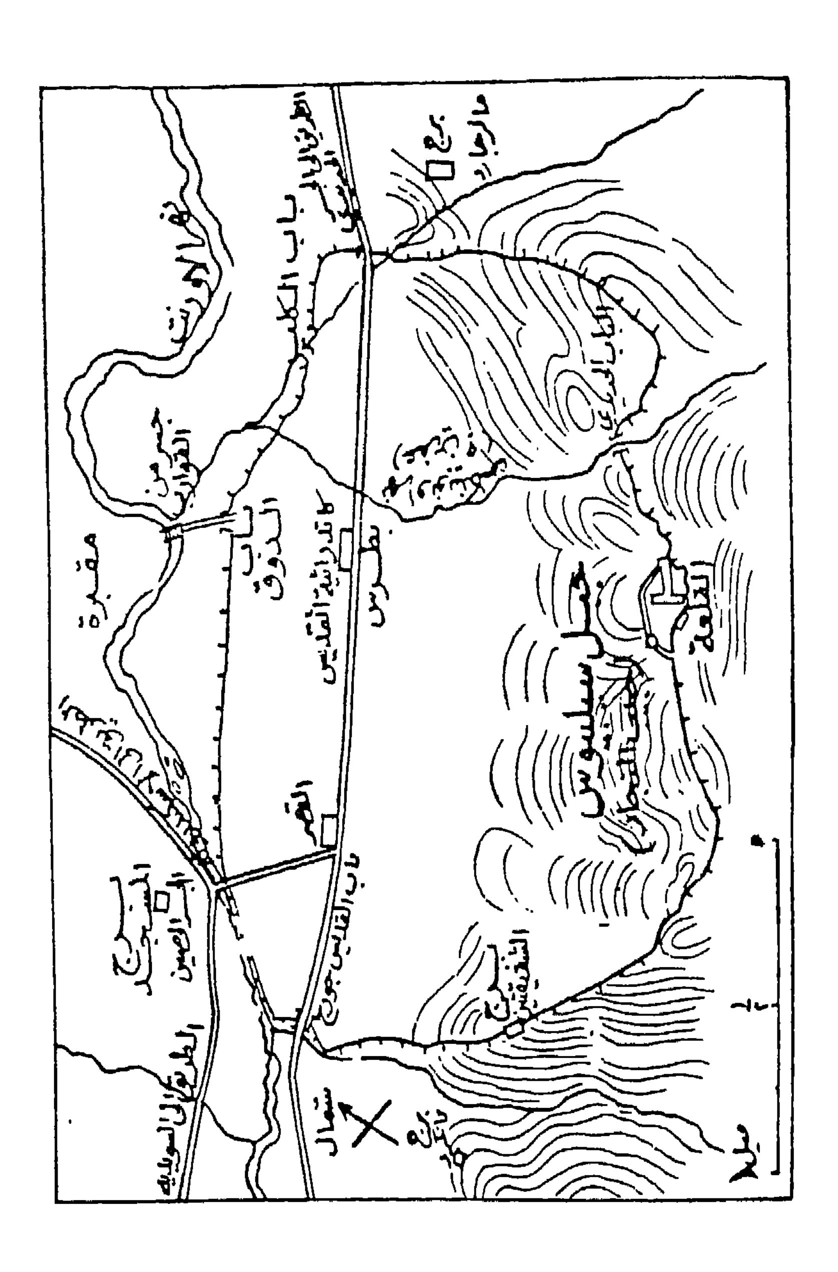
٤ ـ بيت المقدس زمن ملوك اللاتين

خريطة رقم ٥



٥ ـ ← ← ← خط سير القوات الصليبية من دمياط إلى المنصورة
(إبتداء من (١٧ يوليو ١٢٢١م/٢٥ جمادى الثاني ٦١٨ هـ)

خريطة رقم ٦



٦ ـ انطاكية

المصادر الأجنبية

أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس - ترجمة وقدم له وعلق عليه الدكتور حسن حبشي - القاهرة دار الفكر العربي ١٩٨٥ .

Annales de terrr Sainte, cf. A.O.L, tome 11. Paris, 1884. (pp. 429 – 461).

Burchard of Mount Sion,

A Descrisption of The Holy Land, tran. from The Original Latin by Aubrey Stewart,London, 1896.

Devizes, Richard

of, & Vinsauf,Geoffrey de,Crusade of Richard Coeur de Lion-,tan. by Colondo Johnes Hofod. Chronicles of the Crusades Bohn's ed.London,1848 (pp. 2 — 339).

Eracles,

L'Estoire de Eracles Empereur et la Conquette de la Terre d'Outreier, cf. R. H. C — H. Occ,t, 11,2e. partie,paris. 1859. (pp. 1 — 481).

Fabri,Felix

The Book of Wandering (148? — 1483),2 Vol, 4 parts. tran— by Aubrey Stewart London, 1893.

Joinville, Jean Sire de,

Memoirs of Louis IX. King of France (commonly caled Saint Louis), tran. by Colonel johes of Hafod, cf, Chronicles, of The Crusads. Bohn's ed. London 1818. (pp. 341 — 556).

Ludolph von Suchei,

Description of The holy Land, tran.by Aubrey Stewart, London, 1895.

Matthew of Westminster,

The Flowers of History, tran. by C. D. Yonge, 2 Vol London, 1853.

Matthew Paris,

English History from The Year 1273, tran. from The Latin by J. A. Giles 2 Vols. London, 1852 — 3.

Marino Sanuto,

Secrets for True Crusaders trn. by Aubrey Stewart. London, 1896—

Oliver of Podenborn. (Scolastiqus)

The Capture of Damietta tran. John J. Cavigan, Philadelphia, 1948.

Oliver Scolastiqus,

1 — Lettre a Fngelbert, Archeveque de Cologne, cf. Bongars, G. D. F. Hannover, 1611. (pp. 1185 — 1192). 2 — Letter to The King of Egypt, El—Kamel Mohamed (1218 — 1238), ch. Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem (1100 — 1291), Innsbruck, 1898. (p. 753).

Roger of Wendover,

Flowers of History 2 Vol, tran. froı The Latin by J: A. Gilles. London, 1849.

Vitry, Jacques de,

The History of Jerusalem, tran. from The Original Latin by Aubrey stewart, London, 1896.

William Archbishap of Tyre,

A History of Deeds Done Beyond The Sea, 2 Vol. tran. & annotated by Emily Atwater Babcock & A. C Krey. New — York 1943.

المخطوطات

ابن أبي السرور (ت ١٠٢٨ / ١٦١٩ م) محمد بن أبي السرور زين الدين البكري:

«النزهة الزهية في ذكر ولاء مصر والقاهرة المعزية» ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٢٦٦ تاريخ.

ابن أبيك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله:

(١) ـ «دور التيجان وغرر تواريخ الأزمان» ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٤٠٩ تاريخ.

(٢) ـ «كنز الدرر وجامع الغرر» ـ ٩ جـ ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٦٤٣ تاريخ.

ابن بهادر (عاش في القرن التاسع هـ الخامس عشر م) محمد بن محمد بن بهادر:

«فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر» ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ٤١١٧ تاريخ.

ابن حبيب الحلبي (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) بدر الدين أبو محمد الجسن بن عمر:

«جهينة الأخبار في أسماء الخلفاء وملوك الأمصار» ـ دار الكتب المصرية ـ رقم ١٦١٠ تاريخ.

إبن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين إبراهيم بن محمد بن إيدمر العلائي:

«الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين» - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٢٢ تاريخ.

إبن رسول (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م) عباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر:

«نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون» - مجلدان - دار الكتب المصرية - رقم ٤٩٦٤ تاريخ.

إبن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات:

«تاريخ الدول والملوك» - ١٨ جـ - دار الكتب المصرية - رقم ٣١٩٧ تاريخ. «تصوير شمس».

إبن واصل (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم:

«تاريخ الواصلين» ٢ جـ - دار الكتب المصرية - رقم ٥٣١٩. تاريخ «تصوير شمس».

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين:

«التبر المسبوك في تواريخ أكابر الملوك - دار الكتب المصرية - ميكروفيلم رقم ١٥٦٧ عن النسخة رقم ٢٠١٨ تاريخ.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي:

(١) - «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» ٥ جـ - دار الكتب المصرية رقم ٢٣٥٥ تاريخ.

(٢) - «مورد اللطافة فيمن ولو السلطنة والخلافة» - دار الكتب المصرية - رقم ١٣٥٦ تاريخ.

بـامخرمـة (عاش في القـرن العاشـر هـ / السـادس عشـر م) أبـو محمـد بن عبد الله بن أحمد بن علي:

«قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر» - ٦ جـ دار الكتب المصرية رقم ٤٤١٠ تاريخ.

البغدادي (ت ١١٠٢ هـ / ١٩٦٠ م) أحمد بن عبد الله:

«عيون أخبار الأعيان ممن مضى من سالف العصر والأزمان» - مجلدان - دار الكتب المصرية - رقم ٣٨١٠ تاريخ. «تصوير شمس».

السلامى (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد:

«مختصر التواريخ» دار الكتب المصرية - رقم ١٤٣٥ تاريخ.

العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) بدر الدين:

«عقد الجمان في تـاريخ أهـل الزمـان» - ٢٣ جـ في ٦٩ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ١٥٨٤ تاريخ «تصوير شمس».

مرعى المقدسي (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٤ م) مرعى بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد:

«نزهة الناظرين في تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين» - دار الكتب المصرية - رقم ٢٠٧٦ تاريخ.

مؤلف جمهول:

«كتاب في التاريخ لم يعلم مؤلفه - دار الكتب المصرية - رقم ٤٠٣٠ تاريخ.

النويرى الكندى (ت ٧٣١ هـ / ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد:

«نهاية الأرب في فنون الأدب» - ٥٥ مجلدا - دار الكتب المصرية - رقم ٥٤٩ معارف عامة «تصوير شمسي».

اليونينى (ت ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) موسى بن محمد أحمد قطب الدين:

«ذيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» - جـ ١٥ و ١٧ - دار الكتب المصرية - رقم ١٥١٦ تاريخ.

المصادر العربية

إبن الأثير الجزري (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) أبو الحسن علي بن أبي الكرم الملقب عز الدين:

«الكامل في التاريخ - ١٢ جـ في ٢ب مجلد - ليدن ١٨٥٣ م».

إبن بطوطة (ت ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله:

«مهذب رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار» - ٢جـ القاهرة (بولاق) ١٩٣٤ - ١٩٣٧ م.

إبن جبير (ت ٦١٤ هـ / ٩١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي:

«رحلة ابن جبير» - الطبعة الأولى - القاهرة - (مطبعة السعادة) ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م.

إبن الجوزي (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) أبو المظفر شمس الدين:

«مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» - المجلد الثامن - ق ١، ٢ - حيدر أباد - ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م.

إبن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد:

«العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» - ٧ جـ - القاهرة (بولاق) ١٢٨٤ هـ.

إبن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم:

«وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» - ٢ جـ القاهرة (بولاق) ١٢٧٥ هـ

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة.

«سيرة صلاح الدين الأيوبي المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٦٤ م.

ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٤ م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي:

«تاريخ إبن الفرات» - المجلد الرابع جـ١، ٢ والمجلد الخامس جـ ١ - عني بتحرير نصه ونشره الدكتور حسن محمد الشماع - البصرة (مطبعة حداد) ١٩٦٧ - ١٩٧٠ م.

ابن القلانسي (ت ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي ابن محمد:

«تاريخ أبو يعلى حمزة بن القلانسي، المعروف بذيل تاريخ دمشق» - بيروت (مطبعة الأباء اليسوعيين) ١٩٠٨ م.

ابن ميسر (ت ٦٧٧ هـ ١٢٧٨ م) محمد بن علي بن يوسف بن جلب:

«أخبار مصر» - ٢ جـ نشر هنري ماسيه - القاهرة (مطبعة المعهد العلمي الفرنسي) ١٩١٩ م.

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم.

«مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» - ٤ جـ ١، ٢، ٣ تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة - ١٩٦٠ م جـ ٤ تحقيق الدكتور حسنين محمد ربيع - القاهرة (دار الكتب) ١٩٧٢.

ابن الوردي (٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر:

«تتمة المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ إبن الوردي» جـ ٢ - القاهرة (المطبعة الوهبية) ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م.

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين:

(١) «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» - جزءان في مجلد واحد - القاهرة (مطبعة وادي النيل) ١٢٨٧ - ١٢٨٨ هـ.

(٢) «تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين نشره السيد عزت العطار الحسيني - الطبعة الأولى - القاهرة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م.

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل إبن علي:

(١) «المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفداء» - ٤ جـ استانة (دار الطباعة الشاهانية) ١٢٨٦ هـ.

أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى وبردى:

«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» - ٩ جـ القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٤٨ - ١٣٦١ هـ / ١٩٢٩ - ١٩٤٢ م.

البدري الدمشقي (عاش في القرن التاسع هـ /الخامس عشر م.) عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي المعروف بأبي البقاء:

«نزهة الأنام في محاسن الشام» - القاهرة (المطبعة السلفية) ١٣٤١ هـ.

بنيامين التطيلي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م) بنيامين بن يونة التطيلى النباري الأندلسي:

«رحلة بنيامين» - ترجمتها عن الأصل العبري وعلق على حواشيها وكتب ملحقاتها عزرا حددا - الطبعة الأولى - بغداد (الطبعة الشرقية) ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م.

الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ /١٢٠١ م) عماد الدين محمد بن محمد بن حامد:

«الفتح القسي في الفتح القدسي» - تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح - القاهرة (الدار القومية للطباعة والنشر) ١٩٦٥ م.

القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن علي بن أحمد عبد الله:

«صبح الأعشى في صناعة الأنشا» - ١٤ جـ القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٠ / ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ.

المقريزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقي الدين أبو العباس أحمد:

(١) «المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار» - ٤ جـ القاهرة (مطبعة النيل) ١٣٢٤ - ١٣٢٦ هـ.

(٢) «السلوك لمعرفة دول الملوك» - الجزءان الأول والثاني إلى سنة ٧٤١ هـ - نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٣٤ - ١٩٤٢ م.

(٣) «إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» - نشر وتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال - القاهرة ١٩٤٨ م.

(٤) «إغاثة الأمة بكشف الغمه» - نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال - القاهرة (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر) ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م.

L'Histoire des Patriarches d Alexandria, extraits tran. Blochet. cf. R. O. L. Vol. XI. Paris. 1908 (pp. 240 — 260).

ياقوت الرومي الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملقب شهاب الدين:

«معجم البلدان» - ٥ جـ وفهرس - ليزج ١٨٩٠ م.

المراجع الأجنبية

Archer, T.A & Kingsford, C.L.,

The Crusade: The Story of The Latin Kingfom of Jerusalem: London. 1894.

Atiya, A. S.,

The Crusade in The Later Middle Ages. London. 1938.

Barker, E.

The Crusades. London, 1925.

Bray, A.,

The Good St. Lpuis and his Times. London. 1870.

Cahen, C.,

La Syrie du Nord. Paris, 1940.

Gampbell, G.,

The Crusades. London, 1935.

Chalondon F.,

Histoire de La Preiiere Croisade Jusa'a L'election de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Conder, C. R.

The Latin Kingdonm of Jersualem. 1009 — 1291 A. D London, 1897.

Delaville Le Roulx, J.

Les Hospitoliers en Terre Sainte et a Chypre)1100 — 1310(

Paris. 1904.

Donovan, J. P.

Pelaguis and The Fifth Crusade. Philadephia, 1950.

Duggan, A.

The Story of The Crusades 1097 — 1291. London, 1963.

Grousset, R.

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem. 3

Vol. Paris, 1936.

Heyd. W.

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age. 2 Vol Leipzig,

1885 — 1886.

Jnllien. C. P.

Note sur L'Emplacement de L'Amcienne Damietten cf. Bulletin

de Institut Egyptien Caire, 1887. (pp 72 — 77).

Kantorowicz, E. Frederick the Second, London, 1913.

King E.,

The Knights Hospitallers in The Holy Land. London, 1931.

Lacroix,P.

(1) Vie Molitaire et Religieuse au Moyen Age et a L'Epoqune de

la Renaissance. 2e. ed, Paris, 1873.

(2) La Chevalerie et Les Croisades Feodalite, Blason, Ordres Mili-

taires. Paris, 1887.

Lamb, H.

The Crusades: The Flame of Islam. London, 1931.

La — Monte, J.

The World of The Middle Ages. New — York. 1949.

Lane — Poole, St.

(1) A History of Egypt in The Middle Ages. 4th. ed, London, 1925.

(1) The Story of Cairo. London, 1902.

Maimbourg,P.

Histoire Universelle des Croisades d'apres Les Principaux Historiens. Parisn 1868.

Mas Latrie, M. L. de.

Histoire de L'ile de Chypre sous Le Regne des Princes de La Maison de Lusignan. 3. Vol Paris, 1861.

Michaud, M.

History of The Crusades, tran, from The French, by W. Robson in 3 Vol, London, 1852.

Oman. C.

A Aistory of The Art of War in The Middle Ages, 2 Vol 2nd. ed. Revised and Englared London, 1924.

Omar Tousson.

Memoire sur L'Histoire du Nil. 3t Le Caire, 1925.

Rohricht, R.

1- Beitiage zur Geschichte der Kreuzzuge. Berlin, 1874.

2 - Funften Kreuzzuges. Innbruck, 1891.

3 — Geschichte des Konigreichs Jerusalem (1100 — 1291) Innsbruck, 1998.

4 — Geschichte de Kreuzzuge in Umriss. Innsbruc, 1898

Runciman, S.

1 — A Story of The Crusades. 3 Vol. Cambridge, 1954.

Schlumberger, G.

Camiagnes du Roi Amaury I de Jerusalem en Egyptem Paris 1906.

Setton, K. M (ed).

A History of The Grusades 2 Vik Oennsylvania, 1958 — 1952.

Smail, R.

Crusading Warfare (1097 — 1193). Chambridge, 1956.

Stevenson, W.

The Crusoders in The Eost. Cambridge, 1907.

Woodhouse, F.

The Military Religious Orders of The Middle Ages.

The Hospitallers, The Teemplars. The Teutonic Knights, and Others.

London 1878.

المراجع العربية والمعربة

أحمد شلبي (دكتور):

الحروب الصليبية «إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب» القاهرة (المجلس الأعلى للشؤن الإسلامية) ١٩٦٦ .

أحمد مختار العبادي (دكتور) . السيد عبد العزيز سالم (دكتور) .

تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام - جامعة بيروت العربية ١٩٧٢ .

السيد الباز العريني (دكتور):

١ - مصر في عصر الأيوبيين - القاهرة (مطبعة الكيلاني الصغير) ١٩٦٠ .

٢ - مؤرخو الحروب الصليبية - القاهرة ١٩٦٢ .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور)، أحمد مختار العبادي (دكتور):

تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس - بيروت (دار النهضة) ١٩٦٩ .

أرنولد (سير توماس):

الدعوة إلى الإسلام - ترجمة إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوي - القاهرة (مطبعة الشبكشي بالأزهر) ١٩٤٧ .

أوميرتو ريتزيتانو:

صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثاني النورماندي وصلاح الدين

الأيـوبي ـ مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية (المجلد٥) ١٩٤٩ ص ٤٧ ـ ٥٨ .

جمال الدين الشيال (دكتور):

١ ـ مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ـ الإسكندرية (مطبعة مدرسة دون بوسكو) ١٩٤٩ .

٢ ـ تاريخ مصر الإسلامية ـ ٢ جـ الإسكندرية (دار المعارف).

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية:

بحوث في التاريخ الإقتصادي ـ ترجمة توفيق إسكندر ـ القاهرة (مطابع دار النشر للجامعات المصرية) ١٩٦١ .

جوزيف جاي ديس:

الزنديق الأعظم «قصته وسيرته» ترجمة أحمد نجيب هاشم ـ القاهرة (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر) (د. ت).

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

١ ـ العدوان الصليبي على مصر «هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور الطبعة الأولى ـ الإسكندرية (دار الكتب الجامعية ١٩٦٩).

٢ ـ العدوان الصليبي على بلاد الشام «هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة» ـ الطبعة الثالثة ـ الإسكندرية (دار الكتب الجامعية) ١٩٧١ .

جيمس دوورثي:

الماجنا كارتا«العهد الأعظم» ترجمة مصطفى طه حبيب ـ القاهرة (مكتبة الأنجلو المصرية) ١٩٦٥ .

حسن إبراهيم حسن (دكتور):

١ ـ إنتشار الإسلام بين المغول والتتار ـ القاهرة ١٩٣٣ .

٢ ـ تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة (مكتبة النهضة) ١٩٦٤ .

حسن حبشي (دكتور):

١ ـ الحروب الصليبية الأولى ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة (مطبعة الإعتماد) ١٩٤٧ .

٢ ـ نور الدين والصليبيون «حركة الأفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادي الهجري ـ القاهرة (دار الفكر العربي) ١٩٤٨ .

٣ ـ الشرق العربي بين شقي الرحى «حملة القديس لويس على مصر والشام» ـ القاهرة ١٩٤٩ .

حسنين محمد ربيع (دكتور):

النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ـ القاهرة (مطبعة جامعة القاهرة)١٩٦٤ .

سعاد ماهر (دكتوره):

١ ـ البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية ـ القاهرة ١٩٦٧ .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور):

١ ـ قبرس والحروب الصليبية ـ القاهرة (مكتبة النهضة المصرية) ١٩٥٧ :

٢ ـ الحركة الصليبية «صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى» ٢ جـ طبعة أولى ـ القاهرة (مكتبة الأنجلوا المصرية) ١٩٦٣ .

٤ ـ العصر المملوكي في مصر والشام ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة (دار النهضة العربية) ١٩٦٥ .

عبد الرحمن زكي (دكتور):

معارك حاسمة في تاريخ مصر ـ القاهرة (مطبة النيل) ١٩٤٥ .

سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتها في الإسلام ـ القاهرة (مطبعة الهلال) بالفجالة بمصر ١٩١٤ .

عمر كمال توفيق (دكتور):

١ ـ مملكة بيت المقدس الصليبية ـ الإسكندرية مطبعة (رويال) ١٩٥٨ .

٤ ـ المؤرخ وليم الصوري ـ مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية (العدد ٢١ لسنة ١٩٦٧) ـ مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٦٨ ص ١٨١ ـ ٢٠٠ .

فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور):

المغول في التاريخ ـ جـ ١ ـ بيروت (دار النهضة العربية) ١٩٨٠ .

محمد محمد مرسي الشيخ (دكتور):

الجهاد المقدس ضد الصليبين حتى سقوط الرها ١٠٩٧م ـ ١١٤٤م ـ الإسكندرية ١٩٧٢ .

محمد مصطفى زيادة (دكتور):

حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ـ القاهرة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٦١ .

محمود سعيد عمران (دكتور):

١ ـ الحملة الصليبية الخامسة ـ دار المعارف بالإسكندرية ـ ١٩٨٥ .

٢ ـ السياسية الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ـ دار المعارف بالإسكندرية ١٩٨٥ .

ميخائيل عواد:

المآصر في بلاد الروم والإسلام ـ بغداد (مطبعة المعارف) ١٩٤٨ .

نعيم زكي فهمي (دكتور):

دور اليهود في تجارة العصور الوسطى بين الشرق والغرب ـ طبعة أولى ـ القاهرة (مطابع سجل العرب) ١٩٧١ .

ول ديورانت:

قصة الحضارة جزء ٤ من المجلد ٤ ترجمة محمد بدران ـ جامعة الدول العربية ١٩٥٧ .

لي سترانج:

فلسطين في العصر الإسلامي ـ ترجمة محمود عمايري ـ الطبعة الأولى ـ عمان ١٩٧٠ .

للمؤلف

الكتب

١ ـ الحملة الصليبية الخامسة: طبعة اولى الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ اسكندرية ١٩٧٨.

٢ ـ الحملة الصليبية الخامسة: طبعة ثانية دار المعارف ـ اسكندرية ١٩٨٥.

٣ ـ ادارة الامبراطورية البيزنطية: دار النهضة بيروت ١٩٨٠

٤ ـ معالم تاريخ الامبراطورية البيزنطية: دار النهضة بيروت ١٩٨١.

٥ ـ معالم تاريخ اوروبا في العصور الوسطى: دار النهضة بيروت ١٩٨٢.

٦ ـ مملكة الوندال في شمال افريقيا: دار المعارف اسكندرية ١٩٨٥.

٧ ـ السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية: دار المعارف ـ اسكندرية ١٩٨٥.

٨ ـ القادة الصليبيون الاسرى في أيدي الحكام المسلمين: دار النهضة بير. ١٩٨٦.

كتيبات:

٩ ـ نيقولا مستيقوس وعلاقة الامبراطورية البيزنطية بالقوى الاسلامية: دار النهضة ـ بيروت ١٩٨٠.

١٠ ـ الم خ جريجوري التورى: منشورات جامعة بيروت العربية ١٩٨٠.

بحوث ومقالات:

١١ ـ الامبراطور رومانوس الرابع: بحث منشور في مجلة كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية ٨٢/١٩٨٣.

١٢ ـ اركولف ورحلته الى الشرق: بحث منشور في ندوة التاريخ الاسلامي والوسيط بجامعة عين شمس (المجلد الثالث عشر دار المعارف ١٩٨٥).

١٣ ـ كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين: بحث منشور في اعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام الاردن ـ عمان ١٩٨٧.

١٤ ـ صلاح الدين من الاسكندرية الى حطين: بحث في المؤتمر الدولي لذكرى ٨٠٠ عام على معركة حطين ـ بغداد ١٩٨٧.

١٥ ـ السمراء والقناصل في عصر الحروب الصليبية: بحث القى في الموسم الثقافي ٨٧/٨٨ بجامعة بيروت العربية.

١٦ - King Amalric and the Siege of Alexandria 1167 in Crusade and Settlement. Cardiff 1983.

١٧ - Holy Land left in Peace 1196 — 1217.

١٨ - Capture of Damietta 1219.

١٩ - 1221, Crusaders sue for Peace, return Damietta. and leave.
والمقالات الثلاثة الأخيرة منشورة في the Crusaders Chronicles. London 1990.

شكر

عظيم شكري وتقديري لادارة
دار المعرفة الجامعية
وجميع العاملين بالمطبعة الذين
ساهموا في اخراج هذا الكتاب.









